

الكتاب
المجلد الثالث



THE WITCHER

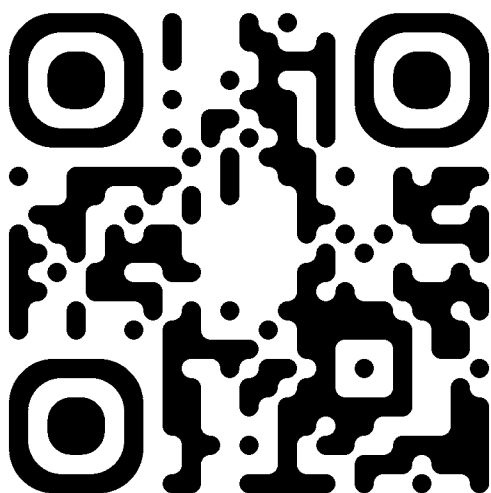
BLOOD OF ELVES

أنجي سايكوفسكي

ترجمة: د. يوسف شادة



مكتبة



سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR

3

الكتاب

الكتاب



للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email: P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● ترجمة: د. يوسف شحادة

● تحرير: مصطفى رزق

● تدقيق لغوي: كارم أحمد

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● رقم الإيداع: 17850/2024م

● الترميم الدولي: 3-411-992-977-978

● العنوان الأصلي: Krew elfów

● العنوان العربي: الويتشر، دماء الإلفيين

● حقوق النشر:

Copyright by Andrzej Sapkowski,
Warszawa 1994

Published by arrangement with
Patricia Pasqualini Literary Agency

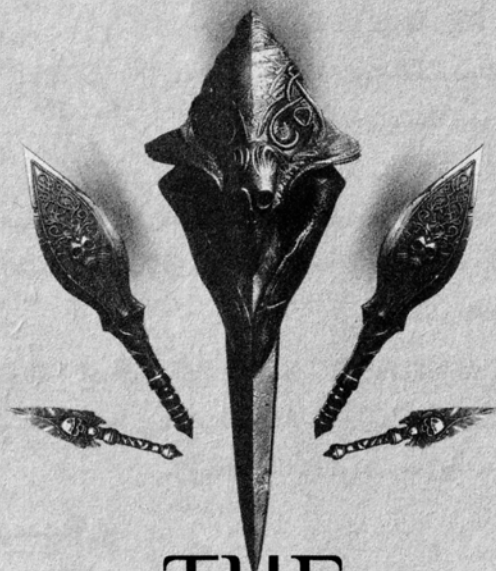
● الطبعة الأولى: سبتمبر / 2024م

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

مكتبة

t.me/soramnqraa

الروحانيون من العنقاء



THE WITCHER

BLOOD OF ELVES

أندجي سابكوفسكي

ترجمة: د. يوسف شادة

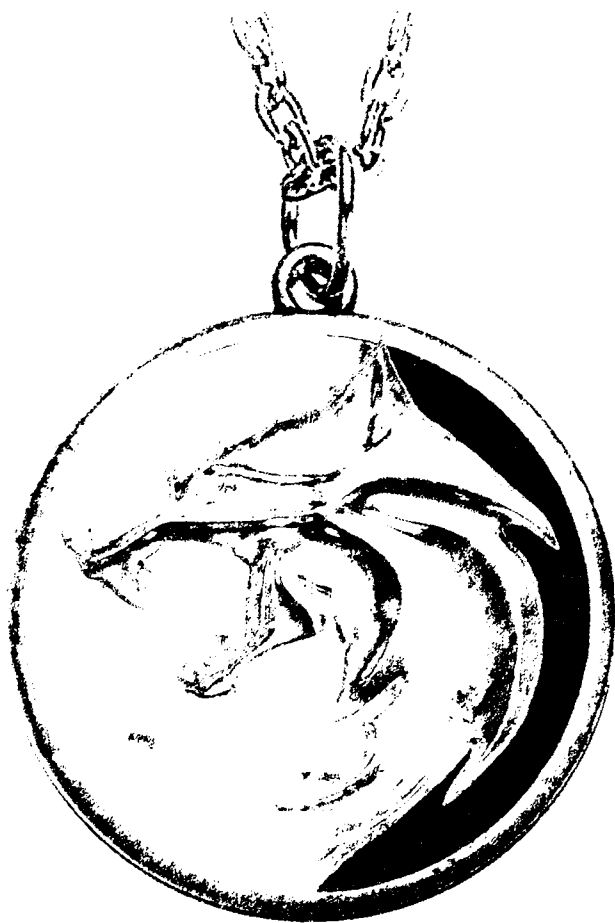


الحق أقول لكم، ها هو زمن السيف والفأس قادم، زمن عاصفة الذئب الثلجية. قادم زمن **البرد الأبيض، والضوء الأبيض**، زمن الجنون وزمن الازدراء، **تيد ديرياذ**، زمن النهاية. سوف يموت العالم في خضم الصقيع، وسيقوم حيًا مع الشمس الجديدة. وسينبعث من جديد من الدم الأعْتَق، من هين إيشاير، من البذرة المزروعة. البذرة التي لن تنبت، بل التي ستشتعل باللهب.

Ess'tuath esse! هكذا سيكون الأمر! راقبوا العلامات! سأقول لكم ما تكون تلك العلامات؛ في البداية ستسيل الأرض بدم آين سيدهي، ودماء الإلفيين...

آين إثلينسبيث،

نبوءة إثلين آيجلي أيب آيفينين



الفصل الأول

كانت المدينة تحترق.

فاحت الأزقة الضيقة المؤدية إلى الخندق، وإلى الشرفة الأولى، برائحة الدخان والجمر، والتهمت السنة اللهب أسطح المنازل المزدحمة، لاعة جدران القصر. ومن جهة الغرب، من ناحية بوابة الميناء، اشتد صخب متصاعد، أصوات جوفاء لقتال عنيف، ولضربات المدق التي هزت السور.

طوّقهم المهاجمون على حين غرة، وقد حطموا المتراس الذي كان يدافع عنه عدد قليل من الجنود وسكان البلدة بالمطارِد، ومعهم من النقابة رماة القسيّ المستعرضة.

فوق الحاجز، وكالأشباح، طارت الخيول، المغطاة بمقارِش الرخت⁽¹⁾ السود، وكانت شفرات السيوف الناصعة والبارقة تبذر الموت بين المدافعين الآخذين بالفرار.

أحسّت سيري بالفارس الذي كان ينقلها راكبةً على قوس السرج، وهو يحثُّ الفرس بعنف. سمعتُ صراخه. تمسكي، صرخ. تمسكي!

تجاوزهم فرسان آخرون يرتدون زيّاً بألوان سينترا، وفي اندفاعهم تضاربوا بالسيوف مع النيلفجارديين. رأّت سيري ذلك خلال لحظة، بطرف

(1) الرُخت: غطاء من القماش يوضع فوق حصان أو حيوان آخر للحماية والتزيين. هذا التوضيح وما يليه من شروح في الهوامش من لدن المترجم.

عينها: زوبعة جنوبية لمعاطف زرق ذهبية وسود وسط قعقة الفولاذ، وصليل
النصال على التروس، وصهيل الخيول...
صراخ. لا، ليس صراخًا، بل صخب.
تمسكي!

خوف. كل ارتجاج، كل هزة، كل وثبة حصان تؤذي الكفين الضاغطين
على الحزام. الساقان المتشنجتان تتشنجان مؤلمًا لا تجدان مسندًا، والعينان
تدمعان من الدخان. الذراع التي تطوقها تخنقها وتكتم أنفاسها وتضغط بقوة
موجعة. يتصاعد من كل جهة صراخ لم تسمع مثله قط من قبل. ماذا يجب أن
يفعل بالرجل حتى يصرخ هكذا؟

الخوف، الخوف الذي يبطل الحركة ويشل ويخنق.

من جديد، قعقة الحديد، وشخير الخيل. المنازل تتراقص في كل الجهات،
وفجأة تظهر النوافذ المشتعلة بالنار، حيث كان قبل لحظات زقاق موحل
غاص بالجثث، ممتلئ بممتلكات الفارين المتروكة. الفارس الذي كان خلفها
سعل سعالًا أجش وغريبًا. ونزَّ الدم متدفقًا على اليدين المتشبثتين بالحزام.
صخب، صفير سهام.

سقوط، ارتجاج، ضربة مؤلمة على درع. في الجوار حوافر تخبط، وبطن
فرس يلوح فوق الرأس، وولُمٌ⁽¹⁾ مهترئ، وبطن حصان آخر، ورختُ أسود
متدل. أصوات الأئين تشبه تلك التي يُحدثها الحطّاب وهو يقطع شجرة. ولكنه
ليس شجرة، بل حديد على حديد. صراخ، مختنق وأصم، وثمة شيء كبير
وأسود بجانبها تمامًا يسقط مبقبًا في الطين ويتناثر الدم منه. قدم مدرعة
ترتجف، تتخبط، تحرث الأرض بمهماز ضخم.

تجاذب، قوة ما ترفعها إلى الأعلى وتسحبها نحو قوس السرج. تمسكي!
من جديد، اندفاع مرجف، عدو خيل جنوني. ذراعان وساقان تبحث بيأس
عن المسند. يقف الحصان على قائميه الخلفيين. تمسكي! ... لا يوجد مسند.
لا يوجد... لا يوجد... ثمة دم. يكبو الحصان. لا يمكن القفز بعيدًا، لا يمكن
الإفلات التحرر والتحرر من ضغط الذراعين اللتين تسترهما درع مزرودة. لا
يمكن الهروب من الدماء المتدفقة على الرأس، وعلى مؤخرة العنق.

(1) الولُم: حزام الرّجل والسّرج.

ارتجاج، صليل طين، اصطدام عنيف بالأرض، الثابتة ثباتًا مربعًا بعد ركوب موحش. نخير عميق، ونعير خارق لحصان يحاول جاهدًا رفع مؤخرته. قطقة حدوات، وأرساغ وحوافر تتحرك بسرعة خاطفة. معاطف سود، ومفارش. صراخ.

في الزقاق نار، جدار نار أحمر هادر. في خلفيته خيال، يبدو ضخّم الجسم، يصل رأسه إلى ما فوق الأسطح المشتعلة. حصان مغطى بمفرش أسود يرقص ويهز رأسه، ويصهل.

الخيال ينظر إليها. سيري ترى بريق عينيه من خلال شق الخوذة الكبيرة المزينة بجناحي طائر مفترس. ترى انعكاس الحريق على نصل عريض سيف تمسكه يد مسبلة على نحو منخفض.

الخيال ينظر. سيري لا تستطيع التحرك. تعوقها يدا القتل الهامدتان المطوقتان خصرها. شيء ثقيل ورطب، بسبب الدم الذي على فخذها، يشل حركتها ويسمّرها بالأرض.

ويشل حركتها الخوف. خوف رهيب، يعصر الأحشاء، يجعل سيري لا تسمع أنين الحصان الجريح، وزمجرة الحريق، وزعيق المقتولين، وقرع الطبول. الخوف هو الشيء الوحيد الذي يهم، الذي له معنى. الخوف الذي اتخذ صورة فارس أسود يرتدي خوذة مزينة بالأرياش، مُجمّدًا على خلفية جدار أحمر من السنة لهب الهائجة.

يحث الخيال حصانه على الاندفاع، وجناحا الطير الجارح يرفرفان على خوذته، يهبُّ الطير لينطلق محلّقًا. ليهجم على ضحية عزلاء مشلولة جراء الخوف. الطائر -أو ربما الفارس- يصرخ، يصرصر، على نحو مخيف وقاسٍ واحتفالي. حصان أسود، ودرع سوداء، ومعطف أسود متهدل، وخلف هذا كله نار، بحر من النيران.

خوف.

الطائر يصيح. يرفرف جناحان، وتضرب الأرياش الوجه. خوف!

ساعدوني. لماذا لا يساعدني أحد؟ أنا وحدي، أنا صغيرة، عزلاء، ليس بمقدوري التحرك، ولا أستطيع حتى أن أخرج صوتًا من حلقي المنقبض. لماذا لا يأتي أحد لمساعدتي؟

أنا خائفة!

عينان متوهجتان في شق الخوذة المجنحة الكبيرة. معطف أسود يحجب كل شيء...

- سيرى!

استيقظت مغمورةً بالعرق، خَدِرَةً، وصراخها، صراخها الذي أيقظها، كان لا يزال يرتعش، ويهتز في مكان ما بداخلها، تحت عظم القص، وكان يحرق حنجرتها الجافة. أَلَمَتها يداها الملتصقتان ببطانية سميكة، وأَلَمها ظهرها... - سيرى. اهدئي.

كان الليل في كل الجهات مظلمًا وكثير الرياح، رتيبًا، يُسمع فيه حفيف تيجان الصنوبر وصرير الجذوع بأنغام إيقاعية. لم يعد حريق ولا صراخ، ولم تكن سوى هدهدة لها أزيز. نبضت نار المخيم في الجوار ضوءًا ودفنًا، التمع اللهب على أبازيم أحزمة الحصان، انعكس بلون أحمر على مقبض سيف مسنود إلى سرج ملقى على الأرض. ولم تكن ثمة نار أخرى ولا حديد آخر. فاحت من اليد التي لمست خدها رائحة جلد ورماد. لا رائحة دم.

- جيرالت...

- لقد كان ذلك مجرد حلم. حلم سيئ.

ارتجفت سيرى بشدة، وقد انكشفت ذراعاها وساقاها. حلم. مجرد حلم.

كانت النار قد انطفأت، وقطع جذوع القُضبان حمراء وشفافة، تفرقع وتنقذف بلهب أزرق. يضيء اللهب الشعر الأبيض والملاح الحادة للرجل الذي يلفها ببطانية ومعطف من جلد الغنم.

- جيرالت، أنا...

- أنا معكِ. نامي، يا سيرى. يجب أن ترتاحي. لا تزال الطريق طويلة أمامنا.

فكرت فجأة: أسمع موسيقى. في هذا الضجيج... ثمة موسيقى، موسيقى عود، وأصوات. أميرة من سينترا... طفل القَدَر... طفل الدم الأقدم، دم الإلفيين. جيرالت من ريفيا، الذئب الأبيض وقَدَره. لا، لا، إنها أسطورة. اختراع شاعر. هي ميتة. قتلت في شوارع المدينة عند فرارها... تمسكي... تمسكي...

جيرالت؟

- ماذا، يا سيري؟

- ماذا فعل بي؟ ماذا حدث حينئذ؟ ماذا... فعل بي هو؟

- مَنْ؟

- الفارس... الفارس الأسود الذي على خوذته أرياش... لا أتذكر شيئاً. كان يصرخ... وينظر إليّ. لا أتذكر ما حدث. أتذكر فقط أنني كنت أشعر بالخوف... بالخوف الرهيب...

انحنى الرجل إلى أسفل، فتوهّج لهب النار في عينيه. كانت عيناه غريبتين. غريبتين جداً. قديماً، كانت سيري تخاف من مثل هذه الأعين، ولم تكن تحب النظر إليها. لكنّ ذلك كان قديماً. قديماً جداً.

همست وهي تبحث عن يده الصلبة والخشنة كخشبة غير معالجة: «لا أتذكر شيئاً. هذا الفارس الأسود...».

- لقد كان ذلك حلمًا. نامي بهدوء. لن يعود.

سمعت سيري طمأنات ممائلة في سالف الأيام. وقد كرّرت عليها مرات عدّة، وهُدئت مرات كثيرة، كثيرة جداً؛ كانت تستيقظ في منتصف الليل على صراخها. لكنّ الأمر أصبح الآن مختلفًا. الآن صدّقت. لأن من قالها، هو الذئب الأبيض، جيرالت من ريفيا. الويتشر. الذي كان قدّرها. التي كانت قدّره؟ الويتشر جيرالت الذي وجدها في خضم الحرب والموت واليأس، أخذها معه، ووعد بأنهما لن يفترقا من بعد أبدًا.

نامت دون أن تفلت يده.



انتهى الشاعر من الغناء. كرّر، وهو يحني رأسه قليلًا، اللازمة الرئيسة لأغنية البالادا على العود، بلطف وخفوت، بنغمة أعلى من نغمة التلميذ المرافق. لم يتكلّم أحد. باستثناء الموسيقى الخافتة، لم يكن يسمع سوى حفيف أوراق الشجر وصرير فروع دوحة البلوط العملاقة. ثم فجأة ثغت عزة ثغاء مديدًا، وكانت مربوطة بحبل إلى إحدى العربات المحيطة بالشجرة العتيقة. عندئذٍ، وقف أحد المتجمعين في نصف دائرة كبيرة من المستمعين، كأنّ أحدًا

قد أُنذره. ألقى على كتفه معطفه الأزرق الداكن، الموشى بالذهب، وانحنى بصلاصة وأناقة.

قال بنبرة رنانة، مع أنها لم تكن مرتفعة: «شكرًا لك، يا معلم ياسكير. وإني، يا رادكليف من أوكسينفورت، أنا معلّم خفايا السحر، أعرب، وبكل تأكيد، كمعبر عن رأي جميع الحاضرين هنا، عن كلمات الشكر والتقدير لفنك العظيم ولموهبتك».

صوّب الساحر نظره إلى المتجمعين الذين صُفّوا، وكان عددهم يفوق المائة، تحت دوحة البلوط في نصف دائرة ضيقة، واقفين وجالسين في العربات. أوما المستمعون برؤوسهم وتهامسوا. بدأ بضعة أشخاص في التصفيق، وحيّا آخرون المغني بأكف مرفوعة. أخذت النساء المنفصلات يتنشقن بأنوفهنّ، ويفركن أعينهنّ بما استطعن، حسب وضعهنّ ومهنتهنّ وثروتهنّ: القرويات بسواعدهن أو بظاهر أياديهنّ، وزوجات التجار بمناديل الكتان، والإلفيات والنبيلات بنسيج ناعم، وأما بنات القومس فيليببرت الثلاث، القومس الذي من أجل عرض التروبادور الشهير، قطع مع حاشيته بأكملها عملية الصيد التي رافقتهم فيها الصقور، فقد تمخطن بصوت عالٍ ومؤثر في الأوشحة الصوفية الأنيقة ذات اللون الأخضر الداكن.

تابع الساحر: «لن أبالغ حين أقول إنك أثّرت فينا في العمق، يا معلم ياسكير، وإنك أرغمتنا على التفكير والتأمل، وهزّزت قلوبنا. واسمح لي أن أعبر لك عن امتناننا واحترامنا».

وقف التروبادور وانحنى، وراح يلوح ملامسًا ركبتيه بريشة مالك الحزين المثبّطة بقبعته المزركشة. توقف التلميذ عن العزف، أبرز ضواحه وانحنى أيضًا، لكنّ المعلم ياسكير نظر إليه نظرة تهديد وغمغم بصوت خافت. خفض الصبي رأسه وعاد إلى الطنطنة على أوتار العود طنطنة خافتة.

انتعش المجتمعون. دحرج التجار القادمون مع القوافل دجّة فجّة فخما أمام شجرة بلوط، وكانوا يتهامسون في ما بينهم. غرق الساحر رادكليف في محادثة بصوت خافت مع الكونت فيليببرت. توقفت بنات الكونت عن التمخيط وحدقن إلى ياسكير بشغف. لم يلاحظ الشاعر ذلك، وكان مستغرقًا تمامًا في إرسال الابتسامات والغمزات والتماع الأسنان نحو مجموعة صامته بكبرياء من الإلفيين المتجولين، وخصوصًا نحو إحدى الإلفيات، وهي فاتنة ذات شعر

داكن وعينين كبيرتين، تعتمر قبعة صغيرة من فرو القاقوم. كان لياسكير منافسون؛ ومنهم صاحبة العينين الكبيرتين والقبعة البديعة التي استرعتُ أيضًا انتباه مستمعيه، وافتتنت بها نظراتهم، وكانوا من الفرسان والطلاب والشعراء الجوالين. من الواضح أن الإلفية الفرحة بهذا الاهتمام، نزعت كِفَفَ بلوزتها المخرمة ورَفَّتْ برموشها، ولكنَّ الإلفيين المرافقين أحاطوا بها من كل جانب، دون أن يخفوا نفورهم من الخاطبين ودَّها.

عُرِفَت الفسحة تحت بلوطة بليوبهريس، وهي مكان الاجتماعات وتوقفات المرتحلين ولقاءات الجواله، بالتسامح والانفتاح. أطلق كهنة الدرويد الذين كانوا يعتنون بالشجرة المعمرة، على الفسحة اسم «مكان الصداقة» واستضافوا كل وافد إليها بترحيب. لكنَّ حتى في المناسبات الاستثنائية، مثل أداء التروبادور المشهور في العالم كله، والذي اختتم تَوًّا، تجمع المرتحلون في مجموعات خاصة، منعزلة انعزالًا واضحًا تمامًا. وانضم الإلفيون إلى الإلفيين. وتجمع الجُرفيون الأقزام مع أبناء جلدتهم المدججين بالسلاح المستأجرين لحماية قوافل التجار، ولم يقبلوا أن يكون بجوارهم، في أفضل الأحوال، سوى عمال المناجم من الجنوم والمزارعين الهوبيتيين. كان جميع من هم من غير البشر متفقين على المحافظة على مسافة ما بينهم وبين البشر. ردُّ الناس على غير البشر بطريقة مماثلة، لكنَّ أيضًا لم يُلاحظ بينهم تكامل بالمرة. نظر النبلاء إلى التجار والباعة الجوالين والفلاحين بازدراء، وتنحَّى الجنود والمرتزة عن الرعاة المرتدين سترات ننتة من جلد الغنم. وعزل عدد قليل من السحرة والمتدربين على السحر أنفسهم تمامًا، ومنحوا الجميع من حولهم، بطريقة عادلة، التجاهل. أما الخلفية فمُثِّلَت تجمعاً كثيفاً وداكناً وكثيباً وصامتاً من الفلاحين. أولئك الذين بدؤا كجيش رافعين فوق رؤوسهم غابة من المِدمَّات والمذاري والمخابيط، تجاهلوا كل شيء وكل شخص.

اندفع الصبيان المعفيون من فرض الالتزام بالصمت في أثناء أداء الشاعر المغني، اندفعوا بصخب وحشي بشدة نحو الغابة لينغمسوا بشغف في لعبة استعصت قواعدها على فهم من ودَّ سنوات الطفولة السعيدة. الناس الصغار، والإلفيون، والأقزام، والهوبيتيون، والجنوم، وأنصاف الإلفيين، وأرباع الإلفيين وصغار الأطفال ذوو الأصل الغامض، لم يعرفوا ولم يعترفوا بالتقسيمات العرقية والاجتماعية. في الوقت الراهن.

صاح أحد الفرسان الحاضرين في الفسحة الغابية، وكان نحيفًا وطويلاً كعمود يرتدي قفطاناً قصيراً أحمر وأسود، مزيناً بثلاثة أسود تمشي: «عين الحقيقة! لقد قال السيد الساحر الحق! قصائد البالادا تلك كانت رائعة، أقسم بشرفي، حضرة ياسكير الفاضل، إذا حللتم يوماً ما على مقربة من القرن الأقرع، حصن كبيرنا، فادخلوا، لا تترددوا لحظة. سنستضيفكم مثل أمير، ماذا أقول، بل مثل الملك فيزيمير ذاته! أقسم بسيفي، لقد سمعتُ منشدين كثيرين، لكن كيف يمكن مقارنتهم بكم أيها المعلم؟ تقبلوا منا، نحن المولودين كراماً وشرفاء، تقبلوا الاحترام والتشريف لإبداعكم!».

بعد أن استشعر اللحظة المناسبة تماماً، غمز التروبادور التلميذ. وضع الصبي العود جانباً والتقط من الأرض عُليّة تستخدم لجمع شيء مادي من المستمعين أثنى مما تقدمه عبارات ثنائهم وتقديرهم. تردد، وجال ببصره على الحشد، ثم نحى العلبة الصغيرة وأمسك بسطل كبير كان بجانبه. استحسّن المعلم ياسكير حصافة الفتى بابتسامة ودود.

صاحت امرأة طويلة قوية البنية جالسة في عربة كُتِبَ عليها «فيرافوفينهاوبت وأبناؤها»، محملة بأشياء مصنوعة من صفصاف السلالين. لم يُرَ الأبناء في أي مكان، ربما كانوا مشغولين بإهدار الثروة التي كدّستها والدتهم: «يا معلم! يا معلم ياسكير، كيف يكون ذلك؟ تتركونا في حالة تشويق؟ فهذه ليست نهاية أغنيتك البالادا؟ فلتغنوا لنا عما كان بعد ذلك!».

انحنى الفنان: «الأغاني وقصائد البالادا لا تنتهي أبداً يا سيدتي، فالشعر خالد ولا يموت، ولا يعرف البداية ولا النهاية...».

لم تستسلم التاجرة، وهي تسقط النقود المعدنية بسخاء وصوت رنين في السطل الذي وضعه التلميذ أمامها: «لكن ماذا كان بعد ذلك؟ على الأقل حدثونا عن ذلك، إن لم تكن لديكم الرغبة في الغناء. لم يردّ ذكر أيّ أسماء في أغانيكم، لكننا نعلم أن هذا الويتشر الذي غنيتم عنه ليس سوى جيرالت من ريفيا الشهير، وأن هذه الساحرة التي احترق ذاك نفسه شغفاً بها، هي ينيفر التي لا تقل عنه شهرة. أما طفلة المفاجأة هذه، المنذورة والمقدّرة على الويتشر، فهي سيريلا، الأميرة المتعوسة الحظ من سينترا التي هدمها الغزاة. أليس كذلك؟».

ابتسم ياسكير بتعالٍ وغموض.

صرَّحَ: «أغني عن أمور عامة أيتها المحسنة الكريمة. عن الشعور الذي يمكن أن يعيشه كل شخص. وليس عن أشخاص محددين».

صرخ أحد ما من الحشد: «وكيف! إن الجميع يعلم أن تلك الترنيמות تتطرق إلى الويتشر جيرالت!».

زعت بنات القومس فيليبرت كأنهنَّ جوقة واحدة، وهنَّ يجفنَّ أوشتحن المبتلة بالدموع: «نعم، نعم! واصلوا الغناء يا معلم ياسكير! ماذا كان بعد ذلك؟ هل الويتشر والساحرة ينيفر تلاقيا في نهاية المطاف؟ وهل كانا يحبان بعضهما؟ هل كانا سعيدين؟ نريد أن نعرف! يا معلم، يا معلم!».

صرخ رئيس عصابة الأقزام بصوت حادٍّ، هارًا لحيته الحمراء الضخمة التي تصل إلى خصره: «وكيف! هذا روث، الأميرات والساحرات والقدر والحب وغيرها من حكايات ذي الشعر الأبيض الخيالية. وهذا كله، مع الاعتذار من السيد الشاعر، هراء، أي مجرد اختراع شعري، فقط من أجل أن يبدو الأمر أجمل ويكون مؤثرًا، ولا شيء آخر. لكن أعمال الحرب، مثل مذبح سينترا ونهبها، مثل المعارك في مارنادال وسوذن، فإنكم غنيتموها لنا قبل قليل على نحو رائع يا ياسكير! ها، ليست خسارة أن نرث الفضة مقابل مثل هذه الأغنية التي تفرح قلب المحارب! وكان واضحًا أنكم لا تكذبون مقدار ذرة، أقول ذلك، أنا شيلدون سكاجس، وأنا أستطيع تمييز الكذب من الحقيقة، لأنني كنتُ في سودن، ووقفتُ هناك والفأس في قبضتي أمام الغزاة النيلفجارديين...».

صرخ الفارس النحيل ذو الثلاثة أسود على قفطانه القصير: «أنا، دونيمير من تروي، لقد حضرتُ في معركتي سودن كليهما، لكنني لم أركم هناك، أيها السيد القزم!».

ردَّ شيلدون سكاجس بحزم: «لأنكم كنتم بالتأكيد تحرسون تجمع العربات! أما أنا فكنت في الخط الأمامي، في قلب اللهب!».

احمرَّ وجه دونيمير من تروي، وهو يشدُّ حزامه الفروسي المثقل بالسيف: «انتبه إلى ما تقول أيها الملتحي! وإلى من توجه كلامك!».

نقر القزم بكفه على الفأس المدسوسة خلف حزامه، ثم التفت إلى رفاقه وكشر عن أسنانه: «انتبه أنت! هل رأيتموه؟ فارسًا موطوءًا! ذا شعار! ثلاثة أسود في درع النبالة! اثنين منهم يتغوطان وثالثهما يشخر!».

بصوتٍ حادٍّ وأمر، أخدم المشاجرة كاهنٌ درويدي شائب، يلبس رداءً أبيض: «السُّلْم، السُّلْم! هذا لا يصح يا سادتي! ليس هنا، وليس تحت فروع بلوبهيريس، السنديانة الأقدم من جميع النزاعات والمشاحنات في هذا العالم! وليس بحضور الشاعر ياسكير الذي ينبغي لقصائده المغناة أن تعلمنا الحب، وليس الشجار».

أيّد الكاهنَ الدرويدي كاهنٌ قصيرٌ بدينٌ، وجهه يلتصق من العرق: «هذا هو الصواب! تنظرون، لكن لا عينين لكم، تسمعون ولكن أذنيكم فيهما صمم. فليس فيكم شيء من المحبة الربانية. لأنكم كالبراميل الفارغة...».

زعق الجنوم ذو الأنف الطويل من عربة مزينة بالكتابة التالية «مصنوعات حديدية ومنتجات وبيع»: «إذا كان الحديث عن البراميل، فلتطرحوا قضية أخرى أيها السادة النقابيون! الشاعر ياسكير لا شك جفّ حلقه، ونحن أيضًا بسبب هذا الانفعال المؤثر لسنا في حال أفضل!».

كتم الكاهنُ الجنومَ، غير ناوٍ أن يتمكن منه الخجل وأن يقطع الموعظة: «حقًا إنني، كوني براميل فارغة، أقول لكم! لم تفهموا شيئًا، البتة، من قصائد السيد ياسكير المغناة، ولم تتعلموا شيئًا. لم تدركوا أن قصائد البالادا هذه تحدثت عن المصير الإنساني، وعن أننا لسنا سوى لعبة في أيدي الآلهة، وأن بلداننا ملعب الرب. قصائد البالادا تحدثت عن القدر، قدرنا نحن جميعًا، أما الأسطورة عن الويتشر جيرالت والأميرة سيريلا، مع أنها أُلقيت على الخلفية الحقيقية لتلك الحرب، فهي ليست سوى استعارة، أو نسج من مخيلة الشاعر الذي من المفترض أن يخدم هذا الأمر، لنقوم بـ...».

صاحت فيرا لوفينهاوبت أعلى مرَّكبتها: «هراء ما تقول، أيها الرجل المقدس! أيُّ أسطورة؟ أيُّ نسج من المخيلة؟ إنني أعرف جيرالت من ريفيا أكثر من أي شخص آخر، لقد رأيته بأمر عيني في فيزيما حيث فك السحر عن ابنة الملك فولتيس. وفي وقت لاحق التقيته مرة أخرى على الطريق التجاري، حيث قتل، بطلب من النقابة، الغريفين الشرس الذي هاجم القوافل، وهو بفعله هذا أنقذ حياة كثير من الناس الطيبين. لا، إنها ليست أسطورة ولا حكاية خيالية. الحقيقة، الحقيقة الصادقة غناها لنا هنا المعلم ياسكير».

قالت محاربة نحيلة ذات شعر أسود مصفف بنعومة إلى الخلف ومجدول بصفيرة سميكة: «أؤكد ذلك. أنا، رايلا من ليريا، أنا أيضًا أعرف جيرالت الذئب

الأبيض، جزَّارَ الوحوش الشهير. ثم إنني رأيتُ الساحرة ينيفر أكثر من مرة، لأنني كنت أتردد على أيديرن، في مدينة فينجربرج، حيث يقع مقرها الخاص. بيد أنني لا أعلم شيئاً عما إن كانت تجمع بينهما علاقة حب».

نطقْتُ فجأةً بصوت غنائي إلفيةً جميلةً تعتمر قبعة من فرو القاقوم: «لكن لا بد أن يكون ذلك حقيقياً. أغنية بالادا عن الحب بهذه الروعة لا يمكن أن تكون غير حقيقية».

أيَّدت بنات القومس فيليبيرت الإلفية، وكأنَّهنَّ تلقين أمراً، مسحن أعينهن بأوشحتهن: «لا يمكن أن تكون، لا يمكنها ولا بأي شكل كان!».

وجهتُ فيرا لوفينهاوبت كلامها إلى رادكليف: «حضرة الساحر! هل كانا يحبان بعضهما، أم لا؟ أنتم تعلمون بالتأكيد كيف كان الأمر حقاً، بين الويتشر وينيفر تلك. فلترفعوا الستار عن هذا السرا».

ابتسم الساحر: «إن قالت الأغنية إنهما أحبَّ بعضهما، فقد كان الأمر كذلك، وسيبقى هذا الحب حياً إلى الأبد. هذه هي قوة الشعر».

أضاف القومس فيليبيرت فجأةً: «الخبر يقول إن ينيفر من فينجربرج لقيت مصرعها في تل سودن. وقد سقطت هناك بضع من الساحرات صريعات...».

قال دونيمير من تروي: «هذا ليس صحيحاً. اسمها ليس موجوداً على النصب التذكاري. هذه ديارى، لقد صعدتُ التلَّ أكثر من مرة وقرأتُ النقوش المنحوتة على النصب. سقطتُ ثلاث ساحرات صريعات هناك. تريس ميريجولد، وليتاً نيد التي كانت تدعى كورال... هممم... اسم الثالثة غاب عن ذاكرتي...».

نظر الفارس إلى الساحر رادكليف، لكنه ابتسم فقط، ولم يقل كلمة واحدة. صاح شيلدون سكاجس فجأةً: «وذاك الويتشر، جيرالت إياه الذي كان يهوى ينيفر تلك، قد صارت عظامه رميماً، على ما يبدو. سمعتُ أنهم جزروه في مكان ما في ما وراء النهر. كان يمزق الوحوش إلى أن لقي من يُمزقه. هكذا هي الحال، أيها البشر، من عاش بالسيف، مات به. كل شخص يوماً ما سيلقى من هو أفضل منه ويُطعن بحديدة».

عوجت المحاربة النحيلة شفيتها الشاحبتين، وبصقت على الأرض بكثافة، ثم عقدت ساعديها على صدرها المحمي بزرد محدثة خشخشة: «أنا لا أصدق. لا أصدق أن جيرالت من ريفيا يمكن أن يلقي من هو أفضل منه. لقد حدث أن

رأيتُ كيف كان هذا الويتشر يتقن التعامل بالسيف. إنه ببساطة سريع سرعة غير بشرية...».

تدخل الساحر رادكليف: «قول صائب. سرعة غير بشرية. الويتشريون متحولون، لذا فإن سرعة ردات فعلهم...».

- أنا لا أفهم عمّا تتحدثون، أيها السيد الساحر. (عوجت المحاربة فمها على نحو أقبح مما كان عليه). إن كلماتكم علمية جدًا. أعلم شيئًا واحدًا، لا يوجد مبارز واحد عرفته، أو أعرفه، يمكن مقارنته بجيرالت من ريفيا، الذئب الأبيض. لذا لا أصدق أن هزيمته في المعركة كانت ممكنة، كما يزعم السيد القزم.

قال شيلدون سكاجس بتحمس: «أي مبارز يصبح خرقة عندما يتكاثر عليه الأعداء، هذا ما يقوله الإلفيون».

صرّح ببرود ممثل الشعب الأقدم، وكان طويل القامة وزاهي الشعر، وواقفًا بجوار قبعة جميلة: «لم يعتدّ الإلفيون التعبير بهذه الطريقة المبتذلة». زعقت بنات القومس فيليبرت من وراء أوشتهنّ الخضر: «لا! لا! الويتشر جيرالت لا يمكن أن يكون قد لقي مصرعه! لقد وجد الويتشر سيرى المقدرة عليه، ومن ثمّ وجد الساحرة ينيفر، وعاش الثلاثة جميعهم ردحًا طويلًا سعداء! أليس كذلك يا معلم ياسكير؟».

تثاءب الجنوم المتعطش إلى الجعة، صانع الأدوات الحديدية: «أصلًا هي كانت أغنية بالادا، أيتها الأنسات الفاضلات. فأين نعثر على الحقيقة هنا في البالادا؟ الحقيقة شيء، والشعر شيء آخر. لنأخذ مثالًا هذه... كيف كانت تسمى؟ سيرى؟ تلك المفاجأة الشهيرة. لقد اخترعها السيد الشاعر بأكملها من بنات أفكاره. قد زرتُ سينترا عدة مرات وأعلم أن الملك والملكة هناك عاشا زوجين دون أطفال، ولم يكن لديهما لا ابنة ولا ابن...».

صاح رجل ذو شعر أحمر يرتدي سترة من جلد الفقمة، وجبهته معصوبة بوشاح مخطط: «هذا كذب! الملكة كالانثي، لبؤة سينترا، كان لديها ابنة، تلك التي أطلقوا عليها اسم بافيتا. ماتت هي وزوجها في أثناء عاصفة بحرية، فابتلعتهما كليهما لجة البحر».

دعت الأدوات الحديدية الجميع للشهادة: «أنتم أنفسكم ترون أنني لا أكذب! بافيتا، وليس سيرى، اسم ابنة ملكة سينترا».

أوضح أحمرُ الشعر: «سيرىلا، التي تدعى سيرى، كانت على وجه الدقة ابنة بافيتا، تلك التي غرقت، وهي حفيدة كالانثى. لم تكن ابنة الملكة، بل أميرة سينترا. وهي تحديدًا كانت الطفل المفاجأة المقدرة على الويتشر، وهي التي تعهدت الملكة بإعطائها للويتشر حتى قبل أن تولد، كما غنى السيد ياسكير. لكن الويتشر لم يتمكن من العثور عليها وأخذها، وهنا جانب السيد الشاعر الحقيقة».

تدخل في المحادثة شاب نحيل، يمكن الظن من خلال ملابسه أنه قد يكون صانعًا مؤهلًا في دورة تسبق الاحتراف والامتحانات لاكتساب صفة معلم حرفي: «جانبها طبعًا. لقد ذهب ما قُدِّر على الويتشر. لقيتُ سيرىلا حتفها في أثناء حصار سينترا. فقبل أن تلقي الملكة كالانثى بنفسها من البرج، أنهت حياة الأميرة بيدها حتى لا تقع في مخالب نيلفجار حية».

اعترض أحمر الشعر: «لم يكن الأمر كذلك، ليس كذلك بتاتًا. لقد قُتلت الأميرة خلال المذبحة حينما حاولت الفرار من المدينة».

صرخت الأدوات الحديدية: «في كلتا الحالتين، لم يجدِ الويتشر سيرىلا إياها! لقد كذب الشاعر!».

قالت الإلفية التي تعتمر القبعة وهي تعانق إلفيًا طويل القامة: «لكنه كذب بطريقة جميلة».

هتف الصانع: «الأمر لا يتعلق بالشعر، بل بالحقائق! أقول إن الأميرة قضت بيد جدتها. يمكن لأي شخص كان في سينترا تأكيد ذلك!».

صرَّح أحمر الشعر: «وأنا أقول إنها قُتلت في الشوارع عندما خرجت هاربة. أعلم ذلك، فمع أنني لست من سينترا، كنت ضمن فريق يارل⁽¹⁾ اسكيليج الذي دعم سينترا أيام الحرب. يتحدَّر ملك سينترا، إيست تورسيتش، كما يعلم الجميع، من جزر اسكيليج بالتحديد، وكان عم اليارل. وأنا قاتلتُ في فريق اليارل في مارنادال وسينترا، ومن ثمَّ بعد الهزيمة، قرب سودن...».

صرخ شيلدون سكاجس على الأقزام المتزاحمين حوله: «محارب قديم آخر. كلهم أبطال ومقاتلون. إيه، أيها البشر! هل يوجد بينكم أحد لم يقاتل في مارنادال أو قرب سودن؟».

(1) اليارل: قائد فريق من الفاكنج، أو لقب نبيل للقادة المقربين من الملوك في اسكندنافيا.

قال الإلفي طويل القامة موبّخًا، وهو يطوق بذراعه الروعة التي تعتمر القبعة بطريقة من شأنها أن تبدد شكوك المعجبين الآخرين المحتملة: «السخرية هنا ليست في محلها المناسب يا سكاكس. لا تظنّ أنك الوحيد الذي قاتل قرب سودن. ودون أن نبحث بعيدًا، فأنا شاركتُ أيضًا في هذه المعركة».

قال القومس فيليببرت لرادكليف هامسًا بصوت مسموع، تجاهله الإلفي تمامًا: «أتساءل إلى جانب من، يا تُرى».

تابع كلامه دون أن ينظر حتى نحو القومس والساحر: «كما هو معلوم على نحو واسع، فقد نزل أكثر من مائة ألف محارب إلى الميدان في معركة سودن الثانية، وقُتل منهم أو شوّه ما لا يقل عن ثلاثين ألفًا. ينبغي أن نشكر السيد ياسكير لأنه خلّد في إحدى قصائد البالادا هذه الموقعة الشهيرة، بل والرهبة أيضًا. وفي كلمات هذه الأغنية ولحنها لم أسمع تمجيدًا، بل تحذيرًا. أكرر، المجد والشهرة الخالدة للسيد الشاعر من أجل البالادا التي قد تساعد على تجنب تكرار المأساة المتمثلة في هذه الحرب القاسية وغير الضرورية في المستقبل».

قال القومس فيليببرت، ناظرًا إلى الإلفي بتحدٍّ: «حقًا. لقد وجدتم أشياء مثيرة للاهتمام في البالادا، حضرة السيد الكريم. تقولون إنها حرب غير ضرورية؟ تريدون تجنب المأساة في المستقبل؟ أعلينا أن نفهم أن نيلفجارد إن هاجمتنا من جديد، فإنكم ستنصحون بالاستسلام؟ وتقبلُ الخضوع للعبودية تحت نير نيلفجارد؟».

قال الإلفي ببرود: «الحياة هبة لا تقدر بثمن ويجب حمايتها. لا شيء يُسوِّغ المذبحة والإبادة اللتين خلّفتهما معركتنا سودن كلتاهما، الرابحة والخاسرة. كلتاهما كلفتكم، أنتم البشر، آلاف الأرواح. لقد خسرتم قدرات لا يمكن تخيلها...».

انفجر شيلدون سكاكس: «ثرثرة إلفية! كلام فارغ! كان ذلك هو الثمن الذي كان لا بدّ من دفعه حتى يتمكن الآخرون من العيش بكرامة وسلام، بدلًا من تمكين نيلفجارد من تقييدهم بالسلاسل، وسمل أعينهم، وسوقهم تحت السياط إلى مناجم الكبريت والملح. أولئك الذين سقطوا سقوطَ الأبطال، والذين بفضل ياسكير سيعيشون خالدين في ذاكرتنا، علمونا كيفية الدفاع

عن موطننا. غنوا قصائدكم بالبلاد يا ياسكير، غنوها للجميع. العلم لن يذهب هباءً، بل سيكون ذخراً لنا، وسترون! فإن لم يكن اليوم، فسيكون غداً أن تهاجمنا نيلفجارد مجدداً، وستذكرون كلماتي! الآن هم يضمّدون جراحهم ويستريحون، ولكنه قريب ذاك اليوم الذي سنرى فيه معافطهم السود والرياش على خوذهم من جديد!«.

صرخت فيرا لوفينهاوبت: «ماذا يريدون منا؟ لماذا جعلونا هدفاً لهم؟ لماذا لا يتركونا وشأننا ولا يدعوننا نعيش ونعمل؟ ماذا يريدون هؤلاء النيلفجارديون؟».

زمجر القومس فيليببرت: «يريدون دماءنا!».

زَعَقَ واحد من حشد الفلاحين: «وأرضنا!».

ردّد شيلدون سكاجس وهو يحدّق بعينيه مهدداً: «ونسواننا!».

نفث بضعة أشخاص ضحكات، لكنها كانت خُلْسَةً وبصوت خفيض. فمع أن التلميح كان مسلّياً لدرجة كبيرة، وهو أن أي شخص آخر من غير الأقزام قد يشتهي القزمات غير الجذابات على نحو استثنائي، فلم يكن ذلك موضوعاً آمناً للسخرية والنكات، خصوصاً في وجود رجال كرام قصيري القامة وممثلّين وملّتحين، كانت لفؤوسهم وبواترهم عادة سيئة، إذ إنها تقفز من وراء أحزمتهم بسرعة لا تُصدق. والأقزام، لأسباب غير معروفة، مقتنعون اقتناعاً راسخاً بأن العالم كله كان يتربص بزوجاتهم وبناتهم بشهوة فاجرة، واعتباراً لذلك كانوا يطفحون بحساسية لا مثيل لها.

صرّح الدرويد الشائب فجأة: «كان لا بدّ أن يحدث ذلك في وقت ما، كان لا بدّ أن يقع؛ لقد نسينا أننا لسنا وحدنا في هذا العالم، وأننا لسنا سرّة هذا العالم. ومثل أسماك الشبوط الغبية والكسلى والمتخمة في بركة عكرة، لم نؤمن بوجود الكراكي الرمحي. لقد سمحنا بأن يتعكر عالمنا مثل تلك البركة، وأن يصبح موحلاً وخاملاً. انظروا حولكم: في كل مكان، الجريمة والخطيئة والجشع والركض وراء الربح والمشاجرات والخلاف وانحطاط الأخلاق وانعدام الاحترام لجميع القيم. وبدلاً من العيش كما تطلب منا الطبيعة، بدأنا في تدمير هذه الطبيعة. وماذا لدينا الآن؟ هواء مسموم برائحة الدخان الكريهة، وأنهار وجداول مدنسة بالمجازر والمدابغ، وغابات مقطوعة أشجارها بتهور... ها، حتى على اللحاء الحي لسنديانة القديس بليوبهريس، أوه هناك فوق رأس

الشاعر، فقط انظروا، ثمة تعبير قبيح نُقِشَ بمطواة. وفوق ذلك كله قد نُقِشَ على نحو غير صحيح، ولم يكن الفاعل مخرباً فحسب، بل إضافة إلى ذلك كان جاهلاً لا يجيد الكتابة. فلماذا تستغربون؟ كان لا بدّ أن ينتهي ذلك بالسوء...». عَقَبَ الكاهن السمين: «نعم، نعم! ارعوا، أيها الخطّائون، ما دام الوقت لم يفتْ بعد، وإلا حل غضب الآلهة وانتقامهم عليكم! تذكروا نبوءة إيتلينا، الكلمات المتنبئة عن عقاب الآلهة الذي سيقع على القبيلة المسمومة بالجرائم! تذكروا: «سيأتي زمن الازدراء، ويفقد الشجر ورقه، ويفسد البرعم، ويتعفن الثمر، ويصير الحبُّ مُراً، وتتدفق أحواض الأنهار بالجليد بدلَ الماء. وسيأتي البرد الأبيض، وبعده الضوء الأبيض، وسيموت العالم في خضم عاصفة ثلجية». هكذا تقول العرافة إيتلينا! وقبل أن يحدث هذا، ستظهر علامات وتحل أوبئة، فتذكروا، نيلفجارد هي عقاب رباني! إنها السوط الذي يجلدكم به الخالدون، أيها الخطّائون لكي...».

زأر شيلدون سكاكس، خابطاً بحذائه الكبير الثقيل: «أوه، أغلقوا فمكم، أيها القديس! لقد صار الجو ضباباً من خرافاتكم وهرائكم! بدأت أحشاؤنا تتقلب...».

قاطعته الإلفي الطويل مبتسماً: «حذارِ يا شيلدون. لا تستهزئ بدين الآخرين. فذلك ليس جميلاً وليس مؤدباً ولا... آمناً».

اعترض القزم: «أنا لا أستهزئ بشيء. ولا أشك في وجود الآلهة، ولكنني أستثار حينما يخلطها أحد ما بشؤون الحياة الدنيا ويضلل الآخرين بنبوءات إحدى المجنونات الإلفيات. هل من المفترض أن يكون النيلفجارديون أداة الآلهة؟ هراء! أيها الناس، عودوا بذاكرتكم إلى عهد ديزمود، ورادوفيد، وسامبوك، وإلى زمن أبراد البلوطة القديمة! لا تتذكرون فحياتكم قصيرة جداً، كحياة ذبابة مايو، لكنني أتذكر وسأذكركم كيف كان الأمر هنا، على هذه الأراضي، مباشرة إثر نزولكم من قواربكم إلى الشطوط عند مصب نهر ياروجا وفي دلتا بونتار. ومن السفن الأربع التي حطت رحالها تشكلت ثلاث ممالك، ومن ثمّ ابتلع الأقوياء الضعفاء وبهذه الطريقة تصاعد نموهم وعززوا سلطتهم. أخضعوا الآخرين واستوعبهم وتوسعت الممالك وأصبحت أكبر فأكبر وأقوى فأقوى. والآن تفعل نيلفجارد الشيء ذاته، فهي بلاد قوية وموحدة ومنضبطة ومتماسكة. وإذا لم تتماسكوا أنتم مثلها، فستبتلعكم حقاً

نيلفجارد مثلما يبتلع الكراكي الرمحي سمك الشبوط، كما قال ذاك الدرويد الحكيم!«.

أبرز دونيمير من تروي صدره المزين بثلاثة أسود وخبط سيفه في غمده: «فقط دعهم يحاولون! لقد لقناهم درساً مريزاً قرب سودن، ونستطيع أن نفعل ذلك مرة ثانية!«.

هدر شيلدون سكاجس: «أنتم شديو الغرور. قد نسيتم، على ما يبدو، أيها السيد المشرف، أنه قبل وصول الأمر إلى الحسم الثاني قرب سودن، كانت نيلفجارد تتدحرج خلال أراضيكم مثل مدحلة حديدية، حتى فُرِشتِ الحقول بجثث المقدامين من أمثالكم من مارنادال وحتى ما وراء النهر. ومن أوقف النيلفجارديين كذلك لا يشبهونكم، أيها السباع الصيَّاحون، بل هم من القوات الموحدة لتيميريا وريدانيا وأيديرن وكائدفين. الاتفاق والوحدة هما ما أوقفاهم!«.

قال راديليف بصوت مسموع، لكن ببرود شديد: «ليس هذا. ليس هذا فحسب يا سيد سكاجس».

تنحنح القزم بصوت عالٍ، تمخّط وزحزح حذائه محدثاً صريفاً، ثم انحنى قليلاً نحو الساحر.

تحدّث: «لا أحد ينتقص من خِدَمات رفاقكم. عارٌ على من لا يعترف ببطولة السحرة من قل سودن، فلقد واجهوا بإقدام، ونزفوا دماءهم من أجل القضية المشتركة، وأسهموا بقدر كبير في تحقيق النصر. ولم ينسَهم ياسكير في قصيدته البالادا، ولن ننساهم نحن أيضاً. لكن ضعوا في اعتباركم أن هؤلاء السحرة وقفوا على التل متحدين ومتضامنين، وأقروا بقيادة فيلجفورتز من روجيفين كما أقررنا، نحن محاربي الممالك الأربع، بزعامة فيزيمير الريداني. وما يؤسف له أن هذه الموافقة والتضامن لم يتوفرا إلا في فترة الحرب. ففي الوقت الراهن عندما حلَّ السلم انقسمنا ثانية. فيزيمير وفولتيسيت يخنقان بعضهما بالمكوس وقانون التخزين، وديمافيند من أيديرن يتشاجر مع هينسلت على مارخيا الشمالية، ورابطة هنجفورس والثيسينديون من كوفير لا يبالون بشيء. وكذلك من العبث، كما سمعت، البحث عن الوفاق القديم بين السحرة. لا تماسك بينكم، ولا انضباط ولا وحدة. لكن ذلك موجود في نيلفجارد!«.

رعد القومس فيليبرت: «يحكم نيلفجارد القيصر إمهير فار إمريس، الطاغية والحاكم الوحيد الذي يفرض الطاعة بالسوط وحبل المشنقة والفأس! فماذا تقترحون علينا يا سيد قزم؟ وبأي شيء علينا أن نتحد؟ في طغيان مماثل؟ ومن هو الملك الذي، حسب رأيكم، يمكن لمملكته أن تُخضع الآخرين لها؟ وفي يد مَنْ تريدون رؤية الصولجان والسوط؟».

هزَّ سكاجس كتفيه: «وما يهمني ذلك؟ إنها شؤونكم البشرية. أيًا كان من ستختارونه في النهاية ملكًا، فلن يصير منه أي قزم».

أضاف ممثل الشعب الأقدم وكان طويل القامة، ولا يزال محتضنًا الفاتنة ذات القبعة: «ولا أي إلفي ولا حتى نصف إلفي. حتى ربع الإلف تعدونه شيئًا أقل شأنًا...».

ضحك فيليبرت: «وهنا ما يؤلمكم. إنكم تنفخون مثل نيلفجارد في القربة ذاتها، فنيلفجارد تصرخ أيضًا من أجل المساواة، وتعدكم بالعودة إلى الترتيبات القديمة، حالما تهزمننا وتقتلعنا من هذه الأراضي. إنها هذه الوحدة، وهذه المساواة اللتان تحلمون بهما، وتتحدثون عنهما، وتبشرون بهما! لأن نيلفجارد تدفع لكم مقابل ذلك ذهبًا! ولا عجب أنكما تحبون بعضكم إلى هذا الحد، فهذا أصلًا هو العرق الإلفي، هؤلاء النيلفجارديون...».

قال الإلفي ببرود: «هراء. تهذون بخزعبلات، أيها السيد الفارس. العنصرية تعميكم بطريقة بينة. إن النيلفجارديين بشر مثلكم تمامًا».

- هذا محض افتراء! إنهم من نسل سيدهي السود، والجميع يعلم ذلك! في عروقهم تجري الدماء الإلفية! دماء الإلفيين!

ابتسم الإلفي بتهكم: «وماذا يجري في عروقكم؟ إننا نخالط دماءنا منذ أجيال منذ مائة عام، نحن وأنتم، ويتمُّ لنا الأمر على نحو فائق الروعة، لا أعلم أهو من حسن الحظ أم من سوءه، لقد بدأت تدمرون العلاقات المختلطة منذ أقل من ربع قرن، وفي المحصلة كانت النتيجة ليست ذات شأن. والآن أروني إنسانًا ليس خليطًا من سيدهي إخير، ومن دماء الشعب الأقدم».

احمرَّ فيليبرت على نحو واضح. واصطبغت بالحمرة فيرا لوفينهاوبت أيضًا. حنى الساحر رادكليف رأسه وسعل. ومن المثير أن الإلفية الجميلة ذات القبعة من فرو القاقوم احمرَّت وجنتاها أيضًا.

انبعث وسط الصمت صوتُ الدرويد الشائب: «كلنا أبناء الأرض الأم. إننا أبناء الطبيعة الأم. مع أننا لا نحترم أمنا، ومع أننا في بعض الأحيان نسبب لها الهموم والألم، ومع أننا نكسر قلبها، فهي تحبنا، تحبنا جميعاً. لنتذكر هذا، نحن المجتمعين هنا، في مكان الصداقة. ودعونا لا نتجادل حول مَنْ منا كان الأول هنا، فالأول كان شجرة البلوط التي أَلْقَتْ بها الأمواج، ومن هذه البلوط نبت بليوبهريس العظيم، أقدم شجرة سنديان. دعونا لا ننسَ ونحن واقفين تحت فروع بليوبهريس وسط جذوره الخالدة، جذورنا الأخوية الخاصة بنا، والأرض التي تنمو هذه الجذور منها. لنتذكر كلمات أغنية الشاعر ياسكير...».

صاحت فيرا لوفينهاوبت: «بالضبط! وأين هو؟».

أقرَّ شيلدون سكاكس ناظرًا إلى المكان الفارغ تحت شجرة البلوط: «اختفى. أخذ المال واختفى دون وداع. حقًا بالطريقة الإلفية!».

زعقت الأدوات الحديدية: «بالطريقة القزمية».

صحح الإلفي الطويل القامة، وأسندت الحساء ذات القبعة رأسها إلى كتفه: «بالطريقة البشرية».



قالت ماما لانتيري، وهي تدخل إلى الغرفة دون أن تطرق الباب، دافعة أمامها رائحة الزنابق الياقوتية والعرق والجعة واللحم المدخن: «هيه، أيها العازف. أتاك ضيف. تفضلوا ادخلوا أيها السيد الكريم».

أصلح ياسكير وضعيَّة شعره وقوَّم جسده على كرسي ضخم منحوت. هبَّت الفتاتان الجالستان على ركبتيه ناهضتين بسرعة، غطتا مفاتنهما وشدتا قميصيهما المفتوحين. فكر الشاعر: في الواقع، سيكون حياء الفتاتين عنوانًا لا بأس به للبالادا. نهض وربط حزامه ثم لبس رداءه ناظرًا إلى النبيل الواقف عند العتبة.

قال: «في الحقيقة، إنكم قادرون على العثور عليَّ في كل مكان، مع أنكم نادرًا ما تختارون الوقت المناسب لفعل ذلك. ومن حسن حظكم، أنني لم أقرُر بعد أي واحدة من هاتين الحسناوين أفضل. وبأسعارك يا لانتيري، لا أستطيع أن أسمح لنفسِي بكتليهما».

ابتسمتُ ماما لانتييري ابتسامةً تفهمُ وصفقت. كلتا الفتاتين -الجزيرية ذات البشرة البيضاء المنمّشة ونصف الإلفية ذات الشعر الداكن- غادرتا الغرفة على عجل. خلع الرجل الواقف عند العتبة معطفه وناولهُ، مع صرة صغيرة، ولكنها منتفخة، لماما لانتييري.

قال مقترباً ليجلس إلى المنضدة: «عذراً أيها المعلم. أعلم أنني أقلقكم في الوقت غير المناسب. بيد أنكم قد اختفيتُم فجأةً من تحت شجرة البلوط... لم أستطع اللحاق بكم في الطريق، كما اعتزمتُ، ولم أجد أثركم في المدينة على الفور. صدقوني لن آخذ من وقتكم الكثير...».

قاطعه الشاعر: «تقولون ذلك دائماً، وهو دائماً محض ادعاء. دعينا وحدنا يا لانتييري، واحرصي على أن لا يزعجنا أحد. أستمعُ لكم، أيها السيد». نظر إليه الرجل متفحصاً. عيناه داكنتان ورطبتان كأنهما دامتان، وأنفه حاد غير جميل، وشفتاه ضيقتان.

صرّح منتظراً أن يُغلق البابُ خلف ماما: «سأدخل الموضوعَ دون إبطاء. أنا مهتم بأغانيكم البالادا، يا معلم. وعلى نحو أدق، ببعض الأشخاص الذين تغنون عنهم. ما يشغلني هو المصاير الحقيقية لأبطال قصائدكم الفعلين. وإذا لم أكن مخطئاً، فإن المصاير الحقيقية للأشخاص الحقيقيين كانت مصدر إلهام للأغاني البديعة التي استمعتُ لها تحت شجرة البلوط؟ أفكر في... في سيريلا الصغيرة من سينترا. في حفيدة الملكة كالانثي».

نظر ياسكير إلى السقف، وقرع بأصابعه المنضدة.

قال بجفاف: «حضرة السيد، إنكم مهتمون بأشياء عجيبة. تسألون عن أشياء عجيبة. يترأى لي أنكم لستم من كنت أحسبه حضرتمكم».

- ومن كنتم تحسبونني، إن كان ممكناً لي أن أعلم؟

- لا أدري إن كان ممكناً لكم ذلك. فالأمر سيعتمد على ما إذا كنتم ستبلغونني الآن السلامَ من معارفنا المشتركين. كان يتعيّن عليكم فعل ذلك بادئ ذي بدء، لكنكم نسيتم على ما يبدو.

- لم أنسَ بتاتاً. (مدَّ الرجل يده إلى الجيب الداخلي لقفطانه المخملي ذي اللون البني المحمر، وأخرج صرة أخرى أكبر قليلاً من التي قدّمها للقوادة، لكنها كانت أيضاً منتفخة وأصدرتُ صلصلة عند اصطدامها

بسطح المنضدة). نحن ببساطة ليس لدينا أي معارف مشتركين، يا ياسكير. لكن ألا يمكن لهذه الصرة أن تُخَفَّف من ذلك النقص؟
زَمَّ التروبادور شفتيه: «وماذا تنوون أن تشتروا بهذا الكيس الهزيل؟
ماخورَ ماما لانتيري بأكمله والأراضي المحيطة به؟».

- لنقل إنني أعتزم دعم الفن. والفنان. من أجل التمكن من الدردشة مع
الفنان عن أعماله.

- إلى هذا الحد تحبون الفن يا سيدي؟ ألهذا الحد تتعجلون الحديث مع
الفنان، حتى إنكم تحاولون إرغامه على أخذ المال حتى قبل أن تعرفوا
نفسكم، وبهذا الفعل تكسرون قواعد الأدب الأساسية؟

ضيَّق الغريب عينيه الداكنتين قليلاً: «في بداية المحادثة، لم يضايقكم
إخفاء هويتي».

- ولكنه الآن بدأ يضايقني.

قال الرجل مبتسمًا ابتسامة باهتة على شفتيه الضيقتين: «أنا لا أخجل من
اسمي. اسمي رينس. أنتم لا تعرفونني يا سيد ياسكير، ولا عجبَ في ذلك.
أنتم معروفون ومشهورون جدًا إلى حد أن معرفة جميع المعجبين بكم أمر
غير ممكن. وكل مغرم بموهبتكم يُخَيِّل إليه أنه يعرفكم، يعرفكم جيدًا لدرجة
أن شيئًا من الشعور بالألفة سيكون ملائمًا على أكمل وجه. وهذا ينسحب عليَّ
أيضًا إلى أقصى حد. أعلم أن هذا الرأي خاطئ، فتكرّموا بمسامحتي».

- أتكرم بمسامحتكم.

- إذن، يمكنني التعويل عليكم أنكم سترغبون في الإجابة عن بضع
أسئلة...

قاطعه الشاعر وقد انتفخت أوداجه: «لا، لا يمكنكم. والآن فلتتكرموا
أنتم بمسامحتي، فإنني لا أحبذ مناقشة موضوعات أعمالي واستلهاماتي
وشخصياتي، سواء كانت خيالية أم غيرها. فهذا يجرد الشعر من بطانته
الشعرية ويؤدي إلى التفاهة».

- حقًا؟

- بكل تأكيد. لاحظوا لو أنني بعد غناء البالادا عن الطحان المرح، أعلنتُ أن
المقصود في الحقيقة هو زفيركا، زوجة الطحان بيسكوج، وأكملتُ ذلك

بخبز أن زفيركا يمكن مضاجعتها بحرية كل يوم خميس، لأن الطحان يسير راكبًا إلى السوق الموسمية يوم الخميس، فما كان لذلك أن يكون شعرًا. بل إما دعارة وإما خداع كريحه.

تكلم رينس بسرعة: «أفهم، أفهم. ولكن هذا قد يكون مثالًا سيئًا. أصلًا أنا لا تهمني أي خطايا أو تجاوزات. لن تشهروا بسمعة أحد إن أجبتكم عن أسئلتني. لا أحتاج إلا إلى معلومة صغيرة واحدة: ماذا حدث فعلًا لسيريل، أميرة سينترا؟ كثير من الناس يزعمون أن سيريل لقيت مصرعها في أثناء الاستيلاء على المدينة، وثمة شهود عيان حتى على هذه الواقعة. لكن يُستنتج من قصيدتكم البالادا أن الطفلة نجت. ما يثير فضولي حقًا هل ذلك من صنع خيالك، أم هو واقعة حقيقية؟ حقيقة أم اختلاق؟».

ابتسم ياسكير ابتسامة عريضة: «يسرني جدًا اهتمامكم هذا. ستضحكون، يا سيدي، كما يحلو لكم، وهذا ما قصدت بالضبط عندما نظمت هذه البالادا. أردت إثارة المستمعين وإيقاظ فضولهم».

كرر رينس ببرود: «حقيقة أم اختلاق؟».

- لو بُحثُ بذلك لدمرتُ تأثير عملي. الوداع يا صديقي. لقد استنفدت كل الوقت الذي أمكنني أن أخصه لك. وهناك ملهمتان لي، تنتظران غير متيقنتين أيهما سأختار.

صمت رينس طويلًا، ولم يتهيا للمغادرة بتاتًا. نظر إلى الشاعر بعينين رطبتين وغير ودودتين، فأحس الشاعر بقلق متزايد. انبعث من الأسفل، من القاعة العامة من الماخور، صخب مرح تخللته أحيانًا ضحكات نسائية عالية النبرة. أدار ياسكير رأسه، كأنه يُظهر استعلاءً مهينًا، لكنه في الحقيقة كان يُقدّر المسافة التي تفصله عن زاوية الغرفة وعن نسيج النجود الذي يصور حورية تصب ماءً على ثدييها من إبريق.

تحدث رينس أخيرًا، وهو يدسُّ يده في جيب قفطانهِ البني المحمر: «ياسكير. أرجوك رجاءً حارًا، أجب عن أسئلتني. يجب أن أعرف الجواب. هذا أمر غاية في الأهمية بالنسبة إليّ. وصدقني، بالنسبة إليك أيضًا، فإن أجبت بمحبة ف...».

- فماذا؟

تسللت كشرة كريحته إلى شفتي رينس الضيقتين.

- فلن أضطرَّ إلى إرغامك على التحدث.

نهض ياسكير وتظاهر بصنع تعابير مخيفة على وجهه: «إذن اسمع، أيها الخسيس. إنني أشمئز من الغضب والعنف. لكنني سأنادي ماما لانتيري حالاً، وهي ستستدعي شخصاً يدعى جروزيلي، الذي يشغل في بيت الدعارة هذا منصباً مشرفاً وذا مسؤولية كبيرة كونه الحارس الأمني. إنه فنان حقيقي في مجال مهنته. سيركل مؤخرتك وستطير عندئذٍ فوق أسطح هذه المستوطنة طيراناً رائعاً لدرجة أن المارة القلائل في هذا الوقت سيحسبونك بيجاسوس».

قام رينس بحركة قصيرة فومض شيء ما في يده.

سأل: «هل أنت متأكد من أن الوقت سيسعفك لتتمكن من مناداتها؟».

لم ينو ياسكير التحقق أكان الوقت سيسعفه. ولم يعتزم الانتظار أيضاً. قبل أن يدور الخنجر القابل للطي ويطلق منغلقة في يد رينس، بلغ زاوية الغرفة بقفزة طويلة، واندفع مباشرة إلى أسفل نسيج النجود المزين بالهورية، وفتح الباب السري بركلة وسقط على رأسه ورقبته إلى الأسفل على الدرج الحلزوني، موجهاً نفسه ببراعة على المتكأ المنزلق. اندفع رينس في المطاردة، لكنَّ الشاعر كان واثقاً من نفسه، فهو يعرف الممر السري كما يعرف جيبه الخاص، وقد استخدمه عدة مرات هارباً من أمام الدائنين والأزواج الغيورين والمنافسين المتعطشين للعراك الذين كان أحياناً يسرق منهم القوافي والنغمات الموسيقية. كان يعلم أنه في المنعطف الثالث سيتحسس بُويباً دواراً، سيكون خلفه سلم يؤدي إلى قبو. كان على يقين من أن من يطارده، مثله مثل كثيرين من قبله، لن يسعفه الوقت ليتمكن من كبح حركته، وسوف يجري مسافة أبعد فيطأ أرضية متحركة، وبعدها يحط في حظيرة الخنازير. كان متيقناً أن المطارد المهشَّم والملوَّث بالروث والذي جرحته الخنازير سيتوقف عن المطاردة.

أخطأ ياسكير كالمعتاد عندما يكون متيقناً من شيء ما. خلفه، فجأة ومض شيء بلون أزرق، وأحس الشاعر بأطرافه تخدر وتتناقل وتتصلب. لم ينجح في التباطؤ عند البويب الدوار، وخرجت ساقاه عن طوعه. صرخ وتدحرج على الدرج مصطدماً بجدار الممر. انفتحت الأرضية المتحركة تحته محدثة طقطقة جافة، فهوى التروبادور إلى الأسفل في الظلام والرائحة الكريهة.

قبل أن يصطدم بالأرضية الصلبة ويفقد وعيه، تذكر أن ماما لانتيري قد ذكرت شيئاً عن تجديد حظيرة الخنازير.



أعاده إلى وعيه ألم في معصميه وذراعيه المقيدتين، والمتخلخلتين بشدة من مفاصلهما. أراد الصراخ، لكنه لم يستطع، وانتابه انطباع كأنَّ تجويفه القموي قد مُلئ بالطين. ركع على الأرضية، وقد شده الحبل الذي كان يصدر صريراً من يديه إلى أعلى. حاول النهوض راغباً في إراحة ذراعيه، لكنَّ ساقيه كانتا مقيدتين أيضاً. تمكَّن من الوقوف حاساً بحشجة واختناق، وساعده على ذلك كثيراً الحبل الذي كان يشده بلا رحمة.

وقف رينس أمامه، وعيناه الشريرتان الرطبتان التمتعا في ضوء الفانوس الذي يحمله عُتْلٌ غير حليق، طوله يقارب المترين، يقف بجانبه. العُتْلُ الثاني، وهو على الأرجح ليس أصغر من الأول، كان في الخلف. سمع ياسكير أنفاسه وشعر برائحة كريهة من عَرَق قديم. وهذا الثاني النتن بالتحديد هو من كان يشد الحبل المربوط بمعصمي الشاعر والمتدلي من خلال عارضة السقف. انفصلتُ قدما ياسكير عن الأرضية الصلبة. صَفَّر الشاعر من خلال أنفه، ولم يعد في وسعه أن يفعل شيئاً.

قال رينس أخيراً، على الفور تقريباً: «كفى».

لكنَّ ياسكير بدا له أن قروناً من الزمن مرَّت قبل ذلك. لمس الأرض، بيْد أنه عجز عن الركوع، رغم أنه أصدق رغباته؛ الحبل المشدود لا يزال يمسك به متصلباً كالوتر.

اقترب رينس. لم يكن أي أثر للعاطفة على وجهه، ولم تُغيِّر عيناه الدامعتان تعبيرهما ولو مقدار ذرة واحدة. ثم إن الصوت الذي تحدث به كان هادئاً وخافتاً، بل كان مملاً قليلاً.

- أيها الشويعر البائس. أيها الضعضع. أيها الزُّبالة. أيها الصفر المزهو. أردت الهروب مني؟ لم يفلت مني أحد بعد. لم نكمل الحديث أيها المتصنع، يا دماغ الخروف. لقد سألتك عن شيء ما، في ظروف أكثر لطافة من هذه بكثير. الآن سوف تجيب عن أسئلتني، ولكن في ظروف أقل لطافة بكثير. ستجيب، أليس كذلك؟

هز ياسكير رأسه مظهرًا استعداده. الآن فقط ابتسم رينس. وأعطى الإشارة. شخر الشاعر شخيرًا فظيعةً، حاسًا كيف ينشدُ الحبل، ويداه الملويتان إلى الخلف تطقطقان في مفاصلهما.

أكد رينس وهو لا يزال يبتسم بفحش: «لا تستطيع التكلم. وتتألم، أليس كذلك؟ فاعلم أنني أرفعك حاليًا إلى الأعلى من أجل متعتي الخاصة، فأنا أحب بشدة مشاهدة شخص يتألم. حسنًا، هيا أعلى قليلًا».

كاد ياسكير يختنق من صفيّر أنفه.

أصدر رينس الأمر أخيرًا، ثم اقترب وأمسك الشاعر من جابوط ياقته: «كفى. اسمع أيها الدُويك. سأفك عنك الآن التعويذة كي تستعيد نطقك. لكن إن حاولت رفع صوتك الخلاب أعلى من اللازم، فستندم».

أدى حركة بكفه، ولمس خد الشاعر بخاتمه، فأحس ياسكير أنه بدأ يستعيد الإحساس في فكه السفلي ولسانه وحَنَكه.

تابع رينس بصوت خفيض: «الآن، سأسألك بضعة أسئلة وسوف تجيب عنها بانسياب، بسرعة وبالتفصيل. وإذا ترددت ولو لحظة واحدة أو تلعثمت، وإذا أعطيتني أنفه سبب لكي أشك في صدق كلامك، فسوف... انظر إلى الأسفل».

أطاعه ياسكير. وأدرك بكثير من الرعب أن حبلًا قصيرًا موصولًا بأربطة على كعبيه، ومثبت من طرفه الآخر بدلو ممتلئ بالجير.

ابتسم رينس بقسوة: «إذا أمرتُ بسحبك إلى مستوى أعلى، ومعك هذا الدلو، فإنك طبعًا لن تستعيد السيطرة على يديك. أشك بعد حدوث مثل هذا الشيء أنك ستكون قادرًا على العزف على العود. إنني أشك في ذلك حقًا. لذا أعتقد أنك سوف تتكلم. ألسْتُ محقًا؟».

لم يؤكد ياسكير ذلك، لأنه بسبب الخوف لم يتمكن من تحريك رأسه ولا إطلاق صوته. لم يترك رينس انطباعًا أنه حريص على ذاك التأكيد.

صرح: «أنا، طبعًا، سأعلم على الفور أكنت تقول الحقيقة، وسأبتين من فوري أمر كل حيلة، ولن أسمح بأن أُخدع بالحيل الشعرية ولا بالمعرفة الغامضة. فهذا بالنسبة إليّ شيء تافه، مثل عملية شل حركتك على الدرج. لذا أنصحك أيها التافه أن تزن كل كلمة. حسنًا، لكيلا نضيع الوقت، فلنبدأ. كما تعلم، أنا مهتم ببطلة إحدى قصائدك الجميلة، حفيدة الملكة كالانثي من سينترا. الأميرة سيريلا التي تُسمّى تحببًا سيرري. فحسب أخبار شهود العيان،

فإن هذه المخلوقة الصغيرة لقيت مصرعها في أثناء الاستيلاء على المدينة قبل عامين. أما في البالادا، فأنت تصف وصفاً تصويرياً ومؤثراً لقاءها وذاك الشخص العجيب الذي يكاد يكون أسطورياً، ذاك... الويتشر، جيرالت أو جيرالد. وبصرف النظر عن الهراء الشعري بخصوص القدر وحتمية المصير، فإن البالادا تُظهر أن الطفلة خرجت سالمة من معارك القتال من أجل سينترا. هل هذا حقيقي؟».

تأوه ياسكير: «لا أعلم... أقسم بالآلهة، ما أنا سوى شاعر! سمعتُ هذا وذاك، والبقية...».

- نعم؟

- والبقية من نسج خيالي. اختلقْتُها! أنا لا أعلم شيئاً! (ناح الشاعر عندما رأى أن رينس يعطي كريبه الرائحة إشارة وأحس بأن الحبل أخذ يُشدُّ بقوة كبرى). ولا أكذب!

هز رينس رأسه: «حقاً. أنت لا تكذب بطريقة مباشرة، كنتُ سأحس بذلك. لكنك تراوغ نوعاً ما. ما كان لك أن تختلق بالادا، هكذا دون سبب. وأنت أساساً تعرف ذاك الويتشر. لقد شوهدت في صحبته أكثر من مرة. هيا يا ياسكير، احكِ، هذا إن كنت تحب مفاصلك. احكِ كل ما تعلمه».

شهق الشاعر: «سيري هذه كانت مقدرة على الويتشر. بما يسمى الطفل المفاجأة... لعلكم سمعتم بها، إنها قصة معروفة. لقد أقسم والداها أن يعطوها للويتشر...».

- كان على الأهل أن يعطوا الطفلة لذلك المجنون المتحول؟ لذلك المجرم المأجور؟ إنك تكذب يا شُويعر. يمكنك أن تغني مثل هذه المقطوعات للنسوان.

نشج ياسكير: «لقد كان الأمر كذلك، أقسم بروح أُمي. أعلم هذا من مصدر موثوق... الويتشر...».

- تحدث عن البنية. الويتشر لا يهتم في الوقت الحالي.

- لا أعلم شيئاً عن البنية! لا أعلم شيئاً سوى أن الويتشر سار راكباً إلى سينترا ليأخذها عندما اندلعت الحرب. التقيتهُ عندئذٍ. وقد علم مني عن المذبحة، وعن موت كالانثي... سألني عن الطفلة، عن حفيدة الملكة...

وكنْتُ قد علمْتُ أن الجميع في سينترا ماتوا، ولم تَسَلَم من المعقل الأخير روح حية...

- احكِ. قُلْ من الاستعارات. أكثُر من الحقائق!

- عندما علم الويتشر بسقوط سينترا وبالمذبحة، تخلى عن رحلته. هربنا كلانا إلى الشمال. افترقتُ عنه في هنجفورس، ولم أره منذ ذلك الحين... ومنذ ذلك الحين في الطريق تحدث قليلاً عن هذه... سيرى، أو أيًا كان اسمها... وعن مصيرها... لذا أَلَفْتُ هذه البالادا. أكثر من ذلك لا أعلم، أقسم!

شزره رينس.

سأل: «وَأين ذاك الويتشر الآن؟ قاتل الوحوش المأجور، الجزار الشاعرى محب التحدث عن القَدَر؟».

- قد قلتُ، آخر مرة رأيته فيها...

قاطعه رينس: «أعلم ما قلته. إني أستمع بعناية لما تقول. وأنتَ فلتستمع لي بعناية. أجب عن الأسئلة التي تُطرح عليك بدقة. وكان السؤال كما يلي: إذا لم يرَ أحد الويتشر جيرالت أو جيرالد أكثر من عام، فأين هو يختبئ؟ أين اعتاد الاختباء؟».

قال التروبادور بسرعة: «لا أعلم أين هو. أنا لا أكذب. حقًا لا أعلم...».

ابتسم رينس ابتسامة تنذر بالشر: «بسرعة زائدة يا ياسكير، بسرعة زائدة. بطيب خاطر زائد. أنت حاذق، لكنك غير حذر. أنت لا تعرف أين هو، كما تقول. لكنني أراهن أنك تعلم ما هو».

كزَّ ياسكير أسنانه من شدة الغيظ واليأس.

أعطى رينس الرجلَ النتنَ إشارة: «حسنًا؟ أين يختبئ الويتشر؟ ما اسم ذاك المكان؟».

صمت الشاعر. شدَّ الحبلَ فلولى يديه محدثًا ألمًا، وفقدتُ قدماه الاحتكاك بالأرض. ناح ياسكير نواحًا متقطعًا وقصيرًا، لأن خاتم رينس السحري قد كعمه على الفور.

وضع رينس يديه على وركيه: «أعلى، أعلى. أتعلم يا ياسكير، كان بإمكانني أن أسبر دماغك بطريقة سحرية، لكنه أمر مرهق. ما عدا ذلك، أحب مشاهدة كيف تجحظ الأعين من محاجرها من شدة الألم. وستتكم أنت على أي حال». يعلم ياسكير أنه سيتكلم. شدَّ الحبل الذي يربط كعبيه، وتحرك الدلو المملوء بالجير على الأرضية الصلبة محدثًا صريرًا.

قال العُتْلُ الآخر فجأة حاجبًا الفانوس بردائه ذي القبعة وهو ينظر من خلال شق في باب حظيرة الخنازير: «سيدي، ثمة شخص قادم هنا. أظن أنها فتاة».

صأى رينس: «تعرفان ماذا تفعلان. أطفئ الفانوس».

خَلَّى النتنُ الحبلَ، فسقط ياسكير دون حراك على الأرض، لكنْ بطريقة مكَنَّته من رؤية كيف كان صاحب الفانوس ذاك يقف عند الباب، والنتن يكمن على الجانب الآخر وفي يده سكين طويلة. شَعَّت أضواء الماخور من خلال شقوق الألواح، وتناهت إلى سمع الشاعر غمغمة وغناء ينبعثان من هناك.

صرَّ باب الحظيرة وانفتح، وقفتْ عنده شخصية ليست طويلة القامة متلفعةً بمعطف، معتمرةً قبعةً مستديرةً تضيق على رأسها بإحكام. بعد لحظة تردد، تخطتِ المرأة العتبة. انقض النتن عليها، وبقوة عارمة طعنها بالسكين. وتهاوى راكعًا إذ إن السكين لم تلقَ أي مقاومة، ونفذتْ من خلال حلق الشخصية، كأنها مرت من خلال سحابة دخان. فالشخصية كانت في الواقع سحابة دخان قد أخذت تتبدد. لكنْ قبل أن تأخذ وقتها في التبدُّد، اندفعت شخصية أخرى إلى حظيرة الخنازير، غير واضحة الشكل، داكنة ورشيقة مثل ابن عرس. شاهد ياسكير كيف قفزت فوق النتن ضاربةً بمعطفها صاحب الفانوس ذاك، ولمح شيئًا لمع في راحة يدها، وسمع كيف راح النتن يخنق ويخنخن بتوحش. تفلَّت العتل الآخر من معطفه فوثب ولوَّح بسكين. انطلق من راحة الشخصية الداكنة برق ناري له هسيس، وانسكب بقرقرة مروعة، كزيت حارق، على وجه العتل وصدره. زعق العتل بصوت مرعب، وملأت حظيرة الخنازير رائحةً مقززة من لحم محترق.

عندئذٍ هاجم رينسُ. أضاءت التعويذة التي ألقاها الظلام بوهج أزرق. رأى ياسكير امرأةً نحيلةً ترتدي لباسًا رجاليًا، وكانت تشير بغرابة بكلتا يديها. لمحها لحظةً قصيرةً، فقد اختفى الوميض الأزرق فجأة وسط ضجة ووهج

يعمي الأبصار، أما رينس فانقذف إلى الوراء بمعية زمجرة من الحَنَق، وهوى على حواجز خشبية، فحطمها محدثاً فرقعة. قفزت خلفه المرأة التي ترتدي لباساً رجاليًا، وفي قبضتها لمع خنجر قابل للطي. امتلأت الحظيرة مجددًا بوهج كان هذه المرة ذهبيًا، ينبثق من شكل بيضاوي مضيء ظهر فجأة في الهواء. رأى ياسكير كيف يهب رينس ناهضًا من الأرضية الصلبة ويقفز إلى الشكل البيضاوي متلاشيًا على الفور. فقد الشكل البيضاوي توجهه، لكن قبل أن ينطفئ كاملاً، تمكنت المرأة من الركض والصراخ صراخًا غير مفهوم، وهي تمدُّ يدها. شيء ما تفرقع وأصدر حفيفًا، وهبَّ الشكل البيضاوي الآخذ في الانطفاء خلال لحظة بنار متصاعدة. من مسافة بعيدة، بعيدة جدًا، تناهى إلى سمع ياسكير صوت غير واضح، صوت يشبه إلى حد كبير صراخ الألم. انطفأ الشكل البيضاوي تمامًا، وساد الظلام مجددًا في حظيرة الخنازير. أحس الشاعر أن القوة التي تكتم فمه تختفي.

ناخ: «ساعدوني! النجدة!».

قالت المرأة وهي تجثو بجانبه وتقطع قيده بخنجر رينس القابل للطي: «لا ترتعد يا ياسكير».

- ينيفر؟ هذا أنت؟

- أظن أنك لن تدعي أنك نسيت كيف أبدو. وأظن أن صوتي أيضًا ليس غريبًا على أذنك الموسيقية. يمكنك الوقوف؟ لم يكسروا عظامك؟ نهض ياسكير بصعوبة، تأوه وفرك ذراعيه المتألمتين.

أشار إلى الجثتين الملقاتين على الأرضية الصلبة: «وماذا بشأنهما؟».

قرقعت الساحرة بالخنجر المطوي: «لنتحقق منهما. لا بد أن يكون أحدهما حيًا. سيكون لدي بعض الأسئلة له».

وقف التروبادور فوق الرجل النتن: «هذا الشخص، أظنه حيًا».

قالت ينيفر دون شغف: «لا أظن. هذا، قطعت قصبته الهوائية وشرياه السباتي. ربما لا يزال شيء فيه يخرج صوتًا، لكنه سيصمت بعد قليل».

ارتجف ياسكير.

- هل قطعت حلقة؟

- لو لم أرسلِ الدفقة الوهمية إلى الأمام، بدافع الحذر الفطري، لكنّ مطروحة أرضًا الآن هنا. فلنتفحص هذا الآخر... تَبًّا لدماء الكلاب. انظر، رجل بهذه الضخامة، ولم يحتمل. يا للخسارة، يا للخسارة...

- أهو ميت أيضًا؟

- لم يحتمل الصدمة. هممم... لقد قليئته أكثر من اللازم قليلًا... انظر، حتى أسنانه قد تفحمت... ما بك يا ياسكير؟ هل ستتقيأ؟

أجاب الشاعر بعدم وضوح، منحنيًا ومتكئًا بجبهته على جدار الحظيرة: «سأفعل».



نَحَّت الساحرة الكوبَ، مدتْ يدها إلى سفود الدجاج: «هذا كل شيء؟ ألم تكذب في شيء؟ ألم يفتك شيء؟».

- لا شيء. ما عدا الشكر. شكرًا لك، يا ينيفر.

حدقتُ إلى عينيه، وهزت رأسها قليلًا، فتموجتْ ضفائرها السود اللامعة، وانسابتْ كشلال على كتفها. أزاحت الدجاجة المشوية إلى صحن خشبي، وبدأتْ تقسمها ببراعة. استخدمتِ السكين والشوكة. لم يكن ياسكير يعلم حتى الآن سوى شخص واحد يستطيع أن يأكل الدجاج بمهارة مماثلة بالسكين والشوكة. الآن صار يعلم أين ومن من تعلم جيرالت هذا. ها، فكَر، لا عجب فقد عاش معها عامًا في منزلها في فينجربرج، قبل أن يهرب منها، فغرسَتْ فيه بعض العجائب. سحب الدجاجة الثانية من السفود، دون تفكير، فصَم فخذها وبدأ يقضمها، ممسكًا بها بكلتا يديه بطريقة استعراضية.

سأل: «كيف علمتِ؟ كيف تمكنتِ من المجيء لنجدي في الوقت المناسب؟».

- كنتُ عند بلوبهيرس في أثناء غنائك.

- لم أرك.

- لم أرغب في أن يراني أحد. بعدئذٍ تبعْتُك إلى البلدة. انتظرتُ هنا في النزل، فلم يكن مناسبًا لي أن أذهبَ إلى حيث مضيتُ أنت، إلى ذاك الوكر؛ وكر اللذة المشكوك فيها، وداء السيلان غير المشكوك فيه. ولكنني في النهاية فقدتُ الصبر. كنتُ أحوم على طول الفناء عندما خُيِّلَ إليَّ أنني

أسمع أصواتًا تأتي من حظيرة الخنازير. أصغيتُ، واتضح عندئذٍ أن ذلك لم يكن نوعًا من اللواط البهيمي بتاتًا، كما اعتقدتُ في البداية، بل أنت. هيه، يا صاحبَ الحان! مزيدًا من النبيذ، إذا تكرمت!

- في خدمتكم سيدتي الكريمة! ها أنا آت!

- مثل الذي طلبناه من قبل، من فضلك، لكنْ هذه المرة دون ماء. أُنقبل الماء في الحمام فقط، ولكنْ وجوده في النبيذ ينفرنِي.

- في خدمتكم، في خدمتكم!

نَحَّتْ ينيفر الصحن. كان لا يزال ما يكفي من اللحم على عظام الدجاجة، كما لاحظ ياسكير، لفطور صاحب النزل وأسرته. كانت السكين والشوكة أُنِيقَتين وبديعتين دونما شك، ولكنهما قليلتا الفعالية.

كرر: «شكرًا على إنقاذكِ إياي. رينس الملعون هذا، لم يكن ليتركني حيًّا. ولكان استخرج كل شيء مني وذبحني كخروف».

صَبَّتْ لنفسها وله خمراَ ورفعت الكوب: «أظن ذلك أيضًا. فلنشربْ إذن من أجل صحتك المحفوظة يا ياسكير».

ردَّ التحية: «وصحتكِ يا ينيفر. صحتكِ التي سأصلي من أجلها، من اليوم فصاعدًا كلما سنحتِ الفرصة بذلك. أنا مدين لك، أيتها السيدة الرائعة، سأسدد هذا الدين في أغنياتي. سأدحض الأسطورة التي تزعم أن السحرة لم يكونوا حساسين تجاه الأذى الذي يلحق بالآخرين، وكأنهم لم يسرعوا لجلب المساعدة للغرباء والفقراء وللبنائسين من البشر الفانين».

ابتسمتُ، مضيقَّة قليلًا عينيهَا البنفسجيتين الجميلتين: «حسنًا. للأسطورة مسوغاتها، وهي لم تنتشأ دون سبب. لكنك لست غريبًا يا ياسكير. إنني أعرفك وأكُنُّ لك المودة».

ابتسم الشاعر أيضًا: «حقًا؟ كيف أخفيت ذلك ببراعة حتى الآن. أَلْفِيْتُ بعض الآراء التي تقول إنكِ لا تطيقينني، وأقتبس هنا، كالطاعون».

صارت الساحرة جادة فجأة: «كان الأمر كذلك في وقت ما. ثم غيَّرتُ وجهة نظري. ومن ثَمَّ أصبحتُ ممْتَنَّة لك».

- على ماذا، إذا جاز لي أن أسأل؟

قالت وهي تلعب بالكوب الفارغ: «لا يهْمُ ذلك. فلنعد إلى الأسئلة الأكثر جدية. إلى تلك التي طُرِحَتْ عليك في حظيرة الخنازير، وكانت يداك في غضون ذلك تفصمان من مفصليهما. كيف كان الأمر في الحقيقة يا ياسكير؟ أحقاً أنت لم ترَ جيرالت منذ وقت هروبكما من على ضفة ياروجا؟ حقاً لم تعلم أنه عاد إلى الجنوب بعد انتهاء الحرب؟ وأنه أصيب بجروح خطيرة إلى حد أن شائعات انتشرت معلنة وفاته؟ ألم تكن تعلم شيئاً؟».

- لا. لم أكن أعلم. لقد قضيتُ مدةً طويلةً في بونت فانيس، في بلاط إستراد ثيسين. ومن ثَمَّ عند نيدامير في هنجفورس...

هزت الساحرة رأسها، وحلّت قفطانها. تَلَأَلَتْ على جيدها، على مخمل أسود نجمة من سبج مرصعة بالألماس: «ما علمت... ما علمت أن جيرالت بعد تعافيه من جروحه ذهب إلى ما وراء النهر؟ ألا تخمن عَمَّن كان يبحث هناك؟».

- هذا ما أخمنه. لكن هل وجد من يبحث عنه، لا أعلم.

كررت: «لا تعلم. أنت الذي عادةً تعلم كل شيء وتغني عن كل شيء. حتى في ما يتعلق بالأمر الحميمة التي تخصّ شعور شخص آخر. استمعتُ لقصائدك البالادا يا ياسكير عند بليوبهريس. لقد خصّصتني شخصياً ببضع مقطوعات شعرية».

نبر ناظرًا إلى الدجاجة: «للشعر قوانينه الخاصة. ولا ينبغي لأحد أن يشعر أنه أسيء إليه...».

- «الشعر كجناح غراب يشبه عاصفة ليلية... وفي العينين تكمن بروق بنفسجية...» (اقتبستُ ينيفر بتفخيم مبالغ في النبوة). هل سار الأمر هكذا؟

ابتسم الشاعر قليلاً: «هكذا تذكرتك. كل مَنْ أراد أن يدعي أن هذا الوصف باطل، فليرجمني أولاً بحجر».

- أنا فقط لا أعلم من وُكِّك بوصف أعضائي الداخلية. (زمت الساحرة شفيتها) كيف كان ذلك؟ «قلبها مثل الجوهرة تُزَيَّن رقبتهَا، صلبُ كأنه الألماس، مثل ألماس غير حساس، أحدٌ من السج، جارج...» هل اختلفت ذلك وحدك؟ أو ربما...

ارتعشت شفتها واعوجَّتا.

- ...أو ربما استمعتَ لاعترافات شخص ما وشكاواه؟

تنحنح ياسكير وانعطف مبتعدًا عن الموضوع الخطر: «هممم... أخبريني يا ينيفر، متى رأيتَ جيرالت آخر مرة؟».

- منذ وقت طويل.

- بعد الحرب؟

تغيّر صوت ينيفر بعض الشيء: «بعد الحرب... لا، لم أره بعد الحرب. خلال فترة طويلة... لم أرَ أحدًا. حسنًا، لندخل في صلب الموضوع، أيها الشاعر. أنا مدهوشة قليلًا من حقيقة أنك لا تعلم أي شيء عن ذلك ولم تسمعُ أي شيء، وعلى الرغم من ذلك، يجرجرك أنتَ بالذات شخص ما إلى العارضة راغبًا في الحصول على معلومات. ألا تقلق من ذلك؟».

- أقلق.

قالت بحدة وهي تقرع المنضدة بالكوب: «أصغِ إلي. أصغِ بانتباه. أزل هذه البالادا من قائمة عروضك. لا تغنّها».

- تتحدثين عن...

- أنت تعلم تمامًا عما أتحدث. غنّ عن الحرب مع نيلفجارد. غنّ عن جيرالت وعني، ولن تضرنا بذلك ولن تنفعلنا، ولن تُصلحَ شيئًا ولن تزيدهُ سوءًا. لكن، لا تغنّ عن الشبلة من سينترا.

تلفتت حولها للتحقق أكان أحد من ضيوف الخان القلائل في هذا الوقت لا يصغي إليهما، وانتظرتُ حتى تذهب عاملة التنظيف إلى المطبخ.

قالت بصوت خافت: «حاول أيضًا تجنب الاجتماع بمفردك بأحد من الناس الذين لا تعرفهم؟ أولئك الذين ينسون في البداية إبلاغ التحية من الأصدقاء المشتركين. أتفهم؟».

نظر إليها متفاجئًا. وابتسمتُ ينيفر.

- لك تحية من ديكسترا، يا ياسكير.

نظرَ الشاعر الآن حوله على استحياء. لا بدّ أن دهشته كانت واضحة وتعبير وجهه كانت مضحكة، فقد سمحتِ الساحرة لنفسها بتكشيرة تهكمية إلى حد كبير.

همستُ منحنية فوق المنضدة: «بالمناسبة، ديكسترا يطلب تقريرًا. أنت تعود من فيردن، أما ديكسترا فينصب اهتمامه عما يتحدثون فيه في بلاط الملك إرفيل. لقد طلب أن أخبرك أن التقرير هذه المرة يجب أن يكون موضوعيًا ومفصلًا، وألا يكون شعريًا تحت أي ظرف. نثرًا، يا ياسكير. نثرًا». ابتلع الشاعر ريقه وهز رأسه. صمت متفكرًا في السؤال. لكنَّ الساحرة استبقته.

قالت بصوت خافت: «الأوقات الصعبة قادمة. الصعبة والخطرة. سيحلُّ زمن التغيير. سيكون مؤسفًا أن تكبر في السن ولديك قناعة أنك لم تفعل شيئًا لتكون التغييرات القادمة تغييرات نحو الأفضل. أليس كذلك؟».

وافق بإيماءة قصيرة من رأسه، وتنحنح.

- ينيفر؟

- أسمعك أيها الشاعر.

- هؤلاء الذين كانوا في حظيرة الخنازير... أودُّ أن أعلم من كانوا، وماذا أرادوا، ومن أرسلهم. لقد قتلت اثنين منهم، لكنَّ الشائعات تقول إنكم تستطيعون الحصول على المعلومات حتى من الموتى.

- أولًا تعلن الشائعات أن استحضر الأرواح محرم بمرسوم مجلس التشريف؟ دعك من ذلك يا ياسكير. ولعل هؤلاء المأجورين لم يعلموا الكثير على أي حال. وذاك الذي هرب... هممم... الأمر معه مختلف.

- رينس. لقد كان ساحرًا، أليس كذلك؟

- بلى. لكنه ليس ماهرًا جدًّا.

- لكنه تمكن من الهروب منك. ورأيت بأي طريقة. لقد نقل نفسه نقلًا آنيًا، أليس كذلك؟ ألا يثبت ذلك شيئًا؟

- بلى، إنه يثبت. أن أحدًا ما قد ساعده. لم يكن لدى رينس هذا لا الوقت الكافي ولا القوة الكافية لفتح بوابة بيزاوية معلقة في الهواء. إن مثل هذا الانتقال الآني أمر لا يستهان به. ومن الواضح أن شخصًا آخر فتحها. شخص أقوى على نحو لا يقارن به. لذلك كنتُ خائفة من مطاردته، غير عالمة في أي مكان سأهبط. لكنني أرسلتُ خلفه طاقة حرارية عالية إلى

حد كافٍ. سيحتاج إلى الكثير من التعاويذ وجرعات الإكسير الفعّالة ضد الحروق، ومع ذلك سيظل معلّمًا بعض الوقت.

- ربما يثير اهتمامك أنه كان نيلفجارديًا.

استقامتُ ينيفر، وبحركة سريعة أخرجت من جيبها الخنجر القابل للطي، قلبّته في راحة يدها: «هكذا تظنّ؟ يحمل كثير من الأشخاص الآن سكاكين نيلفجاردية. إنها مريحة وسهلة الاستخدام، ويمكن إخفاؤها حتى خلف تقويرة الثوب...».

- الأمر لا يتعلق بالسكين. عندما كان يحقق معي استخدم تعابير مثل «معركة سينترا» أو «الاستيلاء على المدينة» أو شيئًا من هذا القبيل. لم أسمع أحدًا قطّ سمى هذه الأحداث على هذا النحو. كان ذلك بالنسبة إلينا يسمى دائمًا مذبحه. مذبحه سينترا. لا أحد يقول غير ذلك.

رفعتِ الساحرة كفها وتفحصتْ أظفارها.

- فطنّ أنت يا ياسكير. لديك أذن حساسة.

- ميول مهنية.

ابتسمتُ بغَنَج: «تُرى، ما المهنة التي تقصد؟ لكنّ شكرًا لك على هذه المعلومة. كانت ثمينة».

أجاب بابتسامة: «فليكنّ ذلك مساهمة لي في التغيير نحو الأفضل. قل لي يا ينيفر، لماذا تهتم نيلفجاردي إلى هذه الدرجة بجيرالت والصبيّة من سينترا؟».

أصبحتُ جادة فجأة: «لا تدسّ أنفك في هذا الأمر. قلتُ لك، عليك أن تنسى أنّك سمعت في وقت ما عن حفيدة كالانثي».

- نعم، لقد قلت. لكنني لا أبحث عن موضوع للبلاذ.

- إذن عمّ تبحث بحق الشيطان؟ عن المتاعب؟

قال بصوت خافت ساندًا أسفل ذقنه على كفيه المتشابكتين، ونظر إلى عيني الساحرة: «لنفترض. لنفترض أن جيرالت عثر فعلاً على هذه الطفلة وأنقذها. لنفترض أنه آمن أخيرًا بقوة القدر وأخذ معه الطفلة التي عثر عليها. إلى أين؟ حاول رينس أن يرغمني على الكلام بوسائل التعذيب. وأنّ تعلمين يا ينيفر. تعلمين في أي مخبأ اختفى الويتشر».

- أعلم.

- وتعلمين كيف الوصول إلى هناك؟

- وأعلم ذلك.

- ألا ترين أن من الواجب تحذيره؟ وإخطاره أن أشخاصًا مثل رينس ومن على شاكلته يبحثون عنه وعن الصبيّة؟ وددتُ المضي إلى هناك، لكنني لا أعرف حقًا ذلك المكان... ذلك المكان الذي أفضلُ عدم ذكر اسمه...

- هاتِ استنتاجك يا ياسكير.

- إن كنتِ تعلمين أين جيرالت، فينبغي أن تذهبي إليه وتحذريه. أنتِ مدينة له بشيء، يا نينفر. فإن شيئًا كان يربطك به.

أكدتُ ببرود: «نعم. كان يربطني به شيء. ولهذا أعرفه بعض الشيء. لم يكن يحب أن أفرض عليه المساعدة. وإذا احتاج إلى مساعدة بحث عنها عند الأشخاص الذين كان يثق بهم. مرّ أكثر من عام على تلك الأحداث، وأنا... لم يصل إليّ منه أي خبر. أما ما يخص الدين، فأنا مدينة له بالقدر ذاته الذي يدين لي به. لا أقل ولا أكثر».

رفع رأسه: «إذن فأنا ذاهب إلى هناك. قولي لي...».

قاطعتُه: «لن أقول؛ أوراقك مفضوحة أمامهم، يا ياسكير. يمكنهم الإمساك بك من جديد، كلما قلّت معرفتك، كان الأمر أفضل. اختفِ من هنا. سرّ إلى ريدانيا، إلى ديكسترا وفيليبا إيلهارت، والزم بلاط فيزيمير. مرةً أخرى أنذرك: انسَ شبلّة سينترا. انسَ سيرى. تظاهرْ أنك لم تسمع بهذا الاسم قطّ. افعل ما أطلب منك. لا أريد أن يلقاك شيء من السوء. أنا أودك كثيرًا، وأدين لك بالكثير...».

- هذه هي المرة الثانية التي تقولين ذلك. بماذا تدينين لي يا نينفر؟

أدارت الساحرة رأسها وصممت طويلاً.

وأخيرًا قالت: «لقد سافرت معه. بفضلِكَ لم يكن وحده. كنتَ صديقه. كنتَ معه».

أرسل الشاعر نظره إلى الأسفل.

تمتم: «لم يكسب الكثير من ذلك. لم يفد من هذه الصداقة إلا الشيء القليل. لقد وقع في المتاعب بسببي أساساً. كان عليه أن ينتشلني من المآزق باستمرار... وأن يساعدني...».

انحنى على المنضدة، ووضعت يدها على كفه، وضغطتها بقوة، دون أن تنطق ببنت شفة. بان في عينيها الأسف.

كررت بعد لحظة: «امض إلى ريدانيا. إلى تريتوجور. ستكون هناك تحت رعاية ديكسترا وفيليبا. لا تحاول أن تؤدي دور البطل. لقد ورطت نفسك في أمر خطر يا ياسكير».

تجهّم ودلّ كتفه المتألمة: «لقد أدركت ذلك: ولهذا السبب بالذات أرى أن من الواجب تحذير جيرالت. أنت الوحيدة التي تعلمين أين يمكن البحث عنه. تعرفين الطريق. أظن أنك كنت هناك... ضيقاً...».

استدارت ينيفر. رآها ياسكير كيف زمت شفتيها، وكيف ارتعشت عضلة خدها.

قالت، وكان شيء ما خفيّ غريب في صوتها: «نعم، حدث لي ذلك ذات مرة. حدث لي أن كنت ضيقاً هناك. لكن، لم يحدث قط أن كنت ضيقاً غير مرغوب».



زمجرت الرياح هائجة، وموجت رؤوس العشب التي كانت تنمو على الخرائب، وأحدثت هزيراً بين شجيرات الزعرور ونباتات القراص الطويل. جرت السحب من خلال هالة القمر، مضيئة القلعة لحظات، غامرة بالوهج الخندق الشاحب، المتموج من جراء الظلال، وبقايا الجدار التي تكشف عن كويمات من جماجم تبرز منها أسنان مكسرة، تنظر إلى العدم بنقوب سود لمحاجر أعينها. صرّت سيرى صريراً رقيقاً، وخبأت رأسها تحت معطف الويتشر.

خطت الفرس بحذر، مدفوعةً بعقبها فوق كومة الطوب، ودخلت تحت الرواق المقنطر المتحطم. أحدثت الحدوات، وهي تفرقع على البلاط الحجري بين الجدران، أصداً مخيفةً كتمها هدير الرياح العاصفة. كانت سيرى ترتعش، غارزة يديها بين خصلات غرتها.

همست: «إني خائفة».

أجاب الويتشر وهو يضع راحته على كتفها: «عليك ألا تخافي شيئاً. صعب إيجاد مكان آمن في العالم كله. هذه هي كاير مورهين، موطن الويتشريين. كان هنا قصر منيف. منذ زمن بعيد».

لم تجب، حنتُ رأسها إلى الأسفل. كانت فرس الويتشر، التي تُدعى روش، تشخر بخفوت، كما لو كانت تريد هي أيضاً أن تهدئ من روعها.

هبطوا في هاوية مظلمة، في نفق أسود طويل لا نهاية له بين الأعمدة والأروقة المقنطرة. خطتُ روش بثقة وإقدام، لا تأبه بالظلام الذي لا يمكن اختراقه، وقرقعت بحدواتها على الأرضية بهمة.

فجأة توهج أمامهم، في نهاية النفق، خط عمودي مستقيم بضوء أحمر. أصبح باباً وقد كُبر واتسع، ومن خلفه انبعث شعاع شاحب وهج وامض من مشاعل خشبية مثبتة في حوامل حديدية على الجدران. وقفتُ عند الباب شخصية سوداء، كانت تنطمس في الوهج.

سمعتُ سيرى صوتاً معدنياً ينبر شراً، يبدو كأنه نباح كلب: «من؟ جيرالت؟».

- نعم، يا إسكيل. هذا أنا.

- ادخل.

ترجّل الويتشر، وأنزل سيرى عن السرج، ووضعها على الأرض، ثم دس بين يديها الصُرة الصغيرة التي التقطتها بقوة بقبضتيها كلتيهما، شاعرة بالأسف لأن الصُرة صغيرة جداً بحيث لا يمكنها الاختباء خلفها كاملة.

قال: «انتظري هنا مع إسكيل. سأخذ روش إلى الإصطبل».

زمجر الرجل الذي يسمى إسكيل: «تعالِ إلى الضوء أيها الصغير. لا تقف في الظلام».

نظرتُ سيرى نحو الأعلى إلى وجهه، وبصعوبة كتمت صرخة الرهبة. إنه لم يكن إنساناً. مع أنه كان واقفاً على رجلين، ومع أن رائحة العرق والدخان فاحت منه، ومع أنه كان يرتدي ملابس البشر العادية، لم يكن إنساناً. فكرت: لا يوجد إنسان يمكن أن يكون له مثل هذا الوجه.

كرّر إسكيل: «حسناً، ماذا تنتظر؟».

لم تتحرك. ومن خلال الظلام، سمعت وقعَ حدواتِ روشِ يبتعد. شيء ما طري وزاعق جرى على قدمها. فقفزت.

- لا تقفُ في الظلام أيها الولد، فسوف تعض الجردان رقبة حذائك.
سارتُ سيرى بسرعة، حاضنة الصُرة، تجاه الضوء. صأت الجردان وهي تفرُّ من تحت رجلها. انحنى إسكيل فأخذ منها الصُرة ونزع قلنسوتها.
تمتم: «اللعة. صبية. هذا ما كان ينقصنا».

نظرتُ إليه وقد اعتراها الخوف. ابتسم إسكيل. فرأتُ أنه إنسان، على غير ما ظننتُ، وأن له وجهًا بشريًا طبيعيًا تمامًا، إلا أنه مشوه بندبة طويلة قبيحة نصف دائرية تمتد من زاوية فمه على طول خده كاملاً، وحتى أذنه.

قال: «إذ إنك قد صرتِ هنا، فمرحباً بك في كايِر مورهيِن. بماذا ينادونك؟»
أجاب عنها جيرالت بصوت خفيض، وهو يبزغ من العَمة: «سيري».
استدار إسكيل. فجأة وبسرعة، دون أن ينبسا بكلمة، تلاقى الويتشران في عناق شديد، التفتَ أذرعهما على بعض بصلابة. لحظة واحدة وجيزة.
- أنت حي، أيها الذئب.
- حي.

أخرج إسكيل المشعل من حامله: «حسنًا، لا بأس. تعالوا. سأغلق البوابة الداخلية فالدفع يتسرب خارجًا».

ساروا في الرواق. الجردان كانت هنا أيضًا، اندفعتُ أسفل الجدران، وصأتُ من أعماق الممرات الجانبية المعتمة، فارة من دائرة الضوء المتمائلة التي يرسلها المشعل. حثتُ سيرى الخطى محاولة مواكبة خطو الرجلين.

- من يسكن هنا، يا إسكيل؟ ما عدا فيسمير؟

- لامبرت وكوئين.

نزلوا خلال الدرج الزلق والمنحدر بشدة. في الأسفل كان يمكن رؤية انعكاس الضوء. سمعت سيرى أصواتًا وشمّت رائحة دخان.

كانت القاعة فسيحة، يغمرها الضوء من الموقد الكبير الصاخب بالسنة اللهب المتصاعدة في فجوة المدخنة. شغلّت منتصفها منصدة ضخمة وثقيلة. يمكن أن يجلس إلى هذه المنصدة عشرة أشخاص على الأقل. وكان ثلاثة

جالسين. ثلاثة أشخاص. ثلاثة من الويتشريين، صَحَّحتْ سيرى لنفسها وهي تفكر. لم تَرَ سوى أطياف على خلفية جمر الموقد.

- مرحباً أيها الذئب. لقد انتظرناك.

- مرحباً فيسمير. مرحباً يا شباب. ما أجمل العودة إلى البيت من جديد.

- مَنْ جلبتَ إلينا؟

صمتَ جيرالت لحظة، ثم وضع يده على كتف سيرى ودفعها إلى الأمام بنعومة. سارتُ بتثاقل، غير واثقة، منكمشةً، حانيةً ظهرها، خافضةً رأسها. أنا خائفة، فكرتُ. خائفة جداً. عندما وجدني جيرالت وأخذني معه، اعتقدتُ أن الخوف لن يعود، وأن ذلك قد ولى... وها أنا في هذه القلعة المظلمة الرهيبة المدمرة، الممتلئة بالجرذان والأصداء الكابوسية، بدلاً من أن أكون في البيت... أقف أمام جدار النار الأحمر من جديد. أرى شخصيات سوداء مخيفة، أرى أعيناً شريرة، تلتمع على نحو لا يصدق، تحقق إليّ...

- من هذه الطفلة، أيها الذئب؟ من هي هذه البنية؟

تلعثم جيرالت فجأة: «إنها...».

أحسْتُ بوجود راحتيَّ القويتين الصلبتين على كتفيها. وتلاشى الخوف. اختفى دونما أثر. وكانت النار الحمراء الصاخبة تُقدِّم الدفء. الدفء فحسب. كانت الأطياف السود أطيافاً لأصدقاء. أوصياء. أظهرت الأعين اللامعة فضولها. واهتمامها. وقلقها...

ضغطتُ يدا جيرالت على كتفيها.

- إنها قدرنا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

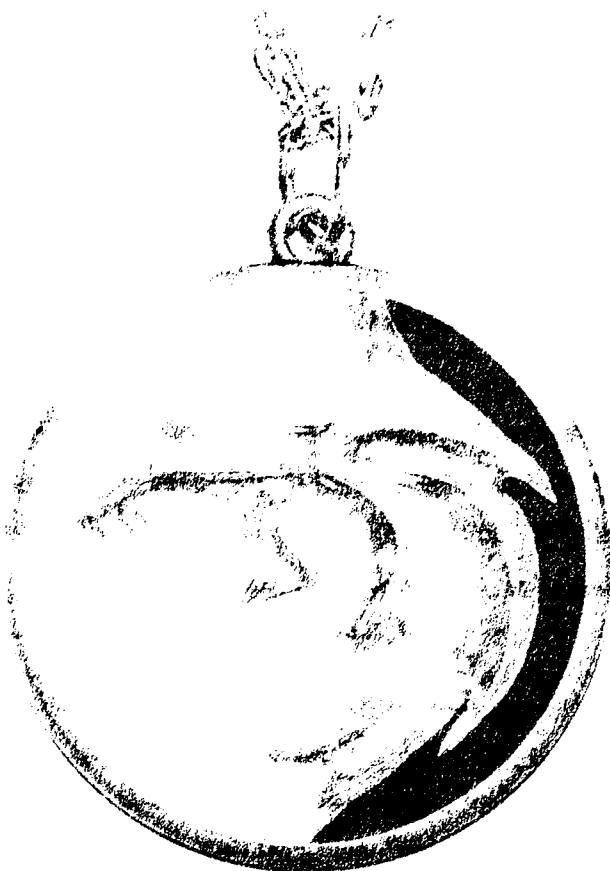
حقًا، ليس لديك ما هو أشنع من هؤلاء الوحوش،
المخالفين للطبيعة، الذين يُسمون بالويتشريين، لأنهم
ثمرات السحر القذر وسوءات الشياطين. إنهم أوغاد لا فضيلة
لديهم ولا ضمير ولا وازع، مخلوقات حقيقية جهنمية، لا
يصلحون إلا للقتل. ليس لديك لأمثالهم مكان بين الشرفاء
من الناس.

وتلك كير مورخين، حيث يعيش هؤلاء الفاجرون، حيث
يقومون بممارساتهم الشنيعة، يجب أن تُمحي من على وجه
الأرض، وأن يُطمر ما تبقى من أثرها بالملح والملح الصخري.
كاتب مجهول، في وصف الوحش أو الويتشر

دائمًا ما كان التعصب والخرافات ملكًا للحمقى بين العامة،
وفي رأيي، لن تُستأصل شأفتهم أبدًا، لأنهم خالدون تمامًا
مثل الحمق نفسه. هناك حيث تشرق الشمس اليوم الجبال، ستظهر
يومًا ما بحار، هناك حيث تموج اليوم البحار، ستظهر يومًا ما
صحاري. والحمق سيبقى حمقًا.

نيقوديموس دي بوت،

تأملات في الصحة والسعادة والفلاح



الفصل الثاني

نفختُ تريس ميريغولد على يديها المتجمدتين، حركتُ أصابعها وتمتمت بصيغة سحرية. على الفور، استجاب للتعويذة حصانُها الخَصِيُّ ذو اللون البني المصفر، فشخر، ونخر، ثم أدار رأسه ناظرًا إلى الساحرة بعين دامعة جراء البرد والريح.

قالت تريس وهي ترتدي قفازيها: «أمامك خياران يا رجل. إما أن تعتاد السحر، وإما سأبيعك للفلاحين لتحرث بالمحراث».

رفع الخَصِيُّ أذنيه، ونفث بخارًا من منخريه، وتحرك مطيعًا نازلاً على المنحدر الغابي. انحنت الساحرة على السرج، متجنبًا ضربات الأغصان المغطاة بالصقيع.

فعلت التعويذة فعلها بسرعة، ولم تعد تحس بوخز البرد في مرفقيها وعنقها، واختفى الانطباع المزعج الذي يسببه البرد، حين يجعل المرء يحني ظهره ويخفض رأسه إلى ذراعيه. وإذ دَفَّأها السحر، خَفَّفَ أيضًا من وطأة الجوع الذي راح يفرم معدتها منذ عدة ساعات. ابتهجتُ تريس وفضفضتُ جلستها على السرج بطريقة أكثر إراحة، وشرعتُ في مراقبة المنطقة المحيطة بتركيز أكبر من ذي قبل.

منذ لحظة تركها الدرب الذي يعج بالحركة، أرشدها إلى اتجاه المسير جدارُ الجبال الرمادي المبيض، والقمم المغطاة بالثلوج اللامعة ذهبًا في هذه اللحظات النادرة، عندما تنبثق فيها الشمس من الغيوم، وكثيرًا ما يحدث هذا في الصباح وقُبيل الغروب. الآن وقد أصبحتُ أقرب إلى سلسلة الجبال، كان

عليها أن تنتبه أكثر. فقد اشتهرت المناطق المحيطة بكابير مورھين بوحشتها وتعذر الوصول إليها، والثغرة في الجدار الجرانيتي التي كان ينبغي السير تجاهها لم يكن سهلاً على العين غير المدربة إيجادها. كان يكفي الانعطاف إلى أحد الأودية أو الأخاديد العدة ليفقد أثرها، وتتلاشى عن مرمى البصر. حتى هي التي عرفت المنطقة جيداً، وعرفت الطريق، وكانت تعلم أين تبحث عن الممرات الجبلية، لم تسمح لنفسها بلحظة تخلو من التركيز.

انتهت الغابة. امتد أمام الساحرة وادٍ عريض تتناثر فيه الحصباء، ويصل إلى منحدرات سحيقة على الجانب المقابل. وكان نهر الحجارة البيض، جفينليخ، يتدفق وسط الوادي هائجاً ومزبداً بين الصخور وجذوع الأشجار التي يحملها التيار. هنا، في المجرى الأعلى، لم يكن جفينليخ سوى جدول ضحل، مع أنه كان عريضاً واسعاً. هنا، كان ممكناً اجتيازه دونما صعوبة. في المكان الأكثر انخفاضاً، في كايدين، في المجرى الأوسط، يمثل النهر عقبة لا يمكن التغلب عليها؛ كان سريع الجريان وينكسر في الأخاديد العميقة.

سرّع الخصي المدفوع إلى الماء خطوه، ومن الواضح أنه كان يرغب في بلوغ الشاطئ المقابل في أسرع وقت ممكن. كبحتة تريس قليلاً، فقد كان التيار ضحلاً، يصل إلى ما فوق رسغ الحصان بقليل، لكن الحجارة التي تغطي القاع كانت زلقة، والتيار كان حاداً وحثيثاً. وماج الماء وأزبد حول ساقى الدابة.

رنت الساحرة إلى السماء. يمكن للبرد والرياح الآخذين بالاشتداد أن يكونا هنا في الجبال، نذير عاصفة ثلجية، ولم يرق لها كثيراً احتمال قضاء ليلة أخرى في كهف أو في غار صخري. كان بإمكانها، لو اضطرت، مواصلة رحلتها حتى في خضم العاصفة الثلجية، وبإمكانها تعرف الطريق بوساطة التخاطر، وبإمكانها أن تتبلد حساسيتها تجاه البرد بوسيلة سحرية. كان يمكنها ذلك لو اضطرت. لكنها فضلت ألا تضطر إلى فعل ذلك.

من حسن الحظ، صارت كابير مورھين قريبة. دفعت تريس الخصي إلى ركام الحصى السطوح، إلى شكل موشوري ضخم من الحجارة جرفته الأنهار الجليدية والجداول، ودخلت في منفذ ضيق وسط الكتل الصخرية. شمخت جدران الأخدود عمودياً، وبدت أنها تلامس منقسمة الخط الضيق من السماء في الأعالي. أصبح الجو أكثر دفئاً، فلم تعد الرياح المزمجرة فوق الصخور تصل إليها، ولم تعد تسوطها أو تقرصها.

اتسع المنفذ، مفضياً إلى غور، ثم إلى وادٍ، وإلى وهدة كبيرة مستديرة تمتدُّ بين الصخور المسننة، ومغطاة بغابة. تجاهلتِ الساحرة الحافات الطيعة التي يمكن بلوغها وولجت في الغابة العظيمة مباشرة وفي عرين الحيوانات الكثيف. تشققتِ الغصون الجافة تحت الحوافر. شخر الخصيُّ وقد أُجبر على تخطي جذوع الشجر الساقطة، وتراقص بين خبط ودوس. سحبت تريس الزمام وشدت الحصان من أذنه المشعرة ووبّخته بوقاحة، في إشارة خبيثة إلى إعاقته. واصل الجواد، الذي أعطى انطباعاً أنه محرج، السير على نحو أكثر توازناً وأكثر ثقة، مختاراً الدرب وسط الأجمة.

سرعان ما خرجا إلى أرض أقل وعورة، ودخلا في مجرى جدول، لا يكاد مأؤه يتدفق خلال قاع الغور. تلفتت الساحرة حولها بانتباه. وفي لحظات وجيزة وجدت ما كانت تبحث عنه. فوق الإفجيج المدعوم بالصخور الضخمة، استلقى على نحو مستو جذع شجرة ضخمة، داكن، عارٍ، مخضر من الطحالب. سارت تريس مقتربة أكثر، تريد التأكد أكان هذا هو المسلك حقاً، وليس شجرة أسقطتها العاصفة عرّضاً. بيد أنها رأت درباً ضيقاً غير واضح، يتلاشى وسط الغابة. لا يمكن أن تكون مخطئة؛ لقد كان ذلك يقيناً هو المسلك المحيط بقلعة كاير مورهين المكتظ بعوائق المسار المطروق الذي تدرب عليه الويتشريون على سرعة الجري والتحكم في النفس. سُمي المسار المطروق بالمسلك، لكن تريس علمت أن الشباب من الويتشريين كان لديهم اسم خاص يطلقونه عليه: «موردوفنيا»⁽¹⁾.

تشبّثت برقبة الحصان، فوصلت ببطء إلى أسفل ساق الشجرة. وعندئذٍ سمعت طقطقة حجارة. وخطوات سريعة وخفيفة لإنسان يركض.

استدارت على السرج وشدت الزمام. انتظرت حتى يُهرع الويتشر إلى جذع الشجرة.

هُرع الويتشر إلى الجذع، وطار فوقها كالسهم، دون أن يبطن، ودون حتى أن يوازن نفسه بذراعيه، بخفة وسلاسة وانسيابية، وبرشاقة لا تصدق. مرّ كالبرق، وظهر، واختفى بين الأشجار دون أن يصدم غصيناً واحداً. تنهدت تريس بصوت عالٍ وهي تدير رأسها غير مصدقة.

لأن الويتشر، كما يوحي طولُه وبنيته، كان عمره ما يقارب اثني عشر عاماً.

(1) موردوفنيا، كلمة بولندية تعني: حانة متدنية المستوى وتكثر فيها المشاجرات.

ضربت الساحرة الحصانَ البنيَّ المصفرَّ بعقبها، وخلَّت الزمام وانطلقت به خبيبًا إلى أعلى الجدول. كانت تعلم أن المسلك يقطع الغورَ مرةً ثانيةً، في مكان يُعرَف باسم «المضيق». أرادت أن تلقي نظرة على الويتشر الصغير من جديد. فهي تعلم أن الأطفال في كير مورهيْن لم يُدرَّبوا منذ ما يقرب من ربع قرن.

لم تستعجل كثيرًا. كان مسلك موردوفنيا متعرجًا وطويلاً إلى حد الملل وسط غابة الصنوبر، وكان لا بدَّ للويتشر الصغير، من أجل قطعه، أن يقضي وقتًا أطول بكثير منها وهي تقود حصانها مختصرةً الطريق. لكنها أيضًا لم تكن لتتباطأ. وراء المضيق، ينعطف المسلك إلى الغابات فيؤدي مباشرة إلى الحصن. لو لم تلق الصبي عند الهاوية، ما تمكنت فعلًا من رؤيته قط. لقد ترددت على كايِر مورهيْن عدة مرات من قبل، وكانت مدركة حقيقة أنها لم تشاهد هناك إلا ما أراد الويتشريون أن يُروها. لم تكن تريس ساذجةً إلى درجة لا تجعلها تعلم أنهم أرادوا أن يُروها جزءًا ضئيلًا مما كان يمكن مشاهدته في كايِر مورهيْن.

بعد بضع دقائق من السير خلال مجرى الجدول الصخري، لاحظت المضيق، وهو صدع تشكَّل فوق الإفجيج جرَّاء صخرتين كبيرتين مطحلتين نمت عليهما شجيرات متقزمة غريبة الشكل. أرخت الزمام. ونخر البنيُّ المصفرُّ وخفض رأسه نحو الماء الذي كان يبقبِق بين الحصى.

لم تنتظر طويلاً. ظهر طيف الويتشر على الصخرة، قفز الولد دون أن يبطئ من ركضه. سمعت الساحرة رجَّة هبوط ناعمة، وبعد لحظة سمعت قعقة حجارة، وصوت سقوط مكتوم وصراخ خافت. أو بالأحرى صرير.

دون طول تفكير، قفزت تريس نازلةً من السرج، وخلعت عن كتفيها فروتها، ثم اتجهت إلى المنحدر، جاريةً نفسها إلى الأعلى وراء جذور الأشجار وأغصانها. تسلقت الصخرة بهمة كبيرة، لكنها انزلقت على إبر الصنوبر وسقطت على ركبتيها بجوار الطيف المنكمش على الحجارة. هبَّ المراهق مثل نابض، وتراجع بسرعة خاطفة وأمسك برشاقة بالسيف الملقى على ظهره، لكنه تعثَّر ووقع بين أشجار العرعر والصنوبر. لم تنهض الساحرة من كبوتها، ونظرت إلى الولد وقد فتحت فمها من وقع دهشتها.

لأنه لم يكن ولدًا بتاتًا.

رنتُ عياناً خضراوان زمرديتان، ضخمتا الحجم، من تحت غُرَّة شعرها الرمادية الزاهية والمقصوفة من غير اتساق وجمال، وهما علامتان مهيمنتان في وجهها الصغير الضيق الذقن والمرفوع الأنف إلى الأعلى قليلاً. كان في هاتين العينين دعر مباغت.

قالت تريس من غير ثقة: «لا تخافي».

فتحتِ البُنْيَّة عينيها على نحو أوسع بكثير. تكاد لا تتنفس وتبدو أنها معرَّقة. كان جلياً أنها قد ركضتُ في موردوفنيا أكثر من يوم واحد.

- هل حدث لك شيء؟

لم تجبِ البُنْيَّة، وبدلاً من ذلك نهضتُ بخفة، وأنت من الألم، وإذا نقلتُ ثقلَ جسدها إلى ساقها اليسرى انحنتُ ودلكتُ ركبتيها. كانت ترتدي ما يشبه طقمًا جلدياً، مخيطاً -أو بالأحرى مُرْكَبًا بإهمال- بطريقة ستجعل أي خياط يحترم حرفته ينوح يأساً وحنقاً إذا ما رآه. الأشياء الوحيدة التي بدتُ جديدة ومتناسقة نسبياً من أغراضها، هي الحذاء الذي يصل إلى الركبة، والأحزمة والسيف. وعلى نحو أدق، السُّيْف.

كررتُ تريس ولمّا تنهض من على ركبتيها: «لا تخافي. سمعتُ كيف وقعتِ فاعتراني الخوفُ، ولهذا السبب هُرِعتُ بهذه الطريقة إلى هنا...».

تمتمتِ الفتاة الصغيرة: «لقد انزلتُ».

- هل أصابك ضرر ما؟

- لا. وأنت؟

انفجرتِ الساحرة ضاحكةً، وحاولتِ النهوض، فعبستُ وأطلقتُ شتيمة، وقد مزَّقتها الألم الذي انتاب عقبها. جلستُ، ومددتُ قدميها بحذر، وشتمتُ مجدداً.

- تعالي هنا يا صغيرة، ساعديني على النهوض.

- أنا لستُ صغيرة.

- لنتقبل ذلك. فإذن من أنت؟

- ويتشرية!

- ها! اقتربي إذن، وساعديني على النهوض أيتها الويتشرية.

لم تبرح الصبية مكانها. ونقلت ثقل جسدها من رجل إلى أخرى، وعبثت في حزام سيفها بكفها التي كانت في قفاز صوفي لا أصابع له، مُوجِّهة نظرها إلى تريس بريبة.

ابتسمت الساحرة: «لا تخشي شيئاً. لستُ قاطعة طريق أو شخصاً ما غريباً. اسمي تريس ميريجولد، ذاهبة إلى كاير مورهين. الويتشريون يعرفونني. لا تبخلقي موسعة عينيك تجاهي. إني أشيد بحذرك، لكن كوني متعلقة. هل كنتُ سأصل إلى هنا إذا لم أكن أعرف الطريق؟ هل قابلت على المسلك مخلوقاً بشرياً من قبل؟».

تغلّبت الفتاة الصغيرة على تردددها، واقتربت أكثر، ومدت يدها. نهضت تريس مستفيدة بدرجة ليست كبيرة من المساعدة. فلم يتعلق الأمر بالمساعدة. بل أرادت أن تتفحص البنية من كثب. وأن تلمسها.

لم تش عينا الويتشرية الصغيرتان الخضراوان بأي علائم طفرة ما، ولم تثّر لمسة يدها الصغيرة خدراً خفيفاً لطيفاً، وهو ما يُعد خصيصة من خصائص الويتشريين. ومع أن الطفلة ذات الشعر الرمادي ركضت على طول المسلك موردوفنيا والسيف على ظهرها، فلم تخضع لاختبار الأعشاب ولا للتغيرات. كانت تريس متأكدة من ذلك.

- أرني ركبتك أيتها الصغيرة.

- أنا لست صغيرة.

- آسفة. ولكنني أظن أن لك اسماً ما؟

- لي اسم. أنا... سيري.

- سررتُ بمعرفتكَ. اقتربي أكثر، لو سمحتِ يا سيري.

- لا شيء أشكو منه.

- أريد أن أرى كيف يبدو هذا الـ «لا شيء». أوه، هذا ما ظننتُ. هذا الـ

«لا شيء» يشبه إلى حد التطابق السروال المقطع والجلد الممزق حتى أعماق اللحم. قفي بهدوء ولا تخافي.

- أنا لستُ خائفة... أووو!

ضحكت الساحرة بصوت خفيض، وحكّت وركها بيدها التي سببت لها التعويذة الحكة. انحنت البنية وتفحصت ركبتها.

قالت: «أووو. لم تعدْ تؤلمني! ولا يوجد ثقب... هل هذا سحر؟».

- لقد حُزرتِ.

- أنتِ عرّافة؟

- حُزرتِ مجدداً. مع أنني أعترف أنني أحبذ أن يُطلق عليّ ساحرة. ولتلافي الالتباس، يمكنكِ استعمال اسمي. تريس. ببساطة تريس. تعالي، يا سيرى. حصاني ينتظر في الأسفل، سنذهب إلى كاير مورهيّن معاً. أدارتُ سيرى رأسها يميناً ويساراً: «ينبغي لي أن أركض. ليس من الجيد التوقف عن الجري، فعندئذٍ يتشكل حليب في العضلات. يقول جيرالت...».

- هل جيرالت في الحصن؟

اكتأبتُ سيرى، زَمْتُ شفّتيها، وحدجتِ الساحرة من تحت غرتها الرمادية الزاهية. ضحكتُ تريس ضحكة خفيفة من جديد.

قالت: «حسنًا. لن أسأل. السر سر، إنك تفعلين الشيء الصحيح بعدم البوح به لشخص تكادين لا تعرفينه. تعالي. حال وصولنا إلى المكان، سنرى مَنْ سيكون في القلعة، ومَنْ لن يكون. ولا تقلقي بشأن العضلات، أعلمُ كيف أتدبر أمر حمض اللبن. أوه، وهنا حصاني. سأساعدك...».

مدتُ يدها، لكنَّ سيرى لم تكن في حاجة إلى المساعدة. وثبتتُ إلى السرج برشاقة وخفة، دون أن ترتدّ تقريباً. انتفض الخصيُّ متفاجئاً، وخبط لكنَّ البنية التقطتِ الزمام وهذأته.

- أنتِ تجيدين التعامل مع الخيول، كما أرى.

- أجد التعامل مع كل شيء.

وضعتُ تريس قدمها في الرُّكاب وأمسكتُ بعُرف الحصان: «تُرحّضني لتقتربي من قربوس السرج أكثر. افسّحي المجال لي. ولا تثقبي عيني بهذا السيف».

مشى الخصي على طول مجرى الجدول وكان يُوكِّز بعقبِي راكبه. عبروا إفجيجاً آخرَ وتسلقوا تلة بيضاوية. من هناك، صار من الممكن رؤية أطلال كاير مورهيّن تُطوّقها التصدعات الحجرية، على شكل شبه المنحرف الذي يُشكِّله السور الدفاعي المدمر جزئياً، وبقايا المرقب والبوابة، والعمود المفطوح المبتور للبرج الحامي.

نخر الخصي وهز رأسه عابرًا الخندق المائي من خلال بقايا الجسر. شدت تريس الزمام. لم تُثر الجماجم والهيكل العظمي البالية المرمية في قاع الخندق، أيَّ انطباع في نفسها. لقد رأتها من قبل. نطقت البُنْيَّة فجأة: «أنا لا أحب ذلك. هذا ليس ما ينبغي أن يكون. يجب دفن الموتى في الأرض. تحت جثوة. أليس صحيحًا؟». أكّدت الساحرة بهدوء: «صحيح. أنا أعتقد ذلك أيضًا. لكنّ الويتشريين يعاملون هذه المقبرة على أنها... تذكير».

- تذكير بماذا؟

وجهت تريس حصانها نحو الأوراق المتصدعة: «كاير مورهيّن تعرضت لهجوم. دارت معركة دامية هنا، قُتلَ فيها جميع الويتشريين أو ما يقارب ذلك، ولم ينجُ إلا أولئك الذين لم يكونوا في الحصن في ذلك الوقت».

- من هاجمهم؟ ولماذا؟

كذبت: «لا أعرف. لقد حدث ذلك في زمن سحيق، يا سيري. اسألي الويتشريين عنه».

نبرت الفتاة كلماتها: «لقد سألت. لكنهم لم يرغبوا في إخباري».

أنا أفهمهم، فكرت الساحرة. لا يُسمَح بالحديث عن مثل هذه الأمور للطفل الذي يُدرَّب ليكون ويتشّرّا، وكذلك للفتاة التي لم تخضع لتغييرات الطفرة. لا يجوز التحدث مع مثل هذا الطفل عن المذبحة. لا يجوز تخويف مثل هذا الطفل باحتمال أن يسمع هو أيضًا ذات يوم كلمات تقال عنه، كتلك التي صرخ بها المتعصبون السائرون إلى كاير مورهيّن آنذاك. متحول. وحش. غريب الأطوار. ملعون من الآلهة، مخلوق مخالف للطبيعة. لا، فكّرت، لا أستغرب من أن الويتشريين لم يخبروك ذلك الأمر، يا سيري الصغيرة. ولن أخبرك ذلك أنا أيضًا. أنا يا سيري الصغيرة، لديّ المزيد من الأسباب لأصمت. لأنني ساحرة، ودون مساعدة السحرة لم يكن للمتعبسين أن يتمكنوا من الاستيلاء على القلعة عندئذٍ. وذاك التشنيع المثير للاشمئزاز، وذاك الوحش ذائع الصّيت، الذي أثار المتعصبين ودفعهم إلى الجريمة كان أيضًا على ما بدا عملاً مخفيًا من فعل أحد السحرة. لكنني، يا سيري الصغيرة، لا أقرُّ بالمسؤولية الجماعية، ولا أشعر بالحاجة إلى التكفير عن الذنب لحدث وقع قبل ولادتي بنصف قرن. والهيكل العظمي التي من المفترض أن تكون تذكيرًا أبدئيًا، ستبلى عن آخرها

في نهاية الأمر، وتتحلل إلى غبار وتُنسى، وتذروها الرياح التي تهب على المنحدر دونما توقف...

قالت سيري فجأة: «إنهم لا يريدون أن يرقدوا بهذه الطريقة. لا يريدون أن يكونوا رمزًا، ولا تأنيب ضمير ولا إنذارًا. لكنهم أيضًا لا يريدون أن تذرو الرياح رمادهم».

رفعت تريس رأسها فجأة إذ سمعت التغيُّر في صوت البنية. أحسَّت على الفور بهالة سحرية ونبض، ورجيف الدم في صدغيها. تصلبت، لكنها لم تنبش بكلمة، خشية أن تقطع ما كان يحدث وتشوش عليه.

أخذ صوت سيري يصير غير طبيعي ومعدنيًا وباردًا وغاضبًا أكثر فأكثر: «جثوة عادية. كوم من تراب سيغطيه القُرَّاص. للموت أعين زرقاء وباردة، وعلوُّ المسألة لا أهمية له، والكتابات التي تُنقش عليها أيضًا لا أهمية لها. ومن يمكنه أن يعلم هذا أفضل منك، يا تريس ميريجولد، أيتها الرابعة عشرة من التل؟».

شعرت الساحرة بالقلق. رأَتْ كيف تطبق كفا الفتاة الصغيرة على عرف الحصان.

صرَّح الصوت الغريب الغاضب من جديد: «لقد متَّ على التل يا تريس ميريجولد. لأي غرض قدمتِ إلى هنا؟ ارجعي، ارجعي في الحال، وخذي معكِ هذه الطفلة، طفلة الدم الأكبر، لتعطيها لأولئك الذين تنتمي إليهم. افعلي ذلك، أيتها الرابعة عشرة. فإن لم تفعلي ذلك، فسوف تموتين مرة أخرى. سيأتي اليوم الذي سيدنُّر فيه التل بنفسه. ستدنُّر بنفسهما المقبرة الجماعية والمسلة التي نُقشَ اسمك عليها.

سهل الخصيُّ بصوت عالٍ، هازًا رأسه. انتفضت سيري فجأة وارتعدت. سألت تريس، وهي تحاول التحكم بصوتها: «ماذا حدث؟». تنخمت سيري، ومَشَطَّت شعرها بكلتا يديها، ثم فركت وجهها. تمتمت مترددة: «لـ... لا شيء... أنا متعبة، فلهذا... لهذا السبب غفوت. يجب أن أركض...».

اختفتِ الهالة السحرية. أحسَّت تريس بموجة مفاجئة باردة تغمر جسدها بأكمله. حاولت إقناع نفسها بأن ذلك ما هو إلا نتيجة التعويذة الواقية

المتلاشية تحديداً، لكنها كانت تعلم أن ذلك غير صحيح. نظرتُ إلى الأعلى نحو كتلة القلعة الحجرية، التي صوّبت إليها محاجر سود فارغة من كواتها المدمّرة. انتابتها رعشة.

قرع الحصان بحدواته بلاطُ الفناء. قفزتِ الساحرة بسرعة من على السرج ومدّت يدها إلى سيري. وإذا استغلت ملامسة كفها، أرسلتُ دفقة سحرية بحذر. وذُهلّت. لأنها لم تحسّ بشيء. لا ردة فعل ولا استجابة البتة. ولا أي مقاومة. في هذه البنية التي حفزتها قبل لحظات بهالة استثنائية القوة، لم يكن فيها أي أثر للسحر. كانت هي الآن طفلة عادية، مقصوفة الشعر بطريقة غير حرفية، ولباسها سيئ المظهر.

لكنّ هذه الطفلة لم تكن طفلة عادية قبل قليل.

لم يكن لديها الوقت للتفكير في هذا الحدث العجيب. سمعتُ صرير بابٍ مقفل بالحديد ينبعث من هوة الممر المظلمة، التي ترى جيداً خلف البوابة المخلّعة. أزاحت عن كتفها معطف الفرو الفضفاض، وخلعت قبعتها الثعلبية، وقذفت بحركة سريعة من رأسها شعرها -وهو عزتها وعلامتها المميزة- خصلاته الملتفة الطويلة، اللامعة ذهباً، الناعمة، التي لها لون الكستناء الطازج.

تهدتُ سيري من شدة الإعجاب. ابتسمتُ تريس، مسرورةً من شدة التأثير. كان الشعر الجميل والطويل والمُسدل أمراً نادراً، ومحددًا للمكانة، والمقام، وعلامة للمرأة الحرة، سيدة نفسها. علامة للمرأة غير العادية، لأن العذارى «العاديات» كنّ يجلدن شعرهنّ ضفائر، وتخفي المتزوجات «العاديات» شعرهنّ تحت قلنسواتهنّ أو قبعاتهنّ. كانت السيدات ذوات الحسب والنسب، ومنهنّ الملكات، يجلدن شعرهنّ ويصففنه. وكانت المحاربات يقصصنه إلى مستوى قصير. وحدهنّ كاهنات الدرويد والساحرات (وكذلك العاهرات) من كن يتباهين بنواصيهنّ الطبيعية لتأكيد استقلالهن وحريتهن.

ظهر الويتشريون كالعادة على نحو غير متوقع، وكالعادة دون أي حس، وكالعادة من مكان لا يُعرَف له أثر. وقفوا أمامها، طوال القامة، نحيفين، وأذرعهم متصالبة على صدورهم، وثقل أجسادهم على سيقانهم اليسرى، في وضعية تمكّنهم، كما كانت تعلم، من الهجوم في جزء من الثانية. وقفتُ سيري

بجانبيهم في وضعية مطابقة تمامًا. بدت وهي ترتدي لباسها الكاريكاتوري مضحكة جدًا.

- نرحب بك في كاير مورخين، يا تريس.

- مرحبًا جيرالت.

لقد تغير. يبدو كأنه تقدّم في السن. كانت تريس تعلم أن ذلك مستحيل من الناحية البيولوجية؛ فالسحرة يشيخون، أجل لكن بوتيرة أبطأ كثيرًا مما يمكن لإنسان عادي فإن، أو لساحرة شابة مثلها، أن يلاحظا التغيّرات. لكن نظرة واحدة كانت تكفي لإدراك أن الطفرة كان يمكنها إيقاف عملية الشيخوخة الجسدية. وليس النفسية. كان وجه جيرالت المحرّز بالتجاعيد خير دليل على ذلك. حرّفت تريس نظرها عن عيني الويتشر ذي الشعر الأبيض، وقد انتابها شعور بالأسف العميق. عينيه اللتين رأتا بوضوح الكثير الكثير. فيما عدا ذلك، لم تلحّظ في هاتين العينين شيئًا مما أمّلته.

كرّر: «مرحبًا بك. سرّرنا بأنك أردت المجيء».

وقف بجانب جيرالت إسكيل، الذي يشبه الذئب كأخيه، إذا ما استثنى لون شعره والندبة الطويلة التي تُشوّه خده. ولامرت، أصغر الويتشريين من كاير مورخين، الذي كان كعادته بكشّرتة غير اللطيفة والمتهكّمة التي ارتسمت على وجهه. لم يكن فيسمير موجودًا.

قال إسكيل: «نرحب بك، وندعوك إلى الداخل. الجو بارد، وهبوب الريح شديد، وكأن أحدًا قد شقّ نفسه. سيري، أنت إلى أين؟ هذه الدعوة لا تخصّك. لا تزال الشمس عالية ولم تغرب، مع أنها لا تُرى الآن. لا يزال بإمكانك مواصلة التدريب».

هزّت الساحرة شعرها: «هيه، أرى أن التأدّب قد بخس ثمنه في موطن الويتشريين. كانت سيري أول من رحّب بي هنا وأوصلتني إلى الحصن. ينبغي لها أن ترافقني....».

عوج لامبرت فمه في محاكاة للضحك. كان يخاطبها دائمًا هكذا: «ميريغولد»، بلا لقب، ولا اسم. وقد كرهت تريس ذلك: «إنها هنا تتدرب يا ميريغولد. هي تلميذة، وليست عمدة قصر. ليس من واجباتها الترحيب بالضيف، حتى اللطيفين منهم مثلك. لنذهب، يا سيري».

هزّت تريس كتفيها قليلاً، وتظاهرت بأنها لا ترى نظرات جيرالت وإسكيل المرتبكة. وسكتت. لم ترغب في أن تودي بهم إلى ارتباك آخر أكبر. ولا سيّما أنها لم تشأ أن يدركا مدى اهتمام البنية الكبير وانبهارها بها. صرح جيرالت، وهو يتناول الزمام: «سأقود حصانك».

أزاحت تريس يدها خلسة، فالتقت كفاهما. وعيناها أيضاً. قالت بتلقائية: «سأذهب معك. لديّ في الخُرج بعض الأشياء الصغيرة التي سوف أحتاج إليها».

تمتم حال دخولهم الإصطبل: «لقد تركت في نفسي بعض الانطباعات المؤسفة منذ وقت غير بعيد. قد رأيتُ بأَم عيني شاهد قبرٍ المثير للعجب. المسلة التي تُخلّد موتك البطولي في معركة سودن. الآن فقط وصلتُ إليّ الأخبار أن ذلك كان خطأ. لا أستطيع أن أفهم كيف كان ممكناً أن يخطئوا في التمييز بينك وبين شخص آخر، يا تريس».

أجابت: «إنها قصة طويلة. سأخبرك عندما تلوح الفرصة المناسبة. أما الانطباعات المؤسفة، فأرجو أن تسامحني بشأنها».

- لا شيء يستدعي المسامحة. كان لديّ في الآونة الأخيرة أسباب قليلة للفرح، وهذا الذي جربته بعد وصول خبر بأنك حيّة، من العسير مقارنته بأي فرح آخر. ربما فقط بهذا الذي أشعر به في هذه اللحظة عندما أنظر إليك.

شعرت تريس بشيء ينكسر في داخلها. كان الخوف من لقاء الويتشر ذي الشعر الأبيض يتصارع طيلة الطريق في داخلها مع الأمل بشأن هذا اللقاء. ومن ثمّ مظهر هذا الوجه المتعب والمنهك، وهاتين العينين المريضتين اللتين تريان كل شيء، والكلمات باردة ومتعقّلة، وهادئة هدوءاً غير طبيعي، ولكنها أصلاً تنفث عاطفة...

ارتمت على عنقه على الفور ودون تفكير. أمسكتُ كفه ووضعتها فجأة على قفاه، تحت شعره. سرى الخدر بطول ظهرها، نفذ بمتعة غامرة لدرجة أنها كادت تصرخ. ولتكبح الصراخ وتكتمه، وجدت شفثاها شفتيه وأطبقت عليهما. ارتجفت ضاغطة نفسها عليه بقوة، وقد أفلتت شبقها من نفسها وقوّته، ناسية نفسها أكثر فأكثر.

جيرالت لم ينس نفسه.

- تريس... أرجوك.

- أوه، جيرالت... كثيرًا جدًا...

دفعها عنه بلطف: «تريس. لسنا وحدنا... إنهم قادمون إلى هنا».

نظرت إلى المدخل. لم تلاحظ ظلال الويتشرين المقتربين إلا بعد لحظات، وسمعت خطاهم بعد ذلك بشيء من التأخير. حسنًا، إن سمعها الذي كانت، والشيء بالشيء يذكر، تحسبه حساسًا، لا يمكنه أن ينافس سمع الويتشر.

- تريس، يا طفلي! مكتبة سر من قرأ

- فيسمير!

أجل، لقد كان فيسمير كبير السن حقًا. ومن يدري، إذا ما كان أكبر عمراً من كاير مورخين. بيد أنه سار نحوها بخطو سريع وحيوي ومرن كالنابض، وكانت قبضته متينة ويده قويتين.

- سررتُ برؤيتك من جديد، يا جدي.

- قبليني. لا، ليس على يدي، أيتها الساحرة الصغيرة. ستقبلين يدي عندما أستريح محمولاً على النعش. وهذا ما سيحدث على الأرجح قريباً. أوه يا تريس، من الجيد أنك أتيت... من سيفشيني إن لم تفعلني أنت؟

- أشفيك؟ منها؟ مم؟ ربما من الحركات الصبانية! أبعد يدك عن مؤخرتي، أيها الهرم، وإلا أحرقتُ لحيتك الشائبة هذه.

- اعذريني. ما زلتُ أنسى أنك كبرتِ وأنني لم أعد أقدر على أن أضعك في حِضني وأربّتك. أما صحتي... فأه يا تريس، الشيخوخة لا تسرُّ صديقاً ولا عدواً. عظامي تتكسر بشدة لدرجة أنني أرغب في العواء. هلأ ساعدتِ الرجل المسن، يا طفلي؟

- سأساعدك.

تحررتِ الساحرة من حِضن هذا الدب، ونظرت إلى الويتشر الذي كان في صحبة فيسمير. وهو شاب بدا في سن لامبرت. وكانت له لحية سوداء قصيرة، لكنها لم تُخفِ التشوهات الشديدة التي سببها الجدري. كان هذا الأمر غير معتادٍ تمامًا، لأن الويتشرين كانوا عادةً يتمتعون بمقاومة عالية للأمراض المعدية.

قدّمهما جيرالت ليتعارفوا: «تريس ميريجولد، كوئين. كوئين يقضي معنا شتاءه الأول. أصله من الشمال، من بوفيس».

انحنى الويتشر الشاب. كانت حدقتا عينيه صفراوين مخضرتين زاهيتي اللون على نحو غير عادي، وعدستاها المحزّزتان بخيوط حُمر تشيران إلى مسار صعب وعصيب لطفرة أصابت العين.

قال فيسمير وهو يأخذها تحت ذراعه: «لنذهب يا طفلي. الإصطبل ليس مكاناً للترحيب بالضعيف. بيد أنني لم أستطع الانتظار».

في الفناء، وفي فرجة الأسوار المحجوبة من الريح، كانت سيرى تتمرن تحت إشراف لامبرت. هاجمتُ بالسيف، وهي تنوس بمهارة على عارضة معلّقة على الجنازير، كيساً جلدياً ملفوفاً بأحزمة ليكون شبيهاً بجسد الإنسان. توقفتُ تريس.

صرخ لامبرت: «هذا سيئ! تقتربين أكثر من اللازم! لا تضربي خبط عشواء! لقد قلتُ، اضربي بطرف مضرب السيف على الشريان السباتي! أين يكون الشريان السباتي لدى شبيه البشر؟ على يافوخ الرأس؟ ماذا دهاك؟ ركزي يا أميرة!».

ها، فكرتُ تريس. لكنها حقيقة إذن، وليست أسطورة. إنها هي. لقد خمنتُ تخميناً صائباً.

قررت الهجوم دونما إبطاء، وعدم السماح للويتشريين بالمخادعة والمكر. قالت وهي تشير إلى سيرى: «الطفلة المفاجأة الشهيرة؟ كما أرى قد صممتُ على تحقيق متطلبات القضاء والقدر؟ لكنني أظن أن حكاياتكم الخرافية قد اختلط أمرها عليكم، أيها الأولاد. في الحكايات الخيالية التي قُصّت عليّ، أصبحتِ الراعيات واليتامى أميرات. وهنا، كما أرى، يُجعل من الأميرة ويتشيرة. ألا يبدو لكم أن هذا الأمر ما هو سوى خطة جريئة بعض الشيء؟».

نظر فيسمير إلى جيرالت. كان الويتشر ذو الشعر الأبيض صامتاً، وكان وجهه ثابتاً، ولم يستجب لطلب الدعم الصامت، ولو برعشة من جفنه.

تنحّج الرجل المسن: «الأمر ليس كما تظن. لقد أحضرها جيرالت إلى هنا في الخريف الماضي. ليس لها من أحد إلا... تريس، كيف لا يمكن الإيمان بالقدر عندما...».

- وما العلاقة بين القدر والتلويع بالسيف؟

نطق جيرالت بصوت خفيض، ملتفتاً نحوها وناظرًا مباشرة إلى عينيها: «نعلّمها السيف. وماذا علينا أن نعلمها؟ ليس في وسعنا أن نفعل شيئاً آخر. سواء كان الأمر قدرًا أم لا، فإن كاير مورهين هي الآن موطنها. لبعض الوقت على الأقل. إن التدريب وفنون المبارزة تُسليها وتحافظ على صحتها ولياقتها. وتسمح لها بنسيان المأساة التي عاشتها. هذا هو منزلها الآن، يا تريس. ليس لديها غيره.

أبقت الساحرة نظرتها ثابتة: «العديد من أهل سينترا فروا بعد الهزيمة إلى فيردن وبروجي وتيمريا، وإلى جزر اسكيليج. بينهم أشراف وبارونات وفرسان. الأصدقاء والأقارب... وكذلك الرسميون... الذين يخضعون لهذه الصببة».

- الأصدقاء والأقارب لم يبحثوا عنها بعد الحرب. لم يجدوها.

ابتسمت له ابتسامة ليست صادقة كثيرًا، ولكنها جميلة جدًا. أجمل ما كان باستطاعتها أن تفعل. لم تكن تريده أن يتحدث بمثل هذه النبرة: «لأنها لم تكن مقدرة عليهم؟».

هزّ الويتشر كتفيه. غيرت تريس، التي كانت تعرفه قليلًا، سلوكها على الفور، وتخلت عن سوق الحجج.

نظرت إلى سيرري مجددًا. أدّت البنية، وهي تخطو على عارضة التوازن برشاقة، نصف دورة سريعة، وضربت بالسيف ضربة خفيفة، وارتدت قافزة على الفور. الجسم الشبيه بالبشر تمايل على الحبل.

صرخ لامبرت: «وأخيرًا! وأخيرًا فهمت! أرجعي وكرري مرة أخرى. أريد التأكد من أن ذلك لم يكن حادثًا عرضيًا!».

التفتت تريس إلى الويتشريين: «هذا السيف يبدو حادًا. العارضة تبدو زلقة وغير مستقرة. والمعلم يبدو مثل أحرق يحبط الفتاة بصراخه. ألا تخشون وقوع حادث مؤسف؟ أم لعلكم تعولون على أن القدر سيحمي الطفلة منه؟». قال كوئين: «إن سيرري تتدرب دون سيف ما يقارب النصف عام. تجيد التحرك. ونحن نتوخى الحذر، لأن...».

أتم جيرالت الكلام بصوت خفيض، لكن بحزم. بحزم شديد. بنبرة تُنهي النقاش: «لأن هذا هو منزلها».

تنفس فيسمير بعمق: «بالضبط، هذه هي النقطة. تريس، لا بد أنك متعبة. جائعة؟».

تنهدت متخيلة عن اصطياذ عيني جيرالت بنظرها: «لن أنفي ذلك. والحق أقول، إنني منهكة. قضيتُ الليلة الأخيرة على الدرب في كوخ رُعيان نصف متحطم، مدفونة في القش ونشارة الخشب. وقد سددتُ شقوق العُشة المتهالكة بالسحر، ولولا ذلك لمتُّ من البرد على أغلب الظن. أحلم بملاءات سرير نظيفة».

- ستتناولين العشاء معنا. بعد لحظات. وبعدئذٍ ستغطين في النوم وتستريحين تمامًا. لقد جهَّزنا لك أفضل حجرة، تلك التي في البرج، ووضعنا هناك أفضل سرير موجود في كاير مورهين.

- شكرًا لك. (ابتسمتُ تريس قليلًا). فكَّرتُ: في البرج. لا بأس يا فيسمير. اليوم يمكن أن أكون في البرج، إذا ما كانت تهلك المظاهر كثيرًا. يمكنني النوم في البرج في أفضل سرير من أسرة كاير مورهين كلها. مع أنني أفضل أن أكون مع جيرالت في أسوأ سرير.

- تريس، فلنذهب.

- لنذهب.



طرقتِ الريح مصراعَ النافذة، وحركت بقايا بساط جداري، أكله العث، كانت تسدُّ شقوق النافذة. استلقتُ تريس على أفضل سرير في كاير مورهين بأكملها، وسط الظلام الدامس. لم تستطع النوم. ولم يكن الأمر مرتبطًا بأن أفضل سرير في كاير مورهين كان قطعة أثرية متهالكة. فكرتُ تريس بتركيز مكثف. وكانت كل الأفكار التي تنغص نومها تدور حول سؤال مبدئي واحد.

لِمَ استدعيتُ إلى الحصن؟ من فعل ذلك؟ لماذا؟ لأي غرض؟

لا يمكن أن يكون مرض فيسمير إلا ذريعة، لا شيء آخر. كان فيسمير واحدًا من الويتشريين. وحقيقة أنه كان بالإضافة إلى ذلك جدًّا هَرِمًا لم تُغير من واقع أن الكثير من الشباب يمكن أن يغطوه على صحته. ولو تبين أن هذا المسن قد لسعته مانتيكورا بإبرتها أو نهشه مستذئب، لكانت تريس قد

صَدَّقَتْ أَنَّهَا اسْتُدْعِيَتْ إِلَيْهِ. أَمَّا «الكسر في العظام»؟ فمثير للضحك. الكسر في العظام ابتلاء ليس أصيلاً جداً داخل أسوار كايِر مورِهين شديدة البرودة على نحو مروع، وكان يمكن لفيسمير أن يعالجه بالإكسير الويتشري أو حتى بوسيلة أسهل: بِحُميا الشيلم القوية، مستخدمةً بنسب متساوية خارجياً وداخلياً. ما كان ليحتاج إلى ساحرة وإلى تعويضاتها ومُرشحاتها وتماثمها.

إِذْن، من الذي استدعاها؟ جيرالت؟

ارتَمَتْ تريس على ملاءات السرير، وقد شعرت بموجة من الدفء تجتاحها. ومن الإثارة التي يصعدُ الحَنَقُ حَدَّتْهَا. شَتَمَتْ بصوت خفيض، وركلتِ اللحاف وانقلبت على جنبها. صرَّ السرير العتيق وطقطقت مفاصله. فكَرَّت: لا أتحكم بنفسِي. أتصرف مثل مهرة حمقاء. أو أسوأ من ذلك؛ أي مثل عانس لا يواسيها أحد. لا أقدر حتى على التفكير على نحو منطقي.

شَتَمَتْ من جديد.

طبعاً، إنه ليس جيرالت. دون عواطف، يا صغيرة، دون عواطف، تذكرِي تعابير وجهه، هناك في الإصطبل. لقد رأيتِ مثل هذه التعابير من قبل، يا صغيرة، رأيتِ ذلك، لا تخدعي نفسك. تعابير حمقاء نادمة محرَّجة لرجال يريدون أن ينسوا، رجال يندمون، ورجال لا يريدون أن يتذكروا ما حدث، ولا يريدون العودة إلى ما كان. بحق الآلهة يا صغيرة، لا تخدعي نفسك بأن الأمر مختلف هذه المرة. لا يحدث أبداً أن يكون الأمر مختلفاً. وأنت تعلمين ذلك. فأنت أصلاً لديك دُرْبة كبيرة، يا صغيرة.

في ما يتعلق بحياتها الجنسية، كان لتريس ميريجولد الحق في أن تعد نفسها ساحرة نموذجية. بدأ الأمر بالطعم الحامض للفاكهة المحرمة، والمثير في ظل القواعد الصارمة للأكاديمية وممنوعات المعلمة التي تدربت على يديها. ثم بلغت مرحلة الاعتماد على النفس والحرية والمخالطة الجنسية الجنونية، لتنتهي، كما يحدث عادة، بالمرارة وخيبة الأمل والاستسلام. وحلَّت فترة طويلة من الوَحْدَةِ واكتشاف حقيقة مفادها أن من أجل قمع الضغوط النفسية والاضطراب لا ضرورة بتأتا لوجود شخص يريد أن يرى في نفسه سيِّداً وحاكماً لها، حالَ أن ينقلب على ظهره ويمسح العرق عن جبهته مباشرة. وأن من أجل تهدئة الأعصاب توجد وسائل أقل إزعاجاً، وهي إضافة إلى ذلك لا تلوث المناشف بالدم، ولا يطلقون ريحاً كريهة تحت اللحاف، ولا تتطلب

الإفطار. ثم حلت فترة قصيرة ومسلية من الانبهار بجنسها التكويني، وانتهت باستنتاج مفاده أن التلوّث والرياح والشراسة ليست بأي حال مجالاً حكرًا على الرجال. أخيرًا، تحولت تريس، مثلها مثل جُلّ الساحرات، إلى خوض مغامرات مع سحرة آخرين، مغامرات نادرة الحدوث ومزعجة بسياقها البارد والتقني، والذي يكاد يكون طقوسياً.

وعندئذٍ ظهر جيرالت من ريفيا. الويتشر الذي يعيش حياة قلقة، وتربطه علاقة عجيبة ومضطربة وعاصفة بينيفر، صديقتها الحميمة.

راقبتهما تريس وكانت تشعر بالغيرة، مع أن الأمر بدا أن لا شيء يدعو إلى الغيرة. وقد جعلتهما العلاقة يذوقان الشقاء على نحو بَيِّن، وقادتهما إلى الإفناء مباشرة، وأوجعتهما، وخلافاً لكل منطق... استمرّت. تريس لم تفهم هذا. وهو ما فتنها. فتنها إلى درجة أنها...

أغوت الويتشر بمساعدة قليل من السحر. وقد جاء الوقت مناسباً لها. حلّ في اللحظة التي تواجّه فيها هو وبينفر مرة أخرى وافترقا فجأة. كان جيرالت في حاجة إلى الدفء وأراد أن ينسى.

لا، لم ترغب تريس في أن تخطفه من بينفر. في واقع الأمر، كانت صديقتها أهم لها منه. لكنّ علاقتها القصيرة بالويتشر لم تخيّب أملها. لقد وجدت ما كانت تبحث عنه: العواطف على هيئة الشعور بالذنب والخوف والألم. ألمه. وقد عايشَتْ هذه العواطف، وأثارت نفسها بها ولم تستطع نسيانها عندما افترقا. وفهمتْ ما الألم منذ وقت غير بعيد. في اللحظة التي اعترتها فيها رغبة عارمة أن تكون معه من جديد. ولو مدةً وجيزةً، هنيهةً؛ فقط أن تكون معه. وها هي الآن قريبة جداً...

ضمتْ تريس قبضة يدها وضربت بها الوسادة. لا، فكرتْ، لا. لا تكوني غبية يا صغيرة. لا تفكري في هذا. فكري في... عن سيري؟ هل هذا...

نعم. هذا هو السبب الحقيقي لزيارتها كاير مورهين. البُنيّة ذات الشعر الرمادي الزاهي التي يريدون جعلها ويتشرية في كاير مورهين. ويتشرية حقيقية. متحولة. آلة قتل، مثلهم تماماً.

هذا واضح، فكرتْ فجأة، وقد شعرتْ بإثارة مبالغتها مجدداً، ولكنها كانت هذه المرة من نوع مختلف تماماً. هذا أمر واضح. يريدون تحوير الطفلة،

وإخضاعها لاختبار العشب والتغيرات، لكنهم لا يعلمون كيف يُفعل ذلك. وحده فيسمير لا يزال حياً من بين القدماء، وفيسمير لم يكن سوى معلم لفنون المبارزة. القوارير المغبرة من الإكسير الأسطوري، والأنابيق، والأفران ومعوجات التقطير... المخبأة في أقبية مختبر كاير مورخين، لا أحد منهم يعرف كيفية استخدامها. لأن الحقيقة التي لا ريب فيها هي أن جرعات الإكسير المسببة للطفرات قد اشتغل عليها في غابر الأزمان أحد السحرة المارقين، وحسنها خلفاؤه في غضون سنين، وخلال سنين تحكموا بطريقة سحرية في عملية التغيرات التي أخضع لها الأطفال. وفي لحظة ما انقطعت السلسلة. ظهر نقص في المعرفة والقدرات السحرية. لدى الويتشريين نباتات علاجية وأعشاب، ولديهم مختبر. يعرفون الوصفة. لكن ليس لديهم أي ساحر.

فكرت: من يدري، ربما حاولوا؟ أعطوا الأطفال مستخلصات أعشاب مستحضرة دون تدخل من السحر؟

ارتجفت من فكرة ما كان يمكن أن يحدث لهؤلاء الأطفال في ذلك الحين. فكرت: والآن يريدون إحداث طفرة في الفتاة، لكنهم لا يستطيعون. وهذا قد يعني... قد يعني هذا أن من الممكن أن تطلب مني المساعدة. وعندئذ سأرى ما لم يشاهده أي ساحر حي، وسأعرف ما لم يعرفه أي من السحرة الأحياء. الأعشاب والنباتات العلاجية المشهورة، وسر أسرار الثقافات الجرثومية المخفية في أعماق قاع، والوصفات الملعزة الذائعة الصيت...

وأنا سأوصي إلى الطفلة الرمادية الشعر بأخذ دفعة من الإكسير، وسأراقب التغيرات المرتبطة بالطفرات، وسأرى بأم عيني كيف... كيف تموت الطفلة الرمادية الشعر.

أوه، لا. ارتجفت تريس مجدداً. أبداً. ليس مقابل هذا الثمن.

فكرت: في المحصلة، لعل الإثارة تأخذني من جديد في وقت أبكر من اللازم. لكن ليس هذا هو المقصود على ما أظن. في أثناء العشاء، تحدثنا وثرثرنا عن هذا وذاك. حاولت عدة مرات أن أوجه الخطاب إلى الطفل المفاجأة، لكن دون جدوى. كانوا يغيرون الموضوع في الحال.

راقبتهم. كان فيسمير متشججاً وحائراً، وجيرالت قلقاً، ولامبرت وإسكيل مرحين ويكثران من الكلام على نحو مصطنع، وكان كوثين طبيعياً جداً لدرجة أنه بدا غير طبيعي. سيري وحدها من كانت صادقة ومنفتحة، محمّرة

من البرد، شعثناء، سعيدة، وشرهة شراهة عارمة. تناولوا حَساء الجعة الممتلئ بقطع الخبز المحمَّص والجبن، واستغربتُ سيرى من أنهم لم يضيفوا الفطرَ إليه. شربوا عصير التفاح، لكنَّ البنية أُعْطِيت ماءً، وقد تفاجأتُ ونفرت بطريقة واضحة. أين الخس، صاحت فجأةً، فوبَّخها لامبرت بحدة، وأمرها برفع مرفقيها عن المائدة.

فطر وخس. في ديسمير؟

هذا واضح، فكرتُ تريس. إنهم يطعمونها تلك المغذيات الرَّمِيَّة الكهفية الأسطورية، والأعشاب الجبلية غير المعروفة علمياً، ويسقونها شايًا من الأعشاب السرية. تتطور الفتاة بسرعة وتكتسب حالة شيطانية ويتشربة. بطريقة طبيعية، دون طَفَرَات، دون مخاطرة، دون ثورة هرمونية. لكنَّ الساحرة لا يمكنها أن تعلم هذا. إنه سر بالنسبة إلى الساحرة. لن يخبروني شيئاً، ولن يُروني شيئاً.

رأيتُ كيف ركضتُ تلك الفتاة. رأيتُ كيف رقصتُ بالسيف على العارضة رشيقَةً وسريعةً تمشي بخفة راقصة مشية قَط حَقًّا، متحركة مثل البهلوان. فكرتُ: لا بد، حتمًا لا بد لي أن أراها عارية، وأتبين كيف تطورت تحت تأثير ما يطعمونها إياه هنا. وماذا لو كان ممكنًا أن تسرق عينات «الفطر» و«الخس» وتنقل من هنا؟ حسنًا، حسنًا...

والثقة؟ ثقتكم لا ألتفت إليها، أيها الويتشريون. ثمة سرطان في العالم، وجُدري وكزاز وابيضاض دم، وحساسية، وأيضًا متلازمة موت الرضع المفاجئ. وأنتم تخفون عن العالم «فطركم» الذي منه يمكن استخلاص أدوية تنقذ الحياة. فأخفوا سرهم حتى عني، أنا التي تعلنون لها الصداقة والاحترام والثقة. حتى إنني لا أستطيع رؤية المختبر فحسب، بل الفطر الموطوء أيضًا. إذن، لماذا أتيتم بي إلى هنا؟ أنا الساحرة؟

السحر!

ضحكتُ تريس بصوت خافت. ها، فكرتُ، أيها الويتشريون، ها قد وقعتم في قبضتي! لقد أثارَتُ سيرى فيكم الخوف ذاته الذي أثارته فيَّ. «أقلعتُ» في الحلم الواعي، وبدأتُ تستشرف، وتتنبأ، وتنشر هالة حتمًا تحسون بها على نحو جيد يقارب إحساسي بها. برْدَةٌ فعل تلقائية، «توصلتُ» بشيء ما من خلال التحريك الذهني، أو بقوة الإرادة، ثنتُ ملعقة قصديرية وهي تحدد إلى

في أثناء الغداء. أجابت عن الأسئلة التي طرحتموها في أذهانكم، وربما حتى عن تلك الأسئلة التي خشيتم طرحها في أذهانكم. واعتراكم الخوف. أدركتم أن مفاجأتكم مفاجئة أكثر مما كنتم تتصورون.

أدركتم أن لديكم مصدرًا في كاير مورهي.

أنكم لن تفلحوا دون ساحرة.

وليس لديكم ساحرة صديقة واحدة، ولا واحدة يمكنكم الوثوق بها. سواي و... وسوى ينيفر.

عوتِ الريح، وطرقتْ مصراعَ النافذة، وانتفختْ سجادة الحائط. انقلبت تريس ميريجولد على ظهرها وبدأت تقضم ظفر إبهامها شاردة الذهن.

جيرالت لم يدعُ ينيفر. دعاني أنا. فهل إذن...

من يدري. ربما. لكن إذا كان الأمر كما أعتقد، فلماذا...

لماذا...

- لماذا لم يأتِ هنا إليّ؟ (صاحت بصوت خفيض في الظلام، مثارة ومغتظة).

أجابتها الريح عاوية بين الأطلال.



كان الصباح مشمسًا، لكنه بارد برودة شيطانية. أفاقت تريس مرتجفة من البرد، ولم تشبع نومًا، لكنها كانت هادئة ومصممة.

كانت آخر من نزل إلى القاعة. تلقت برضا تحيات النظرات التي مثلت مكافأة لجهودها؛ بدلت بلباس السفر ثوبًا أنيقًا مع أنه عادي، استخدمت ببراعة عطورًا سحرية ومستحضرات تجميل غير سحرية لكن ثمنها باهظ وخيالي. تناولت حساء الشوفان وهي تتحدث والويتشريين عن موضوعات تافهة وغير ذات قيمة.

قرقر بطن سيرى فجأة، وهي تُحدّق إلى الكوب: «الماء مجددًا؟ أسناني تتوجع من جراء الماء! أودُّ أن أشرب العصير! هذا الأزرق!».

قال لامبرت، لحظها تريس بطرف عينه: «لا تحدودي. ولا تمسحي فمكِ بكمكِ! انتهي من تناول الطعام، حان وقت التدريب. والأيام تقصر أكثر فأكثر».

أكملت تريس تناول حساء الشوفان: «جيرالت. سيري وقعت وهي في المسلك يوم أمس. لا شيء خطر، ولكن لباسها المضحك كان السبب. هذا كله لا يتناسب على نحو جيد ويعرقل حركاتها».

تنحنح فيسمير ونحى نظره جانباً. فكرت الساحرة: أها، إذن هذا هو من صنعك، يا معلم السيف.

في الواقع، يبدو قفطان سيري كأنه فصل بالسيف وخيط برأس السهم. استأنفت دون أن تنتظر تعليقاً: «أجل، الأيام تقصر أكثر فأكثر. ولكننا سنقصر يومنا هذا أكثر. سيري، هل انتهيت؟ تعالي معي لو سمحت. سنجري تعديلات ضرورية على زيِّك الخاص».

قال لامبرت بغضب: «هي تجري مرتدية هذا الزي منذ عام، يا ميريجولد. وكان كل شيء على ما يرام إلى أن...».

- إلى أن ظهرت هنا امرأة لا تستطيع النظر إلى الملابس غير الأنيقة وغير المتناسبة؟ أنت محق، يا لامبرت. لكن المرأة ظهرت وانهار النظام، وجاء وقت التغييرات العظيمة. هيا، يا سيري.

ترددت الفتاة ونظرت إلى جيرالت. أوما جيرالت برأسه آذناً لها وابتسم. ابتسامة جميلة. مثلما كان يبتسم في سالف الأيام، عندما...
نحّت تريس نظرها جانباً. تلك الابتسامة لم تكن لها.



كانت حُجيرة سيري نسخة طبق الأصل من مقار الويتشريين. كانت مثلها خالية من المَعْدَّات والأثاث. عملياً لم يكن هنا أي شيء سوى سرير مرگب من ألواح، ومقعدة صغيرة وصندوق. كان الويتشريون يُزَيِّنون جدران مقارهم وأبوابها بجلود الحيوانات التي تُذبح في وقت الصيد؛ صيد الأيائل، والأوشاق، والذئاب، وحتى دببة الظربان. فيما علّق على باب حُجيرة سيري جلد جرد عملاق ذي ذيل مقرز متقشر. قمعت تريس في داخلها الرغبة لانتزاع هذه البشاعة النتنة ورميها من النافذة.

نظرتِ البنية إليها مترقبة، وكانت واقفة بجانب السرير.

قالت الساحرة: «سنحاول أن نناسب أفضل قليلًا هذه... المحفظة خاصتك. دائمًا ما كنتِ بارعة في التصميم والخياطة، لذا ينبغي لي أن أفلق أيضًا في التعامل مع جلد الجدي هذا. وأنت يا ويتشرية، هل أمسكتِ إبرة بيدك من قبل؟ هل علّمتِ شيئًا آخر غير تثقيب أكياس القش بالسيف؟».

تمتمتِ سيرى على مضض: «في أثناء مكوثي في ما وراء النهر، في كاجين، كان عليّ أن أغزل الخيوط. لم يسمحوا لي بالخياطة، لأنني كنت أفسد الكتان وأهدر الخيوط فحسب، وكان لا بدّ من تنسيل كل شيء. لقد كان ذاك التنسيل مملاً على نحو إرعابي⁽¹⁾، أف أف!».

ضحكت تريس بصوت خفيض: «حقًا. من الصعب تخيل شيء أكثر مللاً. وأنا أيضًا لم أطق نسل الخيوط».

- وهل كان عليك فعل ذلك؟ أنا كان عليّ أن أفعل، لأن... لكنكِ أنتِ أصلاً ساحرة... ساحرة. وإنكِ تستطيعين أن تستحضري بالسر أي شيء! هل استحضرتِ هذا الثوب الجميل بالسر؟

ابتسمت تريس: «لا، لكنني أيضًا لم أخطأ بيدي. لستُ بارعة إلى هذا الحد».

- وكيف ستصنعين ملابس؟ أستجلبينها بالسر؟

- ليس من ضرورة لذلك. تكفينا إبرة سحرية نزوّدها بقليل من الطاقة بتعويذة. وإن لزم الأمر...

مررت تريس راحة يدها ببطء على الثقب الممزق في كم سترتها، وتمتمت تعويذة، وكانت في الوقت نفسه تحفز التميمة. لم يبق أثر من الثقب. صاحت سيرى من شدة الفرح.

- إنه سحر! ستكون لي سترة مسحورة! ها!

- إلى أن أخط لك واحدة عادية لكن لائقة. حسنًا، والآن انزعي كل هذا يا أنستي والبسي شيئًا آخر بدلًا منه. أظن أنه ليس ملبسك الوحيد؟

(1) تقصد: على نحو مرعب.

هزّت سيري رأسها، ورفعت غطاء الصندوق، وأررتها ثوبًا فضفاضًا باهتًا، وقفطانًا أرمَد اللون، وقميصًا من الكتان، وبلوزة من الصوف تشبه جُوال التوبة⁽¹⁾.

قالت: «إنها لي. جئتُ إلى هنا مرتديّة إياها. لكنني لا ألبسها الآن. إنها أشياء نسوانية».

كشّرت تريس بتهكم: «أفهمك. نسوانية أم غيرها، يجب أن تلبسها في الوقت الحالي. هيا، بهمة كبرى، اخلعي ثيابك. دعيني أساعدك... اللعنة! ما هذا؟ يا سيري؟».

كانت ذراعا البنية مغطاتين بكدمات كبيرة متشعبة بالدم. معظمها قد صار مصفرًا، وجزء منها كان حديثًا.

كررت الساحرة بغضب: «ما هذا بحق الجحيم؟ من ضربك بهذه الطريقة؟».

نظرتُ سيري إلى ذراعيها، كأنّها تفاجأت من عدد الكدمات: «هذا؟ أوه، هذا... إنها الطاحونة. كنتُ بطيئة جدًا».

- أي طاحونة، تبا لدماء الكلاب؟

كررتُ سيري رافعة عينيها الكبيرتين نحو الساحرة: «طاحونة. هي تبدو هكذا... حسنًا... أنا أتعلم من خلالها المراوغة الوقائية وقت الهجوم. لها ذراعان من قضبان، وتدور وتلوح بأيديها. ينبغي القفز بسرعة كبيرة والمراوغة. يجب أن يكون لديك سرعة الاجتسابة⁽²⁾. إذا فقدت الاجتسابة السريعة ضربتك الطاحونة بأحد قضبانها. في البداية، هذي الطاحونة هشمتني بطريقة إرعابية. لكن الآن...».

- اخلعي طاقمك وقميصك. أوه، أيتها الآلهة اللطيفة! يا بنت! أتستطيعين حقًا حتى أن تمشي؟ وتركضي؟

(1) جُوال التوبة: ثوب خشن، كان يُصنع سابقًا من كيس سميك به ثقوب للرأس والذراعين، ويعد رمزًا للتكفير عن الذنب وتعبيرًا عن ندم المذنبين على خطاياهم.

(2) المقصود: الاستجابة.

كان لون الوركين، والفخذ اليسرى، أسود مزرّقاً جرّاء التكتلات الدموية والتورمات. ارتجفت سيري وهسهست، متراجعة من أمام يد الساحرة. شتمتُ تريس بلغة الأقرام، شتمًا غاية في القبح.

سألت وهي تحاول أن تحافظ على هدوئها: «هذا من فعل الطاحونة أيضًا؟».

استعرضتُ سيري بطريقة حيادية الكدمة المثيرة على قصبة ساقها، أسفل ركبته اليسرى: «هذا؟ لا. أوه، إنها الطاحونة. وهذه الأخرى... إنها من فعل النّوأس. على النّوأس أدرب خطواتي مع السيف. يقول جيرالت إنني أصبحتُ جيدة في التعامل مع النّوأس. يقول إنني لديّ هذه، كيف تسمى... الحاسة. لديّ حاسة».

كرّرتُ تريس أسنانها: «وإذا انعدمتِ الحاسة حينئذٍ، فإنّ النّوأس، كما أفترض، سيخبطكِ؟».

وافقتُ البنية، وهي تنظر إليها وقد دُهِشَتْ من جهلها: «طبعًا. سيخبطني وبقوة أكبر».

- وهنا؟ على الجنب؟ ماذا كان ذلك؟ مطرقة حداد؟

صأت سيري من الألم واحمر وجهها.

- سقطتُ عن وتد التوازن⁽¹⁾...

أتمتُ تريس كلام سيري بصعوبة متزايدة في السيطرة على نفسها: «... وخبطكِ الودت».

شخرتُ سيري.

- كيف يمكن للودت أن يخبط عندما يكون محفورًا في الأرض؟ لا يمكنه ذلك! سقطتُ بطريقة اعتيادية. تدرّبتُ على الدوران على الأصابع خلال القفز، ولم أنجح في الأمر. ومن هنا أتت هذه الكدمة. فقد اصطدمت بعمود.

- ورقدتُ في السرير يومين؟ وكنت تعانين مشكلاتٍ في التنفس؟ وآلام؟

(1) وتد التوازن: هو وفق المؤلف سلسلة من الأوتاد المغروسة في الأرض يتمرن عليها المتدربون التوازن، ويسمّيها المؤلف «المشط»، وآثرنا تسميتها بـ«تد التوازن».

- لا، البتة. دلّكني كوثين، وفي الحال أجلسني على الوجد من جديد. هذا ما ينبغي فعله، تعلمين ذلك؟ وإلا اعتراكِ الخوف.
- ماذا؟

كررتُ سيرى باعتزاز، وأزاحت غرتها الرمادية المبيضة عن جبهتها: «ينتابكِ الخوف. ألا تعلمين؟ حتى لو حدث لك شيء ما، فعليك العودة إلى العمل حالاً، وإلا فستشعرين بالخوف، وحين تخافين لن يُسفر التمرين عن شيء. الاستسلام ممنوع. هكذا قال جيرالت».

قالت الساحرة ببطء: «يجب أن أتذكر هذه الحكمة. وأن أتذكر كذلك أنها تأتي من جيرالت تحديداً. إنها وصفة جيدة للحياة، بيد أنني لست متأكدة من أنها ستنجح في جميع الظروف. لكن تحقيقها سهل جداً على حساب شخص آخر. إذن، الاستسلام ممنوع؟ حتى لو خُبطتِ وهُشمتِ بألف طريقة، فعليك النهوض والاستمرار في التدريب؟».

- طبعاً. الويتشر لا يخشى شيئاً.

- حقاً؟ وأنت يا سيرى؟ لا تخشين شيئاً؟ أجيبي بصدق.

أدارت البنية رأسها، وعضّت على شفتها.

- ولن تخبري أحداً؟

- لن أخبر أحداً.

- أكثر شيئين أخشاهما هما النّوأسان. كلاهما معاً. والطاحونة، لكن فقط عندما تُطلق بسرعة شديدة. ويوجد أيضاً ميزان طويل، يتعين عليّ أن أستخدمه باستمرار، ومعه، هذي... الإجرا... الإجراءات الوكائية⁽¹⁾. يقول لامبرت إنني خائبة ومغلوبة على أمري، لكنّ هذا ليس صحيحاً إطلاقاً. قال لي جيرالت إن وزني مختلف قليلاً لأنني فتاة. ببساطة، يلزمي التدريب أكثر، إلا إذا... أودُّ أن أسألك شيئاً. يمكنني ذلك؟
- يمكنك.

- إذا كنتِ تعرفين أمور السحر والتعاويذ... إذا كان يمكنكِ أن تسحري... فهل تستطيعين أن تجعلي مني ولداً؟

أجابت تريس بنبرة متجمدة: «لا. لن أستطيع».

(1) تقصد الوقائية.

انتاب الويتشرية الصغيرة القلق على نحو واضح: «هممم... فهل يمكنكِ على الأقل...».

- على الأقل ماذا؟

- هل يمكنك أن تفعلي ما يجعلني أن لا أضطر إلى... (غمرت الحمرة وجهه سيرى). سأهمس بذلك في أذنك.

انحنُتْ تريس إلى الأمام: «إني أستمع».

أدنتْ سيرى وجهها، وقد غدا أكثر حمرة، من شعر الساحرة الكستنائي.

استقامتْ تريس فجأة، وقد اشتعلتْ عيناها.

- اليوم؟ الآن؟

- ممم.

صرختِ الساحرة وركلتِ المقعدة التي خبطتِ الباب من شدة الركلة، وأسقطتْ جلد الجرذ: «سحقاً للوباء العاهر! للطاعون والجائحة والزهرى والجذام! لعلي سأقتل هؤلاء المجانين الملاعين!».



قال لامبرت: «اهدئي يا ميريجولد. تهتاجين هيجاناً غير صحي، ولا داعي إليه البتة».

- لا تعلمني! وتوقف عن مناداتي بـ «ميريجولد»! وأفضل شيء تفعله أن تصمتِ بالمرّة. أنا لا أتحدث إليك. فيسمير، جيرالت، هل رأى أحدكما كيف تُعذَّب هذه الطفلة على نحو قضيع؟ ليس في جسدها أي جزء سليم!

قال فيسمير بجديّة: «يا طفلتي. لا تسمحى للعواطف أن تأخذك. لقد رُبِّيتِ بطريقة مختلفة، وتفحصتِ تربية مختلفة للأطفال. أصل سيرى من الجنوب، حيث تُربّى الفتيات والفتيان على أساس واحد متطابق، دون أي فرق تماماً كما هي الحال بين الإلفيين. لقد أُجِلِسْتُ على فرس قزم عندما كانت في الخامسة من عمرها، وإن بلغتِ الثامنة مضتْ إلى الصيد راکبة. دُرِّبْتُ على استخدام القوس والرمح والسيف. الكدمة ليست أمراً جديداً على سيرى...».

اهتاجت تريس: «لا تحدثوني بهذه الخزعبلات. لا تتظاهروا بالغباء. الأمر ليس متعلقاً بفرس قزم، وليس طواًفاً أو رحلة على المزاليج. إنه متعلق بكايير مورهيـن! على الطواحين والنواسات وعلى مسلك موردوفنيا خاصتكم، كسرت وفصمت عظام ورقاب عشرات الصبية من المتشردين الأشداء والمتمرسين، المشابهين لكم، الذين جُمعوا على الدروب وانتُشلوا من حضيض المجتمع. وصناع الأذى والأوغاد المنتفخة أوداجهم، الذين لديهم خبرة لا بأس بها من حياتهم القصيرة. فما هي فرص سيري؟ حتى لو تربت في الجنوب، حتى لو بالطريقة الإلفية، وحتى لو تحت يد امرأة متجبرة مثل اللبوة كالانثي، فهذه الصغيرة كانت ولا تزال أميرة طوال الوقت. بشرة رقيقة وجسدٌ ضئيل وهيكـل عظمي خفيف... إنها فتاة صغيرة! ماذا تريدون أن تجعلوا منها؟ ويتشراً؟».

تـكـلم جيرالت بصوت خفيض وبهدوء: «هذه الفتاة الصغيرة، هذه الأميرة الرقيقة والضئيلة الجسد، نجت من مذبحـة سينترا. تسللت من بين أفواج نيلفجارد، معتمدةً على نفسها فحسب. تمكنت من الإفلات من الجنود المتخلفين عن الركب الذين كانوا يعتدون على القرى وينهبون ويقتلون كل ما هو حي فيها. صمدت أسبوعين في غابات ما وراء النهر وحيدة تماماً. وقضت شهراً مرتحلةً مع مجموعة من الهاربين، وكانت تعمل عملاً شاقاً متساوية في ذلك مع كل من كان حولها، وتتضور جوعاً متساوية مع جميع من كان حولها. اشتغلت في الزراعة وتربية الماشية قرابة نصف عام، وكانت في كنف أسرة فلاحية. صدقيني يا تريس، لقد أكسبتها الحياة خبرةً، وصقلتـها، وكَيَّفَـتها على نحو ليس أسوأ من الأوغاد المشابهين لنا، الذين جُلِبُوا إلى كايير مورهيـن من الطرق الريفية الواسعة. سيري ليست أضعف ممن يشبهوننا من اللقطاء غير المرغوب فيهم، الذين أُلقي بهم إلى الويتشريين في الحانات مثل الققط الصغيرة في سلال الخيزران. أما جنسها؟ فما أهميته؟».

صرخت الساحرة: «ما زلتَ تسأل؟ وما زلتَ تجرؤ على السؤال؟ ما أهميته؟ أهميته أن البنت التي لا تشبهكم لها أيام خاصة بها! وهذا ما تكاد لا تحتمله إلا بأسوأ ما يمكن! وتريدونها أن تبصق رثيتها على مسلك موردوفنيا وعلى بعض الطواحين اللعينة!».

مع أن تريس كانت حائقةً، فقد شعرت برضا لذيذ عند رؤية التعابير المذهولة على وجوه الويتشريين الشباب، وفكاً فيسمير السفلي الذي تدلى فجأةً.

أوماتُ برأسها بحركة صارت الآن هادئة وقلقة ولطيفة: «حتى إنكم لم تعلموا. إنكم رعاة لا نفع منكم. إنها تخجل أن تقول لك عن هذا الأمر، لأنها عُلِّمَتْ ألا تُحدِّث الرجال عن مثل هذه العوارض. وهي تخجل من الوهن والألم، وحقيقة أنها أقل لياقة. هل فكَّر أحد منكم في هذا الأمر؟ واهتم به؟ هل حاول تخمين ما الخلل الكامن فيها؟ أو ربما قد نزلت أول مرة في حياتها هنا في كاير مورهيين؟ وبكث في الليالي دون أن تجد أحدًا يبدي لها العطف أو المواساة أو حتى التفهم؟ هل فكر أحد منكم ولو مرة واحدة في هذا الأمر؟». تأوَّه جيرالت بصوت خفيض: «توقفي يا تريس. كفى. قد حققت ما أردت تحقيقه. وربما أكثر مما أردت».

أطلق كوثين لعنة: «إلى الجحيم. لقد تبَيَّن أننا بُلُّه جدًّا، هذا كل شيء. إيه، يا فيسمير، إنك أنت...».

هدر الويتشر المسن: «اصمت. لا تقل شيئًا».

تصرف إسكيل بطريقة كانت هي الأقل توقعًا، إسكيل الذي نهض واقترب من الساحرة، ثم انحنى والتقط يدها وقبَّلها باحترام. سحبَتْ يدها بسرعة. ليس لإظهار غضبها وتضايقها، بل لقطع الاهتزاز اللطيف النافذ إلى العمق، والناجم عن لمسة الويتشر. كان إسكيل يشعُّ بقوة. أقوى من جيرالت.

قال وهو يفرك بشيء من الحرج الشرخ القبيح على خده: «تريس. ساعدينا. نطلب راجين ذلك منك. ساعدينا يا تريس».

نظرت الساحرة إلى عينيه مباشرة، وزمَّت شفثيها.

- في ماذا؟ في ماذا أساعدكم، يا إسكيل؟

فرك إسكيل الندبة من جديد، ونظر إلى جيرالت. أحنى الويتشر ذو الشعر الأبيض رأسه، وستر عينيه بكفه. تنحنح فيسمير بصوت عالٍ.

في تلك اللحظة صرَّ الباب، ودخلت القاعة سيري. تحول تنحنح فيسمير إلى ما يشبه شهيقًا عاليًا مخنخنًا. فغر لامبرت فاه. كتمت تريس ضحكة خافتة.

سارت سيري نحوهم بخطوات صغيرة، وشعرها مقصوص قليلًا وممشطًا، ممسكةً بعناية بثوبها الأزرق الداكن، الذي قصر وبدا متناسبًا، لكنه لا يزال

يحمل آثار نقله في الخرج. تلاًلأت على عنق البنية الهدية الثانية من الساحرة، وهي حية سوداء من جلد ملّمّع، وذات عين ياقوتية ومشبك ذهبي. توقفتُ سيرى أمام فيسمير. لم تكن تعلم تمامًا ماذا تفعل بيديها، فوضعتُ إبهامها خلف حزامها.

قالت ببطء وحزم، في ظل صمت مطبق: «اليوم لا يمكنني التدريب لأنني... لأنني...».

نظرت إلى الساحرة. غمزتها تريس بعينها، عابسةً مثل ولد مشاغب مبتهج بعبثه، وحرّكت شفّتيها ملقنة مسألة علمتها إياها.

أنهت سيرى كلامها بصوت عالٍ وباعتزاز، رافعة أنفها حتى كاد يلامس السقف: «متوعة!».

تحنّح فيسمير مجددًا. لكنَّ إسكيل، إسكيل الحبيب، لم يفقد عقله، وتصرف مرة أخرى كما ينبغي.

قال من غير تكلف وهو يبتسم: «طبعًا. من المفهوم والواضح أننا سنعلق التدريب حتى انقضاء الوعة. ثم إننا سنختصر الدروس النظرية، وهذه سنؤجلها أيضًا إذا شعرتُ بسوء الصحة. وإن احتجتُ إلى أدوية أو...».

تدخلت تريس كذلك من غير تكلف: «أنا سأهتم بالأمر».

الآن فقط احمرَّ وجه سيرى قليلًا، ونظرت إلى الويتشر المسن: «آها... أيها العم فيسمير، لقد طلبتُ من تريس... أعني السيدة ميريجولد أن... لأن... حسنًا، كي تبقى هنا معنا. مدة أطول. طويلة جدًا. لكنَّ تريس قالت إنك يجب أن توافق على هذا، لأن... يا عم فيسمير! وافق!».

قال فيسمير وبحةً في صوته: «أوافق... طبعًا أوافق...».

الآن فقط أزاح جيرالت كفه من جبهته: «نحن مسرورون جدًا. نشعر بالبهجة الغامرة، يا تريس».

أشارت الساحرة برأسها قليلًا نحوه، وحركت رموشها ببراءة ولفت خصلة من شعرها الكستنائي على إصبعها. بدا وجه جيرالت كأنه من حجر.

قال: «لقد تصرفت بحسن فائق ولطف، يا سيري، إذ عرضت على السيدة ميريجولد استضافتها فترة أطول في كاير مورهين. أنا فخور بك».

احمرَّ وجه سيري وابتسمت وسعَ شفثيها. أعطتها الساحرة إشارة أخرى متفق عليها.

قالت البنية بصوت أعلى، رافعة أنفها: «والآن، سأترككم وحدكم، فلعلكم تريدون الحديث مع تريس في أمور مهمة مختلفة. السيدة ميريجولد، العم فيسمير، أيها السادة... أودعكم. إلى اللقاء».

انحنّت بلباقة ثم خرجت من القاعة ببطء، وراحت تخطو على الدرج بجلال.

كسر لامبرت الصمت: «اللعة. تصور أنني لم أصدق أنها كانت أميرة حقًا».

تلّفت فيسمير ناظرًا حوله: «هل استوعبتم أيها البلداء؟ إن لبست ثوبًا في الصباح... فلن تكون أي تدريبات... أتفهمون؟».

أغدق إسكيل وكوئين على الرجل المسن نظرات خالية تمامًا من الاحترام. دمدم لامبرت دون إخفاء امتعاضه. نظر جيرالت إلى الساحرة، فابتسمت.

قال: «شكرًا لك. شكرًا لك، تريس».



قلق إسكيل على نحو واضح: «شروط؟ تريس، لقد وعدنا بأننا سنسهل تدريبات سيري. ما الشروط الأخرى التي تريدون فرضها علينا؟».

- حسنًا، ربما كلمة «شروط» ليست تعبيرًا لطيفًا جدًا. فلنسمّها إذن نصائح. سأقدم لك ثلاث نصائح وسوف تتبعون هذه النصائح. طبعًا، إذا كنتم تريدون مني أن أبقى هنا وأساعدكم في تربية الصغيرة.

قال جيرالت: «إننا نستمع. تكلمي يا تريس».

بدأت الكلام مبتسمة بخبث: «بادئ ذي بدء يجب أن تكون قائمة الطعام لسيري متنوعة. والحد من الفطر السري والخضراوات المجهولة خصوصًا».

تحكم جيرالت وكوئين بوجهيهما على نحو مثالي. لامبرت وإسكيل أسوأ قليلاً. أما فيسمير فلم يتحكم على الإطلاق. حسناً، فكرتُ وهي تنظر إلى تعابير وجهه الحائرة بطريقة مضحكة، لقد كان العالم أفضل في زمانه. وكان الرياء نقيصة ينبغي الخجل منها. والصدق لم يكن يجلب العار.

تابعتُ محاولةً ألا تضحك: «القليل من مغلي الأعشاب المشمولة بالسرية، والمزيد من الحليب. لديكم هنا ماعز. الحلب ليس فناً، ستري يا لامبرت، ستتعلمه في لحظة».

بدأ جيرالت: «تريس، اسمعي...».

- لا، بل أنت اسمع. لم تُخضعوا سيرى لطفرة مفاجئة، ولم تلمسوا الهرمونات، ولم تجربوا الإكسير والأعشاب. وهذا ما تُمتدحون عليه. كان ذلك تصرفاً عقلانياً ومسؤولاً وإنسانياً. أنتم لم تؤذوها بالسموم، والأجدر ألا يكون مسموحاً لكم أن تشوهوها بالعاهات الآن.

- عمّ تتكلمين أنتِ؟

أوضحتُ: «حقاً، إن الفطر الذي تخفون سره، يبقِي الفتاة في لياقة ممتازة ويقوّي عضلاتها. الأعشاب تضمن التمثيل الغذائي المثالي وتُسرع النمو. بيد أن ذلك كله معاً، مدعوماً بالتدريب الإجرامي، يسبب بعض التغيرات في بنية الجسد. وفي الأنسجة الدهنية. إنها امرأة. إذا لم تسببوا لها تشوهاً هرمونياً، فلا تسببوا لها عاهة بدنية. فقد تلومكم ذات يوم أنكم حرمتموها من خصائصها... الأنثوية دون رحمة. أندركون عمّ أتحدث؟».

تمتم لامبرت، وهو يحدق بوقاحة إلى نهدي تريس، اللذين كانا يشدان نسيج ثوبها: «وكيف لا».

تنحَنح إسكيل وصعق الويتشر الشاب بعينيه.

سأل جيرالت ببطء، وهو يجيل بنظره على هذا وذاك: «في هذه اللحظة، لم تعثري فيها على أي شيء لا يمكن إرجاعه إلى حاله، أمل ذلك؟».

ابتسمتُ: «لا. من حسن الحظ لا. إنها تتطور تطوراً صحياً وطبيعياً، بنيتها مثل بنية دريادا صغيرة، النظر إليها يُسرُّ العين. لكنْ توخوا الاعتدال عند استخدام المسرعات، أرجوكم أن تفعلوا ذلك».

وعدها فيسمير: «سنتوخاه. نشرك على التنبيه يا طفلي. وماذا بعد؟ لقد تحدثت عن ثلاث نصائح».

- أجل. ها هي الثانية: من غير المسموح أن تصير سيري متوحشة هنا. يجب أن يكون لديها تواصل مع العالم. مع أقرانها. ويجب أن تحصل على تعليم لائق وعملية إعداد لحياة طبيعية. ولتلوّح بالسيف في الوقت الحالي. ودون طفرات لن تجعلوا منها ويتشرية على أي حال، لكنّ التدريب الويتشري لن يؤذيها. الأوقات صعبة وخطرة، وستكون قادرة على الدفاع عن نفسها إذا اضطرّت. مثل إلفية. لكنّ لا يمكنكم دفنها حية هنا، في هذه المنطقة النائية. يجب أن تنغمس في الحياة الطبيعية. تتم جيرالت: «حياتها الطبيعية احترقت مع سينترا. لكنّ لا بأس يا تريس، أنت كالعادة محقّة. لقد فكرنا في ذلك فعلاً. حينما يحل الربيع، سأخذها إلى مدرسة المعبد. إلى نينيكي، إلى إلاندر».

- هذه فكرة جيدة جدًّا وقرار حكيم. نينيكي امرأة فريدة من نوعها، ومتعبّد الإلهة مليتيلي مكان لا مثيل له. آمن وموثوق ويضمن التعليم المناسب للبت. هل علمت بذلك سيري؟

- هي تعلم. تشاجرت معنا بضعة أيام، لكنها تقبلت الأمر في النهاية. حتى إنها أصبحت الآن تتطلع بشوق كبير إلى الربيع، ويثيرها توقّع المضي في رحلة إلى تيميريا. لديها فضول لمعرفة العالم.

ابتسمت تريس: «مثلي تمامًا وأنا في عمرها. وهذه المقارنة تقربنا على نحو غير آمن من النصيحة الثالثة. الأهم. وأنتم تعلمون ما هي. لا تفتعلوا تعابير حمقاء على وجوهكم. أنا ساحرة، هل نسيتم؟ لا أدري كم من الوقت كلفكم التعرف إلى قدرات سيري السحرية. أنا احتجت إلى أقل من نصف ساعة لهذا الغرض. بعد هذا الوقت، بتُّ أعرف من، أو بالأحرى ما، تكون هذه الفتاة».

- فما تكون؟

- مصدرًا.

- مستحيل!

- ممكن. بل أكيد. سيري هي مصدر، لديها قدرات في الوساطة الروحية. فضلًا عن ذلك، فإن هذه القدرات مقلقة جدًا، جدًا. وأنتم أيها الويتشريون الأحباء تعلمون ذلك جيدًا. لقد لاحظتم هذه القدرات، وهي أقلقتمكم أيضًا. فقط لهذا السبب حصرًا، جئتم بي إلى كاير مورهين، أليس كذلك؟ ألسْتُ محقة؟ فقط لهذا السبب حصرًا؟

أكد فيسمير بعد لحظة صمت: «نعم».

تنفست تريس الصُّعداء، دون أن تظهر ذلك. لقد خشيت خلال لحظة أن يكون جيرالت هو الشخص الذي سيؤكد الأمر.



في اليوم التالي تساقط الثلج الأول خفيفًا في البداية، لكن سرعان ما تحوّل إلى عاصفة ثلجية. هطل طوال الليل، وفي الصباح غرقت أسوار كاير مورهين في الركام الثلجي. فلم يعد ذكر الجري على مسلك موردوفنيا واردة، خصوصًا وأن سيري لم تكن بأفضل حال. اشتبهت تريس في أن «المسرعات» الويتشرية قد تكون السبب في اضطرابات الدورة الشهرية. غير أنها لم تكن متأكدة، فهي عمليًا لم تكن تعلم شيئًا عن هذه العقارات العلاجية، وكانت سيري دون أدنى شك الصبية الوحيدة في العالم التي أُعطيت مثل هذه الأشياء. لم تفصح للويتشريين عن شكوكها. لم ترغب في إقلاقهم ولا في إثارة أعصابهم، وفضلت استخدام أساليبها الخاصة. أشربت سيري جرعات الإكسير، وحزمتها برباط من اليشب النشط حول خصرها تحت الثوب، ومنعتها من النشاطات المجهدّة، وخصوصًا المطاردة الوحشية بالسيف للجرذان.

شعرت سيري بالملل، وتجولت نعسةً حول القلعة، في النهاية، ولانعدام تسلية أخرى، انضمت إلى كوئين الذي كان ينظف في الإصطبل، ويعتني بالخيول، ويصلح أحزماتها.

ما أثار حَنَقَ الساحرة أن جيرالت اختفى في مكان ما، ولم يظهر إلا في المساء حاملًا أًيلًا صغيرًا رُميَ بسهم. ساعدته تريس على سلخ جلد الغنيمة. ومع أنها كانت تشعر بالاشمئزاز الشديد من رائحة اللحم والدم، أرادت أن تكون قريبة من الويتشر. قريبة. أقرب ما يكون.

نما في داخلها تصميم بارد وعنيد. لم تعد تشتهي النوم وحدها أكثر من ذلك.

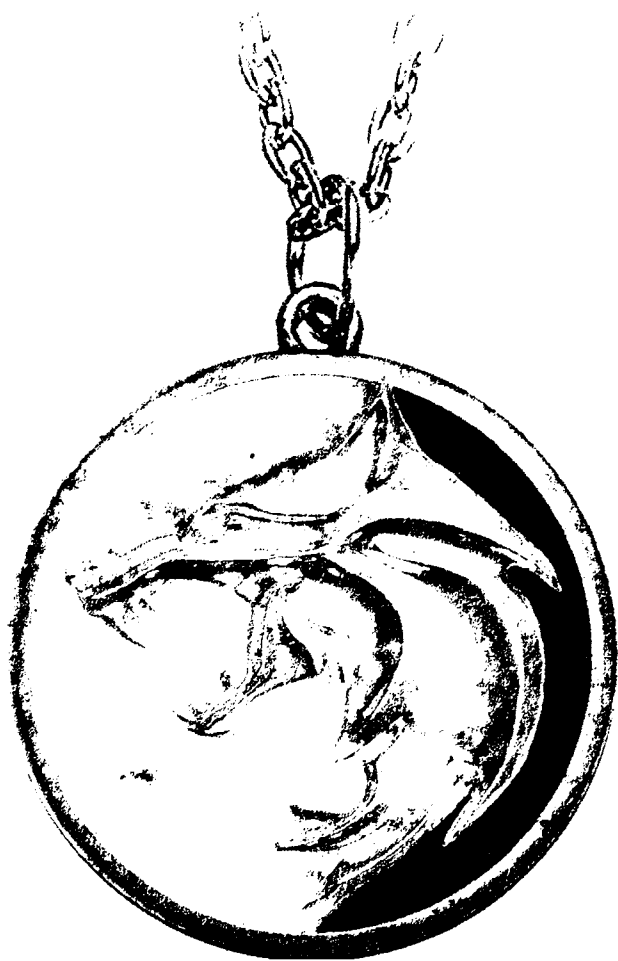
صرختُ سيرى فجأة، وهي تخبط راکضة على الدرج: «تريس! هل يمكنني النوم عندك اليوم؟ تريس، أرجوك، وافقي! أرجوك تريس!». تساقط الثلج وتساقط. ولم يصبح الجو صحواً إلا حينما حل ميدينفائرن، يوم الانقلاب الشتوي.

في اليوم الثالث، مات الأطفال جميعهم إلا صبي واحد، لا يتجاوز عمره عشرة أعوام. هذا الذي كان مصابًا باضطراب عقلي عنيف حتى الآن، دخل فجأة في غيبوبة عميقة. كان ناظره يلتمعان كالزجاج، كان يمسك الغطاء بيديه باستمرار أو يحركهما في الهواء كأنه يريد الإمساك بالريش. أصبح تنفسه عاليًا وأجش الصوت، وراح العرق يسيل منه على الجلد باردًا ولزجًا ومنتنًا. لذا حُقن مجددًا بالإكسير في عروقه وتكررت الهجمة. وحدث في هذه المرة نزيف من الأنف وتحول السعال إلى قيء على إثره خارت قوى الصبي تمامًا وشُلَّت حركاته.

ولم تخف حدة الأعراض خلال اليومين التاليين. غدا جلد الطفل، الذي كان حتى الآن مغمورًا بالعرق، جافًا وساخنًا، وفقد النبض اكتماله وصلابته، بيد أنه كان قويًا إلى حد ما، أو بالأحرى كان بطيئًا لا سريعًا. لم يصح من بعد، ولو مرة واحدة، ولم يطلق صرخة أخرى.

وأخيرًا حل اليوم السابع. استعاد الصبي وعيه كأنه استيقظ من النوم، وفتح عينيه وكانتا كعيني أفعى...

كارلا ديميتيا كريست، اختبار الأعشاب والممارسات الويتشرية السرية الأخرى، شُوهِدَت بأم العين، مخطوط مقدّم للاطلاع الحصري من قبل محفل السحرة.



الفصل الثالث

عبست تريس وهي تسند مرفقيها إلى المنضدة: «مخاوفكم غير مُسوَّغة ولا أساس لها إطلاقًا، لقد ولَّى الزمن الذي كان فيه السحرة يطاردون المصادر والأطفال المتمتعين بملكة السحر، كانوا ينتزعونهم من والديهم أو الراعين لأموهم بالقوة أو بالحيلة. هل حقًا ظننتم أنني أريد أخذ سيري منكم؟».

شخر لامبرت وأدار رأسه. إسكيل وفيسمير نظرًا إلى جيرالت، لكنَّ جيرالت بقي صامتًا. كان يتطلع جانبًا عابثًا على نحو متواصل بميداليته الفضية الويتشرية، التي تتزين برأس ذئب مكشر عن أنيابه. علمت تريس أن الميدالية قد استجابت للسحر. في ليلة مثل ليلة ميدنفايرن، عندما كان الهواء يهتزُ جراء السحر، كان لا بدَّ لميداليات الويتشريين أن ترتجف دون انقطاع، وكان لا بدَّ أن تثير الإزعاج والقلق.

أخيرًا قال فيسمير: «لا، يا طفلتي. نحن نعلم أصلًا أنك ما كنتِ لتفعلي ذلك. لكننا نعلم أيضًا أن عليكِ واجبَ إبلاغ المحفل عنها. نعلم، وليس منذ هذا اليوم، أن كل ساحر وساحرة يقع على عاتقهما مثل هذا الواجب. لن تنتزعوا بعد الآن الأطفال الموهوبين من والديهم والراعين لهم. تراقبون هؤلاء الأطفال حتى تأتي اللحظة المناسبة، لاحقًا، فتبهروهم بالسحر، وتحثوهم على...».

قاطعته ببرود: «لا داعي إلى القلق. لن أحدث أحدًا عن سيري. ولا المحفل أيضًا. لماذا تحذقون إليَّ هكذا؟».

قال إسكيل بهدوء: «تُدْهِشُنَا السهولة التي تتعهدين بها لنا بحفظ السر. عذراً يا تريس، لم أشأ الحطّ من قدرك، لكنّ ماذا حدث لولائكم الأسطوري للمجلس والمحفل؟».

- حدث الكثير. لقد غيّرت الحربُ الكثيرَ. والمعركة من أجل سودنّ غيرتْ أكثر. لا أريد أن أضجركم بالسياسة، وإن بعض المشكلات والقضايا، اعذروني، مشمولة بالسر الذي لا يجوز لي إفشاؤه. أما الولاء... فأنا مخلصه له. لكنّ يمكنكم تصديقي، ففي هذه القضية يمكنني أن أكون مخلصاً للمحفل ولكم على حد سواء.

نظر جيرالت إلى عينيها أول مرة في هذا المساء: «مثل هذا الولاء المزدوج أمر شديد الصعوبة. نادراً ما يفلح أحد فيه، يا تريس».

نظرتِ الساحرة إلى سيري. كانت البنية جالسة مع كوثين على جلد دب في الطرف القصي من القاعة، كانا مشغولين باللعب بلعبة الكفّ. أصبحت اللعبة رتيبة لأنهما كليهما سريعان على نحو لا يصدق؛ فلم يتمكن أي منهما بأي طريقة من إصابة الآخر. لكنّ ذلك، كما كان واضحاً، لم يعقهما ولم يفسد التسلية.

قالت: «جيرالت. عندما وجدتَ سيري هناك، أعلى نهر ياروغا، أخذتها معك. جئتَ بها إلى كاير مورهين، وأخفيتَها عن العالم، ولا تريد حتى أن يعلم الناس المقربون من هذه الطفلة وأنها حيّة. لقد فعلتَ ذلك لأن شيئاً ما، لا أعلمه، أفنّعك بأن القدر موجود، وأنه يحكمنا، وأنه يقودنا إلى كل ما نفعله. أنا أعتقد ذلك أيضاً، اعتقدتُ ذلك دائماً. إذا شاء القدر أن تصبح سيري ساحرة، فسوف تصبح كذلك. المحفل، وليس المجلس، لا ينبغي له أن يعلم عنها، ولا ينبغي له أن يراقبها أو يقنعها. وحين أحفظ سرّكم، فإنني لا أخون المحفل إطلاقاً. لكنّ، كما تعلمون، فتمة عقبة هنا».

تنهد فيسمير: «ليتها كانت واحدة فقط. تكلمي يا طفلتي».

- لدى الفتاة قدرات سحرية، وهذا لا يمكن إهماله. إنه غاية في الخطورة. - في أي منحى؟

- القدرات غير المنضبطة خطيرة. على المصدر وعلى الوسط المحيط. يمكن للمصدر أن يكون خطراً على الوسط المحيط بكثير من الطرق.

وعلى نفسه بطريقة واحدة فقط. إنه مرض عقلي. وهو في أغلب الأحيان متلازمة شذوذ الحركة.

قال لامبرت بعد لحظة صمت طويلة: «اللعة على الشياطين. أنا أصغي إليكم وأعتقد أن شخصاً ما قد جُنَّ هنا، وما علينا إلا النظر كيف سيهدد الوسط المحيط. القدر، المصادر، الأسرار، المعجزات، الغيبيات... ألا تبالغين يا ميريجولد؟ هل هذا هو أول طفل جُلِبَ إلى الحصن؟ لم يجد جيرالت أي قدر، بل وجد طفلاً يتيمًا مشردًا آخر. سنُعَلِّمُ هذا الطفل السيف ونطلقه إلى العالم كالآخرين. أجل، هذا صحيح، لم ندرّب فتيات في كاير مورهيّن من قبل. لقد واجهتنا مشكلات مع سيرى، وارتكبنا أخطاء، ومن الجيد أنك بيّنتها لنا. لكنّ دون مبالغة. إنها ليست أصيلة إلى درجة أن تركع على ركبتها، وترفع عينيها نحو السماء. أقليل عدد النسوان المحاربات اللواتي يجلن في أنحاء العالم؟ أضمن لك يا ميريجولد أن سيرى ستخرج من هنا سليمة وبصحة جيدة وقوية وقادرة على تدبّر أمورها في الحياة. وأضمن أن لن يصيبها شذوذ الحركة أو أي نوع آخر من الصرع. إلا إذا أقنعتِها بأنها تعاني مرضاً مماثلاً.

استدارت تريس في كرسيها: «فيسمير. مُرّه أن يسكت لأنه يضايقنا».

قال لامبرت بهدوء: «إنك تتذاكين، ولم تعلّمي كل شيء بعد. انظري».

مدّ يده نحو الموقد طاوياً أصابعه على نحو غريب. هدر الموقد وزمجر اللهب وهبَّ فجأة، توهج الجمر وتطاير الشرر. جيرالت وفيسمير وإسكيل نظروا إلى سيرى بقلق، لكنّ الصبيّة لم تنتبه إلى الشهاب الناري المثير.

عقدت تريس ذراعيها على صدرها ونظرت إلى لامبرت نظرة استفزاز.

قالت بهدوء: «علامة أراد. أردت أن تبهرني؟ بالإيماءة نفسها، معززة بالتركيز وجهد الإرادة وبالتعويدة، أستطيع في لحظة أن أرمي قطع الحطب من خلال الموقد عاليًا لدرجة أنك ستظن أنها نجوم».

أقرّ: «يمكنك ذلك. لكنّ سيرى لا. هي غير قادرة على عقد علامة أراد. ولا أي علامة أخرى. لقد حاولت مئات المرات دون جدوى. وأنت تعلمين أن علاماتنا يكفيها الحد الأدنى من القدرات. وبعد، فليس لدى سيرى حتى الحد الأدنى. إنها طفلة عادية تمامًا. لا تمتلك أقل القدرات السحرية، لا بل هي شيء مضاد للموهبة. وأنت هنا تحكين عن المصدر، وتحاولين إخافتنا...».

أوضحت ببرود: «المصدر لا يتحكم بمهاراته، وليس لديه السيطرة عليها. إنه وسيط روحي، شيء كالناقل. يتصل بالطاقة لا إرادياً ويعيد تشكيلها لا إرادياً. وحين يحاول ضبطها، وحين يبذل جهداً، كما في محاولات أداء العلامات، لا يتأتى شيء. ولن يتأتى شيء ليس فقط مع مئات المحاولات، بل ومع آلاف المحاولات أيضاً. وهذا شيء نموذجي للمصدر. لكن ذات يوم ستأتي لحظة لا يُجهد فيها المصدر نفسه، ويركز تفكيره على الأحلام الوردية أو خلط النقائق مع الملفوف، ويلعب النرد، أو يلهو مع شخص ما في السرير، ويعبث بأنفه... وفجأة يحدث شيء ما. على سبيل المثال، أن يلتهم المنزل لهب النيران. وفي وقت آخر، يلتهم لهب النيران نصف المدينة».

- تبالغين يا ميريجولد.

أطلق جيرالت الميدالية ووضع كفيه على المنضدة: «لامبرت. أولاً، لا تخاطبُ تريس باسم «ميريجولد»، ولقد طلبتُ منك مراراً وتكراراً ألا تفعل ذلك. ثانياً، إن تريس لا تبالغ. لقد رأيتُ بأَم عيني أَم سيري، الأميرة بافيتا، في ذروة انفعالها. أقول لكم، لقد كان ذلك شيئاً يستحق النظر إليه. لا أدري إذا كانت مصدرًا، لكنَّ أحدًا لم يشك في قدراتها، إلى أن أتى الوقت الذي كانت فيه على وشك أن تدمر القصر الملكي في سينترا بقضها وقضيضها».

قال إسكيل وهو يشعل الشموع في شمعدان آخر: «إذن، ينبغي لنا أن نقبل أن سيري، مع ذلك، يمكن أن يكون لديها استعداد وراثي».

تحدث فيسمير: «ليس يمكن فحسب. بل هي مُثقلة به. فمن ناحية، لامبرت محق. سيري غير قادرة على عقد العلامات. ومن ناحية أخرى... كلنا رأينا...». سكت ونظر إلى سيري التي تفاعلت مع تحقيقها التفوق في لعبة الكف بصياح مبتهج. رأت تريس الابتسامة على وجه كوئين، ولم يكن لديها أدنى شك في أنه سمح لها بالفوز.

قالت ساخرة: «بالضبط. كلكم رأيتم. ماذا رأيتم؟ وفي أي ظروف رأيتم ذلك؟ ألا تعتقدون، أيها الرجال، أن الوقت قد حان للبوح بمصارحات أصدق؟ تباً للشيطان، أكرر، سأحفظ بالسر. ولكم كلمتي ضماناً».

نظر لامبرت إلى جيرالت، وجيرالت أوما برأسه إيماء موافقة. وقف
الويتشر الأصغر سنًا، وأخذ من الرف العالي غُرَّافَة⁽¹⁾ بلورية كبيرة مربعة،
وقارورة أصغر منها. سكب محتويات القارورة الصغيرة في الغرافة، ورجها
عدة مرات، ثم صبَّ سائلًا شفافًا في الأقداح الموضوعة على المائدة.
- اشربي معنا، يا تريس.

تهكمت: «أوَكانت الحقيقة فظيعة إلى درجة أن التحدث عنها في حالة
صحو غير ممكن؟ وأن على المرء أن يكون ثملًا ليتمكن من سماعها؟»
- لا تتذكري. ارتشفي. سوف تفهمين على نحو أسهل.

- وما هذا؟

- نورس أبيض.

- ماذا؟

ابتسم إسكيل: عقار خفيف للأحلام البهيجة.

- تبًا لدماء الكلاب! هلوسة ويتشرية؟ إذن لذلك تضیی أعينكم مساءً!

- النورس الأبيض لطيف جدًا. إن الأسود هو المُهلوس.

- إذا كان في هذا السائل سحر فممنوع عليَّ أن أدخله في فمي!

هذأها جيرالت، لكنَّ تعابير وجهه، كما لاحظتُ، لم تكن حسنة كثيرًا. من
الواضح أنه كان يخشى السؤال عن تركيبة الإكسير: «مكوناته طبيعية حصراً.
ومخفف بكمية كبيرة من الماء. ما كان لنا أن نقدم لك شيئًا يمكن أن يضر
بك».

أصاب السائل الفوار ذو الطعم الغريب المريء بالبرودة وفاض بالدفء
على الجسد بأكمله. مررتِ الساحرة لسانها على اللثة والحنك. لم تتمكن من
تعرف أي من مكونات السائل.

خمنتُ: «لقد أعطيتم سيري لتشرب هذا الـ... نورس. وعندئذٍ...».

(1) الغُرَّافَة: قَنينة من زجاج أو بلّور، عريضة في أسفلها وضيقُ العنق من غير مقابض،
والكلمة البولندية مأخوذة من اللغة العربية.

قاطعها جيرالت بسرعة: «حدث ذلك عَرَضًا. في المساء الأول، بعد وصولها بقليل... كانت عَطِشَةً، كان النورس موضوعًا على المنضدة. قبل أن نتمكن من فعل شيء، جرعته جُرْعَةً واحدة. ووقعت في غشية».

اعترف فيسمير وتنهد: «لقد أ تخمنا خوفًا. أوه، أجل يا طفلتي، لقد أ تخمنا خوفًا. حتى غُصَّت حلوقنا».

صرحت الساحرة بهدوء، ناظرة إلى أعين الويتشرين المشعة في ضوء الشموع: «بدأت تتكلم بصوت ليس صوتها. بدأت تتكلم عن الأشياء والأمور التي لم تستطع معرفتها. بدأت... تتنبأ. أليس كذلك؟ ماذا حكّت؟».

قال لامبرت بطريقة محايدة: «حماقات. خُرْعِبَلات لا معنى لها».

نظرت إليه: «لا أشك في أنها قد تفاهمت معك على نحو رائع حينئذ. الخُرْعِبَلات هي تخصصك، وأقتنع بذلك في كل مرة تفتح فيها فمك. لذا فاصنع لي معروفًا ولا تفتحه مدةً من الوقت. حسنًا؟».

قال إسكيل بجدية وقد فقد الندبة على خده: «هذه المرة لامبرت محق، يا تريس. حينئذ، بعد أن شربت سيري النورس، حقًا تكلمت كلامًا لم يكن ممكنًا فهم شيء منه. عندئذ، في المرة الأولى، كان ذلك رطانة. وفقط بعد...».

توقف. هزت تريس رأسها.

خمنت: «في المرة الثانية فقط بدأت تتكلم كلامًا ذا معنى. إذن المرة الثانية حصلت. أيضًا بعد المخدر الذي جرعته بسبب إهمالك؟».

رفع جيرالت رأسه: «تريس. هذا ليس وقت المناكفات بالتنكيت. هذا لا يسلينا. بل يقلقنا ويثير الهموم فينا. نعم، المرة الثانية حصلت، والمرة الثالثة أيضًا. لقد ركب النحس سيري تمامًا ووقعت في أثناء التدريب. فقدت وعيها. وعندما استعادته أخذتها الغشية من جديد. ومن جديد راحت تروي الخُرْعِبَلات. ومن جديد لم يكن ذاك صوتها. ومن جديد لم يكن كلامها مفهومًا. لكنني قد سمعت أصواتًا مماثلة من قبل، أساليب مماثلة في التكلم. هكذا تتكلم أولئك النساء الفقيرات والمريضات ومن فقدن العقل، اللواتي يُسمَّين بوسيطات الوحي. هل تفهمين ما أقصد؟».

- تمامًا. كانت هذه المرة الثانية. انتقل إلى الثالثة.

مسح جيرالت جبهته بساعده، وفجأة تصيب منه العرق.

استأنف: «كثيرًا ما تستيقظ سيرى في الليل. صارخة. لقد عانت الكثير. هي لا تريد التحدث عن ذلك، لكنها دون شك رأت في سينترا وأنجرين أشياء ينبغي للطفل ألا يراها. حتى إنني أخشى أن... أحدًا ما قد آذاها. وذلك يعود في الأحلام... عادة ما تنتهي من تهدئتها بيسر وتنام دونما منغصات... لكن ذات مرة بعد أن استيقظت... دخلت مجددًا في غشية. ومن جديد تحدثت بطريقة غريبة وغير سارة... وبصوت ذميم. تكلمت كلامًا واضحًا وذا معنى. تنبأت. واستشرفت. وبصرت...».

- ماذا؟ ماذا يا جيرالت؟

قال فيسمير بوداعة: «الموت. الموت يا طفلي».

نظرتُ تريس إلى سيرى التي اتهمت كوثين بطريقة صارخة بالغش في اللعبة. احتضنها كوثين وانفجر ضاحكًا. أدركت الساحرة فجأة أنها لم تسمع من قبل أن أحد الويتشرين قد ضحك قط.

سألت سؤالًا قصيرًا، وهي لا تزال تنظر إلى كوثين: «لمن؟».

قال فيسمير: «لُ».

أضاف جيرالت. وابتسم: «ولآخرين».

- بعد استيقاظها...

- لم تتذكر شيئًا. ونحن لم نطرح أسئلة.

- أحسنت. أما ذلك التنبؤ... فهل كان محددًا؟ تفصيليًا؟

نظر جيرالت إلى عينيها مباشرة: «لا. بل غامض. لا تسألي عن ذلك، يا تريس. فنحن لا يقلقنا محتوى تنبؤات سيرى وهذياناتها، بل ما يحدث لها. نحن لا نخاف على أنفسنا، لكن...».

أنذره فيسمير: «حذار. لا تتحدث عن ذلك أمامها».

اقترب كوثين من المنضدة حاملاً البنية على كتفيه.

قال: «تمني للجميع ليلة سعيدة، يا سيرى. تمني ليلة سعيدة لهذه البومات السُمر الليلية. نحن ذاهبون للنوم. اقترب منتصف الليل. سينتهي بعد قليل ميدينفائرن. ابتداءً من الغد، يقترب الربيع مع كل يوم!».

انزاحت سيرى من ظهره ومدت يدها إلى كأس إسكيل: «أنا عطشانة».

أبعد الويتشر الإناء بلباقة عن مجال يديها وأمسك بإبريق الماء. قامت تريس بسرعة.

قدّمت إلى الصبية كأسها نصف المملوءة، وفي الوقت نفسه ضغطت بقوة كتف جيرالت، ناظرة إلى عيني فيسمير: «تفضلني. اشربي».

همس إسكيل، وهو ينظر إلى سيري التي راحت تشرب بنهم: «تريس. ما هذا الذي تفعلين؟ إن ذلك...».

- ولا كلمة لو سمحت.

لم ينتظرا النتيجة طويلاً. تصلبت سيري فجأة، وصرخت بصوت خافت، ثم ابتسمت ابتسامة واسعة وسعيدة. أطبقت جفنيها ومددت يديها. ضحكّت، ودارت دورة على أصابع قدمها، ورقصت قفزاً على أطراف أصابعها. أزال لامبرت الكرسي الخشبي الموضوع في طريقه بحركة في لمح البصر، ووقف كوثين بين الراقصة وفم الموقد.

وثّبت تريس، وسحبّت من خلف تقوية الثوب التميمة والياقوتة الملبّسة بالفضة على سلسال رفيع. وضغطته بقبضتها بقوة.

تأوه فيسمير: «يا طفلة... ما هذا الذي تفعلين؟».

قالت بحدة: «أعلم ما أفعله. دخلتِ البنت في الغشية، وأنا سأتواصل معها نفسياً. سأدخل إلى أعماقها. قلت لكم، إنها شيء ما يشبه المرسل السحري، يجب أن أعلم ما الذي توصله، وكيف ومن أين تأخذ هالتها، وكيف تشكلها. اليوم ميدينفائرن، الليلة المواتية لمثل هذه المهمة...».

قطّب جيرالت جبهته: «لا يعجبني ذلك. لا يعجبني إطلاقاً».

تجاهلتِ الساحرة كلماته: «إذا أصيبت إحدانا بالصرع، فإنكم تعلمون كيف ستصرفون. عود صغير بين الأسنان، تمسكونه وتنتظرون. ارفعوا رؤوسكم يا رجال. قد فعلت ذلك أكثر من مرة».

توقفت سيري عن الرقص قفزاً، وتهاوت راکعة، ومدت يديها، وأسندت رأسها إلى ركبتيها. ضغطت تريس التميمة التي غدت دافئة الآن على صدغها، وهمست بصيغة التعويذة. أغلقت عينيها، وركزت إرادتها ثم أرسلت المحفز.

هدر البحر، واصطدمت الأمواج بالشاطئ الصخري بصخب، وانفجرت ينابيع عالية كأعمدة بين الصخور. رفرفت بجناحيها، ملتقطّة الريح المالحة.

سعيدة سعادة لا توصف، انقضت إلى الأسفل عمودياً، ولحقتُ بقطع ريفقاتها، نشبتُ مخالبتها في أعراف الأمواج، وطارَتْ في السماء من جديد، مسقطاً قطرات ماء، وحلَّقتُ تهزها الريح العاصفة بين أرياشها: ريشات الطيران وريشات الذيل. فكرت بتعقل: قوة الإحياء. إنها قوة الإحياء فحسب. النورس!

تريبييس! تريبييس!

سيرى؟ أين أنت؟

تريبييس!

خفتُ صياح النوارس. كانت الساحرة لا تزال تحسُّ برذاذ رطب على وجهها تنثره الأمواج المزبدة، لكنَّ البحر لم يعد تحتها. وفي الواقع كان موجوداً، لكنه بحر من العشب، وسهلٌ لا نهاية له يمتد حتى الأفق. أقرتُ تريس، وقد شعرتُ بالرعب، أن ما رأيته كان منظرًا مشهدياً يلوح من قمة قل سودن. لكنه لم يكن ذاك القل. لا يمكن أن يكون ذاك القل.

أظلمتِ السماء فجأة، وتكاثفت كُباب من الظلال في كل اتجاه. رأْتُ صفًا طويلاً من أشخاص غير واضحي الشكل يهبطون المنحدر ببطء. سمعتُ همسات تراكمت بعضها فوق بعض، مختلطة في جوقة مقلقة وغير مفهومة. وقفتُ سيرى في مكان مجاور، وقد أدارتُ ظهرها. طيَّرت الريح شعرها الرمادي الزاهي.

استمر الأشخاص الضبابيون، غير واضحي الشكل، في المرور جانباً، في صف طويل لا نهاية له. وأداروا رؤوسهم وهم يتجاوزونها. كتمتُ تريس الصراخ ناظرة إلى الوجوه المحايدة والهادئة، إلى الأعين العمياء الميتة. لم تكن تعرف جلَّ الوجوه ولم تتعرَّف إليها. لكنها عرفت بعضها.

كورال. فانيل. يوثيل. رابي أكسل...

همستُ: «لماذا قدتني إلى هنا؟ لماذا؟».

استدارتُ سيرى. رفعت يدها، فرأت الساحرة دفقة من الدم تجري خلال شريان الحياة إلى داخل كفها، على معصمها.

قالت البنية بهدوء: «إنها وردة».

- وردة من شائراًفيد. لقد جرحْتُ نفسي. هذا لا شيء. هو مجرد دم. دماء الإلفيين...

ازدادت السماء ظلمة، والتمعتُ في لحظات ببرق حادٍ يخطف الأبصار. وهمد كل شيء في صمت وسكون. خطتُ تريس خطوةً، تريد أن توقن أكان في وسعها فعل ذلك. توقفتُ بجوار سيرى فرأتُ أنهما واقفتان كلتاهما على شفا هاوية التي لا قرارَ لها، يلتف فيها دخان محمّرٌ كأنه كان مضاءً. كشف وميض البرق الصامت التالي فجأةً عن درجٍ رخامي طويل يفضي إلى أعماق الهوة.

قالت سيرى بصوت مرتجف: «يجب المضي هكذا. لا مسلك آخر. هذا فحسب. من خلال الدرج إلى الأسفل. يجب المضي هكذا، لأن...

Va'esse deirea'dh aep eigan...

همست الساحرة: «تكلمي. تكلمي يا طفلة».

- طفلة الدم الأكبر... *Feainnewedd... Luned aep Hen Ichaer...*
Deithwen... اللهب الأبيض... لا، لا... لا!

- سيرى!

- الفارس الأسود... على خوذته ريش.. ماذا فعل بي؟ ماذا حدث حينئذ؟ خفتُ... وما فتئتُ أخاف.

لم ينتهِ الأمر، ولن ينتهي أبداً. شبل الأسد يجب أن يموت... المصلحة العليا... لا... لا...

- سيرى!

تصلبتِ الصبية وأطبقتُ جفنيها: «لا! لا، لا، لا أريد! لا تلمسني!».

تغير وجه سيرى فجأةً وجمد، أصبح صوتها معدنياً، وبارداً ومشوئماً، رنٌ فيه تهكم شرير وقاس.

- جئتِ إلى هنا من أجلها، يا تريس ميريجولد؟ حتى إلى هنا؟ لقد توغلتِ بعيداً جداً، لقد حذرتكِ، أيتها الرابعة عشرة.

ارتجفتُ تريس. لكنها سيطرت على صوتها: «من أنت؟».

- ستعلمين عندما يحين الوقت.

- بل سأعلم حالاً!

رفعت الساحرة يديها، ونشترتهما بسرعة خاطفة، واضعة كل قواها في
سحر التقمص. انشقت الستارة السحرية، لكن كان خلفها ثانية... ثالثة...
رابعة...

تهاوت تريس على ركبتيها متأوهة. واستمرّ الواقع في التشقق، انفتح باب
آخر، وصف طويل لا نهاية له يفضي إلى العدم. إلى الفراغ.

تهكم الصوت المعدني غير الإنساني: «لقد خربقت، أيتها الرابعة عشرة،
لقد خلطت بين السماء والنجوم المنعكسة على سطح البركة ليلاً».

- لا تلمس... لا تلمس هذه الطفلة!

- هذه ليست طفلة.

تحركت شفتا سيري، لكنّ تريس رأت أن عيني البنية ميتين، مزججتان،
غائبتان عن الوعي.

كرّر الصوت: «هذه ليست طفلة. إنها لهيب، لهيب أبيض، منه سيتقد
العالم ويحترق. إنه الدم الأكبر، هين إيشائر. دماء الإلفيين. البذرة التي لن
تنبت، بل ستشتعل لهيباً. الدم الذي سيكون ملوثاً... حين يحل تيد ديرياذ،
وقت النهاية. *Va'esse deirea dh aep eigan*!».

صرخت تريس: «أنت تتنبأ بالموت؟ هل هذا كل ما في وسعك، التنبؤ
بالموت؟ للجميع؟ لهم، لها... لي؟».

- لك؟ فأنت متّ فعلاً، أيتها الرابعة عشرة. كل شيء فيك قد مات فعلاً.

تنهدت الساحرة، وهي تحشد ما تبقى من قواها ملوحة بكفها في الهواء:
«باسم العناصر. الماء والنار والتراب والهواء، أناشدك. أناشدك بالفكر والنام
والموت، بما كان، وبما هو كائن، وبما سيكون. أناشدك. من أنت؟ تكلم!».

أدارت سيري رأسها. اختفت رؤيا الدرج المفضي إلى أعماق الهاوية،
وذابت وظهر في مكانها بحر رصاصي رمادي، مزبد، قد تشكّل بأعراف
الأمواج المتكسرة. دوى في الصمت صياح النوارس من جديد.

تكلم الصوت بشفتي الصبية: «طيري. حان الوقت. عودي من حيث أتيت،
أيتها الرابعة عشرة من القل. طيري على أجنحة النورس واستمعي لصياح
النوارس الأخرى. استمعي جيداً!».

- أناشدك...

- لا يمكنكِ. طيري، أيتها النورس!
فجأة هبَّت من جديد، انبثق الهواء الرطب والمالح والمنبئ بالريح
العاصفة، وكان الطيران، الطيران الذي لا نهاية له ولا بداية. زعقتِ النوارس
بتوحش. زعقت وأمرت.

تريس؟

سيرى؟

انسيه! لا تعذبيه! انسي! انسي، يا تريس!

انسي!

تريس! تريس! تريبييس!!!

- تريس!

فتحت عينيها، وألقت رأسها على الوسادة، ثم حركت يديها الخدرتين.

- جيرالت؟

- أنا معك. كيف تشعرين؟

نظرت حولها. كانت في حجرتها مستلقية على السرير. على أفضل سرير
في كاير مورهيون كلها.

- ماذا عن سيرى؟

- نائمة.

- منذ متى...

قاطعها. وغطاها ببطانية واحتضنها. حين انحنى، تمايلت الميدالية ذات
رأس الذئب فوق وجهها تمامًا: «منذ وقت طويل جدًا. ما فعلته لم يكن أفضل
فكرة، يا تريس».

ارتجفت في حضنه: «كل شيء على ما يرام».

اعتقدت أن هذا ليس صحيحًا. لا شيء على ما يرام. أدارت وجهها حتى
لا تلمسها الميدالية. كان ثمة العديد من النظريات عن خصائص التمايم
الويتشرية، لكن لم يُنصح السحرة بأن يلمسوا أيًا منها خلال أيام وليالي
الانقلابات الشمسية.

- هل... هل قلنا شيئًا ما في الغشية؟

- أَنْتِ لم تقولي شيئاً. لقد كنتِ فاقدة الوعي طوال الوقت. سيرى... قبيل أن تستيقظ مباشرة... قالت... „Va'esse dei rea'dh aep eigan,,“
- هل تعرف لغة القدماء؟

- ليس بالقدر الذي يكفيها أن تقول جملة كاملة.

- جملة معناها: «شيء ما ينتهي». (مسحت الساحرة وجهها براحة يدها). جيرالت، هذا أمر خطر. البنت هي وسيط روحي قوي على نحو لا يُصدّق. لا أعلم مع أي شيء أو مع من تتصل، لكنني أعتقد أن حدود الاتصال عندها معدومة. ثمة شيء يريد الاستيلاء عليها. شيء ما... هو بالنسبة إليّ هائل القوة. أخافُ عليها. غشية أخرى... قد تنتهي بمرض نفسي. أنا لا أتحمك في ذلك، لا أقدر على التحكم فيه، لا أستطيع... لو كان ذلك محتوماً، ما كنتُ قادرة على شل قدراتها أو كتمها، وما كنتُ سأفلح، لو لم يكن ثمة مخرج آخر، في إخمادها نهائياً. عليك أن تستفيد من مساعدة... ساحرة أخرى. أكثر موهبة. أكثر خبرة. أنت تعلم عنم أتحدث.

أدار رأسه، وزمّ شفّتيه: «أعلم».

- لا تعارض. لا تدافع. لقد خمنتُ لماذا لم تتوجه إليها، بل إليّ. حارب طموحك واهزمِ الندم والعناد. هذا لا معنى له؛ ستضني نفسك، وتخطر بصحة سيرى وحياتها. وما سيحدث لها على الأرجح في غشيتها التالية، قد يكون أسوأ من اختبار الأعشاب. اطلب المساعدة من ينيفر، يا جيرالت.

- وأنتِ، يا تريس؟

ابتلعت ريقها بصعوبة: «ماذا، أنا؟ أنا لا أحتسب. خذلتك. لقد خذلتك... في كل شيء. كنتُ... كنتُ خطأك، لا أكثر».

قال بجهد: «الأخطاء أيضاً تحتسب عندي. لا أحذفها لا من حياتي ولا من ذاكرتي. وأنا لا أضع اللوم على الآخرين من أجلها أبداً. أنت مهمة بالنسبة إليّ، يا تريس، وستكونين كذلك دائماً. لم تُسببي لي الخذلان. بتاتاً. صدقيني».

صمتت طويلاً.

أوضحت أخيراً وهي تصارع ارتجاف صوتها: «سأبقى حتى الربيع. سأكون مع سيرى... سأرعاها. ليلاً ونهاراً. سأكون معها في الليل وفي النهار. وفي الربيع... في الربيع سنأخذها إلى معبد مليتيلي في إلاندر. هذا الشيء الذي يريد أن يسيطر عليها، ربما لن يجد السبيل للوصول إليها في المعبد. وأنت حينئذ ستلجأ إلى طلب المساعدة من ينيفر».

- حسناً، يا تريس. أشكرك.

- جيرالت؟

- أسمعك.

- سيرى قالت شيئاً آخر، أليس كذلك؟ شيئاً سمعته وحدك. قل لي ماذا كان ذلك.

اعترض وقد تهدج صوته: «لا، لا، يا تريس».

- أرجوك.

- هي لم تتحدث إليّ.

- أعلم. هي كانت تتحدث إليّ. قل، أرجوك.

- إثر استيقاظها... عندما حملتها... همست: «انسيه. لا تعذبيه».

قالت بصوت خفيض: «لن أفعل. لكنني لن أستطيع النسيان. سامحني».

- أنا من يجب أن يرجو منك المسامحة. وليس منك فقط.

صرحت ولم تسأل: «ألهذا الحد تحبها؟».

اعترف بصوت منخفض بعد لحظة صمت طويلة: «لهذا الحد».

- جيرالت.

- أسمعك، يا تريس.

- كُنْ معي هذه الليلة.

- تريس...

- فقط كنْ.

- حسناً.



توقف تساقط الثلج بعد ميدينفائرن بوقت قصير. وجاء الصقيع.

كانت تريس مع سيرى في الليل وفي النهار. تعتني بها. تقوم على رعايتها. مرئية وغير مرئية.

كانت الصبية تستيقظ صارخة كل ليلة على وجه التقريب. كانت تهذي ممسكةً بخدها وتبكي من الألم. وكانت الساحرة تهدئها بالتعاون والإكسير، وتُنومها حاضنة إياها ومؤرجة بين ذراعيها. وبعد ذلك هي نفسها لم تكن تستطيع خلال فترة طويلة أن تغفو، وهي تفكر في ما قالته سيرى في أثناء نومها وبعد استيقاظها. وشعرت بالخوف المتزايد. *Va'esse deirea'dh. aep eigan* ... ثمة شيء ينتهي...

ظلت الأمور على هذه الشاكلة عشرة أيام وليالٍ. وأخيرًا انقضت. انتهت واختفت دون أن تترك أثرًا. هدأت سيرى ونامت بسلام، دون هذيان، دون أحلام.

لكن تريس بقيت ترعاها دون انقطاع. ولم تفارق الصبية قدر شعرة. قائمة على رعايتها. مرئية وغير مرئية.



- أسرعى، يا سيرى! اندفاع إلى الأمام، هجوم، قفزة مرتدة! نصف دوران على أصابع القدم لكمة، قفزة مرتدة! توازن، وازني اليد اليسرى، وإلا فستسقطين عن الوتد! وتُهشمين... خصائصك الأنثوية!

- ماذا؟

- لا شيء. ألسنتي متعبة؟ إذا أردت، فسنستريح.

- لا، يا لامبرت! ما زلت أستطيع. لست ضعيفةً إلى هذا الحد، لا تفكر في ذلك. ربما سأحاول القفز فوق كل ثاني عمود؟

- إياك إياك! ستسقطين، وعندئذٍ ستقطع ميريغولد رأسي.

- لن أسقط!

- قلتها مرة ولن أكررها. دون مباهاة! على قدميك ستكونين آمنة! والتنفس يا سيرى، التنفس! تلهثين كمثمل ماموث محتضر!

- غير صحيح!

- لا تزعقي. تَمَرَّنِي! هجوم، قفزة مرتدة! صد الضربة! نصف دورة على أصابع القدم، صد الضربة، دوران كامل على أصابع القدم! أكثر ثقة على العمدان، إلى الجحيم! لا تتمايلي! اندفاع إلى الأمام، لكمة! أسرع! نصف دورة على أصابع القدم! اقفزي واضربي! أي نعم! جيد جدًا!

- حَقًّا؟ أَحَقًّا كان الأمر جيدًا، يا لامبرت؟

- من قال ذلك؟

- أَنْتِ! قبل لحظة!

- لا بدَّ أن ذلك كان زلة لسان مني. هجوم! نصف دورة على أصابع القدم! قفزة مرتدة، مرة أخرى! سيرتي، أين صد الضربة؟ كم مرة عليَّ أن أكرر؟ يجب دائمًا أن يتبع القفزة المرتدة صد للضربة، رفع الشفرة لحماية الرأس ومؤخر العنق! دائمًا!

- حتى عندما أقاتل خَصْمًا واحدًا فقط؟

- أَنْتِ لا تعرفين أبدًا ماذا تقاتلين. لا تعرفين أبدًا ما وراءك. عليك دائمًا أن تحمي نفسك. عمل الرُّجُلين والسيف! من المفترض أن تكون استجابة لا إرادية، لا إرادية، أتفهمين؟ ممنوع عليك نسيان ذلك. فَإِنْ نَسِيتِ في معركة حقيقية، انتهيت. مرة أخرى! حسنًا! هكذا بالضبط! أترين كيف تمت لك عملية الصد بمثل هذا الجمال؟ يمكنك توجيه أي ضربة انطلاقًا منها. يمكنك الضرب في الخلف انطلاقًا منها، إذا كان ذلك لازمًا. هيا، أرينا دورة على الأصابع وضربة في الخلف.

- هااااا!

- جميل جدًا. صرْتَ تعلمين الآن ما المسألة؟ وصلت إليك؟

- لستُ غبية!

- أَنْتِ بنت. والبنات لا عقل لديهنَّ.

- آخ، لامبرت، لو أن تريس سمعتُ ذلك!

- لو كان للجدة شارب، لأصبحتُ حاكمة للمقاطعة. حسنًا، هذا يكفي. انزلي. سوف نرتاح.

- أنا لستُ متعبة!

- لكنَّ أنا متعب. قلتُ استراحة، انزلي عن الوند.

- شقلبة؟

- وكيف كنتِ تريدين؟ كما الدجاجة تنزل عن مجثمها؟ هيا، اقفزي. لا تخافي، سأحميك.

- هااااا!!

- جميل، وكونكِ بنتًا، جميل جدًا. يمكنك الآن نزع العصا عن عينيك.



- تريس، ربما كفى هذا اليوم؟ حقًا؟ لعلنا نأخذ زلاجة ونزلق نازلين التل؟ الشمس مشرقة، والتلج يلتمع إلى حد أن الأعين تتوجع! جو رائع! لا تثني نفسك إلى الخارج وإلا سقطت من النافذة.

- هيا نذهب للتزلج، يا تريس!

- اعرضي عليّ ذلك بلغة القدماء. بهذا ننهي الدرس. ابتعدي عن النافذة وعودي إلى المنضدة... سيرري، كم مرة عليّ أن أسألك؟ نحّي هذا السيف جانبًا، وتوقفي عن التلويح به.

- هذا سيفي الجديد! ويتشري حقيقي! مصنوع من الفولاذ الذي سقط من السماء! حقًا! جيرالت قال ذلك، وهو لا يكذب أبدًا، وإنكِ تعلمين ذلك.

- نعم، أعلم.

- يجب أن أتمرّس باستخدام هذا السيف. لقد عدّله العم فيسمير ليلائم وزني وطولي وطول ذراعيّ. يجب أن أضع كفيّ ومعصميّ عليه!

- ضعيها، بالهناء والعافية، لكنّ في الفناء. ليس هنا. حسنًا، أنا أستمع. أعتقد أنك أردتِ أن تقترحي عليّ الدّهَاب بجولة على الزلاجة. بلغة القدماء. فاقترحي إذن.

- هممم... كيف سيكون اسم الزلاجة؟

- Sledd كأداة. Aesledde كفعل.

- أها... الآن عرفت. *Va'en aesledde, ell'ea* ؟

- لا تنهي السؤال بهذه الطريقة، فهذا أسلوب غير مهذب. إن السؤال يُشكل بنبرة الصوت.

- لكنّ الأطفال من الجُزر...

- لا تتعلمي رطانة اسكيليج، بل تعلمي لغة القدماء التقليدية.

- ولماذا أتعلم هذه اللغة بالتحديد، ها؟
- لكي تعرفيها. من الضروري تعلم ما هو غير معروف؛ من لا يعرف اللغات معوق.

- مع ذلك، الجميع لا يتكلمون إلا باللغة المشتركة فقط!
- هذه حقيقة. لكنَّ بعض الناس لا يتكلمون بها فقط. أؤكد لك يا سيري أن من الأفضل أن تكوني ضمن البعض بدلاً من أن تكوني ضمن الجميع. حسناً، أستمع لك. جملة كاملة: «الجو جميل اليوم، فلنذهب إذن للتزلج».
- Elaine ... هممم Elaine tedd a'taeghane, a va'en aesledde...
- جيد جداً.

- ها! هيا إذن، لنذهب للتزلج.
- سنذهب. لكن اسمحي لي أن أنهي تزيين وجهي بالمساحيق.
- ولمن تتزينين هكذا، هاه؟

- لنفسي. تبرز المرأة جمالها لتشعر بمزاج أفضل.
- هممم... أتدريين؟ أنا أيضاً أحسُ بشيء من سوء المزاج. لا تضحكي، تريس!
- تعالي إلى هنا. اجلسي على ركبتيّ. ضعي سيفك بعيداً، قد طلبتُ منك ذلك! شكراً لك. الآن خذي هذه الفرشاة الكبيرة، وافرشي المسحوق على وجهك. ليس بهذا القدر يا بنتي، ليس بهذا القدر! انظري إلى المرأة. أترين كم أنت جميلة؟

- لا أرى فرقاً. سأزيّن عينيّ، حسناً؟ علامَ تضحكين؟ أنت دائماً تزيينين عينيّك. وأنا أيضاً أريد ذلك!

- لا بأس. خذي، ظللي جفنيك بهذا. سيري، لا تغمضي عينيّك كلتيهما، لا ترين شيئاً، أنت ستلوّثين الوجه كله. خذي القليل منه ومسّدي به جفنيك. مسّدي، قلت لك! اسمحي لي، سأمسحه قليلاً. أغمضي عينيّك. والآن افتحيهما.

- أووووه!

- ثمة فرق؟ القليل من الظل لن يضر حتى مثل هاتين العينين الجميلتين، عينيّك. الإلفيات كنّ يدرين ما يفعلن حين ابتكرن الظل للجفون.

- الإلفيات؟

- لم تعلمي من قبل؟ مستحضرات التجميل من اختراع الإلفيات. لقد أخذنا الكثير من الأشياء المفيدة من الشعب القديم. دون أن نعطي إلا أتفه القليل. خذي الآن قلم التجميل، لوّني الجفن العلوي على نحو رقيق جداً، عند الرموش تماماً. سيري، ماذا تفعلين؟

- لا تضحكي! جفني يرتجف! بسبب هذا!

- افتحي فمكِ قليلاً، سيتوقف عن الرجفان. أترين؟ إنه جاهز.

- أووووه!

- هيا، لنذهب الآن كي يجعل جمالنا الويتشريين في حالة ذهول. من الصعب أن نجد أمتع من هذا المنظر. وبعد ذلك. وبعد ذلك سنأخذ الزلاجة ونشوّه زينة وجهينا في الركام الثلجي العميق.

- وسندهن وجهينا مجدداً!

- لا. سنطلب من لامبرت أن يدفئ الحمام ونستحم.

- مجدداً؟ قال لامبرت إننا نستهلك الكثير من الحطب من أجل جولات الاستحمام هذه.

- *Lambert ca'en me a'ba'eth aep arse*

- ماذا؟ لم أفهم هذا...

- بمرور الوقت ستتقنين التعابير الاصطلاحية أيضاً. لا يزال لدينا الكثير

من الوقت للتعلم، حتى قدوم الربيع. والآن... *Va'en aesledde, me*

!elaine lured



- هو في هذه الرسمة... لا، تبّاً لدماء الكلاب، ليس في هذه... بل هذه. إنه غول، كما صرّت تعلمين. فلنستمع، يا سيري، ماذا تعلمتِ عن الغول... هيه، انظري إليّ! ما هذا الذي على جفنيك، بحق الشيطان الكبير؟

- مزاج أفضل!

- ماذا؟ وبصرف النظر عن ذلك. هيا، أستمع لكِ.

تبقى منه يشابه ما يملك أي آكل جثث آخر. انتبه. مخالفه قصيرة وغير حادة، مهياةً لنبش القبور، للحفر في الأرض. أسنانه قوية يسحق بها العظام، ولسانه طويل رفيع يستخدمه للعق النخاع المتحلل فيها. مثل هذا النخاع النتن طعام شهى للجرافير... ما بك؟

- لا شششيء.

- إنك بأكملك شاحبة، وخضراء؛ لا تأكلين ما يكفي. هل أفطرت؟

- نعيمهم. أفطططهت.

- عم كنت أنا... آها. كدت أنسى. تذكرى هذا فهو مهم. الجرافيريات مثلها

مثل الغيلان ومثل الوحوش الأخرى من هذه المجموعة، ليس لها مثوى

بيئي خاص بها. إنها فلول من فترة تداخل العناصر. وبقتلها لا تنتهك

الأنظمة والروابط السائدة في الطبيعة. هذه الوحوش غريبة في مجالنا

الحالي، وليس لها من مكان هنا. هل تفهمين هذا، يا سيري؟

- أفهمه، يا عم فيسمير. جيرالت أوضحه لي. أعلم كل شيء. المثوى البيئي

هو...

- حسنًا، حسنًا. أعلم ما هو، إذا كان جيرالت قد شرح ذلك، فليس عليك

أن ترتليه عليّ الآن. فلنعد إلى جرافير. وحوش الجرافير نادرة جدًا، من

حسن الحظ، لأنها بنات حرام في غاية الخطورة. أدنى إصابة في قتال

الجرافيريات تعني العدوى بسم الجثث. بأي نوع من الإكسير تُعالج

عدوى سم الجثث، يا سيري؟

- بـ «فيلجا».

- صحيح. لكن من الأفضل تجنّب العدوى. لذلك، ممنوع الاقتراب من هذا

الجرافير الوغد في أثناء مقاتلته. ينبغي دائمًا مقاتلته مع الحفاظ على

مسافة، وتسديد الضربة إليه قافزًا إليه.

- هممم... وفي أي مكان يفضّل طعنه؟

- الآن سنصل إلى ذلك. انظري...



- مرة أخرى، يا سيري. سنتدرب على ذلك ببطء، حتى تتمكني من التحكم في كل حركة. انظري سأهاجمكِ بالوضعية الثالثة لحماية الجنب، وأتخذ الوضعية الأنسب كوضعية التهيو للطنع... لماذا تتراجعين؟
- لأنني أعلم أنها مناورة خداع! يمكنك التحرك بضربة مديدة من الجانب الأيسر أو الضرب بوضعية الربع من الجزء الأيمن العلوي. وسأتراجع وأصد الضربة بالهجوم المضاد بالذراع الممدودة!
- حقاً؟ وماذا لو فعلتُ هكذا؟
- أواااا! كان من المفترض أن تؤدي ببطء! ما الخطأ الذي ارتكبتُه؟ قل، يا كوثين!
- لا شيء. ببساطة أنا أطول وأقوى.
- هذا غير نزيه!
- لا يوجد شيء يسمى معركة نزيهة. في القتال يُستغل كل تفوق وكل فرصة تلوح في الأفق. حين نكسبت متراجعة، أعطيتني فرصة أن أزود الضربة بقوة كبرى. بدلاً من التراجع، كان لزاماً عليك أن تؤدي نصف دورة إلى اليسار على أصابع قدمك، وتحاولي طعني من الأسفل بوضعية الربع من الجانب الأيمن، تحت الذقن، على الخد أو على الحلق.
- طبعاً كنت ستسمح لي بذلك! ستؤدي دوراً عكسياً على أصابع قدمك وستصل إلى الجانب الأيسر من رقبتني، قبل أن أتمكن من الصدا! كيف لي أن أعلم ما كنت ستفعل؟
- يجب أن تعلمي. وأنتِ تعلمين.
- هكذا إذن!
- سيري. إن ما نفعله قتال، أنا خَصْمُكِ، أريد أن أهزمكِ ولا بدَّ لي من ذلك، لأن المسألة هنا تخص حياتي. أنا أطول منك وأقوى، لذا سأبحث عن فرص لضربات أدفع فيها مناورة صدك وأكسرهما، تماماً كما رأيت قبل لحظات. لماذا أحتاج إلى الدوران على الأصابع؟ قد صرتُ في وضعية الجانب الأيسر الآن، انظري. فلا شيء أسهل من الضربة الثنائية تحت الإبط، على جزء الذراع الداخلي. فإذا قطعُ شريانك، فستموتين في بضع دقائق. احمي نفسك!

- هاااا!!

- جيد جدًا. مناورة صد جميلة وسريعة. أترين، كيف يكون تمرين المعصم مفيداً؟ والآن انتبهي، إن كثيراً من المبارزين يرتكبون خطأ في مناورة الصد الساكنة، فيخمدون خلال ثانية، وعندئذٍ يمكن مباغتتهم، وضربهم؛ هكذا!

- هاا!

- رائع! لكن اقفزي إلى الخلف، اقفزي إلى الخلف على الفور، واشرعي بالدوران على أصابع قدمك! فيمكن أن يكون في يدي اليسرى خنجر! جيد! جيد جدًا! والآن يا سيري؟ ماذا سأفعل الآن؟

- وكيف لي أن أعلم؟

- راقبي قدمي! كيف أوزع وزن جسدي؟ وماذا يمكنني أن أفعل انطلاقاً من هذا الترتيب؟

- كل شيء!

- إذن، دوري، دوري، أجبريني على مبادأة الهجوم! احمي نفسك! لا بأس! لا تنظري إلى سيفي، بالسيف أستطيع أن أضلك! احمي نفسك! لا بأس! ومرة أخرى! لا بأس! وأخرى!

- أواااااه!

- ليس جيداً.

- أف... بماذا أخطأتُ؟

- لا شيء، ببساطة أنا أسرع منك. اخلعي لباسك الواقى. فلنجلس هنيهة ونسترخ. لا بد أنك تعبت، فقد ركضت على المسلك طوال الصباح.

- لست متعبة، أنا جائعة.

- اللعنة، وأنا أيضاً. واليوم مناوبة لامبرت، وهو لا يعرف إلا صنع الزلابية، لا شيء غيرها... وليته على الأقل يعرف كيف يحضرها جيداً...

- كوئين؟

- أها؟

- هل ما زلتُ غير سريعة بما يكفي...

- أنتِ سريعة جدًا.
- تُرى أسأكون سريعة مثلك؟
- أشك في ذلك.
- هممم... هكذا إذن. وهل أنت... من هو أفضل مبارز في العالم؟
- ليست لديّ دراية بهذا.
- لم تعرفُ شخصًا مثل هذا بتاتًا؟
- عرفتُ أشخاصًا كثيرين ممن عدّوا أنفسهم كذلك.
- ها! من هم؟ ما أسماؤهم؟ ماذا كانوا يستطيعون أن يفعلوا؟
- اهدئي، اهدئي، يا بنت. لا أعرف الإجابات عن هذه الأسئلة. هل هذا الأمر مهم جدًا؟
- طبعًا، إنه مهم! أودُّ أن أعلم... من يكون هؤلاء المبارزون. وأين هم؟
- أنا أعلم أين هم.
- ها! إذن أين هم؟
- في المقابر.



- سيرى، انتبهي. الآن سنعلق النّواس الثالث، أصبحتِ تتدبرين أمركِ مع الاثنين الآخرين. ستنفذين الخطوات نفسها كما كانت الحال مع هذين الاثنين، لكن ستقومين بحركة واحدة إضافية. مستعدة؟
- نعم.
- ركزي. استرخي. شهيق، زفير. اهجمي!
- آخ! أوااااه... تبًا لدماء الكلاب!
- لا تشتمي، من فضلك. هل أُصبتِ بشدة؟
- لا، تعثرتُ فقط... ما الشيء الخطأ الذي أدتيته؟
- لقد ركضتِ بإيقاع متساوٍ جدًا، وسرّعتِ حركة نصف الدوران الثاني على أصابع قدمكِ، وراوغتِ باتساع أكثر من اللازم. وكانت النتيجة أنكِ أخذتِ تحت النّواس مباشرة.

- أوه، جيرالت، لا مجال هناك للمناورة والالتفاف بتاتاً! إنها معلقة قريبة جداً من بعضها!
- ثمة حيز كبير، أؤكد لك ذلك. لكنَّ الفواصل مصممة لفرض الحركة غير المنتظمة. هذا قتال يا سيرى وليس حفلة باليه. يمنع التحرك وفق الإيقاع في أثناء القتال. عليك أن تشتتي انتباه خَصْمك بحركتك، وتضلليه وتشوشى ردود أفعاله. مستعدة للمحاولة التالية؟
- مستعدة. أرجح هذه الجذوع اللعينة.
- لا تشتتي. استرخي. اهجمي!
- ها! ها! إذن، كيف؟ كيف يا جيرالت؟ إنه لم يمسنني حتى!
- وأنتِ أيضاً لم تلمسي الكيس الثاني بسيفك. أكرر، هذا قتال وليس حفلة باليه، وليس حركات بهلوانية... ماذا تتممين؟
- لا شيء.
- استرخي. عدّلي الضمادة على معصمك. لا تشدي قبضتك على المقبض على هذا النحو، فهذا يشنت انتباهك ويخل بتوازنك. تنفسي بهدوء. مستعدة؟
- نعم.
- انطلق!
- أووه! فليأخذك... يا جيرالت، يستحيل فعل هذا! لا توجد مساحة كافية للمراوغة وتبديل موقع الرجلين. وعندما أضرب برجليّ، دون مراوغة...
- قد رأيت ما يحدث عندما تضربين دون أي مراوغة. هل تشعرين بألم؟
- لا. ليس كثيراً...
- اجلسي هنا قربى. استرخي.
- أنا لست متعبة. جيرالت، لن أتمكن من القفز عن هذا النّوأس الثالث، حتى لو استرحتُ عشر سنوات. لا أستطيع التحرك أسرع من ذلك...
- ولست مضطرةً إلى ذلك. أنتِ سريعة بما يكفي.
- إذن أخبرني كيف أفعل ذلك؟ نصف دوران على أصابع القدم ومناورة وضربة في آن معاً؟

- هذا سهل جدًا. لم تأخذي حذرك. قد قلتُ قبل أن تبدئي: من الضروري القيام بمراوغة أخرى. ولا حاجة إلى نصف دوران إضافي على أصابع القدم. في المرة الثانية، فعلتِ كل شيء على نحو جيد واجتزتِ كل النُواسات.

- لكنني لم أصبِ الكيس لأن... جيرالت، لا أستطيع الضرب دون نصف دوران على أصابع القدم، لأنني أفقد، أعني لا أملك هذا، هذا، ما اسمه... الزخم. هذا صحيح. إذن اكتسبي الزخم والطاقة. لكن ليس من خلال الدوران على أصابع القدم وتبديل موقع الرجلين، لأن الوقت لن يكفيكِ لفعل ذلك. اضربي النُواس بالسيف.

- النُواس؟ عليّ أن أضرب الأكياس!

- هذا قتال، يا سيري. الأكياس تحاكي المواضع الحساسة لخصمك، وعليكِ أن تصيبيها. يجب تجنب النُواسات التي تحاكي سلاح خصمك. ويجب تفاديها. عندما يلمسكِ النُواس، تنجرحين. في القتال الحقيقي، قد لا تتمكنين من النهوض بعد ذلك. لا يمكن أن يلمسكِ النُواس. ولكن يمكنكِ ضرب النُواس... فلمَ عدم الرضا هذا؟

- أنا... أنا لن أتمكن من صد النُواس بالسيف. أنا ضعيفة جدًا... سأظل ضعيفة دائمًا! لأنني بنت!

- تعالي هنا إليّ يا بنت. امسحي أنفكِ الصغير. واستمعي بانتباه. لن يكون في وسع أي جبار من هذا العالم، أو أي عملاق أو أي قوي شديد، أن يصد ضربة بذيل أي سحلية وحشية، أو بملاقط عقرب عملاق، أو مخالب فتخاء. وهذه هي بالضبط الأسلحة التي تحاكيها النُواسات. فلا تحاولي صدها حتى. لا تردّي عنكِ النُواس، بل ارتدّي عنه. تستقطبين طاقته التي تحتاجين إليها لتوجيه الضربة. يكفيكِ ارتداد خفيف، ولكنه سريع جدًا، وضربة فورية وسريعة بالقدر نفسه، معها نصف دوران عكسي على الأصابع. تستقطبين الزخم من خلال الارتداد الذاتي.

واضح؟

- مهمم.

- السرعة، يا سيري، وليس القوة. القوة ضرورية للحطاب الذي يقطع بفأسه الأشجار في الغابة. لذا، أجل نادرًا ما تكون الفتيات حطابات. هل استوعبتِ ما المسألة؟
- مهمم. أُرَجِّحِ النُؤاسات.
- ارتاحي قبل ذلك.
- لستُ متعبة.
- صرّيتِ تعلمين الآن؟ تلك الخطوات نفسها، المراوغة...
- أعلم.
- اهجمي!
- هاااا! هاااا! أمسكتُ بك! لقد حصلتُ عليك، يا فتخاء! جيرالت! هل رأيت؟
- لا تصرخي. تحكمي بتنفسك.
- فعلتُ هذا! لقد فعلته حقًا! أفلحتُ في ذلك! امدحني يا جيرالت!
- مرحى، يا سيري. مرحى لكِ يا بنت.



في منتصف شباط، اختفى الثلج الذي لعقته الريح الدافئة وقد هبت من الجنوب، من الممر الجبلي.



لم يرغب الويتشريون في معرفة ما يحدث في العالم. قادتُ تريس محادثات طويلة حول السياسة بمواظبة وعناد، جرت في أمسيات عدّة في قاعة معتمة تضيء فيها رشقات نار من موقد كبير. كانت ردود فعل الويتشريين هي نفسها دائمًا. ظل جيرالت صامتًا، واضعًا كفه على جبهته. وكان فيسمير يومئ برأسه، مضيفًا أحيانًا تعليقات لا يتأتى منها شيء سوى أن كل شيء في «زمانه» كان أفضل، وأكثر منطقية، وأصدق، وأصح. تظاهر إسكيل بأنه مهذب، ولم يبخل بالابتسامات والتواصل البصري، حتى إن بعض القضايا أو الأمور القليلة الأهمية كانت تثير اهتمامه في بعض

الأحيان النادرة. تتأب كوثين فاتحاً شديه وحق إلى السقف الخشي ولم يُخف لامبرت تجاهله.

لم يرغبوا في معرفة أي شيء، ولم يهتموا بالمعضلات التي أقلت الملوك والسحرة والحكام والزعماء، والمشكلات التي اهتزت منها المجالس والدوائر وتجمعات الثينج⁽¹⁾ وهاجت. بالنسبة إليهم لا شيء كان يحدث خلف الممرات الجبلية الغارقة في الثلوج، وراء نهر جفينليخ الذي يحمل قطع الجليد في تيار الماء الرصاصي الداكن. لا يوجد شيء لهم سوى كاي مورهي، وحيدة، ضائعة بين الجبال البرية.

في ذلك المساء، كانت تريس مضطربةً وقلقة، وربما كانت الريح التي تهبُ وسط أسوار القلعة سبب ذلك. في ذلك المساء، كان الجميع مهتاجين على نحو غريب؛ أصبح الويتشريون، باستثناء جيرالت، كثيري الحديث على غير عادتهم. طبعًا، لم يتحدثوا إلا عن شيء واحد: عن الربيع. وعن خروجهم القريب إلى الدرب. عما سيجلب لهم المسلك؛ عن مصاصي الدماء، واليفيرنات⁽²⁾، وعفاريت الغاب، والمتحولين إلى ذئاب، والباسيليقيين.

هذه المرة كانت تريس هي التي راحت تتأب وتحق إلى السقف. هذه المرة كانت هي التي صمتت إلى أن توجه إليها إسكيل بسؤال. بسؤال كانت تتوقعه.

- وما هو حقًا الوضع في الجنوب، عند نهر ياروجا؟ هل يجدر بنا التوجه إلى تلك النواحي؟ لا نريد أن نجد أنفسنا متورطين في قلب مشاجرة ما.
- ما الذي تسميه مشاجرة؟

- حسنًا، تعلمين... (تلعثم) تحدثيننا باستمرار عن إمكانية نشوب حرب جديدة... عن المعارك المتواصلة على الثغور، عن حركات التمرد في الأراضي التي تحتلها نيلفجارد. لقد ذكرت أن شيئًا يقال عن أن النيلفجارديين يستطيعون عبور نهر ياروجا مجددًا...».

قال لامبرت: «وماذا هناك. يهشمون ويذبحون بعضهم، ويمزقون بعضهم دون توقف منذ مئات السنين. لا شيء يدعو إلى القلق. لقد اتخذت القرار،

(1) الثينج: اسم جمعية أو مجموعة كانت تنظم شؤون القبائل الجرمانية.

(2) ويفيرن: كائن أسطوري شبيه بالتنين، له جناحان وقدمان وذيل، لكنه دون يدين.

سأغادر إلى الجنوب الأقصى تحديداً، إلى سودن وماهاكام وأنجرين. ومن المعلوم أن الجيوش أنى سارت تكاثرت الفزاعات دائماً. وفي مثل هذه الأماكن كان الكسب دائماً أفضل ما يكون.

أكد كوئين: «هذه حقيقة. إن سكان المناطق المجاورة في تلاش، وحدهنّ النسوان، اللواتي لا يقدرن على تدبير أمورهنّ، بقين في القرى... الكثير من الأطفال لا بيوت لهم ولا رعاية، يتسكعون في كل اتجاه... الغنيمة السهلة تجذب الوحوش».

أضاف إسكيل: «والسادة البارونات والسادة القوامسة ومديرو المناطق مشغولة رؤوسهم بالحرب، ولا يكفيهم الوقت لحماية رعاياهم. عليهم استئجارنا. هذا كله حقيقة. لكنّ مما حدثتنا به تريس طوال الأمسيات بأكملها يستنتج أن النزاع مع نيلفجارد أمر أكثر جدية، وليس شجاراً محلياً أو ما شابه. أليس هذا صحيحاً، يا تريس؟».

قالت الساحرة بخبث: «حتى لو، فهذا على ما أظن يناسبكم تماماً؟ إن الحرب الدموية الجدية تجعل عدد القرى المهجورة أكبر، والأرامل أكثر، بل ويجعل الأطفال الأيتام كثيرين جداً...».

أزاح جيرالت كفه عن جبهته: «لا أفهم سخريتك. أنا حقاً لا أفهم، يا تريس». رفع فيسمير رأسه: «ولا أنا، يا طفلي. ماذا تقصدين؟ تقصدين الأرامل والأطفال؟ لامبرت وكوئين يتفوهان دونما اكتراث، كما يفعل الفتیان، لكنّ ليست الكلمات هي المهمة أصلاً. إنهما أصلاً...».

قاطعته بغضب: «...إنهما يحميان هؤلاء الأطفال. أجل أعلم ذلك. من المستذئب الذي يقتل اثنين أو ثلاثة خلال سنة، فيما إغارة واحدة من النيلفجارديين يمكن أن تذيب مستوطنة كاملة وتحرقها في غضون ساعة. نعم، أنتم تحمون الأيتام. أما أنا فأقاتل لكي يكون عدد الأيتام أقل ما يمكن. أحارب الأسباب لا العواقب. لذا أنا منخرطة في مجلس فولتيست من تيميريا، أجلس هناك مع فيركارت وكيرا ميتز. ننصح كيف يمكن منع نشوب الحرب، فإن نشبت نصحن كيف يمكن الدفاع عن النفس. فالحرب متحفزة للانقضاض طوال الوقت مثل نسر. بالنسبة إليكم هي مشاجرة. بالنسبة إليّ هي لعبة ثمنها البقاء حيّة. أنا متورطة في هذه اللعبة، لذلك يؤلمني ويغضبني حيادكم وعدم اكتراثكم».

استقام جيرالت ونظر إليها.

- نحن ويتشريون، يا تريس. ألا تفهمين هذا؟

هزت الساحرة غرة شعرها الكستنائية: «وما الذي سأفهمه هنا؟ كل شيء واضح وبيّن. لقد اخترتم علاقة محددة إزاء العالم الذي يحيط بكم. وكون أن هذا العالم يمكن أن يبدأ في الانهيار والتحول إلى ركام خلال لحظة، فهذا من ضمن هذا الاختيار. وليس من ضمن اختياري. هذا ما يفرقنا».

- لست متأكدًا أهو هذا فقط.

كررت: «العالم ينهار ركامًا. يمكن مشاهدة ذلك دون فعل أي فعل. ويمكن مواجهة ذلك».

ابتسم متهكمًا: «كيف؟ بالعواطف؟».

لم تُجب، أدارت وجهها نحو النار الصاخبة في الموقد.

كرّر كوثين مومئًا برأسه في لحظة تفكير موفقة: «العالم ينهار ركامًا. كم مرة سمعتَ هذا؟».

عبس لامبرت: «وأنا أيضًا. ولا عجب، لأنه قول شاع في هذه الأيام. هكذا يقول الملوك حين يتبين أن من الضرورة بمكان التمتع بقليل من الفهم لكي يسير الحكم الملكي. هذا ما يلهج به التجار عندما يودي بهم الجشع والغباء إلى الإفلاس. هكذا يقول السحرة حين يبدوون يفقدان تأثيرهم في السياسة أو في مصادر الدخل. وينبغي لمن يوجّه إليه الكلام أن يتوقع عرضًا ما بعد ذلك حالًا. لذا، اختصري المقدمة يا تريس وقدمي لنا عرضًا».

وجّهت الساحرة إليه نظرة باردة: «لم أله قط بالمعارك اللفظية ولا بالاستعراضات البلاغية الهادفة إلى الاستهزاء بالمُحاور. لا أنوي المشاركة في شيء من هذا القبيل. تعلمون ما أعني على نحو جيد بل أكثر من جيد بكثير. تريدون إخفاء رؤوسكم في الرمال، هذا شأنكم. لكنني مدهوشة منك بشدة، يا جيرالت».

نظر الويتشر ذو الشعر الأبيض من جديد إلى عينيها مباشرة: «تريس. ماذا تتوقعين مني؟ المشاركة الفعالة في القتال من أجل إنقاذ العالم الذي ينهار ركامًا؟ أجب أن ألتحق بالجيش وأوقف نيلفجارد؟ هل ينبغي لي، لو

وصل الأمر إلى وقوع معركة أخرى من أجل سودن، أن أقف معك على القل، جنبًا إلى جنب، وأقاتل من أجل الحرية؟».

قالت بصوت خافت خافضة رأسها: «سأكون فخورة. سأكون فخورة وسعيدة بأن يتاح لي القتال بجانبك».

- أصدقك. ولكنني لست نبيلًا بما يكفي. ولست مقدامًا بما يكفي. أنا لا أصلح لأن أكون جنديًا وبطلًا. إن الخوف الطاغي من الألم أو الإصابة أو الموت ليس السبب الوحيد لذلك. لا يمكن إجبار جندي على التوقف عن الخوف، لكن من الممكن تدعيمه بالحافز الذي سيساعده على كسر الخوف. وليس لدي مثل هذا الحافز. لا يمكنني حيازته. فأنا ويتشر. متحول خلقًا اصطناعيًا. أنا أقتل الوحوش. مقابل المال. أَدافع عن الأطفال عندما يدفع لي والدوهم. إذا دفع لي الآباء والأمهات النيلفجارديون، دافعتُ عن الأطفال النيلفجارديين. وحتى لو انهار العالم ركامًا، وهو ما لا يبدو لي محتمل الحدوث، فسأستمر في قتل الوحوش على أنقاض العالم إلى أن يقتلني أحد الوحوش. هذا هو مصيري وحافزي وحياتي وعلاقتي بالعالم. ولم أختره. ثمة مَنْ فعل ذلك نيابة عني.

قالت وهي تشد خصلة من شعرها باضطراب: «أنت مغموم. أو تتظاهر بأنك مغموم. أنت تنسى أنني أعرفك، فلا تؤدي أمامي دور المتحول فاقد الإحساس، معدوم القلب والرحمة والإرادة الذاتية. أما دوافع الغم فإنني أخمن ما هي وأفهمها. نبوءات سيرى، أليس كذلك؟».

أجاب ببرود: «لا، ليس صحيحًا. أرى أنك، مع ذلك كله، لا تعرفيني كثيرًا. أخشى الموت مثل أي شخص آخر، لكنني تكيفتُ مع التفكير فيه منذ زمن بعيد جدًّا، ولا أوهام لدي. هذا ليس تأسفًا على المصير، يا تريس، إنه حساب بارد عادي. إحصاء. حتى الآن لم يمت أي ويتشر قط بسبب الشيخوخة، في السرير وهو يملي وصيته. لم يمت أي ويتشر. سيرى لم تفاجئني أو تخيفني. أعلم أنني سأموت في حفرة منتنة بجيفة، مزقتها فتخاء أو لاما أو مانتيكورا. لكنني لا أريد أن أموت في الحرب، لأنها ليست حربي».

أجابت بحدة: «أنا أستغرب منك. أستغرب قولك هذا، أستغرب افتقارك إلى الحافز، كيف أردت أن تعرفَ بطريقة حكيمة الحاجز التجاهلي والحياد. لقد

كنت في سودن وفي أنجرين وفي ما وراء النهر. أنت تعلم ما حدث لسينترا، وتعلم ما لاقى الملكة كالانثي، وأكثر من عشرة آلاف من الناس فيها. أنت تعلم حجم الجحيم التي عانتها سيري، تعلم لماذا هي تصرخ في الليالي. أنا أعلم ذلك أيضًا، لأنني كنت هناك أيضًا. أنا أيضًا أخشى الألم والموت، واليوم أخشاهما أكثر من قبل، ولي أسبابي في ذلك. في ما يخص الحافز، فقد بدا لي حينئذ أن لدي القليل منه مثلك تمامًا. هل عليّ، كوني ساحرة، أن أهتم بمصاير سودن أو بروجي أو سينترا أو الممالك الأخرى؟ وبمشكلات الحكام الأكثر أو الأقل مقدرة؟ بمصالح التجار والبارونات؟ كنت ساحرة، وكان يمكنني أيضًا أن أقول إنها ليست حربي، ويمكنني أن أمزج على أنقاض العالم جرات الإكسبير للنيلفجارديين. ولكنني حينئذ وقفت على القتل، بجانب فيلجيفورتنز، بجانب أرتاود تيرانوفا، بجانب فيركارت، بجانب إنيد فينداير وفيليبا إلهارت، بجانب صاحبتك ينيفر. بجانب أولئك الذين لم يعودوا موجودين: كورال، يوثيل، فانيل... مرّت لحظة نسيّت فيها، من شدة الخوف، كل تعويذاتي ما عدا واحدة، والتي تمكنت بمساعدتها نقل نفسي أنيّا من ذلك المكان المروع إلى البيت، إلى قلعتي الصغيرة في ماريبور. ومرت لحظة تقيأت فيها من شدة الرعب، فيما كانت ينيفر وكورال تمسكان بي من رقبتني وشعري...».

- توقفي. توقفي، أرجوك.

- لا يا جيرالت. لن أتوقف. فأنت تريد أن تعلم ما حدث هناك على القتل. فاستمع إذن: كان دويًا ولهبًا، وكانت سهامًا مضيئة وكرات نار متفجرة، كان صياحًا وجلجلة، وفجأة وجدت نفسي على الأرض، على كومة من الخرق المتفحمة والمدخنة، وفجأة أدركت أن كومة الخرق هذه هي يوثيل، وذاك الذي بجانبه هو شيء فظيع، وهذا البدن معدوم اليدين والساقين، الذي يصرخ صراخًا مروّعًا، هو كارول. واعتقدت أن الدم الذي كنت مستلقية فيه هو من كورال. لكنها كانت مني. عندئذ رأيت ما فعل بي، وأخذت أعوي ككلب أشيع ضربًا، وكطفل لحق به الأذى... اتركني! لا تخش، لن أنتحب. لم أعد تلك البنية من القلعة الصغيرة في ماريبور. تبًا لدماء الكلاب، أنا تريس ميريجولد، الرابعة عشرة، التي سقطت صريعة في سودن. ثمة أربعة عشر قبرًا تحت المسلة، على القتل، لكن لا يوجد سوى ثلاث عشرة جثة. أيدعشك أن الأمر وصل إلى حد حدوث مثل هذا الخطأ؟ ألا تخمن؟ لقد كانت معظم الجثث أشلاء

يصعب تعرّفها، ولم يفرزها أحد. وكان عسيرًا أيضًا إحصاء عدد الأحياء كاملاً. لم يبقَ حيًّا، من بين أولئك الذين كانوا يعرفونني جيدًا، إلا ينيفر، ويانيفر كانت عمياء. والآخرين كانت معرفتهم بي عابرة، ودائمًا ما كانوا يعرفونني من خلال شعري الجميل. وهو لم يعد لديّ الآن، تَبًّا تَبًّا! احتضنها جيرالت بقوة كبرى. ولم تعدُ تحاول دفعه.

واصلتُ بصوت أجوف: «لم يُبخل علينا بأقوى الأسرار والتعويذات وجرعات الإكسير والتماائم والمشغولات الحرفية. لم يكن ممكنًا أن ينقص شيءٌ أبطالَ القتل المصابين. لقد عولجنا حتى شُفيْنَا، ورُمِّمْنَا واستعدنا مظهرنا السابق، وأعيد إلينا شعرنا وبصرنا. تكاد آثار ذلك لا ترى. لكنني لن أرتدي ثوبًا مقوّرًا بعد الآن أبدًا يا جيرالت. أبدًا».

ظلّ الويتشرزيون صامتين. وكذلك سيري التي انسلت إلى القاعة دون ضجيج وتوقفت عند العتبة، مقلصةً كتفيتها وشابكةً يديها على صدرها.

قالت الساحرة بعد لحظة: «لذا، لا تُحدّثني عن الحافز. قبل أن نقف على هذا القتل، قال لنا أولئك الأشخاص من مجلس التشريف ببساطة: 'هذا ما يجب'. حرب من كانت هذه؟ عمّ كنا ندافع هناك؟ عن الأرض؟ عن الحدود؟ عن الناس ومنازلهم؟ عن مصالح الملوك؟ عن نفوذ ومداخل السحرة؟ عن النظام في مواجهة الفوضى؟ لا أعلم. لكننا دافعنا لأن ذلك ما كان واجبًا فعله. وإذا لزم الأمر، سأقف على القتل مرة أخرى. لأنني إذا لم أفعل ذلك، فهذا سيعني أنه كان غير ضروري ولا طائل منه».

صرخت سيري بصوتٍ رقيق: «سأقف إلى جانبك! سترين أنني سأقف إلى جانبك! سوف يدفع لي هؤلاء النيلفجارديون الثمن مقابل جدتي ومقابل كل شيء... لم أنس!».

هدر لامبرت: «لا تتكلمي. لا تتدخل في أحاديث الكبار...».

خبطت الفتاة بقدميها، واشتعلت في عينيها نار خضراء: «هكذا إذن! أتفكرون لماذا أتعلم القتال بالسيف؟ أريد أن أقتله، هو، ذاك الفارس الأسود من سينترا، الذي على خوذته جناحان، لقاء ما فعله بي، لقاء الخوف الذي عشتُه! وسأقتله! لذلك أتعلم!».

قال جيرالت بصوت أبرد من جدران كاير مورهيّن: «وبعد ذلك ستتوقفين عن التعلم. إلى أن تفهمي ما السيف وما فائدته وهو في قبضة الويتشر، لن

تضعيه في يدك. أنت لا تتعلمين كي تقتلي أو تُقتلي. لا تتعلمين القتل بسبب الخوف والكراهية، بل ليكون في وسعك إنقاذ الحياة. حياة الآخرين تحديدًا». عضت الصبية على شفتيها وهي ترتجف من الإثارة والحنق.

- هل فهمت؟

رفعت سيري رأسها فجأة إلى الأعلى.
لا.

- إذن فلن تفهمي ذلك أبدًا. اخرجي.

- جيرالت، أنا...

- اخرجي.

دارت سيري على عقبها، ووقفت لحظة حائرة، كأنها تنتظر. تنتظر شيئًا ما، لا يمكن أن يحدث. ثم جرت صاعدة الدرج بسرعة. وسمعوا دوي اصطفاق الباب.

قال فيسمير: «كنت حادًا جدًا يا ذئب. حادًا كثيرًا جدًا. ولم يكن من المفروض أن يجري ذلك أمام تريس. الرابطة العاطفية...

- لا تحدثني عن العواطف. لقد سئمت الحديث عن العواطف!

ابتسمت الساحرة بتهكم وبرودة: «ولماذا؟ لماذا يا جيرالت؟ سيري بنت طبيعية. إنها تحس أحاسيس طبيعية، تتقبل العواطف تقبلًا طبيعيًا، وتأخذها تمامًا كما هي في الواقع. طبعًا أنت لا تفهم هذا وتستغربه. هذا يفاجئك ويهيجك. وهو أن أحدًا ما يمكنه أن يشعر بحب طبيعي، وكراهية طبيعية، وخوف وألم وأسف طبيعي، وفرح طبيعي، وحزن طبيعي. وأن يرى البرودة والبعد والحياد أمورًا غير طبيعية. أي نعم، يا جيرالت، هذا يهيجك، يهيجك إلى الحد الذي تبدأ فيه في التفكير في سرايب كاير مورهي، في المختبر، عن القناني المغبرة، المليئة بالسموم المسببة للطفرات...».

صاح فيسمير ناظرًا إلى وجه جيرالت الذي ابيض فجأة. لكن الساحرة لم تسمح بأن تقاطع، وتكلمت بطريقة أسرع وبصوت أعلى فأعلى: «تريس!».

- من تحاول أن تخدع، يا جيرالت؟ تخدعني؟ تخدعها؟ أو ربما تخدع نفسك؟ ربما لا تريد أن تسمح للحقيقة أن تصل إليك، الحقيقة التي يعرفها الجميع إلا أنت؟ ربما أنت لا تريد قبول حقيقة أن في داخلك

عواطفَ وشعورًا إنسانيًا لم تقتلها جرعات الإكسير والأعشاب! لقد قتلتها أنتَ في نفسك! أنتَ وحدك! لكنَّ إياك أن تتجرأ على قتلها في هذه الطفلة!

صاح وهو يهبُّ واقفًا من الكرسي: «اصمتي! اصمتي، يا ميريجولد!». استدار وأسبل يديه مستسلمًا.

قال بصوت خفيض: «أعتذر. سامحيني يا تريس».

تحرك بسرعة نحو الدرج لكنَّ الساحرة هبَّتْ وانقضَّتْ عليه بسرعة البرق واحتضنته.

همست: «لن تخرَجَ بمفردك. لن أسمحَ أن تكون وحيدًا. ليس الآن».



عرفا على الفور إلى أين ركضتُ؛ في المساء هطل ثلج ناعم خفيف، غطَّى الفناء ببساط رقيق ناصع البياض. شاهدًا عليه آثار أقدام.

وقفتُ سيري على قمة الجدار المخرب، ثابتةً كتمثال صغير. أمسكتُ بالسيف فوق كتفها اليمنى، وكانت واقية اليد منه على مستوى العين. وأصابع الكف اليسرى لامستُ مقبضه قليلًا.

قفزتُ الصبية إذ رأتهما، ودارتُ دورة على أصابع قدمها، ثم هبطتُ بنعومة في وضعية مماثلة تمامًا، لكنها مقلوبة وانعكاسية.

قال الويتشر: «سيري. انزلي من فضلك».

بدا أنها لا تسمعه. لم تتحرك، ولم ترتعش حتى. لكنَّ تريس رأت كيف أن انعكاس ضوء القمر، الذي كان يلقيه النصل على وجهها، قد لمع بلون فضي على خطوط الدموع.

- صرخت: «لن يأخذ أحد السيف مني! لا أحد! حتى أنت!».

كرر جيرالت: «انزلي».

هزت رأسها بتحدٍّ، وفي الثانية التالية قفزتُ مجددًا. انزلقتُ قطعة طوب سائبة من تحت قدميها محدثةً طقطقةً. ترنحتُ سيري وحاولتُ استعادة توازنها. لم تفلح.

قفز الويتشر.

رفعتُ تريس كَفَّها، فاتحةً فمها لأداء صيغة الخفة. كانت تعلم أن الوقت لن يسعفها. وكانت تعلم أن جيرالت لن يسعفه الوقت أيضًا. لم يكن ذلك ممكنًا. لكنَّ جيرالت لم يتأخر.

على إثر ذلك انثنى على الأرض، وهوى على ركبتيه وعلى جنبه. وقع. لكنه لم يفلتُ سيري. اقتربتِ الساحرة ببطء. وسمعتِ الصبيةَ تهمس وتتنشَّق. وهمس جيرالت أيضًا. لم تستطع تمييز الكلمات. لكنها فهمتُ معناها. هبت ريح دافئة في شقوق الجدار. رفع الويتشر رأسه. قال بصوت خفيض: «الربيع».

أكدتُ وقد ابتلعت ريقها: «نعم. لا تزال الثلوج متراكمةً في شعاب الجبال، لكنَّ في الأودية... في الأودية قد حلَّ الربيع. جيرالت، هل تغادر؟ أنت وأنا وسيري؟».

- نعم. لقد حان الوقت.

مكتبة

t.me/soramnqraa

رأينا عند منبع النهر مدنهم، رقيقة جدًا كأنها نُسِجَتْ
من ضباب الصباح الذي بزغَتْ منه. بدا لنا أنها ستختفي في
لحظة، وأنها ستطير مع الريح التي غَضَّتْ سطح الماء. كانت
جواسق هناك، بيضاء كزهور النيلوفر. وكانت قلاع صغيرة
تبدو كأنها مجدولة من اللبلاب، وكانت جسور تتمايل بلطف
كالصفصاف الباكي. وكانت أشياء أخرى لم نجد لها أسماءً
وتسميات. وإِنَّا قد كان لدينا أسماء وتسميات لكل ما رأيته
أعيننا في هذا العالم الذي بُعِثَ من جديد. فجأة، في حيز ما
في زوايا الذاكرة البعيدة، وجدنا أسماء للتنانين والفتخاوات،
للسيرانات والخوريات، للسيلفيدات وخوريات الغاب.
لأحاديث القرن البيض التي شربت عند الغسق من النهر
وهي تحني رؤوسها النحيلة نحو الماء. أعطينا كُلَّ الأشياء
أسماءً. وغدا كل شيء قريبًا ومعروفًا، وصار لنا.

ما عداهم. ومع أنهم يشبهوننا كثيرًا، كانوا غريبين،
غريبين جدًا إلى حد أننا لم نستطع إيجاد اسم لهذه الغرابة
مدةً طويلةً.

هين جيدمديث، الإلفيون والبشر

الإلف الجيد هو الإلف الميت.

رئيس الديوان ميلان راوينيك

الفصل الرابع

حلَّت المصيبة كعادة المصايب والعقبان الأزلية، تربصتْ بهم كالعقبان من فوق الرؤوس تتربقب الانقضااض في اللحظة المناسبة. حتى قدوم الوقت الذي ابتعدوا فيه عن المستوطنات القليلة الواقعة عند جفينيلخ وبوينا العليا، وتجاوزوا أرد كارايغ، وتوغلوا في مدخل الغابة غير المأهول الذي كانت تقطعه الأخاديد. كمثّل عقاب منقض، لم تُخطئ المصيبة هدفها. لقد وقعتْ على الضحية دونما خطأ، وتريس صارت الضحية.

في البداية، بدا الأمر كريهاً، لكنه لم يكن خطراً جدًّا، بل شبيه اضطراب المعدة العادي. جهد جيرالت وسيري في تكتمٍ إلى عدم لفت الانتباه إلى التوقفات القسرية الناجمة عن توعك الساحرة. حاولتْ تريس الشاحبة كالموت، المتصببة عرقاً والمكفهرّة من الألم، مواصلة السفر بضع ساعات أخرى، لكنْ نحو ساعة الظهيرة، بعد أن أمضتْ وقتاً طويلاً على نحو غير طبيعي في الأدغال المحاذية للطريق، لم يعدْ في وسعها امتطاء الحصان. أرادتْ سييري مساعدتها، لكنْ النتيجة كانت سيئة؛ فلم تفلح الساحرة في التشبث بعرف الحصان، وانزلقت على جانبه وهوت على الأرض.

حملها ووضعها على المعطف. فكَّ جيرالت الخرج دون أن ينبس بكلمة، وفتش فوجد الصندوق الذي فيه الإكسير السحري، فتحه وشم. كانت جميع القوارير متطابقة، ولم ترشده العلامات الغامضة المرسومة على الأختام إلى شيء.

- أي واحدة منها، يا تريس؟

تأتأت وهي تمسك بطنها بكلتا يديها: «ولا واحدة. أنا لا أستطيع... لا أستطيع أن أتناولها».

- ماذا؟ لماذا؟

- أشكو الحساسية...

- أنت؟ إنك ساحرة؟

انتحبتُ بغيظ عاجز وغضب يائس: «لديّ تحسس! ويصيبني دائمًا! لا يواتيني الإكسیر! أعالج الآخرين به، ولا يمكنني أن أشفي نفسي إلا بالتمائم!».

- أين تميمتك؟

صرّفت بأسنانها: «لا أعلم. لا بدّ أنني تركتها في كايير مورهيّن. أو ربما أضعتها...».

- تبّاً. ما العمل الآن؟ ربما تلقين على نفسك تعويذة؟

- جربتُ. وها هي النتيجة. لا أستطيع التركيز من جراء هذه التشجنات...

- لا تبكي.

- الكلام سهل!

نهض الويتشر وسحب خرجه عن ظهر روش وراح يفتشه. تكوّرت تريس على شكل كُبة خيوط، وقلّصت نوبات الألم وجهها وعوجت شفتيها.

- سيري...

- ماذا يا تريس؟

- هل أنت بخير؟ لا... شعور إثارة البتة؟

هزت البنية رأسها نافية.

- ربما هذا تسمم؟ ماذا أكلت؟ لقد أكلنا جميعاً الطعام نفسه... جيرالت!

اغسلا أيديكما. احرص على أن تغسل سيري يديها...

- ارقدي بهدوء. اشربي هذا.

- ما هذا؟

- أعشاب عادية مهدئة. فيها من السحر أقل القليل، لا ينبغي له أن يضر

بك. وسيخفف من التشنجات.

- جيرالت، التشنجات... لا شيء. لكن إذا انتابتنى الحمى... فهذا يمكن أن يكون... زحارًا. أو حمى نظيرة التَّيفِيَّة.

- ليس لديك مناعة؟

لم تجب تريس، أدارت رأسها، وعضت على شفثيها، وانكمشت أكثر من قبل. ولم يستمر الويتشر في الاستجواب.

سحب الساحرة إلى سرج روش بعد أن سمح لها بقسط من الراحة. جلس جيرالت خلفها، وسندها بكلتا يديه، فيما أمسكت سيرى العنان، وكانت تسير راكبة جنبًا إلى جنب معهما، وجارّة في الوقت ذاته حصانَ تريس المخصي. لم يقطعوا حتى ميلًا واحدًا. كانت الساحرة تفلت من اليدين ولم تستطع الثبات على قربوس السرج. فجأة بدأت ترتجف ارتجافًا لإراديًا عنيفًا، واستعرت الحمى على الفور. اشتدّ التهاب المعدة. أمل جيرالت واهمًا أن الأمر لا يعدو أن يكون نتيجة رد فعل تحسسي تجاه ذرة السحر الموجودة في إكسيره الويتشري. لقد كان واهمًا. لكنه لم يصدق.



قال قائد المائة: «إيه، يا سيد. لم تأتوا في الوقت المناسب. يُخَيَّل إليّ أنكم جئتم في وقت أسوأ ما يمكن».

كان قائد المائة محقًا، ولم يستطع جيرالت أن ينكر أو يجادل.

غصَّ المَرْقَب، الذي يحرس الجسر، بالناس هذه المرة. وكان عادة يضم ثلاثة جنود وسائسًا وماكِسًا⁽¹⁾ وبعض العابرين. أحصى الويتشر أكثر من ثلاثين رجلًا مسلحين بأسلحة خفيفة بألوان كايدفين ونصف مائة كاملة من حاملي التروس المعسكرين حول الحاجز الحسكي المنخفض. معظمهم جثم حول النيران، متبعين قاعدة عسكرية قديمة تقول: أنام حين يكون ذلك ممكنًا، وأنهض عندما يستيقظون. كانت الحركة العارمة واضحة خلف البوابة المفتوحة على مصراعيها؛ وقد امتلأ المحرس أيضًا بالناس والخيول. وعلى قمة بُرِيج المراقبة المائل وقف جنديان يحرسان المكان ويحملان قوسين مستعرضتين جاهزتين لإطلاق السهام. على رأس الجسر الحربي الذي داسته الحوافر وحفرته وقفت ستة مراكب للفلاحين وعربتان للتجار، وفي الحظيرة

(1) الماكس: جابي رسوم العبور، يماثل عامل الجمارك حاليًا.

كَمْ بَضْعَةٌ عَشْرُ ثَوْرًا، كَانَتْ غَيْرَ مَثْقَلَةٍ بِالْأَحْمَالِ وَمَطَاطُئَةٍ رُؤُوسَهَا بِحَزْنٍ
فَوْقَ الْوَحْلِ النَّتْنِ.

استبَقَ قَائِدُ الْمَائَةِ السُّؤَالَ: «وَقَعَ هُجُومٌ عَلَى الْمَحْرَسِ. الْبَارِحَةُ لَيْلًا. تَمَكَّنَّا
مِنْ نَجْدَتِهِمْ بِشَقِّ الْأَنْفَسِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا وَجَدْنَا هُنَا إِلَّا أَرْضًا مَحْرُوقَةً».

- مَنْ كَانَ الْمَهَاجِمُونَ؟ قِطَاعُ طَرَقٍ؟ نَهَابِينَ؟

أَدَارَ الْجَنْدِيُّ الْمَاجُورَ رَأْسَهُ، بَصَقَ وَنَظَرَ إِلَى سِيرِي وَتَرِيسِ الْمَنْكَمَشَةِ فِي
السَّرَجِ.

قَالَ: «ادْخُلُوا الْمَسْتَوِطَةَ، فِيهِ لَحْظَةٌ سَتَسْقُطُ السَّاحِرَةُ عَنِ السَّرَجِ. لَدَيْنَا
هُنَاكَ بَضْعَةٌ جَرَحِي، وَوُجُودُ جَرِيحٍ آخَرَ لَنْ يُحْدِثَ فَرْقًا كَبِيرًا».

فِي عُشَّةٍ مَفْتُوحَةٍ وَمَسْقُوفَةٍ، فِي الْفَنَاءِ، ارْتَمَى عِدَّةُ أَشْخَاصٍ مَظْمُودِينَ
بِضَمَادَاتٍ مَدْمَاءَةٍ. وَأَبْعَدَ قَلِيلًا، بَيْنَ حَائِطِ الْحَسِيكَةِ⁽¹⁾ وَالْبُئْرِ الْمَلْبَسَةِ بِالْخَشَبِ
الْمَزُودَةِ بِرَافِعَةٍ، لَاحِظَ جِيرَالْتِ سِتَّةَ أَجْسَادٍ هَامِدَةٍ مَغطَاةٍ بِنَسِيْجِ الْخَيْشِ، لَمْ
يَبْرُزْ مِنْ تَحْتِهَا سِوَى أَقْدَامٍ فِي أَحْذِيَّةٍ مَتَسَخَةٍ وَمَهْتَرَةٍ.

- أَشَارَ الْجَنْدِيُّ الْمَاجُورَ إِلَى الْعُشَّةِ: «مَدُّوْا السَّاحِرَةَ هُنَاكَ بِجَانِبِ
الْجَرَحِيِّ. أَهَّا، يَا سَيِّدَ وَيْتَشَرِ، إِنَّهُ يَوْمٌ مَنَحُوسٌ حَقِيقِي لِأَنَّهَا مَرِيضَةٌ.
بَعْضُ رَجَالِنَا تَعَرَّضُوا لِلضَّرْبِ، وَلَمْ نَكُنْ لِنُوفِّرِ الْإِسْتِعَانَةَ بِالسَّحَرِ.
أَحَدُهُمْ بَقِيَ النِّصْلُ فِي أَحْشَائِهِ، عِنْدَمَا كُنَّا نُخْرِجُ السَّهْمَ مِنْهُ، وَسَيَمُوتُ
الْمَسْكِينُ قَبْلَ حُلُولِ الصَّبَاحِ، سَيَمُوتُ لَا مَحَالَةَ... وَالسَّاحِرَةُ الَّتِي كَانَتْ
بِإِمْكَانِهَا إِنْقَاذَهُ تَنْقَازُفَهَا الْحُمَى، تَنْتَظِرُ الْعَوْنَ مِنَّا. فِي الْوَقْتِ السَّيِّئِ،
كَمَا يُقَالُ، فِي الْوَقْتِ السَّيِّئِ...».

تَوَقَّفَ عِنْدَمَا رَأَى أَنَّ الْوَيْتَشَرَ لَمْ يَرْفَعْ عَيْنَيْهِ عَنِ الْجَثِّ الْمَغطَاةِ بِالنَّسِيْجِ.
قَالَ وَهُوَ يَسْحَبُ طَرَفَ النَّسِيْجِ الْمُتَصَلِّبِ: «إِثْنَانِ مِنَ الْحِرَاسِ الْمُحَلِّيِّينَ،
إِثْنَانِ مِنَّا وَإِثْنَانِ.... مِنْ هَؤُلَاءِ. انْظُرُوا إِنْ شِئْتُمْ».

- سِيرِي، ابْتَعِدِي.

انْحَنَتْ الصَّبِيَّةُ مِنْ خَلْفِهِ، نَازِرَةً إِلَى الْجَثِّ وَفَمِهَا مَفْتُوحٌ: «أُرِيدُ أَنْ أَشَاطِدَ
ذَلِكَ أَيْضًا!».

(1) حَسِيكَةٌ: جَمْعُهَا حَسَائِكُ، وَهِيَ سِيَاجٌ مِنْ أَوْتَادٍ خَشَبِيَّةٍ مُسْتَدَقَّةٍ تُضْرَبُ حَوْلَ الْحَصَنِ.
وَقَدْ تُسَمَّى جَبَاكٌ أَوْ وَشِيْعٌ.

- ابتعدي أرجوك. اعتني بتريس.
نفختُ سيرى بامتعاض، لكنها أطاعته. اقترب جيرالت أكثر.
قال دون أن يخفي دهشته: «إلفيون».
أكد الجندي: «إلفيون. سكويائتيل».
- من؟

كرّر الجندي المأجور: «سكويائتيل. عصابات الغاب».

- تسمية غريبة. وهي تعني «السناجيب»، إذا لم أكن مخطئاً؟

- نعم أيها السيد. إنهم السناجيب تحديداً. هكذا يسمون أنفسهم باللغة الإلفية. يقول بعضهم إن السبب في ذلك أنهم أحياناً يثبتون ذيول السناجيب على القلنسوات والقبعات. ويقول آخرون إن ذلك بسبب أنهم يعيشون في غاب الصنوبر، ويتغذون بالجوز. أقول لكم إن المتاعب معهم في ازدياد.

أدار جيرالت رأسه. غطّى الجنديّ الجثث بالنسيج ومسح يديه بقفطانه.
قال: «تعالوا. لا فائدة من الوقوف هنا، سأوصلكم إلى الأمر. سيعتني قائد عشرتنا بالمریضة إن استطاع. يمكنه كيّ الجروح وخياطتها، وتثبيت العظام، وربما يمكنه أيضاً خلط الأدوية، من يدري، إنه رجل ذو عقل، من الجبال. تعالوا، هيا يا سيد ويتشر».

في كوخ الماكس المعتم والغاص بالدخان، احتدم نقاش حيوي وصاخب. صاح فارس شعره مخلوق على نحو قصير، يتدرّع بزرذ ويرتدي غلالة صفراء، على تاجرین وعلى ناظر الأملاك، فيما حدّق الماكس ذو الرأس المضمّد إليه وتعابير وجهه بدت محايدة إلى حد كبير وكئيبة.

خبط الفارس المنضدة المتهالكة وانتصب وهو يعدل وضعية العنقية على صدره: «قلتُ، لا! لن تتحركوا من هنا حتى تعود وحدات الاستطلاع! لن تجولوا في الطرق طويلاً وعرضاً!».

انفجر ناظر الأملاك صارخاً، ووضع تحت عيني الفارس عصا قصيرة محززة بعلامة محرّقة: «يتعين عليّ أن أكون في دايفون في غضون يومين! إنني أقود الركب! إذا تأخرتُ، فمحصل الديون سيقطع رأسي! وسأشتكي إلى المحافظ!».

سخر الفارس: «أشتك، اشتك. وأنصحك أن تحشو سروالك بالقش أولاً، لأن المحافظ يستطيع أن يركل ركلاً شديداً. لكنني أنا هنا أعطي الأوامر في الوقت الحالي، فالمحافظ بعيد ومحصل الديون صاحبك هو كالبراز عندي. أوه، يا أونيس! بمن أتيت يا قائد المائة؟ تاجر آخر؟».

أجاب قائد المائة بتلكؤ: «لا، إنه ويتشر يا سيدي. اسمه جيرالت من ريفيا». ما فاجأ جيرالت أن الفارس ابتسم ابتسامة عريضة ودنا منه ومدَّ يده محيياً.

كرَّر ولا يزال مبتسماً: «جيرالت من ريفيا. لقد سمعتُ بكم، وليس من فم أي شخص. ماذا جاء بكم إلى هنا؟».

أوضح جيرالت سبب مجيئه. توقف الفارس عن الابتسام.

- لم تدركِ الوقت المناسب. ولا المنطَقة. نحن في حالة حرب هنا، يا سيد ويتشر. في الغابات تجول عصابة سكويائتيل، وتقاتلنا معهم حتى في الأمس. أنا أنتظر هنا التعزيزات وسنبدأ المطاردة.

- تتقاتلون مع الإلفيين؟

- ليس مع الإلفيين فحسب. ماذا أيها السيد الويتشر لم تسمعوا شيئاً عن السناجيب؟

- لا. لم أسمع.

- أين مكثتم إذن خلال العامَيْن الماضيين؟ ما وراء البحار؟ لأنه هنا عندنا في كايديفين، حرص السكويائتيليون على أن يُحكى عنهم بصخب، أجل، لقد بذلوا في سبيل ذلك مساعي لا بأس بها.

ظهرت العصابات الأولى فور اندلاع الحرب مع نيلفجارد. أفاد غير البشريين من أحوالنا الصعبة. لقد قاتلنا في الجنوب، وهم بدأوا بالمناوشات هاجمين على المؤخرة. لقد عوَّلوا على أن نيلفجارد ستسحقنا، وبدأوا يصرخون متحدثين عن نهاية الهيمنة البشرية وعودة الأنظمة القديمة. الناس إلى البحر! هذا شعارهم وتحتة يقتلون ويحرقون ويسلبون!

تكلَّم ناظر الأملاك بكآبة، ضارباً فحذه بعصا مزخرفة، وهي علامة وظيفته: «هذا ذنبكم وقلقكم الراهن. قلقكم أيها النبلاء والمشفرون. فإنكم قد

قمعتم غير البشريين ولم تتركوهم يعيشون، والآن نلتم جزاءكم. وكنا دائماً نسير بالركب ولم يعقنا أحد. لم نكن في حاجة إلى الجيش».

قال أحد التجار الجالسين على الأريكة، وقد كان صامتاً إلى الآن: «نعم، الحقيقة لا تُنكر. إن السناجيب ليست أخطر من قطاع الطرق الذين يعيشون فساداً هنا على طول الدروب. وبمن بدأ الإلفيون أولاً؟ بقطاع الطرق تحديداً».

فجأة قال الماكس المضمد الرأس: «وما الفرق بالنسبة إليّ إن كان من يرميني بالسهم من خلف شجيرة قاطع طريق أم إلفياً؟ عندما يحرق سطح بيتي المغطى بالقش فوق رأسي في ظلمة الليل، فإنه يحترق، فما الفرق بالنسبة إليه لمن تعود اليد التي حملت اللهب؟ تقولون، يا حضرة التاجر، إن جماعة السكويائتيل ليست أسوأ من قطاع الطرق؟ كذب ما تقولون. كان قصد قطاع الطرق الغنائم، وكان قصد الإلفيين دم البشر. ليس لدى كل شخص دنائير ذهبية، ولكن لدى كل شخص دم في عروقه. تقولون إن هذا الأمر مصدر قلق لعلية القوم، يا حضرة ناظر الأملاك؟ وهذا قول أكذب مما سبقه. الحطّابون الذين أُصيبوا بالسهم سقطوا في مناطق قطع الأشجار، وصانعو القطران الذين مُزقت أجسادهم في مستوطنة الزان، والفلاحون من الدساكر المحروقة، ماذا كان ذنبهم بحق غير البشر؟ عاشوا وعملوا معاً متجاورين، وبغته سهم في الظهر... وأنا؟ لم أؤذ شخصاً غير بشري في حياتي قط، ألا انظروا، قد ثلّم رأسي بسيف الأقزام المشمل. ولولا الجنود الذين تنبحون عليهم، لكنك راقداً الآن تحت تراب البساط العشبي...».

خبط الفارس ذو الغلالة الصفراء على المنضدة بقبضته مجدداً: «بالضبط! نحن نحمي جلدكم الأجرب، يا جناب ناظر الأملاك، من أولئك الإلفيين المقموعين، كما تقولون، الذين لم نسمح لهم بالعيش، كما تدعون. لكنني سأخبركم بشيء آخر: «لقد جعلنا منهم مزهوين أكثر من اللازم. تسامحنا معهم، وعاملناهم كبشر، كأنداد، والآن يطعنوننا في الظهر. نيلفجارد تدفع لهم مقابل ذلك، أقسم برأسي، أما الإلفيون الوحشيون من أهل الجبال فيزودونهم بالسلاح. لكنّ السند الحقيقي لهم يكمن في أولئك الذين لا يزالون يعيشون بين ظهرانينا: في الإلفيين وأنصاف الإلفيين والأقزام والجنوم والهوبييتيين. إن هؤلاء يخفونهم، ويطعمونهم، ويقدمون المتطوعين...».

نطق التاجر الثاني، النحيف، ذو الوجه الناعم، والملامح النبيلة التي ليست كملامح التجار حقاً: «ليس كلهم. معظم غير البشريين يدينون السناجيب، يا

جناب الفارس، ولا يريدون أن تجمعهم بهم أي علاقة كانت. معظم الناس مخلصون، ويدفعون في بعض الأحيان ثمنًا باهظًا جرّاء هذا الولاء. تذكروا الحاكم القضائي من بان أرد. لقد كان نصف إلفي، لكنه كان يدعو إلى السلم والتعاون. هلك بسهم غادر قاتل».

سخر الفارس: «لعل من رماه بالسهم هو أحد جيرانه، أو أحد الهوبيتين، أو قزم ما تظاهر أيضًا بالإخلاص. حسب ما أرى، لا أحد مخلص منهم! كل واحد منهم... إيه! ومن أنت؟».

نظر جيرالت حوله. كانت سيرى تقف خلفه تمامًا، ترمق الجميع بنظرة زمردية من عينيها الكبيرتين. وفي ما يتعلق بمهارتها في التحرك دون حسّ، فقد حققت فعلًا تقدمًا كبيرًا.

أوضح: «إنها معي».

وجّه الفارس نظره إلى سيرى، ثم التفت مجددًا تجاه التاجر ذي الوجه النبيل، ومن الواضح أنه رأى فيه الشريك الأكثر جدية للنقاش: «هممم... نعم يا سيد، لا تُحدّثني عن غير البشريين المخلصين. هم جميعًا أعداؤنا، علمًا أن بعضهم أفضل من الآخر في التظاهر بأنهم ليسوا كذلك. لقد عاش الهوبيتيون والأقزام والجنوم بين ظهرانينا منذ مائة عام، وبدا أن الأمور بينهم تسير في وفاق من نوع ما. وكان يكفي أن يرفع الإلفيون رؤوسهم، فيتلقّف هؤلاء الآخرون أيضًا السلاح ويمضوا إلى الغابات. أقول لكم، لقد كان التسامح مع الإلفيين الأحرار وحوريات الدريادا وغاباتهم والجيوب الجبلية التابعة لهم، خطأ. ولم يكن هذا ليكفيهم، والآن يصرخون: 'هذا عالمنّا، اخرجوا من هنا أيها الضالون'. بإذن الآلهة، سوف نريهم من سيرحل، ومن سيصبح هنا أثرًا بعد عين. لقد سلخنا جلد النيلفجارديين، والآن سنتولى أمر العصابات».

نطق الويتشر: «ليس من السهل الإمساك بالإلفي في الغابة. وما كنتُ لأسير في أثر جنوم أو قزم في الجبال أيضًا. كم عدد المجموعات هناك؟».

صحّح الفارس: «العصابات. العصابات يا سيد ويتشر. يصل عددهم إلى عشرين رأسًا، وأحيانًا يكون أكثر. ويُطلقون على مثل هذه العصابة اسم «كوماندو»، أي المغاوير. وهي كلمة من لغة الجنوم. وبخصوص عدم سهولة الإمساك بهم، كما تقولون، يتضح أنكم خبير في هذا الأمر. لا فائدة من مطاردتهم خلال الغابات والدّيس. السبيل الوحيد أمامنا هو قطعهم عن حاضنتهم وعزلهم

وتجويعهم. وترويض من يساعدهم من أولئك غير البشريين أشدَّ ترويض. أولئك القادمين من المدن والأحياء السكنية، من القرى والمزارع....».

قال التاجر ذو الملامح النبيلة: «المشكلة تكمن في أنه لا يُعرَف حتى الآن من يساعدهم من غير البشريين ومن لا يساعدهم.

- إذن، علينا أن نروِّض الجميع!

ابتسم التاجر: «أها. فهمتُ. قد سمعتُ ذلك في مكان ما من قبل. الجميع من القفار وإلى المناجم، وإلى المخيمات المسيَّجة، وإلى مقالع الحجارة. الجميع. الأبرياء أيضًا. النساء والأطفال. هكذا، أليس كذلك؟».

رفع الفارس رأسه فجأة وضرب مقبض سيفه بكفه.

قال بحدة: «هكذا، بالضبط، وليس شيئاً آخر! تتأسفون على الأطفال، وأنتم أنفسكم كطفل في هذا العالم، يا سيدي. الهدنة مع نيلفجارد هشة كقشرة البيض، إن لم تبدأ الحرب اليوم فقد تبدأ غداً من جديد، وكل شيء في الحرب محتمل الحدوث. إذا تغلبوا علينا، فما رأيكم، كيف ستصير الأمور؟ سأقول لكم: عندئذٍ، ستخرج مجموعات المغاوير الإللفية من الغابات، وسيخرجون ومعهم القوة والعدد، وسينضم إليهم هؤلاء المخلصون على الفور. فهل تعتقدون أن أقزامكم المخلصين هؤلاء وهوبييتيكم الودودين سيتحدثون حينئذٍ عن السلم وعن الوفاق؟ لا، يا سيدي. سيمزقون أحشاءنا، وستقضي نيلفجارد علينا بأيديهم. وسيغرقوننا في البحر كما يتوعدون. لا يا سيدي، غير مسموح التهاون معهم. إما هم وإما نحن. لا سبيل آخر!».

صرَّ باب الكوخ ووقف عنده جندي مأجور يرتدي إزارًا ملطخًا بالدماء.

تنحَنج: «معذرة على الإزعاج. من منكم أيها الأفاضل أحضر تلك المرأة المريضة إلى هنا؟».

قال الويتشر: «أنا، ماذا حدث؟».

- تعالوا إذا سمحتم.

خرجوا إلى الفناء.

قال الجندي وهو يشير إلى تريس: «إنها في حال سيئة، يا سيدي. لقد أعطيتها من تلك الحُمى مع الفلفل والملح الصخري، ولكنَّ ذلك لم يساعدها. ليس كثيرًا....».

لم يعلق جيرالت، فلم يكن ما يمكن التعليق عليه. ولقد قدّمت الساحرة المنحنية والمنكمشة دليلاً لا يمكن دحضه على أن الحمياً مع الفلفل والملح الصخري شيء لا يمكن أن تتقبله معدتها.

عبس الجندي المأجور: «قد يكون هذا شيئاً من الطاعون. أو من هذه، ما اسمها... زينطاريا⁽¹⁾. لو أن هذا الشيء تفشى بهذه الطريقة بين الناس...». استنكر الويتشر: «إنها ساحرة. الساحرات لا يمرضن...».

تدخل الفارس بتهكم الذي تبعهم: «في الصميم. صاحبكم، كما أرى، تفيض منها الصحة. سيد جيرالت، استمعوا لي. المرأة تحتاج إلى المساعدة ونحن لا نستطيع تقديمها لها. ثم إنني، فلتفهموا، لا أستطيع المخاطرة بالوباء بين صفوف الجيش».

- أفهم ذلك. سأغادر على الفور. ليس لديّ من خيار، عليّ الرجوع تجاه دايفون أو أرد كارايغ.

- لن تتوغلوا بعيداً. أمرت وحدات الاستطلاع بإيقاف الجميع. فضلاً عن ذلك، فالأمر خطر. لقد هرب السكويائيون في ذلك الاتجاه.

- سأتدبر الأمر.

عوج الفارس شفتيه: «بعد الذي سمعتُ به عنكم، لا أشك أنكم ستتمكنون من تدبر الأمر. لكن انتبهوا، لستم وحدكم. على عاتقكم تقع مسؤولية تلك المريضة مرضاً شديداً، وهذه العجيبة...».

رفعت سيري رأسها، وهي تحاول تنظيف حذاءها الملطّخ بالروث بعارضة السُّلم. تنحّج الفارس وخفض نظره. ابتسم جيرالت قليلاً. كادت سيري خلال العامين الماضيين تنسى أصلها وكادت تتخلص من سلوكها الأميري وتصرفاتها المصطنعة، لكنّ نظراتها، عندما تريد ذلك، تشبه كثيراً نظرات جدتها. كثيراً إلى درجة أن الملكة كالانثي ستكون على الأرجح فخورة بحفيديتها.

تلعثم الفارس، وهو يشد حزامه في حرج: «نعم، عن أي شيء أنا... سيد جيرالت، أعلم ما ينبغي أن تفعلوه. امضوا إلى ما بعد النهر، جنوباً. الحقوا

(1) يقصد: الديزنطاريا، أي مرض الزُّحار.

بالقافلة التي تسير على المسلك. الليل على وشك أن يحلَّ، والقافلة ستتوقف حتمًا للاستراحة، ستدركونها قبل الفجر».

- ما تكون هذه القافلة؟

هز الفارس كتفيه: «لا أعلم. لكنها ليست موكبًا تجاريًا أو عاديًا. الترتيبات كثيرة، والعربات متطابقة الشكل ومغطاة... إنها على اليقين لمحصلي الديون الملكيين، سمحُ لهم بالمرور خلال الجسر لأنهم يسرون على المسلك نحو الجنوب، ربما باتجاه المخاضات في ليكسلي».

فكَّر الويتشر وهو ينظر إلى تريس: «هممم... سيكون هذا على طريقي. لكن، هل أجد مساعدة هناك؟».

قال الفارس ببرود: «ربما كذلك. وربما لا. لكنكم بالتأكيد لن تجدوها هنا».



لم يسمعه ولم يلمحوه حينما اقترب راكبًا، وكانوا غارقين في محادثة، وقد تحلَّقوا حول النار التي أضاءت مشمع العربات المصفوفة على هيئة دائرة بضوء أصفر كلون الجثث. شد جيرالت الفرس إلى أعلى قليلًا وأجبرها على الصهيل المرتفع. أراد تحذير القافلة التي كانت تخيم، وأراد أن يقلل من حدة المفاجأة ويتجنب الحركات المضطربة. كان يعلم من خلال خبرته أن آليات الإطلاق للقسيّ المستعرضة لا تحب الحركات المتوترة.

ورغم التحذير، انتفض الرهط المخيمون مؤدِّين حركات مضطربة كثيرة. وقد رأى على الفور أن معظمهم كانوا أقزامًا. وهذا ما هدَّاه قليلًا؛ الأقزام، على اندفاعهم الشديد، عادةً ما يسألون أولًا في مثل هذه المواقف ثم يطلقون من قسيِّهم.

صاح أحد الأقزام بصوتٍ أجشٍّ، بحركة سريعة وحيوية منتزعًا الفأس المغروزة في أرومة شجرة قرب النار: «من؟ من المقبل؟».

نزل الويتشر عن فرسه: «صديق».

زمجر القزم: «صديق من يا ترى. اقترب. أظهر يدك ليتمكننا رؤيتهما».

اقترب جيرالت مظهرًا يديه ليتمكن من رؤيتهما بدقة حتى من كان مصابًا بالتهاب الملتحمتين أو حتى الأعشى.

- ادنُ أكثر.

أطاعه. أنزلَ القزم فأسه وأمال رأسه قليلاً.

قال: «إما أن بصري يخدعني، وإما أنك الويتشر المدعو جيرالت من ريفيا. وإما أنك شخص يشبه جيرالت شبهاً فظيماً».

اندلعت النارُ فجأةً باللهب، وانفجرت بسطوع ذهبي كاشفةً عن وجوه وشخوص من بين الظلام.

قال جيرالت متفاجئاً: «ياربن زيجرين».

- لا أحد آخر غير ياربن زيجرين بلحمه ولحيته!

لَوَّحَ القزم بفأسه كما لو كانت عود صفصاف. صَفَّرَ النصل في الهواء وانغرز في جذع الشجرة محدثاً قرقرة مكتومة: «ها! إلغاء الإنذار! إنه صديق حقاً».

استرخى الآخرون على نحو بَيِّن، وخُيِّلَ إلى جيرالت أنه يسمع زفيراً عميقاً ومفعماً بالارتياح. دنا القزم ومدَّ يده. يمكن لقبضته أن تدخل دون تردد أو خوف في منافسة مع الكماشات الحديدية.

قال: «مرحباً بك يا صاحب الشخصية. من أين أتيتَ وأنتَ ذهبت، فيا مرحباً بك. يا أولاد! إليَّ هنا! هل تتذكر أولادي أيها الويتشر؟ هذا يانيك براس، وهذا هو كسافير موران، وهذا باولي داهلبرج وأخوه ريجان».

لم يتذكر جيرالت أيّاً منهم، وعلى أي حال بدؤا جميعهم متشابهين تماماً، ملتحين، ممثلي الجسم، وتكاد أجسادهم التي تغطيها ستراتهم السمكية والمبطنة، أن تكون مربعة.

صافح الأيدي اليمنى الخشنة والصلبة الممدودة إليه واحدة تلو الأخرى: «كنتم ستة. على ما أذكر».

ضحك ياربن زيجرين: «ذاكراتك جيدة. كنا ستة، طبعاً. لكنَّ لوكاس كورتو قد تزوج، استقرَّ في ماهاكام وترك الصحبة، غبي أحمق. خاب بطريقة ما، ما من أحد حتى الآن جدير بأن يأخذ مكانه. إنه أمر مؤسف، العدد ستة مناسب على أكمل وجه، ليس بالكثير جدًّا، ولا بالقليل جدًّا. فلأكل عجل أو شرب دُنُّ لن تجد ما هو أفضل من الستة...».

أوما جيرالت بحركة من رأسه إلى بقية أفراد المجموعة الواقفين حائرين بجوار العربات: «كما أرى، فعددكم كبير هنا بما يكفي لكي تتدبروا أمرَ ثلاثة عجل، ولن أذكر الدواجن. ما هذه الرفقة التي تتزعمها يا ياربن؟».

- لستُ أنا الزعيم هنا. دعني أقدمك. اعذروني يا سيد فينك لأنني لم أفعل ذلك على الفور، لكنني أنا وأولادي نعرف جيرالت من ريفيا ليس منذ هذا اليوم، وقد كانت لنا معًا بعض الذكريات المشتركة. يا جيرالت، هذا هو السيد المفوض فيلفريد فينك، ويعمل في خدمة الملك هينسلت من أرد كارايغ، حاكم كايدفين الرحيم.

كان فيلفريد فينك طويل القامة، أطول من جيرالت، وأطول من القزم مرتين. وكان يرتدي زيًا عاديًا يلبسه ناظرو الأملاك أو محصلو الديون أو المراسلون الخيالة، ولكنَّ حركاته كانت فيها حدة وصلابة وثقة كان الويتشر يعرفها ويمكنه تعرّفها دون أي خطأ، حتى في الليل وحتى في ضوء النار الشحيح.

هكذا كان يتحرك الناس الذين اعتادوا الدروع المزرودة والسلاح الضاغط على الحزام بثقله. كان فينك جنديًا محترفًا، وكان جيرالت مستعدًا للمراهنة على ذلك بأي مبلغ. صافح اليد الممدودة إليه وانحنى قليلًا.

أشار ياربن زيجرين إلى جذع الشجرة الذي لا تزال فأسه العظيمة منغرسه فيه: «لنجلس. أخبرني ماذا تفعل في هذه النواحي، يا جيرالت؟».

- أبحث عن مساعدة. أسافر ومعني امرأة وبنت قاصر. المرأة مريضة. مرضًا خطيرًا. لقد لحقتُ بكم لطلب المساعدة.

بصق القزم على الحطب المشتعل: «تبًا لدماء الكلاب، ليس لدينا أي معالج طبي هنا. أين تركتهما؟».

- على بعد نصف فرسخ من هنا، على جانب الطريق.

- سترينا الطريق. هيه، أنتم هناك! ثلاثة إلى الخيول، اسرجوا الخيول غير المحمّلة! جيرالت، هل امرأتك المريضة يمكنها أن تثبت في السرج؟

- ثباتها صعب قليلًا. لذلك اضطررتُ إلى تركها.

- خذ الرداء والنسيج المشمّع وقضيبين من العربة! الهمة!

عقد فيلفريد فينك يديه على صدره وتنحنح بصوت عالٍ.

قال ياربن زيجرين بحدة، دون أن ينظر إليه: «نحن على المسلك. وعلى المسلك لا تُرفض المساعدة».



أزاح ياربن كفه عن جبهة تريس: «تبًا. ساخنة كالفرن. لا تعجبني هذه الحال. وماذا لو كانت هذه حمى تيفية أو زُحارًا؟».

كذب جيرالت بقناعة، وهو يلف المريضة ببطانيات سميكة: «هذا لا يمكن أن يكون حمى تيفية ولا زُحارًا. إن السحرة محصنون ضد هذه الأمراض. هذا تسمم غذائي، لا شيء فيه مُعدٍ».

- هممم... حسنًا، حسنًا. سأذهب لأفتش في حقائبي. كان لدي دواء جيد ضد الإسهال، ربما بقي بعضه.

تمتم الويتشر وهو يناول الصبية معطفًا من جلد مفكوكًا من الفرس: «سيرري. اذهبي ونامي، قدماك لا تستطيعان حملكِ جرّاء الإرهاق. لا، ليس إلى المَرَكبة. في المَرَكبة سنضع تريس. أنت ستستلقي بجانب النار».

اعترضت بخفوت ناظرةً إلى القزم المبتعد: «لا. سأستلقي بقربها. عندما يرونك تدفعني بعيدًا عنها فلن يصدقوك. سيعتقدون أن هذا المرض مُعدٍ وسيطردوننا، تمامًا كما فعل أولئك الذين كانوا في المحرس».

تأوهت الساحرة فجأة: «جيرالت؟ أين... نحن؟».

- بين الأصدقاء.

قالت سيرري وهي تمسّدها على شعرها الكستنائي: «أنا هنا. أنا معكِ. لا تخشي شيئًا. هل تشعرين كم المكان دافئ هنا؟ النار مشتعلة، وسيحضر القزم بعد قليل دواء الـ... المعدة».

شهقت تريس باكية وهي تحاول التحرر من تحت البطانيات: «جيرالت. لا شيء... لا شيء من جرعات الإكسير السحرية، تذكر...».

- أتذكر. ارقدي بهدوء.

- لا بدّ لي من... أووووه...

انحنى الويتشر دون أن ينطق بكلمة ورفع الساحرة ومعها شرنقة البطانيات التي كانت ملفوفة بها، وسار في الغابة وسط الظلام. تنهدت سيري.

استدارت عند سماعها وقع خطواتٍ ثقيلة. بزغ القزم من وراء المَرْكَبَة متأبطاً حُزْمة كبيرة. لمع لهب النار على نصل الفأس المثبتة خلف حزامه، والتمعت أزرار سترته الجلدية الثقيلة.

هتف منفعلاً: «أين المريضة؟ هل طارت بعيداً على مكستها؟».

أشارت سيري إلى العَتمَة.

هز رأسه: «واضح. أعرف هذا الألم والتوَعُك الفظيع. عندما كنت أصغر سنّاً كنت أكل كل شيء كنت أفلح في العثور عليه أو أشل حركته، فتسممتُ أكثر من مرة أو أكثر من مرتين. مَنْ تكون هذه الساحرة؟».

- تريس ميريجولد.

- لا أعرفها، لم أسمع بها. وفي كل الأحوال، نادراً ما أتعامل مع الأخوة.

حسنًا، اللائق أن أقدم نفسي. يسمونني ياربن زيجرين. وما اسمك، يا إوزة؟

زمجرت سيري، وقد التمعت عيناها: «اسم آخر».

قهقه القزم وكشف عن أسنانه.

انحنى على نحو مبالغ فيه: «آه. أرجو المعذرة. لم أعرفكِ في الظلام. إذن ليست أي إوزة، بل آنسة نبيلة. أنحنى احتراماً لك. ما اسم الآنسة، إن لم يكن سرّاً؟».

- ليس سرّاً. أنا سيري.

- سيري. أها. ومن تكونين يا آنسة؟

رفعت سيري أنفها باعتزاز: «وهذا الأمر، هذا سر فعلاً».

هتف ياربن منفعلاً من جديد.

- لسان الآنسة حاد كالدبور، كالدبور. فلتعذرني الآنسة. أحضرتُ الدواء وبعض الطعام. فهل تقبلهما الآنسة، أم ترد الرجل المسنّ الفظّ ياربن زيجرين؟

تعقلتُ سيرى وحنّتُ رأسها: «أعتذر... تريس في حاجة ماسة إلى المساعدة يا سيد... زيجرين. إنها مريضة جدًا. شكرًا لكم على الدواء».

كشف القزم عن أسنانه مجددًا، وربّت كتفها بمودة: «العفو. تعالي يا سيرى، ستساعديني؟ يجب تحضير الدواء. سنشكل كرات حسب وصفة جدتي. لن تتمكن أي عدوى متجذرة في الأحشاء من مقاومة من هذه الكرات». فك الحزمة وأخرج شيئًا على هيئة كتلة خث ووعاء فخاريًا صغيرًا. اقتربتُ سيرى وقد اعتراها الفضول.

قال ياربِن: «يجب أن أخبرك يا سيرى الودود أن جدتي كانت تعرف أمور العلاج ولا أحد يحارِها في ذلك. ويا للأسف، كانت ترى أن مصدر معظم الأمراض هو التعطّل، أما التعطّل فالعصا أنجع طريقة لعلاجها. وقد استخدمت معي ومع إخوتي هذا الدواء، على نحو رئيس، كإجراء وقائي. كانت تضربنا بمناسبة أو دون مناسبة. لقد كانت امرأة شريرة على نحو استثنائي. ومرة أعطتني على حين غرة قطعة خبز عليها دهن وسكر، وقد فاجأتني بهذا كثيرًا إلى درجة أن تلك القطعة، من فرط تأثري، أفلتت من يدي، وسقطت على الأرض من جهة الدهن. حسنًا، وضربتني جدتي، هذه الشمطاء المقززة. ومن ثم أعطتني قطعة أخرى لكن دون سكر هذه المرة».

أومأت سيرى برأسها متفهمة: «جدتي، ضربتني أيضًا ذات مرة. بعود رفيع».

ضحك القزم: «بعود رفيع؟ جدتي خبطتني مرةً بمقبض المعول. حسنًا، كفى ذكريات، يجب أن تشكلي الكرات. خذي، اقطعي هذه واعجنيها لتصير كرات».

- ما هذا؟ إنه دبق وينفلش... إيببيعيبيع... رائحته نتنة!

- إنه خبز من العلف متعفن. دواء مثالي. اعجني الكرات. أصغر، أصغر، إنها من أجل الساحرة، وليس من أجل البقرة. أعطيني واحدة. حسنًا. الآن سندرج الكرة في الدواء.

- إيببيعيبيع!

قرّب القزم أنفه المدوّر من الوعاء الفخاري: «فاحت رائحة كريهة منه؟ مستحيل. ليس للثوم المسحوق مع الملح المر أن ينتن، حتى لو بقي مائة عام».

- يا له من شنيع، إيبيعيع. تريس لن تأكله!

- سنستخدم طريقة جدتي. أنت ستضغطين أنفها وأنا سأدس الكرات.

صاح جيرالت وقد ظهر فجأة من وسط الظلام، حاملاً الساحرة على يديه: «ياربن. احذر كي لا أدسُ أنا بداخلك شيئاً».

احتدَّ القزم: «هذا دواء! إنه مفيد! العفن والثوم...».

تأوهتُ تريس تأوّهًا واهنًا من أعماق شرنقتها: «نعم، هذا صحيح... جيرالت، في الواقع، ينبغي أن يفيدني...».

لكز ياربن سيرى بمرفقه، رافعًا ذقنه باعزاز ومشيّرًا إلى تريس، التي كان كانت تتجرع الكرات وقد ارتسمت على وجهها شهيدة معذبة: «أترين؟ إنها ساحرة حكيمة. تعرف ما الجيد».

انحنى الويتشر إلى الأمام: «ماذا تقولين يا تريس؟ أها، فهمت. ياربن، ربما لديك حشيشة الملاك؟ أو زعفران؟».

- سأبحث وأسأل. أحضرتُ لكم ماءً وبعض الطعام...

- شكرًا. ولكنّ كليهما تحتاجان إلى الراحة أولاً. سيرى، هيا ارقدي.

- سأهين كِمادة أخرى لتريس...

- أنا سأفعل ذلك بنفسى. ياربن، أودُّ أن أتحدث إليك.

- هيا إلى النار. سنفتح سداة الدن...

- أريد أن أتحدث إليك. لا يهمني أن يكون جمهور المستمعين أكبر. بل العكس تمامًا.

- واضح. أستمع إليك.

- ما يكون هذا الموكب؟

وجّه القزم إليه عينيه الصغيرتين الثاقبتين.

قال ببطء وتأکید: «خدمة ملكية».

لم يقطع الويتشر نظرتة: «خمنتُ ذلك. ياربن، أنا لا أسأل بدافع الفضول الفاضح».

- أعلم. وأعلم أيضًا ما تقصد. لكنّ عملية النقل هذه ذات أهمية... هممم... خاصة.

- وما هذا الذي تنقلونه؟

قال ياربن دون تلكؤ، ومن ثم استمرّ في الكذب ولم يرف له جفن البتة: «سمكًا مملحًا وعلفًا ومُعَدَّات وأحزمة للخيل وأنواعًا من مختلف التفاهات للجيش. فينك هو ضابط التموين في الجيش الملكي».

ابتسم جيرالت: «هو ضابط تموين بقدر ما أنا كاهن درويد. لكنّ هذه القضية قضيتكم، وليس من عادتي أن أدسّ أنفي في أسرار الآخرين. لكنك قد رأيت بأي حال هي تريس؟ دعنا ننضم إليكم، يا ياربن، اسمح لي أن أضعها في إحدى العربات. عدة أيام. أنا لا أسألك إلى أين أنتم ذاهبون، لأن هذا المسلك يؤدي مباشرة إلى الجنوب، ولا يتفرع إلا بعد ليكسيلا، والمسافة إلى ليكسيلا عشرة أيام. خلال هذا الوقت، ستخف الحمى وسيكون في وسع تريس السفر على متن الدابة، وحتى لو لم يحدث ذلك، فسأمكن في مستوطنة وراء النهر. افهمني، عشرة أيام في العربة، طعام دافئ يُقدّم بطريقة لاثقة... أرجوك».

- أنا لست المسؤول هنا، بل فينك.

- لا أصدق أن ليس لك تأثير فيه. ليس في الموكب المكون أساسًا من الأقزام. من الطبيعي أن عليه أن يأخذك في الحسبان.

- من هي تريس هذه بالنسبة إليك؟

- وما أهمية ذلك؟ في هذا الوضع؟

- في هذا الوضع لا أهمية إطلاقًا. سألت منقادًا بالفضول الفاضح حتى أتمكن لاحقًا من نشر إشاعة في الحانات. لكنّ بالمناسبة، إن لديك شغفًا شديدًا بالساحرات يا جيرالت.

ابتسم الويتشر بحزن.

أشار ياربن بحركة من رأسه إلى سيرى التي كانت تتقلب تحت معطفها الجلدي: «والفتاة؟ لك؟».

أجاب دون طول تفكير: «لي. لي، يا زيجرين».



كان الفجر رماديًا ورطبًا، تفوح منه رائحة مطر الليل وضباب الصباح. كان لدى سيرى انطباع بأنها لم تنم سوى لحظات قليلة، وأنها أوقظت ولم تكذّ تضع رأسها على الأكياس المتراكمة في العربة إلا هنيهة قصيرة.

وضع جيرالت تريس بجانبها بالضبط، وقد نُقِلَتْ من رحلة قسرية أخرى إلى الغابة. التمتع البطاطين الصوفية، التي لُفَّت بها الساحرة، جرّاء الندى. بدت هالات سود تحت عيني جيرالت. كانت سيري تعلم أنه لم يُغمض عينيه البتة؛ وتريس كابدت الحمى طوال الليل، وعانت كثيرًا.

- هل أيقظتك؟ عذرًا. نامي يا سيري. لا يزال الوقت مبكرًا.

- وماذا بشأن تريس؟ كيف حالها؟

تأوهت الساحرة: «أفضل. أفضل، لكن... اسمع يا جيرالت... أردتك أن...».

انحنى الويتشر، لكن تريس كانت قد غفّت. انتصب، وشد نفسه.

همست سيري: «جيرالت، هل سيسمحون لنا أن نساfer بالعربة؟».

عضّ على شفتيه: «سنرى. نامي ما دمت تستطيعين. استريحي».

قفز من العربة. سمعت سيري أصواتًا تشي بأن المخيم يشد رحاله: خبط حوافر الخيل، حفيف الأحزمة، صرير قضبان الجر، قرقعة الأوتاد، أحاديث وشتائم. وبعد ذلك، وبالجوار، سُمِع صوت ياربين زيجرين الأجش، وصوت هادئ لرجل طويل القامة يُدعى فينك. وصوت جيرالت البارد. انتصبت رافعة نفسها وتطلعت بحذر من خلف النسيج المشمع.

صرّح فينك: «ليس لديّ من مانع على نحو قاطع في هذه القضية».

ابتهج القزم: «عظيم. سوّيت القضية إذن؟».

رفع المفوؤض كفه قليلًا كعلامة أنه لم ينتهِ من كلامه بعد. صمت بعض الوقت. جيرالت وياربين انتظرا بصبر.

وأخير قال فينك: «بيد أنني مسؤول برأسي عن وصول هذا النقل إلى وجهته المحددة».

صمت مجددًا. هذه المرة لم يتدخل أحد. ولا شك أن التحدث إلى المفوض يقتضي وجوب اعتياد التوقيفات الطويلة بين جملة وأخرى.

وأكمل بعد لحظة: «وصوله آمنًا سالمًا. وفي الموعد المحدد. والعناية بالمريضة قد تبطئ وتيرة مسيرنا».

أكد له ياربين بعد أن انتظر قليلًا: «نتجاوز الموكب. ولدينا متسع من الوقت، يا سيد فينك، لن يفوتنا الموعد النهائي. وفي ما يخص السلامة... يبدو لي أن وجود الويتشر في رفقتنا لن يأتي منه ضرر. إن المسلك يسير

خلال الغابات، وعلى جانبيه، الأيمن والأيسر، تمتد غابة موحشة حتى ليكسيلا نفسها. وفي الغابات، كما تقول الشائعات، تجول مخلوقات شريرة مختلفة». وافق المفوض. وبدا كأنه يزن كل كلمة، وهو ينظر إلى عيني الويتشر مباشرة: «هذا حقيقي. أصبح ممكناً في الآونة الأخيرة أن يلقي المرء في غابات كايدفين بعض المخلوقات الشريرة التي تُحرّضها مخلوقات شريرة أخرى. وهي قد تهدد سلامتنا. لقد منحني الملك هينسلت، وقد علم بذلك، الحق في جذب متطوعين لمرافقة مسلحة. سيد جيرالت؟ وهذا من شأنه أن يحل مشكلتكم».

ظل الويتشر صامتاً هنيئاً طويلاً، أطول من خطاب فينك بأكمله، الذي تخللته التوقيفات الكثيفة بين الجمل.

وأخيراً قال: «لا، لا، يا سيد فينك. فلنضع القضية بصورة واضحة. أنا مستعد لأن أردد لك الجميل للمساعدة المقدمة للسيدة ميريجولد، لكن ليس بهذه الطريقة. استمارة. أستطيع أن أسوس الخيول، وأجلب الماء والخشب، وحتى أن أطهو الطعام. لكنني لن ألتحق بخدمة الملك بصفة جندي مأجور. أرجو أن لا تعولوا على سيفي. ليس لديّ النية لقتل أولئك الذين شئت التعبير عنهم باسم المخلوقات الشريرة المؤتمرة بأمر مخلوقات أخرى لا أراها كائنات أفضل من تلك إطلاقاً».

سمعت سيري ياربن زيجرين يزغق ويسعل في قبضة يده المكورة. نظر فينك إلى الويتشر بهدوء.

صرّح بجفاف: «أفهمك. أحب المواقف الواضحة. حسناً إذن. سيد زيجرين، أرجو أن تحرصوا أن تقلّ سرعة المسير. أما أنتم يا سيد جيرالت... فأعلم أنكم سوف تفيدوننا وتبدون المساعدة بالطريقة ترونها مناسبة. وسيكون الأمر إهانة لي ولكم لو تعاملت مع الاحتياج إليكم كأجر مقابل المساعدة المقدمة لتلك التي تعاني. هل حالها اليوم أفضل؟».

أكد الويتشر ذلك بإيماءة من رأسه كانت، كما بدا لسيري، أعمق قليلاً وألطف من الإيماءة المعتادة. لم يغير فينك تعابير وجهه.

قال بعد التوقف المعتاد: «يسرني ذلك. بأخذ السيدة ميريجولد في عربة من موكبي، فإنني أتولى مسؤولية صحتها وراحتها وسلامتها. سيد زيجرين، أرجو إعطاء الأمر لبدء المسير».

- سيد فينك.

- أستمع لكم يا سيد جيرالت.

- أشكركم.

أوماً المفوض برأسه. وكانت الإيماءة، ما بدا لسيري، أعمق قليلاً والطف مما تطلبته الدمثة المهذبة المعتادة.

جرى ياربن زيجرين على طول الموكب مُطلقاً أوامر وتكليفات صاخبة، ثم صعد على مقعد العربة، صرخ وساط الحصانين بزماميهما. اهتزت العربة وراحت تطقطع على طول طريق الغابة. أيقظ الاهتزاز الشديد تريس، لكن سيري هدأتها وغيّرت الكِمّادة على جبهتها. وفعلت الطقطقة فعل المنوم. وسرعان ما غفّت الساحرة، وأخذ النعاسُ سيري أيضاً.

عندما استيقظت، كانت الشمس قد بلغت ارتفاعاً عالياً. استرقت النظر من خلف البراميل والطرود. كانت العربة التي ركبها في مقدمة القافلة. تليها العربة التي قادها قزم ملفوفة رقبته بوشاح أحمر. علمت سيري من الأحاديث التي دارت بين الأقزام أن اسمه باولي داهلبرج. وكان يجلس بجانبه شقيقه ريجان. كما رأَتْ فينك راكباً حصانه صحبةً اثنين من محصلي الديون.

حيّتها روش، فرس جيرالت المربوطة بالعربة، بحممة. لم ترَ في أي مكان حصانها الكستنائي وحصان تريس البني المصفر. من المحتمل أنهما كانا في الخلف مع خيول الموكب غير المحملة.

كان جيرالت يجلس على مقعد العربة بجوار ياربن. تحدثا بصوت خفيض، وهما يرتشفان الجعة من الدُّنَّين الموضوع بينهما. أصاحت سيري، لكنها سرعان ما ملّت؛ فقد كان الخطاب مرتبطاً بالسياسة، وعلى نحو رئيس بخطط الملك هينسلت ونواياه، وبما يُدعى الأجهزة الخاصة والمهمات الخاصة التي تتمثل في المساعدة السرية لجاره المهدّد بالحرب، الملك ديمافيند من أيديرن. أبدى جيرالت فضوله مفكراً بأي وسيلة ستكون خمس عربات من الأسماك المملحة قادرة على زيادة الدفاع عن أيديرن. أوضح ياربن، دون أن يعير انتباهاً للسخرية العالية النبرة في صوت الويتشر، أن بعض أنواع الأسماك ذات قيمة كبيرة لدرجة أن بضع عربات تكفي لدفع الأجر السنوي لجند الراية المدرعة، وكل راية مدرعة جديدة تعد فعلاً عوناً معتبراً. استغرب

جيرالت لماذا يجب أن تكون هذه المساعدة بهذه الدرجة من السرية، وردّ القزم عليه أن السر يكمن في هذا بالتحديد.

انتفضت تريس خلال نومها، وأسقطت الكُمادة، وراحت تتكلم كلامًا غامضًا. طلبت من شخص يدعى كيفين أن تلزم يدها حدودها، ثم سرعان ما صرّحت أن القدر لا مفر منه. وغفت بهدوء بعدما أكدت أخيرًا أن الجميع، الجميع على الإطلاق، متحولون إلى حد ما.

شعرت سيري أيضًا بالنعاس، لكنّ ما جعلها تعود إلى اليقظة هو نقيق ياربِن الصاحب، الذي ذكّر جيرالت بالمغامرات السالفة تحديدًا. والمقصود بذلك حملات اصطياد التنين الذهبي الذي بدلًا من أن يصطاده الصيادون أشبعهم ضربًا، وبيسر أكل الإسكاف الذي يُدعى أكل الماعز. أخذت سيري تستمع باهتمام أكبر.

سأل جيرالت عن مصاير السيّافة، لكنّ ياربِن لم يعلم شيئًا عنها. وفي المقابل تعاضم فضول ياربِن بشأن امرأة تدعى ينيفر، أما جيرالت فأصبح قليل الكلام علي نحو غريب. ارتشف القزم الجعة وراح يشكو من أن ينيفر تلك لا تزال تكنّ له الضغينة، مع أن سنوات طويلة مرّت.

حدّثه: «صادفتُها في السوق الموسمية جورس فيلين. وحالما لاحظتني، زمجرت كقطة وأهانت أُمي الراحلة إهانةً فظيعة. أطلقتُ ساقِي للريح بأسرع ما يمكن، أما هي فصرخت في إثري بأنها ستمسك بي ذات يوم وتجعل العشب ينمو من مؤخرتي».

ضحكت سيري ضحكة خافتة، متخيلةً ياربِن مع العشب. تذرّ جيرالت وقال شيئًا عن النساء وشخصياتهنّ المندفعة. أما القزم فأخذ ذلك على أنه وصف غاية في اللين للخبث والعناد والتعطش للانتقام. لم يتطرق الويتشر إلى الموضوع، فيما أخذ النعاس سيري مجددًا.

هذه المرة، أيقظتها أصوات مرتفعة. وعلى نحو أدقّ، صوت ياربِن الذي لم يكن مرتفعًا فحسب، بل صارخًا.

- أي نعم! فلتعلم! هكذا قررت!

قال الويتشر بهدوء: «اخفض صوتك. في العربة ترقد امرأة مريضة. افهم، أنا لا أنتقد قراراتك ولا أحكامك....».

قاطعهُ القزم متهمكًا: «لا، طبعًا. أنت فقط تبتسم ابتسامة لها غاية».

- ياربن، أنا أحذرك كوني صديقًا. أولئك الذين يجلسون على الحاجز وسيقانونهم منفرجة، يكرههم الطرفان، أو في أحسن الأحوال يعاملونهم بعدم ثقة.

- أنا لا أجلس منفرج الساقين. قولًا واحدًا، أعلن أنني أقف بجانب أحد الطرفين.

- ولهذا الطرف ستبقى أبدًا قزمًا. شخصًا آخر. غريبًا. وللطرف المضاد... توقف.

زمجر ياربن وهو يستدير: «حسنًا! حسنًا هيا، ماذا تنتظر؟ قل إنني خائن وكلب بسلسلة يقودها بشر، مستعد مقابل حَفنة من الفضة وصحن طعام بائس أن يسمح لنفسه بالتحريض على صاحبه الذين انتفضوا وقاتلوا من أجل الحرية. هيا، ابصق ما في داخلك. أنا لا أحب الكلام الغامض».

قال جيرالت بصوت خفيض: «لا، يا ياربن. لا. لن أبصق شيئًا من داخلي». ساط القزم حصانيه: «أوه، لن تفعل؟ لا ترغب في ذلك؟ تفضّل أن تنظر وتبتسم؟ ولا كلمة توجهها إليّ، أليس كذلك؟ لكنّ كان بإمكانك أن تقول ذلك لفينك! 'أرجو ألا تعولوا على سيفي'. آه، يا لهذا كم هو متعالٍ ونبيل ومعتز! فاذهب إلى مؤخرة الكلب بتعاليك! واعتزازك العاهر!».

- ببساطة، أردتُ فقط أن أكون صادقًا. لا أريد التورط في هذا النزاع. أريد أن أبقى على الحياد.

صرخ ياربن: «لا يمكن! لا يمكن أن تبقى على الحياد، أتفهم؟ لا، أنت لا تفهم شيئًا. أوه، انزل من عربتي وامتطِ الحصان. اغرب عن وجهي، أيها المتكبر المحايد. إنك تثير أعصابي».

استدار جيرالت. حبستُ سيري أنفاسها منتظرةً. لكنّ الويتشر لم ينطقُ بأي كلمة. قام وقفز من العربة بسرعة وخفة ورشاقة. انتظره ياربن حتى يفكّ فرسه عن السلم، ثم ساط الحصانين مجددًا، مزمجراً بكلمات غير مفهومة لا تكاد تتعدى لحيته، ولكنها مرعبة بوقعها.

نهضتُ لتقفز أيضًا ولتجد الحصانَ الكسثنائيَّ. استدار القزم وتفحصها بنظرة غير ودود.

شخر بغضب: «ومعك أيضًا، يا آنسة لا يكون إلا الهمُّ. أكان من اللازم أن يكون عندنا هنا سيدات وصبايا، اللعنة، لا أستطيع حتى أن أتبول من فوق مقعد العربة، بل يجب أن أوقف المَرْكَبَة وأندس بين الشجيرات!».

أَلْقَتْ سيرى قبضتيها على وركها، هزَّت غرة شعرها الرمادية المبيضة ورفعت أنفها عاليًا.

صاحت حانقة: «نعم؟ اشربوا كميات أقل من الجعة، يا سيد زيجرين، وستقل حاجتكم إلى ذلك كثيرًا!».

- دعي جعتي واهتمي ببرازك، أيتها العجيّة!

- لا تصرخوا، تريس غفت منذ لحظات!

- هذه عربتي! سأصرخ متى شئت!

- جذع شجرة!

- ماذا؟ آخ، أيتها العنزة الوقحة!

- جذع شجرة!

- سأريك الجذع الآن... أوه، تبًّا لدماء الكلاب! برررر!

انحنى القزم إلى الخلف بقوة، وشدَّ العنان في اللحظة الأخيرة، تمامًا عندما تحفّز الحصانان لتخطي جذع الشجرة الذي كان يسد الطريق. وقف ياربِن على مقعد العربة، شاتمًا ومجدِّفًا بطريقة البشر وبطريقة الأقزام، وأوقف المَرْكَبَة وهو يصفرُّ ويهدر. قفز الأقزام والبشر من العربات وأقبلوا راكضين، فساعدوا على سَوِّق الخيول إلى الطريق بشدِّها من أرسنها ومن أحزمتهها.

زمجر باولي داهلبرج وقد اقترب: «أخذتكَ الغفوة، أليس كذلك يا ياربِن؟ تبًّا، لو أنك دعستَ هذا لتحطم المحور وتكسرتِ العجلات إلى الشيطان. ماذا بحق الجحيم أنت...».

هدر ياربِن زيجرين، ومن شدة غيظه ساطَ مؤخرة الحصانين بالزمام: «افرنقع، يا باولي!».

قالت سيرى بلطافة، وهي تحزُم أشياءها على المقعد بجوار القزم: «لقد أسعفكم الحظُّ. وكما ترون، من الأفضل أن تكون في العربة ويتشرية، بدلًا من السفر وحدكم. لقد أنذرتكم في الوقت المناسب. ولو أنكم تبولتم من فوق

المقعد في تلك اللحظة بالضبط، ودعستم هذا الجذع، فماذا، ماذا إذن. مفرع مجرد التفكير في ما كان يمكن أن يحدث لكم عندئذٍ...».

- ألن تسكتي؟

- لن أقول شيئاً بعد الآن. ولا حتى نصف كلمة.

احتملت أقل من دقيقة.

- سيد زيجرين؟

وكزها القزم بكوعه وكشف عن أسنانه: «لستُ أيَّ سيد. أنا ياربن. واضح؟ فنحن نقود المركبة معاً، أليس كذلك؟».

- واضح. أيمكنني أخذ الزمام؟

- طبعاً. لحظة، ليس هكذا. ضعيه على السبابة، واضغطي بإبهامك، أوه، هكذا. والجزء الأيسر بالطريقة نفسها. لا تشديه، لا تسحبيه بقوة.

- هكذا جيد؟

- جيد.

- ياربن؟

- ها؟

- ماذا يعني «البقاء على الحياد»؟

تمتم على مضض: «أن يكون المرء غير مبالٍ. لا تدعي الزمام يتدلى. الجزء الأيسر دعيه أدنى إليك!».

- كيف ذلك، غير مبالٍ؟ غير مبالٍ بماذا؟

انحنى القزم بشدة وبصق تحت العربة.

- إن هاجمنا السكوياتيليون، فإن جيرالت الذي يخصك يعتزم الوقوف والتفرُّج بهدوء وهم يجزُّون رقابنا. من المحتمل أن تقفي أنت بجانبه، فذلك سيكون درساً مشهدياً. وموضوع الدرس: سلوك الويتشر أمام صراع الأجناس العاقلة.

- لا أفهم.

- وهذا بالتحديد لا يدهشني ولو قليلاً.

- ألهذا السبب تشاجرت معه وغضبت؟ من هم السكويائتيليون في الحقيقة؟ أولئك... السناجيب؟

شد ياربن لحيته فجأة: «سيري. هذه ليست قضايا لعقل الفتيات الصغيرات القاصرات».

- واه، الآن أنت تغضب مني. أنا لست صغيرة إطلاقًا. سمعتُ ما قال الجنود في المحرس عن السناجيب. رأيتُ... رأيتُ اثنين من الإلفيين قتيلين. وقال الفارس إنهم... أيضًا يَقتلون. ومن بينهم ليس الإلفيون فقط. من بينهم الأقزام أيضًا.

- قال ياربن بجفاف: «أعلم».

- وأنت قزم أيضًا.

- هذا لا يمتُّ إلى القضية بِصلة.

- فلماذا إذن تخشى السناجيب؟ فعلى ما يبدو هم لا يقاتلون إلا البشر. قال مكتئبًا: «الأمر ليس بهذه البساطة. يا للأسف».

صمتتُ سيري طويلًا، وقد عضَّتْ على شفتها السفلى وقطبتْ أنفها.

قالت فجأة: «صرْتُ أعلم. السناجيب يقاتلون من أجل الحرية. وأنت، مع أنك من الأقزام، تعمل في الخدمة السرية الخاصة عند الملك هينسلت مشدودًا برسن للبشر».

شخر ياربن، ومسح أنفه بكمه، ثم انحنى إلى الأمام من المقعد، ليتحقق أكان فينك قد اقترب أكثر مما يلزم. لكنَّ المفوَّض كان بعيدًا، مشغولًا بالتحدث إلى جيرالت.

ابتسم ابتسامة عريضة: «سمعتُ حاد، يا بنت، كسمع المرموط. أنت أيضًا فطنة بعض الشيء إذا نظرنا إليك على أنك كائن مقدَّر عليه إنجاب الأطفال وطهو الطعام ونسج النسيج. يُخَيَّلُ إليك أنك تعرفين كل شيء؟ هذا لأنكِ صغيرة، يبقُ أنفك المخاط. لا تصطنعي تعابير غبية على وجهك. هذه التعابير لا تجعلكِ تبدين ناضجة، بل تجعلكِ أقبح من المعتاد. أعترف أنك فهمت سكويائتيل بسهولة، وأعجبتكِ الشعارات. هل تعرفين لماذا تفهمينهم جيدًا؟ لأن سكويائتيل هم أيضًا صبية، تبقُ أنوفهم المخاط. إنهم أغرار لا

يفهمون أنهم قد غرَّ بهم بأن أحداً ما يستغل حمقهم الصبياني، ويلقمهم الشعارات البراقة عن الحرية».

رفعتُ سيري رأسها ونظرت إلى القزم بعينين خضراوين مفتوحتين باتساع: «لكنهم حقاً يقاتلون من أجل الحرية. تماماً مثل حوريات الدرايدا في غابة بروكلون. يقتلون البشر لأن البشر... بعض البشر يؤذونهم. لأن هذه البلاد كانت بلادكم ذات يوم، بلاد الأقزام والإلفيين، وأولئك... الهوبيتيين والجنوم وغيرهم... والآن البشر موجودون هنا، لذا فالإلفيون...».

- الإلفيون! (شخر ياربن). توخَّياً للدقة، إنهم هنا بالضبط متشردون مثلكم تماماً، أيها البشر، مع أنهم وصلوا على متن سفنهم البيضاء قبلكم بألف عام ونيف. الآن يتدافعون في سباق من أجل الصداقة، الآن نحن إخوة، الآن يكشفون عن ضواحكهم ويتحدثون: «نحن المتأخين»، «نحن الناس القدماء». وفي الماضي، أبناء الشرم... هممم، هممم... هممم... في الماضي، كانت سهامهم تصفّر بالقرب من آذاننا عندما...

- هل الأقزام أول من كانوا في العالم؟

- الجنوم، إذا توخَّينا الدقة. وإذا كان المقصود هذا الجزء من العالم. فالعالم، يا سيري، كبير على نحو لا يمكن تصوره.

- أعلم. شاهدتُ الخريطة...

- لم يكن بإمكانك أن تشاهدها. فلم يرسم أحد مثل هذه الخريطة بعد، وأشكُّ في أن ذلك سيحدث عما قريب. لا أحد يعلم ما يوجد هناك، وراء جبال النار والبحر العظيم. حتى الإلفيون، مع أن هؤلاء يتفاخرون بأنهم يعلمون كل شيء. لا يعملون إلا الغائط، أقول لك.

- هممم... لكن الآن... أصلاً البشر عددهم أكبر بكثير من... منكم.

كرَّ القزم أسنانه: «لأنكم تتكاثرون كالأرانب. لا شيء، إلا أنكم تتناكحون دون توقف، دون اختيار، كيفما اتفق مع أي كان وحيثما كان. وتكتفي نساؤكم بالجلوس على فخذِي أي رجل كان لكي تكبر بطونهن... لم أحمرَّ وجهك هكذا، إلى درجة أن المرء سيخال أنك خشخاش منثور؟ أردت أن تفهمي، نعم أم لا؟ إذن فلديك الحقيقة الصادقة والتاريخ الموثوق للعالم، الذي يحكمه من يهشم جماجم الآخرين بمهارة أكبر وينفخ بطن النسوان بوتيرة أسرع. وأنتم البشر، من الصعب منافستكم سواء في القتل أو في التناكح...».

قال جيرالت ببرود، وهو يقترب منهم راكبًا على ظهر روش: «ياربن. فلتتأنَّ بعض الشيء في اختيار الكلمات، إذا تكرمت. وأنتِ، يا سيري، توقفي عن تمثيل دور الحوذي، وألقي نظرة على تريس، وتحققي أكانت مستيقظة، أو كانت تحتاج إلى شيء».

تكلمتِ الساحرة بصوت ضعيف من داخل العربة: «لقد استيقظتُ منذ وقت طويل. ولكنني لم أرغبُ في... مقاطعة هذه المحادثة المثيرة للاهتمام. لا تضايقهم، يا جيرالت. أودُّ أن... أعلم أكثر من ذلك عن تأثير التناكح في تطور المجتمعات».



- هل يمكنني تسخين بعض الماء؟ تريس تريد أن تغتسل.

وافق ياربن زيجرين: «سخنيه. كسافير، انزع السفود عن النار، فهذا يكفي أرنبنا. أعطني القدر يا سيري. أوه، يا للهول، إنها تكاد تفيض ماء! أنتِ نفسك جرجرتِ هذا الشيء الثقيل من الجدول؟».

- أنا قوية.

انفجر الأكبر سنًا من الإخوان داهلبرج ضاحكًا.

قال ياربن بجدية، وهو يقسم بمهارة القواع البني⁽¹⁾ إلى أجزاء: «لا تحكم من خلال المظاهر يا باولي. لا شيء يستدعي الضحك هنا. إنها نحيفة، لكنني أرى أنها بُنِيَّة قوية ومتينة. هي مثل الحزام الجلدي: يبدو رقيقًا ولكنك لن تتمكن من تمزيقه بيديك. وإذا غُلِّقَت عليه فسيتحمل أيضًا».

لم يضحك أحد. جثَّ سيري بجوار الأقزام المنتشرين حول النار. هذه المرة، أوقد ياربن زيجرين وأربعة من «أولاده» نارهم الخاصة في مُستراح المخيم، لأنهم لم ينووا تقسيم الأرنب الذي اصطاده كسافير موران بسهم. كان الأكل بالنسبة إليهم وحدهم يكفي لقضمة واحدة أو قضمتين على الأكثر.

قال ياربن وهو يلحق أصابعه: «ألقوا المزيد إلى النار. سيسخن الماء بوتيرة أسرع».

(1) القواع البني: الأرنب الأوروبي.

قال ريجان داهلبرج بحزم، وقد بصق عظمة: «بخصوص هذا الماء فهو غباء. الغُسل قد يضر بالمرضى. وبسليم الصحة أيضًا. تذكرون شرادر القديم؟ طلبتُ منه زوجته ذات مرة أن يغتسل، وتوفي شرادر بعد مدة وجيزة».

- لأن كلبًا مسعورًا عضه.

- لو لم يغتسل لما عضه الكلب.

نطقتُ سيرى وهي تتحقق من درجة حرارة الماء في القدر بإصبعها: «أنا أيضًا أظن أن الاغتسال في كل يوم أمر مبالغ فيه. لكن تريس تطلب ذلك، حتى إنها بكت ذات مرة... لذا جيرالت وأنا...».

أوما داهلبرج الأكبر برأسه: «نحن نعلم، لكن أن الويتشر... لا يمكنني أن أخرج من تحت تأثير العجب. هاه، زيجرين، لو كان لديك امرأة فهل كنت ستغسلها وتمشط شعرها؟ هل كنت ستحملها على يدك بين الشجيرات إذا اضطرتُ إلى...».

قاطعه ياربين: «أخرس، يا باولي. لا تقل شيئًا عن الويتشر، فهو رجل محترم».

- وهل أنا أقول؟ أنا أستغرب فقط...

تدخلتُ سيرى مشاكسة: «تريس ليست امرأته إطلاقًا».

- وهذا ما يجعلني أكثر استغرابًا.

اختتم ياربين: «هذا يعنى أنك صرتَ بهلوانًا أكثر غباء. سيرى، صبي بعض الماء في الماء الحامي، وسنغلي شرابًا للساحرة من الزعفران وبذور الخشخاش. أظن أنها كانت اليوم أفضل حالًا، ها؟».

تمتم يانك براس: «ربما. كان علينا أن نوقف القافلة من أجلها ست مرات فقط. أعلم أن رفض المساعدة على المسلك غير مسموح به، ومن يعتقد غير ذلك غبي. ومن رفض فهو سيد الغباء وابن عاهرة وضع. لكننا لا نزال عالقين في هذه الغابات مدةً طويلةً جدًّا، طويلةً جدًّا، أقول لكم. نحن نخاطر بمصايرنا، تبًّا، نخاطر بمصايرنا كثيرًا، يا شباب. لا أمان هنا. سكويائتيل...».

- ابصق هذه الكلمة بعيدًا، يا يانك.

- تفًا، تفًا. ياربين، القتال لا يخيفني، ونزف الدماء ليس أمرًا جديدًا عليّ، لكن... لو كان عليّ أن أقاتل قومي... اللعنة! لماذا نزل هذا الأمر على

- رؤوسنا؟ شحنة البراز هذه يجب أن يرافقها مائة فارس من البراز، وليس نحن! فلتأخذ الشياطين هؤلاء المتذاكين من أرد كارايغ، فليكونوا...
- اخرس، قلت لك. من الأفضل أن تعطيني قدر الجريش. فالأرنب، لا أم له، قد ازدردناه، والآن ينبغي لنا أن نأكل شيئاً. سيرى، هل ستأكلين معنا؟ - نعم، بالتأكيد.
- خلال هنيهة مطوّلة، لم يكن يسمع سوى صوت المضغ والتمطُّق واحتكاك الملاعق الخشبية التي تصطدم في القدر.
- قال باولي داهلبرج وتجشأ طويلاً: «تبّاً للوباء. لا أزال أرغب في المزيد من الأكل».
- أعلنت سيرى وتجشأت أيضاً، وكانت مبهورة بأداب سلوك الأقزام المتواضعة: «وأنا أيضاً».
- قال كسافير موران: «إلا الجريش. لقد صار الدخن ينبت في فمي. واللحم المملح أصبح يثير اشمئزازي أيضاً».
- إذن، قم والتهم العشب، إذا كان تذوّقك بمثل هذه الرقة.
- أو انزع لحاء القضببان بأسنانك. القنادس تفعل ذلك، وتحيا.
- لو كان لديّ قندس لأكلته.
- قال باولي حالماً وهو يقضم خبزة محمصة أخرجها من خلف بطانة صدريته: «وأنا أشتهي السمك، أقول لكم».
- فلنصطد السمك.
- زمجر يانيك براس: «أين؟ في أيكة الشجيرات؟».
- في جدول الماء.
- وأنا لديّ مثل هذا الجدول أيضاً. يمكنك التبول عليه حتى الضفة الأخرى. فأني سمك يمكن أن يكون فيه؟
- لعلت سيرى الملعقة ودستها في رقبة حذائها: «الأسماك موجودة هناك. رأيتهما عندما ذهبت لجلب الماء. لكن هذه الأسماك تبدو مريضة. على حراشفها طفح. بقع سود وحمراء...».

زَارَ باولي، باصقًا فتات الخبز المحمص: «السلمون المرقط! هيا، يا شباب، بسرعة البرق إلى الجدول! ريجان! اخلعُ سروالك! سنصنع شبكة على هيئة كيس من سروالك».

- ولماذا من سروالي؟

- اخلعه في لمح البصر، وإلا صفعتك، أيها العَجِيُّ الغِرُّ! ألم تقل أمك إن عليك أن تطيعني؟

قال ياربن: «أسرعوا إذا كنتم تريدون صيد السمك، فقد أوشك الظلام أن يحل. سيري، هل سخُنَ الماء؟. اتركه، اتركه، ستحرقين نفسك وتسخن القدر بالسخام. أعلم أنك قوية، لكن اسمحي لي، أنا سأحملها».

كان جيرالت في انتظارهم، ومن بعيد لمحوا شعره الأبيض بين نسيج لعربة المشمع المفتوح قليلًا. صبَّ القزم الماء في السطل.

- هل تحتاج إلى مساعدة أيها الويتشر؟

- لا، شكرًا لك، يا ياربن. سيري ستساعدني.

لم تعدُ تريس تعاني اشتدادَ حدة الحمى، لكنها كانت ضعيفة على نحو مرّوع. لقد اكتسب جيرالت وسيري مهارةً في تعريتها من ملابسها وغسلها، وتعلما أيضًا كبح اندفاعها الطموح، بل والعصي على التنفيذ حاليًا للاعتماد على نفسها وحدها. سارتُ أمورها ببراعة رائعة؛ هو يمسك الساحرة بين ذراعيه، وهي تغسلها وتنشفها. شيء واحد فقط بدأت سيري تستغربه وتنزعج منه؛ فقد كانت تريس، في رأيها، تعانق جيرالت بقوة أكثر من اللازم. حتى إنها حاولتُ خلال ذلك تقييله. أشار جيرالت بحركة من رأسه نحو خُرج الساحرة. فهمتُ سيري على الفور، فهذا كان أيضًا جزءًا من المراسيم المتبعة؛ فتريس كانت تتطلب دائمًا أن يُمشط شعرها. وجدتِ المشط وجثتُ بجانبها. أمالت تريس رأسها نحوها، واحتضنتِ الويتشر. كان ذلك، في رأي سيري، أكثر من اللازم بكل تأكيد.

نشجتُ: «أوه، جيرالت. أشعر بالأسف الشديد... يؤسفني كثيرًا أن ما حدث بيننا...».

- تريس، أرجوك.

- ...يجب أن يحدث... الآن. عندما أتعافى... سيكون الأمر مختلفًا تمامًا... سأستطيع... سأستطيع حتى...

- تريس.

- أنا أحسد ينيفر... أحسدها لأنك معها...

- سيرى، اخرجى.

- لكن...

- اخرجى أرجوك.

قفزت من العربة، نازلة مباشرة على ياربن، الذي كان ينتظر متكئا على العجلة، ويقضم في شرود ساقا من العشب طويلة مبرومة. طوقها القزم بذراعه. لم يكن عليه أن ينحني مثل جيرالت. فلم يكن أطول منها بتاتا.

تمتم مشيرا إلى العربة بعينه: «لا ترتكبي مثل هذا الخطأ أبدا، أيتها الويتشرية الصغيرة. إذا أظهر لك شخص الشفقة والتعاطف والتضحية، وإذا أثار العجب فيك بنزاهة شخصيته، فقدري ذلك، لكن لا تخلطي بينه وبين... شيء آخر».

- استراق السمع ليس أمرا حميدا.

- أعلم. وهو خطر. تمكنت بشق الأنفس أن أقفز مبتعدا عندما سكبت الماء الطافح بالصابون من السطل. تعالي، لنر كم من أسماك السلمون المرقط وقعت في سروال ريجان.

- ياربن؟

- ها؟

- أنا أودك.

- وأنا أودك أيضا، يا معزة.

- ولكنك قزم. وأنا لست كذلك.

- وما علاقة هذا... آها. سكويائتيل. تقصدين السناجيب، أليس كذلك؟ هذا الأمر يشغل بالك، ها؟

تحررت سيرى من تحت الذراع الثقيلة.

قالت: «ويشغل بالك أيضا. وبال الآخرين. إنى أرى ذلك فعلا».

صمت القزم.

- ياربن؟

- أسمعك.

- من منكم على حق؟ السناجيب أم أنتم؟ يريد جيرالت أن يكون... محايّدًا. أنت تخدم الملك هينسلت، مع أنك قزم. والفارس الذي كان في المحرس صرخ أن الجميع أعداؤنا وأن الجميع يجب أن... الجميع. حتى الأطفال. لماذا يا ياربن؟ من على حق؟

قال القزم بجهد: «لا أعلم. لم أفقد عقلي كله. أفعل ما أراه جيدًا. تمسك السناجيب بالسلاح، ومضوا إلى الغابة. يصرخون: البشر إلى البحر، دون أن يعلموا أن حتى هذا الشعار الالتفافي قد لقنهم إياه مبعوثو نيلفجارد السريون. لا يفهمون أن هذا الشعار ليس موجّهًا إليهم، بل إلى البشر تحديدًا، وأنه يهدف إلى إثارة كراهية البشر، وليس الحماسة القتالية في نفوس الإلفيين الشباب. أنا فهمت ذلك، ولهذا السبب أرى أن ما يفعله السكوياتيليون حمق إجرامي. حسنًا، ربما بعد بضع سنوات سيعلنونني بسبب ذلك خائنًا وختارًا، أما هم فسيسمونهم أبطالًا... إن تاريخنا، تاريخ عالمنا، يعرف مثل هذه الحالات».

سكت وراح يشعث لحيته. ظلّت سيرى صامتة أيضًا.

تمتم فجأة: «إليرينا... لو كانت إليرينا بطلة، إذا كان ما فعلته يسمى بطولة، فليكن، وليسموني خائنًا وجبانًا. فأنا ياربن زيجرين، الجبان والخائن والمارق، أقول إننا لا ينبغي لنا أن نقتل بعضنا. أقول إننا يجب أن نعيش. نعيش بطريقة لا نضطر فيها في وقت لاحق إلى أن نرجو من أحد المغفرة. إليرينا البطولية... اضطررت إلى ذلك. اغفروا لي، توسلت، اغفروا. تبًا للمائة شيطان! الموت أفضل للمرء من العيش مدرّكًا أنه فعل شيئًا يتطلب المغفرة». سكت مجددًا. لم تطرح سيرى أي سؤال كان يضغط على شفيتها. شعرت غريزيًا أنه لا ينبغي لها فعل ذلك.

تابع ياربن: «علينا أن نعيش جنبًا إلى جنب. نحن وأنتم البشر. ببساطة لا خيار آخر لنا. علمنا هذا الأمر منذ مائتي عام، وعملنا عليه منذ أكثر مائة عام. هل تريد أن تعلمي لماذا انضمت إلى الخدمة عند هينسلت، ولماذا اتخذت مثل هذا القرار؟ لا أستطيع أن أدع هذا العمل يذهب سدى. حاولنا خلال مائة عام ونيف أن نتوافق مع البشر. الهوبييتيون والجنوم ونحن حتى الإلفيون، فأنا لا أتحدث عن الجنيات والهوريات أو السيلفيدات، كلهم كانوا دائمًا متوحشين، حتى في ذلك الزمن الذي لم تكونوا فيه هنا إطلاقًا. تبًا للمائة

شيطان، قد استمر الأمر مائة عام، لكننا تمكّنًا بطريقة ما من تنسيق هذا العيش المشترك، العيش جنبًا إلى جنب، معًا، وأفلحنا في إقناع البشر بأننا لا نختلف بعضنا عن بعض إلا قليلاً جداً...».

- نحن لا يختلف بعضنا عن بعض إطلاقاً، يا ياربين.
استدار القزم فجأة.

كررتُ سيرتي: «نحن لا يختلف بعضنا عن بعض بتاتاً. إنك تفكر وتشعر مثل جيرالت. ومثل... مثلي. نأكل الطعام نفسه، من قدر واحدة. أنت تساعد تريس، وأنا أيضاً. كانت لك جدة وكانت لي جدة... جدتي قتلها النيلفجارديون. في سينترا».

قال القزم بمشقة: «وجدتي قتلها البشر. في بروجي. في أثناء المذبحة».



صاح أحد رجال فينك السائرين في الحرس المتقدم: «أيها الخيالة! أيها الخيالة من المقدمة!».

خبَّ المفوّض إلى عربة ياربين، واقترب جيرالت من الجهة الأخرى.

قال بحدة: «إلى الورا. انزلي من مقعد العربة وهيا إلى الورا. ابقي عند تريس».

- لا يمكن رؤية شيء من هناك!

زمجر ياربين: «لا تجادلي! هيا إلى الخلف، وعلى الفور! وأعطني الفأس. هي تحت معطف الجلد».

رفعت سيرتي شيئاً ثقيلاً ذا مظهر قبيح، يشبه المطرقة له خطاف حاد معوج قليلاً من نهاية طرفه الآخر: «هذه؟».

أكد القزم: «هذه».

ودس مقبض الفأس في رقبة حذائه، ووضع المطرقة في حجره. بدا فينك هادئاً ظاهرياً، نظر إلى الطريق، حاجباً عينيه بكفه.

قال بعد لحظة مقدّراً: «مسير خفيف من بان جلين، التي تُسمى بالراية الداكنة. أعرفها من خلال المعاطف والقبعات المصنوعة من جلد القندس. يُرجى الحفاظ على الهدوء. وعلى اليقظة أيضاً. المعاطف وقبعات جلد القندس تُغيّر أصحابها بسهولة كبيرة».

اقترب الخيالة بسرعة. كانوا عشرة أو ما يقارب ذلك. رأت سيرى باولي داهلبرج يضع على ركبتيه، في العربة التي خلفهم، قوسين نشابيتين مشدودتين، وكان ريجان يغطيها برداء فضفاض. خرجت بخفوت من تحت النسيج المشمّع، مختبئة لكن خلف ظهر ياربن العريض. حاولت تريس النهوض، فشتمت ووقعت على مضجعها.

صرخ أول الفرسان، ودون شك هو القائد: «قف! من أنتم؟ من أين، وإلى أين ذاهبون؟».

استقام فينك بهدوء على السرج: «ومن يسأل؟ وبأي حق؟».

- جيش الملك هينسلت، يا حضرة الفضولي! قائد العشرة زيفيك يسأل، وهو لم يعتد تكرار الأسئلة! لذا أطلب الجواب وبسرعة! من أنتم؟

- خدمة التموين للجيش الملكي.

- يمكن لأي شخص أن يقول ذلك! لا أرى أحدا هنا في الزي الملكي!

- اقترب يا قائد العشرة، وانظر بعناية إلى هذا الخاتم.

عبس الجندي المأجور: «لماذا تبرزون الخواتم هنا لتلمع أمامي؟ وهل أنا أعرف كل الخواتم، أم ماذا؟ أي شخص يمكنه أن يكون لديه مثل هذا الخاتم. العلامة أيضا مهمة بالنسبة إلي!».

وقف ياربن زيجرين على مقعد العربة، ورفع الفأس وبحركة سريعة وضعها تحت أنف الجندي.

زمجر: «وهذه العلامة، هل تعرفها؟ شمّها واحفظ روائحها في ذاكرتك».

شد قاد العشرة الزمام وأدار حصانه.

زأر: «هل تريدون إخافتي؟ أنا؟ أنا في الخدمة الملكية!».

قال فينك بصوت خفيض: «ونحن كذلك. وخدمتنا على الأرجح أطول عمرا من خدمتك. لا تضطرب أيها الجندي، أنصحك نصحا طيبا».

- أنا أقوم على الحراسة هنا! كيف أعلم أي أفراد أنتم؟

قال المفوض بامتعاض: «لقد رأيت الخاتم. وإذا لم تتعرف العلامة على الجوهرة، فسأستأصل أي فرد تكون. على مثلث الراية الداكنة يوجد الشعار نفسه، لذا ينبغي لك أن تعرف».

توقف الجندي عن الردود المتسريعة على نحو واضح، وكان ذلك بسبب التأثير الذي أحدثته، بقدر مماثل، كلمات فينك الهادئة والوجوه القائمة العنيدة التي كانت تطل من عربات الموكب.

قال مزحزحاً القبعة نحو أذنه اليسرى: «هممم... لا بأس. لكن إذا كنتم حقاً من تزعمون، فأتوقع ألا يكون لديكم مانع إذا نظرتُ ماذا تنقلون في العربات».

قطب فينك حاجبيه: «سيكون لدينا مانع. وأي مانع. لا شيء يخصك في حملتنا يا قائد العشرة. وأساساً أنا لا أفهم ما الذي تريد البحث عنه فيها».

أوماً الجندي برأسه مطلقاً يده نحو مقبض سيفه: «أنتم لا تفهمون القضية. لذا سأخبركم أيها السيد. الاتجار بالبشر محظور، لكن لا تخلو المنطقة من الأوغاد الذين يبيعون العبيد لنيلفجارد. إن وجدتُ أناساً مقيدين في مقطرات⁽¹⁾ في العربات، فلن تقنعوني أنكم في خدمة الملك. حتى ولو أظهرتم دسنة خواتم».

قال فينك بجفاف: «حسنًا. إذا كان الأمر يتعلق بالعبيد، فابحث عنهم. أسمح بذلك».

تقدم الجندي المأجور إلى العربة الوسطى بأبطأ مشي لحصانه، وانحنى على السرج ورفع النسيج المشمع.

- ماذا يوجد في هذه البراميل؟

تهكم يانيك براس، المستلقي على مقعد العربة: «وماذا يجب أن يكون؟ عبيد؟».

- إني أسأل، ماذا؟ لذا أجيبوا!

- سمك مملح.

وصل الجندي إلى المَرْكَبَة التالية وركل جانبيها: «وفي تلك الصناديق؟».

أجاب باولي داهلبرج بنزق: «حدوات خيل. وهناك، في الخلف، جلود جاموس».

لَوَّح قائد العشرة بيده، ثم سأسأ للحصان، ووصل إلى المقدمة فنظر إلى داخل عربة ياربين: «أرى».

- ومن تكون هذه المرأة المستلقية هناك؟

(1) مقطرة: أو دَهْق، هي آلة تقليدية استخدمت للإذلال والتعذيب. تتكون من لوحات خشبية كبيرة مع فتحات، تقوم عن طريق تقييد قدم واحدة.

ابتسمت تريس ميريجولد ابتسامة واهنة، ورفعت نفسها على مرفقها مؤدية بكفها إيماءة قصيرة وغامضة.

سألت بخفوت: «من؟ أنا؟ إنك لا تراني مطلقاً».

رمش الجندي باضطراب وارتجف قليلاً.

قال بقناعة وهو يُنزل قطعة النسيج المشمع: «سمك مملح. حسنًا. وهذه الطفلة؟».

قالت سيرى ناظرة إليه بوقاحة: «فطر مملح».

صمت الجندي وجمد في مكانه مفتوح الفم.

سأل بعد لحظة مقطباً جبهته: «كيف؟ ماذا؟».

أبدى فينك ببرود بعض الاهتمام، وقد اقترب آتياً من الجانب الآخر للعربة: «هل انتهيت من التفتيش أيها الجندي؟».

أزاح الجندي نظره عن عيني سيرى الخضراوين بجهد كبير.

- انتهيت. سيروا، ولتقودكم الآلهة. لكن احذروا. منذ يومين، وعند خانق الغُرير سحق قوم السكويائتيل دورية خيالة على بكرة أبيها. لقد كانت مجموعة مغاوير قوية وكبيرة العدد. صحيح، أن خانق الغُرير بعيد من هنا، لكنّ الإلفي يمشي خلال الغابة أسرع من الريح. لقد أمرنا بإغلاق المطاردة، لكنّ هل ستمكن من القبض على الإلفي؟ هذا يعني كأنك تريد أن تقبض على الريح...

قاطعه المفوض بفضاضة: «حسنًا، كفى ودّعنا من الفضول. الوقت يمضي، وأمامنا طريق طويلة».

- إذن رافقتكم السلامة. هيا ورائي!

زمجر ياربين زيجرين ناظرًا خلف الدورية المغادرة: «أسمعت يا جيرالت؟ السناجيب اللعينون موجودون في المنطقة. أحسست بذلك. أحسّ بالقشعريرة تسري على ظهري طوال الوقت، كما لو كان أحدهم صوّب قوسه إليّ ظهري. لا، تبّاً لدم الكلاب، لا يمكننا السير كما سرنا من قبل كيفما اتفق، نصفر ونغفو ونضרט ناعسين. يجب أن نعلم ماذا سنلقى أمامنا. اسمع، لديّ فكرة».



شدتُ سيري حصانها الكستنائي بحدة وانطلقتُ على الفور تعدو به،
منحنيةً انحناءً منخفضًا على السرج. استقام جيرالت فجأة، وكان غارقًا في
الحديث مع فينك.

صاح: «لا تفقدي عقلك! دعك من الحركات المجنونة يا بنت! أتريدين أن
تكسري عنقك؟ ولا تبتعدي كثيرًا...».

لم تعدُ تسمع المزيد، واندفعتُ إلى الأمام بحدة فائقة. لقد فعلتُ ذلك عمدًا؛
لم ترغبُ في الاستماع إلى الحُطَب التعليمية اليومية: ليس بسرعة كبيرة جدًّا،
وليس بحدة شديدة جدًّا، يا سيري!

أفُّ أفُّ. لا تبتعدي! بخ بخ. احذري! أفُّ أفُّ! فكَرْتُ: تمامًا كما لو كنتُ
طفلة. وأنا في الثالثة عشرة تقريبًا، لديَّ حصان كستنائي سريع وسيف قاطع
على ظهري. ولا أخشى شيئًا!

وحلَّ الربيع!

- هيه، كن حذرًا، ستحرق مؤخرتك!

ياربن زيجرين. شخص مُتذاكٍ آخر. أفُّ أفُّ!

قُدُمًا، قُدُمًا في العدو خلال الطريق الوعرة، خلال العشب المخضوضر
والشجيرات، خلال البرك الفضية، خلال الرمال الذهبية الرطبة، خلال
السراخس الريشية. يهرب الأيل الأسمر الوجل إلى الغابة، ويضيء في قفزاته
فانوسٌ خلفيته الأسود والأبيض. من الأشجار تنطلق الطيور محلقة؛ طيور
القيق والوروار الملونة، وطيور العقعق السوداء الصاخبة، ذوات الذيول
المضحكة. يتناثر الماء من تحت الحوافر في البرك والصدوع.

قُدُمًا وقُدُمًا! الحصان الذي ظل يمشي وثيدًا زمنًا طويلًا جدًّا خلف العربة،
ينطلق بفرح وسرعة سعيدًا باندفاعه، ويجري بسلاسة، عضلاته تتناغم
بإيقاعها بين فخذيه، وعرفه الرطب يضرب وجهه. يمد الحصان رقبتَه،
وسيري ترخي الزمام. قُدُمًا، أيها الحصان، لا تشعر بالشكيمة ولا باللجام،
قُدُمًا، عُدّوا، عُدّوا، شديداً، شديداً! الربيع!

تباطأتُ ونظرتُ إلى الوراء. حسنًا، أخيرًا صرْتُ وحدي. وأخيرًا صرْتُ
بعيدة. لن يوبخها أحد بعد الآن أو يعاتبها أو ينهها أو يهددها بأن هذه
الجولات ستنتهي. وأخيرًا صرْتُ وحدي، حرة، متحررةً ولست تابعةً.

أبطأ. خبب خفيف. وفي نهاية المطاف هذه ليست جولةً من أجل التسلية ذاتها، بل بدافع واجبات معيَّنة أيضًا. وفي المحصلة هي الآن عملية استطلاع، ودورية، وحماية للمقدمة. ها، راحت سيرى تفكر وهي ناظرة حولها، إن سلامة الموكب بأكمله تعتمد عليَّ الآن. الجميع ينتظر على أحر من الجمر أن أعود وأبلغ عن حضوري: الطريق فارغة وسالكة، لم أرَ أحدًا، لا آثار ولا عجلات ولا حوافر. سأبلغ عن حضوري، وعندئذٍ سيهزُّ السيد النحيف فينك ذو العينين الزرقاوين الباردتين رأسه بطريقة جدية، وسيكشف ياربن زيجرين عن أسنانه الصفرة الشبيهة بأسنان الحصان، وسيصرخ باولي داهلبرج: «هذا جيد، يا صغيرة!»، وسيبتسم جيرالت ابتسامة خفيفة. مع أنه أصبح نادرَ الابتسام في الآونة الأخيرة.

تتلقت سيرى حولها، وتدوّن في ذاكرتها. شجرتا قضبان ساقطتان - لا مشكلة. كومة من الأغصان - لا شيء، ستمرُّ العربات. الصدع الذي جرفه المطر - عقبة صغيرة، ستدعسه عجلات العربّة الأولى، وستمرُّ العجلات التالية عابرة الخُدد. فسحة شاسعة - مكان جيد للرعي...

آثار؟ أي آثار يمكن أن تكون هنا؟ لا أحد هنا. توجد غابة. توجد طيور تزعق بين الأوراق الخضر اللبانعة. ثعلب أحمر بني يجري على مهل خلال الطريق... وكل شيء يفوح برائحة الربيع.

ينقطع المسلك في منتصف الرابية، ويختفي في أخدود رملي، يمر تحت صنوبرات معوجة ملتصقة بالمنحدر. تترك سيرى الطريق وتتسلق جرفًا شديد الانحدار، راغبةً في إجمالة النظر في نواحي المِنطقة من علٍ. وكى تتمكن من لمس الأوراق الرطبة العطرة...

ترجلت، ووضعتُ الرسنَ على أرومة شجرة، وتمشّت ببطء بين العرعر الذي يغطي التل. لاحتُ على الجانب الآخر من الرابية مساحة مفتوحة، غائرة في الغابة الكثيفة مثل حفرة متأكلة؛ كانت على الأرجح أثرًا بعد حريق اشتعل هنا بجنون منذ زمن طويل، فلم يعد الرماد المسودُّ يُرى في أي بقعة، وكانت أشجار القضبان والتنوب القصيرة تملأ المكان كله اخضرارًا. على مد البصر، بدا الطريق فارغًا وسالكًا.

و آمنًا.

فكرت: مَمَّ يخافون. سكويائتيل؟ وما الذي يُخاف منه هنا؟ أنا لا أخاف الإلفيين. لم أفعل شيئاً لهم.

الإلفيون. السناجيب. سكويائتيل.

تمكنتُ سيرى، قبل أن يأمرها جيرالت بالمغادرة، من إلقاء نظرة على الجثث في المحرس. تذكرتُ واحدةً منها على نحو خاص، كان وجهها مغطى بشعر ممزوج بدم تحوّل لونه إلى بني، ورقبتها ملوية ومثنية على نحو غير طبيعي. كشفتُ عن أسنان شديدة البياض وشديدة الصغر وغير بشرية، وقد بدتُ شادة شفتها العليا بتكشيرة جامدة ومروّعة. تذكرتُ حذاء الإلفي البالي والمهترئ، الطويل حتى الركبتين، والمربوط من الأسفل، والمثبت في الأعلى بعدد من المشابك المعدنية. مكتبة سُر من قرأ

الإلفيون الذين يقتلون الناس، وهم أنفسهم يلقون حتفهم في القتال. يقول جيرالت على المرء أن يظل محايداً... ويقول ياربن عليه أن يتصرف بطريقة لا يُضطرُّ فيها إلى طلب المغفرة...

حفرتُ مكونةً كومةً مثل تلة الخلد، فتشتُ في الرمال بكعب حذائها، مستغرقةً في التفكير.

مَنْ ولمَنْ، لمنْ عليه أن يغفر وماذا عليه أن يغفر؟

السناجيب تقتل الناس. وتدفع لهم نيلفجاردُ مقابل ذلك. تستخدمهم. تحرضهم. نيلفجارد.

سيرى لم تنسَ، مع أنها أرادتُ بشدة أن تنسى. تنسى ما حدث في سينترا. التشرّد واليأس والخوف والجوع والألم. التبدّل والفتور اللذين جاءا في وقت متأخر، متأخر جداً، عندما عثر عليها وتبناها كهنة الدرويد من ما وراء النهر. تذكرتُ هذا كله كأنها كانت وسط الضباب، وقد أرادت التوقف عن التذكر.

لكنّ ذلك عاد مراراً. عاد في أفكارها وأحلامها. سينترا.

طققة خيول وصرخات متوحشة، جثث، حريق... وفارس أسود يرتدي خوذةً مجنحةً... ولاحقاً... أكواخ في ما وراء النهر... مدخنة محروقة بين الأنقاض والرماد... وبجانبتها، عند بئر لم تُمس، قطُّ أسود يلحق حرقاً رهيباً على جنبه. بئر... رافعة... دلو...

دلو مملئة بالدماء.

مسحتُ سيري وجهها، ونظرت إلى كفها متفاجئة. كانت كفها مبللة.
تنشقت البنية بأنفها وكفكت دموعها بكما.

الحياد؟ عدم الاكتراث؟ أرادت أن تصرخ. الويتشر الذي ينظر بغير مبالاة؟
لا! على الويتشر أن يدافع عن الناس. في وجه عفريت الغاب، ومصاص الدماء،
والمستذئب. وغيرهم. عليه أن يدافع عنهم ضد كل شر. وأنا في ما وراء النهر
رأيتُ ما الشر.

على الويتشر أن يدافع وينقذ. أن يدافع عن الرجال حتى لا يُعلقوا من
أيديهم على الأشجار أو يُوضَعوا على الخازوق. أن يدافع عن الفتيات ذوات
الشعر الأشقر كي لا تُوثَّق أيديهنَّ وأرجلهنَّ بين أوتاد مثبتة في الأرض. أن
يدافع عن الأطفال كي لا يُذبحوا ويُرموا في الآبار. وحتى القط المحروق في
حظيرة أُضرمَت بالنار تستحق أن يُدافع عنها. لهذا سأصبح ويتشرية، ولهذا
لديَّ سيف كي أَدافع عن مثل هؤلاء الذين من سوين ومن ما وراء النهر، لأنهم
لا يملكون سيوفًا، ولا يعرفون الخطو ونصف الدوران والمراوغات والدوران
على أصابع القدم، لم يُعلِّمهم أحد كيف يقاتلون، فهم لا حول لهم ولا قوة أمام
المستذئب والنهَّاب النيلفجاردي. إنني أعلِّم القتال. كي أتمكن من الدفاع عن
العزل المستضعفين. وسوف أفعل ذلك. دائمًا. لن أكون محايدة أبدًا. لن أكون
لامبالية أبدًا.

أبدًا!!

لم تكن تعرف ما الذي استرعى حذرها: أهو ذلك السكون المفاجئ
الذي نزل على الغابة كظل بارد، أم هي الحركة التي التقطتها بزاوية عينها.
لكنها استجابت بسرعة البرق، تلقائيًا، برد فعل اكتسبته وتعلمته في غابات
الصنوبر في ما وراء النهر، حينما كانت تسابق الموت في أثناء هروبها من
سينترا. وقعت على الأرض، زحفت تحت شجيرة عرعر وهمدت دون حراك.
فكرت: ليت الحصان لا يشرع بالصهيل.

من جديد، تحرك شيء ما على المنحدر المقابل للخانق، لمحت طيفًا
يظهر ويبهت بين أوراق الشجر. أطلَّ إلفي بحذر من بين الشجيرات. وبعد أن
ألقي عن رأسه قبعة سترته، تلفت حوله خلال لحظة، أصرغى ومن ثم انطلق
بسرعة على طول الخانق الصخري دون ضجيج. وتبعه اثنان آخران بزغا
من الأيكة. وبعد ذلك تحرك آخرون. كُثُر. في صف طويل واحدًا تلو الآخر. ما

يقرب من نصفهم كانوا ممتطين خيولاً، وكانوا يسرون ببطء، منتصبين في سروجهم، متوترين، يقظين. خلال لحظة رأت الجميع بوضوح ودقة عندما كانوا يتحركون في صمت تام على خلفية السماء، خلال فجوة ساطعة في جدار الأشجار، قبل أن يختفوا ويذوبوا في ظل الديسة الوامض. اختفوا دون دبيب أو حفيف مثل الأشباح. لم يقطع أي حصان ولم يشخر، ولم يتقصّف غصين تحت قدم أو حدوة. لم يقعع السلاح الذي كان متدلياً منهم.

اختفوا، لكنّ سيري لم تتحرك، استلقتْ على الأرض تحت شجرة العرعر، محاولة التنفس بأخفض صوت ممكن. كانت تعلم أن طيراً أو حيواناً فزعاً يمكن أن يخونها، والطير أو الحيوان يمكن أن يفزعه أي دبيب وأي حركة، حتى لو كانا الأصغر أو الأكثر حذراً. لم تنهض إلا عندما هدأت الغابة تماماً، وقععتْ طيور العقعق وسط الأشجار التي اختفى الإلفيون بينها.

وقفتْ لتجد نفسها مطوقةً بذراعين قويتين. سقط قفاز جلدي أسود على فمها، كتمتْ صرخة الذعر.

- لا تأتي بصوت.

- جيرالت؟

- قلتُ لا تأتي بصوت.

- هل رأيتَ؟

- رأيتُ.

همستُ: «إنهم هم... سكويائتيل. صحيح؟».

- صحيح. هيا بسرعة إلى الخيل. وانظري إلى ما تحت قدميك.

نزلا من التل بحذر وصمت، لكنهما لم يعودا إلى الطريق، وبقيتا في الأيكة. تَلَفَّتْ جيرالت حوله متيقظاً، لم يسمح لها بركوب الحصان بمفردها، لم يعطها رسنَ الكستنائي، بل قاده هو وحده.

قال فجأة: «سيري. ولا كلمة واحدة عن الذي رأيناه. لا لياربن ولا لفينك. ولا لأحد. تفهمين؟».

نبرتُ كلماتها خافضة رأسها: «لا. لا أفهم. لماذا عليّ أن أصمت؟ ينبغي تحذيرهم في الأساس. نحن مع مَنْ يا جيرالت؟ وضد مَنْ؟ مَنْ صديقنا وَمَنْ عدونا؟».

قال بعد لحظة صمت: «غداً سننفصل عن الموكب. لقد أوشكتُ تريس أن تتعافى. سنقول وداعاً ونذهب في طريقنا. وستكون لدينا مشكلاتنا الخاصة، وهمومنا الخاصة، وصعابنا الخاصة. عندئذٍ، أمل أن تتوقفي أخيراً عن محاولة تقسيم سكان عالمنا إلى أصدقاء وأعداء».

- وهل علينا أن نكون... محايدين؟ غير مباليين، أليس كذلك؟ وإذا اعتدوا...

- لن يعتدوا.

- وإن...

التفت إليها: «اسمعيني. ما تظنين، لماذا يرافق الأقزام وليس البشر هذه الشحنة الفائقة الأهمية، شحنة الذهب والفضة، وهي مساعدة الملك هينسلت السرية لأيديرن؟ لقد رأيتُ يوم أمس إلفياً يراقبنا من شجرة. سمعته حين مرّوا بجانب المخيم ليلاً. السكوياتيليون لن يهاجموا الأقزام، يا سيري».

تمتت: «ولكنهم هنا. موجودون. يحومون، ويحيطون بنا...».

- أعلم لماذا هم هنا. سأريك.

فجأة أدار حصانه ورمى الزمام إليها. وكزت الكستنائي بعقبها، وانطلقت أسرع فأسرع، ولكنه أمرها بإشارة بالبقاء خلفه. قطعاً المسلك ودخلا الأجمة مجدداً. الويتشر في المقدمة، وسيري تتبعه.

كلاهما ظل صامتاً. طويلاً.

أوقف جيرالت حصانه: «انظري. انظري يا سيري».

تنهدت: «ما هذا؟».

- شايراويد.

أمامهما، على مدى البعد الذي سمحت لهما الغابة برؤيته، تراكت كتل من الجرانيت والرخام، منحوتة بنعومة، ذات حافات مسطحة ومستديرة بفعل الرياح، مزينة بأشكال تأكلت بسبب الأمطار، وتشققت، وهشمها الصقيع، وقبعتها جذور الأشجار. وسط الجذوع سطعت بالبياض أعمدة محطمة، وأروقة مقنطرة، وبقايا أفاريز تشابكت مع اللبلاب، مغطاة بطبقة سميكة من الطحلب الأخضر.

- هنا كانت... قلعة؟

- قصر. الإلفيون لم يُشيدوا القلاع. ترَجَّلِي. الفَرَسَانِ لن يفلحا في السير وسط الركام.

- من دَمَّرَ هذا كله؟ البشر؟

- لا. هم. قبل أن يرحلوا.

- لماذا فعلوا ذلك؟

- كانوا يعلمون أنهم لن يعودوا إلى هنا. وكان ذلك بعد الصدام الثاني بينهم وبين البشر منذ أكثر من مائتي عام. قبله، إذا ما انسحبوا، تركوا المدن سالمة لم تمسّ. وقد بنى البشر منازلهم على أساسات عمائر الإلفيين. هكذا أنشئت نوفيجراد وأوكسينفورت وفيزيما وتريتوجور، وماريبور، وسيدارس. وسينترا.

- سينترا أيضًا؟

أكد بإيماءة من رأسه دون أن يرفع عينيه عن الأنقاض.

همست سيرى: «لقد رحلوا من هنا، ولكنهم يعودون الآن. لماذا؟».

- لإلقاء نظرة.

- على ماذا؟

دون أن ينطق بكلمة، وضع كفه على كتفها ودفعها قليلًا أمامه. قفزا من على الدرج الرخامي ونزلا ممسكين بشجر البندق المرنة التي كانت تبرز متجمعة من كل فجوة، ومن كل شق في الألواح المغطاة بالطحلب والمتشقة.

- هنا كان مركز القصر. قلبه. والنافورة.

استغربت وهي تنظر إلى أجمة كثيفة من جار الماء وجدوع القضبان البيض بين مجسمات وكتل لا شكل لها: «هنا؟ هنا؟ هنا لا يوجد شيء».

- تعالي.

كان لا بدَّ للجدول الذي يغذي النافورة بالماء أن يُغيَّر مجراه على نحو متكرر، وكان يغسل بصبر وباستمرار كتلَ الرخام وألواح الهيصم⁽¹⁾، التي انزاحت مشكلةً سدودًا ومحولةً التيار مجددًا إلى اتجاه آخر. ونتيجة لذلك، قطعتُ المِنطقة بأكملها بأفاجيج ضحلة. كانت المياه تتدفق بشلالات هنا

(1) الهيصم: حجر يسمى أيضًا البَسْنَر أو البَسْطَر أو المَرْمَر.

وهناك، على بقايا المباني غاسلة إياها من أوراق الشجر والرمال ونفايات النباتات؛ كان الرخام والفخار والفسيفساء في هذه الأماكن لا يزال ينضح لوناً ونضارة، كما لو ارتميا هنا منذ ثلاثة أيام، وليس منذ قرنين.

قفز جيرالت فوق الجدول ودخل بين بقايا الأعمدة. تبعته سيرى. وثباً من على الدرج المهدم ودخلاً حائلي رأسيهما تحت قوس رواق مقنطر سليم، مدفون نصفه في حاجز أرضي. توقف الويتشر وأشار بيده. تنهدت سيرى بصوت عالٍ.

من بين الأنقاض التي اصطبغت بلون الفخار المهشم نمت شجيرة ورد كبيرة، مكللة بعشرات من زهور ليلكية بيضاء غاية في الروعة. تلالأت قطرات الندى على البتلات، متوهجة كالفضة. التفت الشجيرة بأغصانها حول لوح كبير من الحجر الأبيض. ومن اللوح رنا إليهم وجه حزين جميل لم تغلج الأمطار الغزيرة والثلوج في طمس ملامحه الرقيقة والنبيلة ومحوها. وجه لم تغلج أزاميل الساطين الذين اقتلعوا من المنحوتات البارزة الحلي الذهبية والفسيفساء والأحجار الكريمة.

قال جيرالت بعد صمت طويل: «أيليرين».

همست سيرى وهي تمسك بيده: «إنها جميلة».

يبدو أن الويتشر لم يلاحظ ذلك. نظر إلى المنحوتة وكان بعيداً، بعيداً في عالم وزمان آخرين.

كرّر بعد لحظة: «أيليرين. يُطلق عليها الأقزام والبشر اسم إليرينا. قادتهم إلى القتال منذ مائتي عام. وكان شيوخ الإلفيين ضد ذلك. كانوا يعلمون ألا فرص لديهم. أنهم قد لا يستطيعون النهوض إثر الهزيمة. لقد أرادوا إنقاذ شعبهم، أرادوا البقاء أحياء. قرروا تدمير المدن والانسحاب إلى الجبال الموحشة المنيعة... والانتظار. الإلفيون يعمّرون طويلاً، يا سيرى. حسب مقاييسنا للوقت، فهم يكادون يكونون خالدين. بدا البشر لهم كأنهم شيء يمر كالجفاف، كالشتاء القاسي، كأفة جراد، بعده يأتي المطر والربيع وموسم جديد. أرادوا الانتظار. الصمود. قرروا تدمير المدن والقصور. وضمن ذلك أيضاً عزتهم؛ شايراويد الجميلة. لقد أرادوا البقاء أحياء، لكن إليرينا... إليرينا التقطت الشباب. أمسكوا بالسلاح وتبعوها إلى معركة يائسة أخيرة. ودّبخوا. دّبخوا دون رحمة».

ظلتُ سيري صامتةً، محدقةً إلى الوجه الجميل والميت.

تابع الويتشر بصوت خفيض: «لقد هلكوا واسمها على شفاههم. مكررين نداءها، وصرختها، هلكوا من أجل شايراويد. لأن شايراويد كانت رمزًا. هلكوا من أجل الحجر والرخام... ومن أجل أيليرين. تمامًا كما وعدتهم، لقوا حتفهم بكرامة وبطولة وشرف. لقد أنقذوا الشرف لكنهم فقدوا جنسهم، شعبهم، وحكموا عليهما بالفناء. هل تتذكرين ما قاله لك ياربِن؟ من يُهيمن على العالم، ومن يهلك؟ لقد شرح لك ذلك بوقاحة لكنْ بصدق. يعمّر الإلفيون طويلاً، لكنّ شبابهم هم وحدهم الذين ينعمون بالخصوبة، والشباب فقط هم من يمكنهم إنجاب ذرية. وجُلُّ الشباب الإلفي مضى من أجل إليرينا. من أجل أيليرين، من أجل الوردة البيضاء من شايراويد. ونحن نقف على أطلال قصرها، عند النافورة التي كان تستمع لخبرها في أوقات المساء. وهذه... هذه كانت زهورها».

ظلتُ سيري صامتةً. شدها جيرالت إليه واحتضنها.

- هل تعلمين الآن لماذا كان السكوياتيليون هنا، وهل تعلمين إلأم أرادوا أن ينظروا؟ وهل تفهمين أن جَزَر الشباب الإلفيين والأقزام مرة أخرى أمر لا يمكن السماح به؟ هل تفهمين أن من غير المسموح لي ولك أن تكون لنا يد في هذه المذبحة؟ هذه الورود تزهر طوال العام. ينبغي لها أن تفقد العناية بها، لكنها تبدو أجمل من ورود الحقائق التي ترعاها الأيدي. فلا يزال الإلفيون، يا سيري، يَفِدُون إلى شايراويد. إلفيون مختلفون. منهم أولئك الموتورون والحمقى الذين يرون في الحجر المتصدع رمزًا لهم. ومنهم أولئك العقلاء الذين يعدون تلك الزهور الخالدة، المتوالدة إلى الأبد، رمزهم. الإلفيون الذين يدركون أن هذه الشجيرة إن اقلّعت وأحرقت الأرض، فلن تتفتح ورود شايراويد بعد الآن أبدًا. هل تفهمين هذا؟

هزّت رأسها.

- هل تفهمين الآن ما الحياء، الذي يهزك كثيرًا؟ أن يكون المرء محايدًا لا يعني أن يكون غير مبالٍ، ودون إحساس. لا حاجة إلى قتل الشعور في نفسك. يكفي قتل الكراهية في نفسك. هل فهمت؟

همست: «نعم. الآن فهمتُ. جيرالت، أنا... أودُّ أن آخذ واحدة... واحدة من هذه الورود. للذكرى. هل يمكنني ذلك؟».

قال بعد لحظة تردد: «خذيها. خذيها لتتذكرني. هيا، فلنذهب. لنعد إلى القافلة».

ثبتتُ سيرى الوردة تحت أربطة سترتها. فجأةً صرخت بصوت خافت ورفعتُ يدها. سالت قطرات من الدم من إصبعها إلى راحة يدها.

- هل وخزتِ نفسك؟

همست البنية نازرة إلى الدم الذي غطى خط الحياة في كفها: «ياربن... فينك... باولي...».

- ماذا؟

صرختُ صرخةً ثاقبةً ليستُ بصوتها، ارتجفتُ بعنف ومسحتُ وجهها بساعدها: «تريس!».

- بسرعة، جيرالت! علينا... المساعدة! إلى الخيل، جيرالت!

- سيرى! ماذا بك؟

- إنهم يموتون!



انطلقتُ بالحصان جرياً وأذنها تكاد تلتصق برقبتة، وراحتُ تحتهُ بصرخاتٍ، ولكزاتٍ بعقبَيْها. تطايرتِ الرمال من الدرب الغابي من تحت الحوافر. من بعيد سمعتُ صراخاً واشتَمْتُ رائحة دخان.

اندفع من الاتجاه المعاكس نحوها حصانان يجزان خلفهما أحزمة خيل وزماماً وقضيباً لجرّ العربات مكسوراً. لم تكبحُ سيرى حصانها الكستنائي، بل مرّت جانباً بأقصى سرعة، فلامس رذاذ الرغوة وجهها. من خلفها، سمعتُ صهيل روث ولعنات جيرالت، الذي اضطرَّ إلى كبح الفرس.

بعد منعطف في الطريق، وجدتُ نفسها في فسحة غابية كبيرة.

كانتِ القافلة تحترق. طارتُ من الأجمة، مثل طيور نارية، سهام نحو العربات، مخترقة النسيج المشمع ومنغرسة في الألواح. انقضَّ السكوياتيليون مهاجمين وهم يهتفون ويصرخون.

سيرى، التي لم تعرّ صراخ جيرالت القادم من الخلف انتباهًا، وجهت حصانها مباشرة نحو أول عربتين المندفعتين إلى الأمام. كانت إحداها منقلبةً على جانبها، وقربها وقف ياربن زيجرين، وفي إحدى يديه فأس، وقوس نشابية في يده الأخرى. عند قدميه، رقدت هامة دون حراك، يضمها ثوب أزرق مرفوع إلى منتصف فخذيها...

- ترييبييس!

استقامت سيرى على السرج ولكزت الحصان بعقبها. استدار السكوياتيليون نحوها، ودوت السهام حول أذني الصبية. نترت رأسها دون أن تبطئ جريها. سمعت صراخ جيرالت يأمرها بالهروب إلى الغابة. لم تكن لديها نية للاستماع إليه. انحنّت وجرت مباشرة نحو الرماة الذين كانوا يرمونها بالسهام. أحسّت فجأة برائحة نفّاذة من الورد البيضاء المثبتة على سترتها.

- ترييبييس!

قفز الإلفيون متحاشين حصانها المندفع بسرعة. خبطت أحدهم خبطة خفيفة بالركاب. سمعت صفيحًا حادًا، فانتفض الحصان، وشخر وانعطف جانبًا. رأت سيرى سهمًا انغرس عميقًا أسفل الحارك، عند فخذها تمامًا. خطفت قدميها من الركابين، شدت نفسها وجثت على السرج، وارتدت بقوة وقفزت.

سقطت بخفة على هيكل العربة المنقلبة، وازنت يديها وقفزت مجددًا لتهبط ثانيةً ساقبها بجانب ياربن الذي كان يزأر ويلوح بفأسه. بجواره، في العربة الأخرى، كان باولي داهلبرج يقاتل، وريجان، مائلًا إلى الخلف ومثبتًا ساقبهِ على لوح، يكافح من أجل التحكم بالحصان والعربة. صهلت الخيول صهيلًا وحشيًا، وقرقعت بحوافرها، وراحت تشد قضيبَ الجر خوفًا من النار التي كانت تلتهم النسيج المشمع.

اندفعت نحو تريس المستلقية بين البراميل والصناديق المتناثرة، وأمسكت بملابسها وأخذت تجرها نحو العربة المنقلبة. تأوهت الساحرة ممسكةً رأسها من فوق أذنها. بجانب سيرى تمامًا، خبطت الحوافر فجأة، وشخرت الخيول؛ دفع اثنان من الإلفيين، وهما يلوحان بسيفيهما، ياربن الهائج المستشيط غضبًا، نحوها. دار القزم كالخزوف، وصدّ بفأسه الضربات المنهالة عليه برشاقة. سمعت سيرى لعناتٍ وأنين معدن متأوهٍ ورنينه.

انفصلتُ عربيةٌ محملةٌ أخرى عن القافلة المشتعلة، وجرتُ نحوهم مجرّرةً الدخان واللهب خلفها، نائرةً الخرق المحترقة. جمد الحوذي في مقعد العربية دون حراك، وكان يانيك براس واقفاً بجانبه، ومحافظاً بصعوبة على توازنه. أمسك الزمام بيد واحدة، وضرب باليد الأخرى إلفيين كانا يخبآن على جانبي العربية. أما السكويائتيلي الثالث، الذي أصبح في اندفاعه محاذياً حصاني العربية، فأمطر جانبيهما بالسهام سهماً تلو الآخر.

زأر ياربن وصوته يتعالى فوق الضجيج: «اقفز! اقفز! يا يانيك!».

رأْتُ سيري جيرالت ينقضُّ خبباً على العربية المسرعة، وبطعنة قصيرة متواضعة من سيفه، يكنس إلفياً واحداً من سرجه، أما فينك، الذي قفز من الجانب الآخر، فضرب الإلفي الثاني، ذاك الذي أطلق السهام على الخيول. أطلق يانيك الزمام وقفز إلى الأسفل مباشرة تحت حصان السكويائتيلي الثالث. وقف الإلفي على الركاب وضربه بسيفه. فسقط القزم. في تلك اللحظة تهاوت العربية المشتعلة بين المقاتلين فسحقتهم وشتتهم. تمكّنتُ سيري في اللحظة الأخيرة من سحب تريس عن حوافر الخيول المسعورة. انقسمتُ عارضة الجرح محدثةً دويّاً، اهتزتِ العربية وفقدتُ عجلة، وانقلبتُ نائرة الحمولة والألواح المحترقة في كل الجهات.

جرّتُ سيري الساحرة إلى موضع عربية ياربن المنقلبة. وقد ساعدها على ذلك باولي داهلبرج، الذي أصبح فجأةً بجانبها، وقد حماهما جيرالت دافعاً روش بينهم وبين السكويائتيليين المهاجمين. تحشّد جمعٌ حول العربية، سمعتُ سيري قعقة الشفرات، وصرخات، وشخير الخيول، قرقة الحوافر. كان الإلفيون يحيطون بياربن وفينك وجيرالت من كل الجهات، وقد قاتلوا كشياطين جُنّ جنونهم.

صدمتُ عربية ريجان المقاتلين فجأةً، وكان يتصارع على مقعد المَرْكبة مع هوبيتي كبير البطن، يرتدي سترَةً من فراء الوشق. كان الهوبيتي يجلس على ريجان ويجتهد محاولاً طعنه بسكين طويلة.

وثب ياربن بخفة إلى العربية وأمسك بالهوبيتي من مؤخر عنقه وقذف به جانباً. أطلق ريجان صرخةً خارقةً، أمسك بزمام الحصان، وساط الحصانين. اهتزتِ الحمولة، وتدحرجتِ العربية، وعلى الفور اكتسبتُ سرعة هائلة.

زأر ياربن: «دائرياً، يا ريجان! دائرياً! حول المكان!».

التفت المَرْكبة وتهاوت من جديد على الإلفيين مبعثرة إياهم. وثب أحدهم والتقط القمط الجبهي للحصان الأيمن لكنه لم يستطع التحكم فيه، فقد قذفه زخم السرعة تحت الحوافر والعجلات. سمعتُ سيري صرخة مروعة.

راح الإلفي الثاني، وهو يخب بجانبهم، يضرب بسيفه بكل عزم. مال ياربن متجنباً طعنة، رنّت الشفرة على الحلقة التي تثبت النسيج المشمّع، حمل زخم السرعة الإلفي إلى الأمام. فجأة تقوّس القزم ولوّح بيده بحدة. صرخ السكويائتيلي واستقام على سرجه وتهاوى على الأرض. لقد استقرت فأس بين لوحَي كتفه.

زأر ياربن وهو يلوح بفأسه: «هيا تعالوا يا أبناء العاهرات! ومن أيضاً؟ اجر دائرياً، يا ريجان! دائرياً!».

عوى ريجان كشخص مغضوب عليه، هازاً رأسه الدامي بعنف، وقد انثنى على مقعد المَرْكبة وسط صفير السهام، وراح يسوط الحصانين دونما رحمة. جرتِ العربة على دائرة ضيقة، مشكّلة حاجزاً متحرّكاً متفجّراً باللهب والدخان حول العربة المنقلبة، التي جرّت سيري إلى أسفلها الساحرة شبه الواعية والمصابة بكدمات.

ليس بعيداً عنهم، كان حصان فينك، الفحل الأشهب، يرقص. وكان فينك مقوساً ظهره، فرأى سيري الأرياش البيض لسهم يبرز من جنبه. وبالرغم من الجرح، قاتل بمهارة اثنين من الإلفيين المشاة هاجماه من الجانبين. أصابه سهم ثانٍ في ظهره أمام عيني سيري. هوى المفوّض ب صدره على عنق الحصان، لكنه ظل صامداً في السرج. هبّ باولي داهلبرج لنجدته.

بقيت سيري وحدها.

تناولت سيفها. شفرته، التي كانت في أثناء التدريبات تهتز قافزة من خلف ظهرها كالبرق، صار سحبها الآن غير ممكن بأي وسيلة كانت، استقرت وغاصت في الغمد كما يغوص الحديد في القار. في خضم الدوامة التي امتد غليانها إلى كل جانب، وفي ظل الحركات السريعة جداً والتي تكاد العين ألا تلتقطها، بدا السيف بطيئاً على نحو غير طبيعي وغريب، وخيّل إليها أن دهوراً ستمرّ قبل أن يُسحب بالكامل. اهتزت الأرض وارتعدت. أدركتُ سيري فجأة أن الأمر لم يكن من فعل الأرض. بل إنه من فعل ركبتيها.

جرجر باولي داهلبرج على الأرض فينك الجريح، وهو يهدد الإلفي الذي يهاجمه بالفأس. اندفعتُ روش بجانب العربية، واصطدم جيرالت بالإلفي. كان قد أضاع عُصابته في مكان ما، فراح شعره الأبيض يتطاير عند التسارع. علا صليل السيوف.

قفز السكويائتيلي الآخر، وهو من المشاة، من خلف العربية. ترك باولي فينك، استقام ولوّح بفأسه. وجمد.

كان يقف أمامه قزم يعتمر قبعةً مزينةً بذيل السنجاب، وله لحية سوداء مجدولة في ضفيرتين. تردّد باولي.

لم يتردّد ذو اللحية السوداء ولو ثانيةً واحدةً. ضرب بكلتا يديه. هدرتُ شفرة الفأس وهوت، فنفذت إلى الترقوة محدثةً فرقعةً شنيعةً. سقط باولي دون أنين، وعلى الفور، بدا الأمر كأن قوة الضربة كسرت تحته ركبتيه. صرختُ سيري.

وثب ياربن زيجرين من العربية. دار القزم ذو اللحية السوداء، وضرب. تجنب ياربن الضربة بمراوغة رشيقة بدوران نصفي، تأوّه وطعن طعنة مربعة من الأسفل جازًا اللحية السوداء والحنجرة والفك السفلي والوجه، وحتى الأنف. انتنى السكويائتيلي وهوى على ظهره نازفًا دمًا، وخابطًا بيديه، ومعفرًا عقبِي حذائه بالأرض.

صرختُ سيري، إذ أحسّتُ بحركة خلفها. أحسّتُ بالموت خلفها: «جيرالالت!».

لم يكن ذلك سوى شكل غير واضح، أدركته في أثناء الدوران، حركة وومضة، ولكن رد فعل الفتاة كان فوريًا، بصد الضربة جانبياً وبالمراوغة اللذين تعلمتهما في كاير مورهين. انتبهتُ إلى الضربة، لكنها وقفتُ غير واثقة إلى حد كبير، فقد كانت منحنيةً جانبًا أكثر مما يجب لاكتساب الزخم. ضغطتها قوة الضربة على هيكل العربية. وانزلق السيف من كفها.

تجهّمتُ الإلفية الجميلة ذات الأنف الطويل، والحذاء العالي، بقسوة، رفعتُ سيفها هازةً شعرها الذي تبعثر من تحت قبعتها المدفوعة إلى الخلف. سطع السيف سطوعًا يعمي البصر، وسطعتِ الأساور على معصمي السنجابة. لم تكنُ سيري قادرة على تحريك جسدها.

لكنَّ السيف لم يسقط ولم يضرب. فالإلفية لم تكن تنظر إليها، بل إلى الوردة البيضاء المثبتة على السترة.

صرخت السنجابة بصوت عالٍ، كأنها أرادت كسر التردد بهذه الصرخة: «أيليرين!».

لكنَّ الوقت لم يسعفها. ضربها جيرالت على صدرها بالسيف ضربةً مديدة، دافعاً سيرى بعيداً. تناثر الدم على وجه الصبية ولباسها، وغطت بقع حمر بتلات الوردة البيض.

تأوهت الإلفية تأوهاً مفاجئاً، وانزلقت جاثية على ركبتها. وقبل أن تسقط على وجهها، تمكنت من الصراخ مرة أخرى. بصوت عالٍ، مديد، يائس.

- شايراويييييبييد !



وكما اختفى الواقع فجأةً عاد فجأةً. بدأت سيرى تسمع الأصوات من خلال الطنين الرتيب المكتوم الذي ملأ أذنيها. وبدأت ترى الأحياء والأموات من خلال ستارة الدموع الوامضة والرطوبة.

همس جيرالت الجاثي بجوارها: «سيرى. استيقظي».

تأوهت وهي تجلس: «المعركة... جيرالت، ماذا...».

- لقد انتهى كل شيء. بفضل جيش بان جلين الذي جاءنا بالعون.

همست وقد أغمضت عينيها: «أنت لم تكن... لم تكن محايداً...».

- لم أكن. لكنك حيّة. وتريس حيّة.

- ماذا بها؟

- صُدم رأسها عندما سقطت من العربة التي جهد ياربين محاولاً إنقاذها.

لكنها الآن بخير. تُعالج الجرحى.

تلفتت سيرى حولها. بين دخان العربات التي لا تزال تحترق لاحت أطياف شخوص مسلحين. وارتمت حول المكان صناديق وبراميل. كان جزء منها مكسوراً ومحتوياته متناثرة. وهي حجارة حقلية رمادية عادية. نظرت إليها بدهشة.

صرّف ياربين زيجرين بأسنانه وكان واقفاً جنبهما: «العون لديماويند من

أيديرن. مساعدة سرية وملحة على نحو استثنائي. موكب ذو أهمية خاصة!».

- هذا كان فخاً؟

استدار القزم ونظر إليها، وإلى جيرالت. ثم نظر مجدداً إلى الحجارة المتساقطة من البراميل وبصق.

أكد: «نعم. فخ».

- للسناجيب؟

- لا.

صُفَّ القتلى في صف متساوٍ. وُضِعُوا بعضهم جنب بعض متراسين؛ الإلفيون والبشر والأقزام. بينهم كان يانيك براس. وكانت الإلفية ذات الشعر الداكن والحذاء العالي. والقزم ذو اللحية السوداء اللامعة جراء الدم المتخثر، المجدولة صفائر صغيرة. وبجوارهم...

انتحب ريجان داهلبرج، وهو يمسك برأس أخيه في حجره: «باولي! باولي! لماذا؟».

ظلوا صامتين. جميعهم. حتى هؤلاء الذين كانوا يعلمون لماذا. أدار ريجان نحوه وجهه المتجه الطافح بالدموع.

تأوه: «ماذا سأقول لأمي؟ ماذا سأقول لها؟».

ظلوا صامتين.

ليس بعيداً، محاطاً بجنود يرتدون ملابس سود ذهبية بألوان كايدفين، رقد فينك. كان يتنفس بمشقة، وكان كل زفير يقذف إلى شفثيه فقاعات مدماة. كانت تريس جاثية بجانبه، وفوقهم وقف فارس يرتدي درعاً لامعة.

سأل الفارس: «وماذا إذن؟ أيتها السيدة الساحرة؟ سيعيش؟».

وقفت تريس وزمت فمها: «لقد فعلتُ ما في وسعي. لكن...».

- ماذا؟

- لقد استخدموا هذا.

أرته سهماً غريب النصل، ضربت به البرميل الذي بجانبه. انقسم رأس السهم، تجزأ إلى أربع إبر شائكة معقوفة. أطلق الفارس شتيمة.

تكلم فينك بجهد: «فريدجار... فريدجار، استمع...».

قالت تريس بحدة: «ممنوع أن تتكلم! وأن تتحرك! التعويذة ستصمد بشق الأنفس!».

كزّر المفوّض. فقاعة الدم انفجرت على شفّتيه وتشكّلت محلها فقاعة أخرى على الفور: «فريدجار. لقد أخطأنا... كلنا أخطأنا. إنه ليس ياربن... ظننا به ظنوناً خاطئة... أنا أكفله. ياربن لم يخن.. لم يخ...».

صاح الفارس: «اصمت! اصمت، فيلفيد! هيه، بسرعة هاتوا نقالة إلى هنا! نقالة!».

قالت الساحرة بصوت مكتوم، ناظرة إلى شفّتي فينك اللتين لم تعد تتشكل عليهما الفقاعات: «لم يعد في حاجة إلى ذلك».

استدارت سيري وضغطت وجهها على جنب جيرالت.

استقام فريدجار. لم ينظر إليه ياربن زيجرين. نظر إلى الموتى. إلى ريجان داهلبرج، الذي لا يزال راکعاً فوق أخيه.

قال الفارس: «كان ذلك ضرورياً يا سيد زيجرين. إنها الحرب. أمرنا بذلك. كان علينا أن نتأكد...».

ظل ياربن صامتاً. خفض الفارس نظره.

همس: «اعذرونا».

أدار القزم رأسه ببطء ونظر إليه. وإلى جيرالت. وإلى سيري. إلى الجميع. البشر.

سأل بمرارة: «ماذا فعلتم بنا؟ ماذا فعلتم بنا؟ ماذا فعلتم... منا؟».

لم يجبه أحد.

كانت عينا الإللفية ذات الساقين الطويلتين لامعتين وكامدتين. على شفّتيها المعوجتين قد جمدت صرخة.

احتضن جيرالت سيري. فكاً من على سترتها، وبحركة متمهلة، الوردة البيضاء الملطخة ببقع داكنة، ودون أن ينبس بكلمة ألقى الزهرة على جسد السنجاجة.

همست سيري: «وداعاً. وداعاً يا وردة شايراويد. وداعاً و...».

أتم الويتشر: «وسامحينا».

إنهم يجولون في جميع أنحاء البلاد متطفلين ووقحين،
ويلقبون أنفسهم بصائدي الشر، وجزّاري المستذئبين،
ومدمري الأشباح، وهم يبتزون السّدج لإرغامهم على دفع
المال لهم، وبعد هذا الكسب الشائن، يواصلون التحرك
سعيًا إلى اقتراف عملية احتيال مماثلة في أقرب مكان ممكن.
وأسهل طريقة أمامهم تتمثل في الوصول إلى كوخ فلاح
نزيه ومسكين وجاهل ينسب بأريحية كل أصناف المصايب
والمصادفات السيئة إلى السحر والمخلوقات غير الطبيعية
والوحوش، وإلى عمل شيطان السحاب⁽¹⁾ أو الروح الشريرة.
بدلًا من الصلاة إلى الآلهة، بدلًا من تقديم قربان ثمين إلى
المعبد، فإن مثل هذا الساذج على استعداد لإعطاء آخر قرش
لأي ويتشر حقير، مصدقًا بأن الويتشر، ذاك المتحول الذي
لا يؤمن بالرب، سيفلح في أن يقلب مصيره ويجنبه المصايب.
كاتب مجهول، في وصف الوحش أو الويتشر

ليس لديّ أي شيء ضد معشر الويتشر. دعهم يصطادون
مصاصي الدماء. وليدفعوا الضرائب فحسب.

رادوفيد الثالث المقدام، ملك ريدانيا

إن اشتهيت العدالة، فاستأجر ويتشرًا.

كتابات على جدار كلية الحقوق

في جامعة أوكسينفورت

(1) شيطان السحاب: حسب الأساطير السلافية، هو مخلوق نصفه إنسان ونصفه شيطان، يحرك السحب في السماء ويُنزل المطر والبرد.

الفصل الخامس

- هل قلت شيئاً؟

تنشق الصبي بأنفه وأزاح عن جبهته القبعة المخملية الكبيرة جداً، المزيّنة بريشة طير التدرج، المعلقة من جانبها بطريقة منفرة.

كرّر السؤال ناظراً إلى عيني جيرالت الزرقاوين كالنيل: «أأنت فارس؟».

أجاب الويتشر مستغرباً من أنه لا يرغب في الإجابة: «لا. لست كذلك».

- لكن، لديك سيف! والدي فارس عند الملك فولتيس. لديه أيضاً سيف. أكبر من سيفك!

أسند جيرالت مرفقيه إلى عارضة الحاجز وبصق في الماء المائر خلف مؤخرة القارب.

لم يستسلم العجّي. وانزاحت القبعة إلى عينيه من جديد: «تحمله على ظهرك».

- ماذا؟

- السيف. على ظهرك. لماذا السيف على ظهرك؟

- لأنهم سرقوا مجدافي.

فغر العجّي فاه، مثيراً بذلك الإعجاب بالفجوات البديعة التي خلّفتها أسنانه اللبنية.

قال الويتشر: «ابتعد عن جانب القارب. وأغلق فمك، وإلا اقتحمه الذباب».

فتح الصبي فمه أوسع مما كان عليه.

زمررت والدّة العجي، وهي سيّدة نبيلة حسنة الملبس، وجرت الصبي من ياقة معطفه المصنوعة من فرو القندس: «شائب وأحمق! تعال هنا، يا إيفريت! قلت لك مرات عدّة ألا تخالط الدهماء!». .

تنهد جيرالت وهو ينظر إلى معالم الجُر والآجام التي كانت تبرز من بين ضباب الصباح. القارب المتناقل كسلحفاة، جرجر نفسه قدر السرعة المناسبة له، وهي سرعة السلحفاة، التي يملّوها تيار الدلتا المتكاسل. أغفى الركاب على أمتعتهم، وكان معظمهم تجارًا وقرويين.. فتح الويتشر للفاة من جديد، وعاد إلى رسالة سيرى.

...أنام في قاعة كبيرة تُسمى مهجع⁽¹⁾، وأقول لك إن سريري كبير جدًا. أنا عند البنات المتوسطات، عددنا اثنتا عشرة، لكن أكثر من تربطني بهنّ صداقات هن إبيرونيد وكاتيبي وإيولا الثانية. أما اليوم، فتناولت حساء الدجاج، والأسوأ من ذلك أنني أحيانًا أضطر إلى الصيام والاستيقاظ باكراً جدًا عند الفجر. أبكر مما كان في كاير مورهين. سأكتب ما تبقى غداً، لأننا بعد قليل سنؤدي الصلوات. لم يصل أحد في كاير مورهين قط، وأتساءل لم يا ترى عليهم أن يفعلوا هذا هنا. ربما لأننا في معبد.

جيرالت. الأم نينيكي قرأتها وطلبت ألا أكتب هذه الحمقات⁽²⁾ وأن أكتب بوضوح دونما أغلاط. وما أتعلمه وأنني بحال حسنة وصحتي جيدة. أنا بحال حسنة وإن صحتي جيدة، ويا للأسف أنا جائعة، ولكن الغداء سيحين قريبين⁽³⁾. وطلبت مني الأم نينيكي أيضًا أن أكتب أن الصلاة لم تؤذ أحدًا من قبل، لا أنا ولا أنت بكل تأكيد.

جيرالت، مجددًا لديّ وقت فراغ، لذا سأكتب أنني أتعلم. قراءة الحرف الروني الصحيح وكتابته. والتاريخ. والطبيعة. والشعر والنثر. والتعبير باللغة المشتركة وبكلام القدماء. أنا الأفضل في كلام القدماء، وبمقدوري أيضًا

(1) تكتب سيرى الحروف الأولى من بعض الكلمات كبيرة كما تُكتب الأسماء، فجعلنا تلك الكلمات غليظة الحروف لعدم وجود الحروف الكبيرة في لغتنا.

(2) تخطئ سيرى في كتابة كلمة «الحماقات».

(3) تقصد: قريبًا.

كتابة الحرف الروني القديم. سأكتب لك شيئاً، وسترى بنفسك. إالين بلاث، فيآنويد. ومعنى ذلك: الزهرة الجميلة، طفلة الشمس. ترى بنفسك أنني أقدر على ذلك. وأيضاً صار في وسعي الآن أن أكتب من جديد، لأنني وجدت ريشة جديدة فتلك القديمة انكسرت. قرأت الأم نينيكي ذلك وأثنت عليّ لأن الكتابة سليمة. ولأنني مطيعة، قالت لي أن أكتب ولكي لا تقلق. لا تقلق، يا جيرالت.

من جديد، أصبح لدي وقت، لذا سأكتب ما حدث. عندما كنا نطعم الديوك الرومية، أنا وإيولا وكاتيبي، هاجمنا ديك رومي كبير، وكانت رقبتة حمراء وكان فظيلاً مرعباً. في البداية هاجم إيولا ومن ثم أراد مهاجمتي، لكنني لم أخف لأنه كان على أي حال أصغر وأبطأ من النّواس. وراوغت ودرت على أصابع القدم وضربته مرتين بالعصا ففرّ. الأم نينيكي لا تسمح لي بحمل سيفي هنا، يا للخسارة، لأنني كنت سأري الديك الرومي هذا ما تعلمته في كاير مورهيّن. صرّت أعلم أن Caer a'Muirehen يجب أن تُكتب بطريقة صحيحة هكذا بالأحرف الرونية القديمة، وأنها تعني حصن البحر القديم. ولعل ذلك لأن في كل مكان هناك انطبعت آثار الأصداف والحلازين والأسماك في الحجارة. أما سينترا فتكتب بطريقة صحيحة كسيننتريا. وأما اسمي فأصله من زيريثيل لأنه يعني «سنونو»، وهذا يعني أن...

- أنتم تقرأون؟

رفع رأسه.

- أقرأ. وماذا؟ هل حدث شيء ما؟ هل لاحظ أحد شيئاً ما؟

أجاب الربان وهو يمسح يديه بسترته الجلدية: «لا، لا شيء. الماء هادئ. وثمة ضباب، وصرنا على مقربة من أجمة الغرائيق...».

- أعلم. هذه المرة السادسة التي أبحر فيها من هنا، يا بقّة⁽¹⁾، هذا دون احتساب مرات العودة. لقد تمكنت من تعرّف المسلك. عيناى مفتوحتان فلا تخف. هزّ الربان رأسه ومضى نحو القيدوم، تخطى حزم وصُّرر المسافرين المتراكمة في كل مكان. كانت الخيول المحشورة في وسط القارب تشخر وتخبط بحدواتها ألواح سطح السفينة. كانوا في منتصف التيار، وسط ضباب كثيف. والقارب يحرث بحيزومه تجمعات من زنابق الماء وتزيح كتلها جانباً. وعاد جيرالت إلى القراءة.

(1) بقّة: اسم البطل، وبالتحديد هو البق السابح مقلوباً على ظهره.

...وهذا يعني أن اسمي إلفي الأصل. ولكنني لست إلفية أساسًا. جيرالت، عندنا هنا أيضًا يتحدثون عن **السناجيب**. حتى إن الجيش في بعض الأحيان يأتي ويستجوب ويقول إن الجرحى الإلفيين يمنع علاجهم. وأنا لم أنبس لأحد ولا حتى بكلمة عما كان في الربيع، فلا تخف. وأتذكر أيضًا أن أتمرن، فلا تظن أنني لا أفعل. أذهب إلى الحديقة وأتدرب عندما يكون لدي وقت. لكن ليس دائمًا لأن عليّ أيضًا أن أعمل في المطبخ أو في البستان، مثل جميع الفتيات. والدروس عندنا أيضًا كثيرة إلى حد فظيع. لكن لا بأس، سأتعلم. وأنت أيضًا قد تعلمت في **المعبد**، أخبرتني بذلك الأم نينيكي. وقالت أيضًا إن أي مخبول يستطيع التلويح بالسيف، لكن الويتشرية يجب أن تكون عاقلة. جيرالت، لقد وعدت أنك ستأتي. فتعال.

سيرى التي لك.

ملاحظة: تعال، تعال.

ملاحظة ثانية. طلبت الأم نينيكي أن أكتب في **الختام الحمد لمليتيلى العظيمة**، ولتكن بركتها وتوفيقها معك دائمًا. وأن لا يصيبك مكروه.

سيرى

فكر وهو يخبئ الرسالة: وددت أن أمضي إلى إيلاندر، لكن الأمر خطر. فيمكن أن أقدم لهم إشارة تهديهم إلى أثرنا... وهذه الرسائل يجب أن تنتهي أيضًا. نينيكي تستخدم بريد الكهنة، لكن... اللعنة، هذا الأمر يُشكّل مخاطرة كبيرة جدًا.

- هممم... هممم...

- وماذا أيضًا يا بقّة؟ لقد تجاوزنا أجمة **الغرائيق** فعلًا.

تنهد الربان: «الحمد للآلهة، ودون وقوع أي حادث. ها، سيد جيرالت، الرحلة البحرية، كما أرى، ستكون هادئة من جديد. انظروا فقط، عندما يرتفع الضباب، وحين تبرز الشمس، سينتهي الخوف. الوحش الكبير لن يظهر في الشمس».

- لن يقلقني هذا الأمر إطلاقًا.

ابتسم بقَّة ابتسامة معوجَّة: «أظن أن الشركة تدفع لكم مقابل كل رحلة بحرية. وسواء حدث شيء ما أم لم يحدث، فالمال سيسقط في كيس النقود على أي حال؟».

- تسأل كأنك لا تعلم. ما هذا، أهو الحسد ينطق بلسانك؟ بأنني أكسب المال من خلال الوقوف متكئاً على جانب القارب، ومراقبة طيور الزقزاق؟ وأنت، مقابل ماذا يدفعون لك؟ مقابل الشيء نفسه. مقابل أنك على متن الفلوكة. عندما يسير كل شيء بسلاسة، فليس لديك ما تفعله، تتجول من قيدوم القارب إلى مؤخرته، وتكشف عن ضواحك للراكبات أو تحاول جذب التجار إلى الفودكا. وأنا أيضاً استؤجرت لأكون على متن المَرَكَب. تحسباً لأي طارئ. النقل آمن، لأن الويتشر برفقتكم. تكلفة الويتشر محتسبة في سعر النقل، أليس كذلك؟

تنهد الربان: «نعم، هذا صحيح، بالتأكيد».

- الشركة لن تخسر. أنا أعرفهم جيداً. هذه السنة الخامسة التي أبحر فيها لمصلحتهم خلال الدلتا، من بيانا إلى نوفيجراد، ومن نوفيجراد إلى بيانا. حسناً، فإذن إلى العمل يا سيد ويتشر. أنتم اتكنوا على جانب القارب، وأنا ماضٍ لأمشي من القيدوم إلى المؤخرة.

تضائل الضباب بعض الشيء. أخرج جيرالت من الحقيبة الرسالة الثانية، التي تسلمها منذ وقت قريب من مبعوث غريب الشكل. قرأ هذه الرسالة ما يقرب الثلاثين مرة. هذه الرسالة كانت تفوح منها رائحة اليلك وعنب الثعلب. صديقي الودود...

راح الويتشر يلعن بصوت خافت، وهو ينظر إلى الحروف الرونية الحادة والمتساوية والمزواة والمرسومة بضربات ريشة مفعمة بالحياة، والتي تعكس بحق مزاج من كتبته. أحسَّ مجدداً برغبة كبيرة في أن يجرب عضَّ مؤخرته من شدة الحَنَق. عندما اعتزم أن يكتب إلى الساحرة قبل شهر، قضى ليلتين متتاليتين يفكر كيف يبدأ. وأخيراً استقرَّ رأيه على أن يستهلَّ الرسالة بـ«صديقتي الودود». والآن حصد ما جنت يده.

صديقي الودود، لقد سررتُ بالغ السرور برسالتك غير المتوقَّعة، التي تلقيتها بعد ثلاث سنوات غير تامة منذ لقائنا الأخير. وكانت فرحتي أكبر

إذ إن شائعات مختلفة انتشرت عن موتك المفاجئ والعاجل. من الجيد أنك قررت دحضها من خلال الكتابة إليّ، ومن الجيد أيضًا أنك تفعل ذلك بهذه السرعة. يُستنتج من رسالتك أنك عشت حياة هادئة، مملّة على نحو لذيذ، وخالية من أي عوارض. ومثل هذه الحياة في زمننا هذا امتياز حقيقي، يا صديقي العزيز، وأشعر بالبهجة لأنك أفلحت في نيّله.

لقد حرّك شعوري الاهتمامُ المفاجئُ بصحتي الذي أردت أن تبديه، يا صديقي العزيز. أسارع إلى إخبارك، نعم، أشعر أنني بحال جيدة، إن فترة السوء التي عطلّنتني انقضت، وقد تدبّرت أمرَ متاعبي، ولا أريد أن يسبب وصفها الملل لك.

يقلقني ويشغل فكري كثيرًا أن الهبة غير المتوقعة التي تلقيتها من القدر تسبب لك الهموم. على فرض أن هذا الأمر يتطلب مساعدة مهنية، فأنت على صواب مطلق. مع أن وصف الصعوبة -وهذا مفهوم- غامض، فإنني واثقة من أنني أعرف مصدر المشكلة. وأتفق مع الرأي القائل بأن مساعدة ساحرة ثانية ضرورية مطلقة. أشعر بأنني شُرفْتُ بأنني كنت الثانية التي تلجأ إليها. فماذا فعلتُ لأستحق هذه المرتبة العالية جدًّا في القائمة؟

كن هادئًا، يا صديقي الودود، وإذا انتويتَ التقدّم بطلب العون من ساحرات إضافيات، فامتنع عن ذلك، فلا حاجة إليه. سأنتقل، دونما إبطاء، ماضية مباشرة إلى المكان الذي أشرت إليه بطريقة مستترة ولكنها مفهومة لي. طبعًا، سأنتقل بسرية تامة متوخية الحذر بكل وسائله. وسأدرك بعد وصولي طبيعة المشكلة وسأفعل ما أستطيع لتهدئة المصدر النابض. سأسعى في أثناء ذلك أن لا أظهر أسوأ حالًا من السيدات الأخريات اللاتي تقدمت أو تتقدم أو اعتدت التقدم إليهنّ بطلب رسمي. وأنا أصلًا صديقتك الودود. تهمني صداقتك الثمينة جدًّا بحيث لا يمكنني أن أخذلك، يا صديقي العزيز.

إذا رغبت في الكتابة لي في السنوات القليلة المقبلة، فلا تتردد ولو لحظة واحدة. أنا فرحة برسائلك فرحًا لا ينضب.

صديقتك ينيفر

فاحت من الرسالة رائحة الليلك وعنب الثعلب.
راح جيرالت يلعن.

ما أخرجه من شرود ذهنه العميق الحركة المفاجئة على سطح القارب وتأرجحه، اللذين يندران بتغير المسار. أحاط قسم من الركاب بالجانب الأيمن. هتف الربان بَقَّة بأوامر من جهة القيدوم، انعطف القارب ببطء وتمنَّع نحو الشاطئ التيميري، وانحدر من الطريق الملاحي، مفسحاً المجال لسفینتین خرجتا من الضباب. نظر الویتشر بفضول.

كانت سفينة غلياس أول من أبحر، وهي باخرة كبيرة ذات ثلاثة صواری، وطويلة بما يُقدَّر بسبعين قامة على الأقل، يرفرف عليها علم قطيفي اللون عليه عُقاب فضي. وخلفها انزلق قادس، مرقق البدن وأصغر حجماً، يعمل إيقاعياً بأربعين مجدافاً، ومزيناً بعلامة من روافد خشبية حمر ذهبية ضمن حقل أسود.

قال بَقَّة الواقف بجانب الویتشر: «أوه، يا لهما من تنينين ضخمين. إنهما يحرثان النهر حتى إن الموج يتقدم».

تمتم جيرالت: «هذا مثير. سفينة الغلياس تجري تحت العلم الريداني، والقارب من أيديرن».

أكد الربان: «من أيديرن، طبعاً. ويحمل راية الحاكم في هاجي. لكن انتبهوا، فكلتا السفینتین لهما بدن حاد القاع، بما يقارب قامتي غطس. وهذا يعني أنهما لا تبحران إلى هاجي نفسها، لأنهما لن يكون بمقدورهما عبور العتبات الصخرية والمناطق الضحلة المياه عند منبع النهر. فتبحران إلى بيانا أو الجسر الأبيض. وانظروا، يوجد كثير من الجند على سطحيهما. هم ليسوا تجاراً. وهما بارجتان حربيتان، يا سيد جيرالت».

- شخص مهم يسافر على متن سفينة الغلياس. لقد نصبوا خيمة على سطحها.

أوماً بقَّة برأسه، وهو يعبث بأسنانه بشظية انفصلت عن جانب القارب: «نعم، هكذا يسافر على القوم في زمننا الراهن. النهر آمنٌ. وحدات المغاوير الإلفية تهاجم في الغابات، لا يمكن معرفة من وراء أي شجرة سينطلق السهم. أما فوق الماء فلا خوف. الإلفي، مثل هذا القط، لا يحب الماء. ويفضل الجلوس في الأيكات المتشابكة...».

- لا بد أن يكون هذا الشخص مهماً حقاً. تبدو الخيمة مرفهة.

- نعم، قد يكون الأمر كذلك. ومن يدري، ربما يكون الملك فيزييمير نفسه قد شُرِفَ به النهر؟ الآن الناس من مختلف الأجناس يسافرون... وما دمنا الآن تطرقنا إلى هذا الأمر، فقد طلبتم مني في بيانا أن أفتح أذني لمعرفة أكان أحد ما يشعر بالفضول تجاهكم، أو أكان أحد ما يستفسر عنكم. ذاك هو الأخرق هناك، هل ترونه؟

- لا تشرُ بإصبعك، يا بقة. من يكون هذا؟

- وما أدراني؟ أسألوه أنتم، إنه قادم نحونا. انظروا كيف يترنح! والماء صاف كالمرآة، ولو أن الماء اضطرب قليلاً، لكان هذا الموبوء، الأخرق، سيحبو على الأرجح على أربع.

تبين أن هذا «الأخرق» كان رجلاً قصيراً ونحيفاً في عمر يصعب تحديده، يرتدي معطفاً صوفياً واسعاً وغير نظيف كثيراً، ومعقوداً ببروش نحاسي مدور. استبدلَ بدبوس البروش، الذي فُقدَ على ما يبدو، مسمارٌ معوجٌ ذو رأس مسطح. اقترب الرجل وتنحنح، وضيق عينيه قصيرتي النظر.

- هممم... هل شرفتُ بجيرالت من ريفيا، الويتشر؟

- نعم أيها السيد الفاضل. شرفتم.

- اسمحوا لي أن أقدم نفسي. أنا لينوس بيت، معلم مُجاز، مُحاضر في التاريخ الطبيعي في أكاديمية أوكسينفورت.

- تسرني معرفتك بالغ السرور.

- هممم... لقد قيل لي إن حضرتك تحمي النقل بتكليف من شركة مالاتيوس وجروك. وهي كما يفترض حماية من خطر التعرض لاعتداء يشنه وحش ما. وأتساءل أي وحش يقصدون؟

استند الويتشر إلى جانب القارب، ناظرًا إلى الخطوط العريضة القاتمة للغابات الرطبة النهرية التي تلوح في الضباب على شاطئ تيميريا: «أنا نفسي أتساءل عن ذلك. وأصل إلى استنتاج مفاده أن استئجاري كان بالأحرى تحسباً لهجوم قد تشنه وَحْدَةٌ مغاوير سكويائتيل التي تعيثُ فسادًا في المنطقة، على ما يبدو. وهذه المرة السادسة التي أسافر فيها بين بيانا ونوفيجراد، ولم يظهر أمامي سُرمان ولو مرةً واحدةً...».

- سُرمان؟ هذه تسمية شعبية. من الأفضل أن تستخدموا التسميات العلمية. هممم... سُرمان... أنا حقًا لا أعرف أي جنس تقصدون...
- أقصد وحشًا جلفًا وطويلاً إلى حد قامتين، يشبه جذع شجرة تغطيه الطحالب، وله عشر أرجل وفكَّان مثل منشارين.

- الوصف ينقصه الكثير من ناحية الدقة العلمية. هل يمكن أن يكون المقصود أحد الأنواع من فصيلة الهيفيديديات؟

تنهد جيرالت: «لا أستبعد ذلك. ما أعرفه عن السُرمان أنه ينحدر من فصيلة غاية في الوضاعة، وأي تسمية كانت لا تضير هذه الفصيلة. الأمر يتلخص، حضرة المعلم المُجاز، في أن أحد أفراد هذه الأسرة اللثيمة قد هاجم، على ما يبدو، قاربًا تابعًا للشركة قبل أسبوعين. هنا في الدلتا، ليس بعيدًا من المكان الذي نحن فيه بالتحديد».

ضحك لينوس بيت ضحكة فيها بحة: «لا يقول ذلك إلا جاهل أو كاذب. لا شيء من هذا القبيل يمكن أن يحدث. أعرف جيدًا أنواع حيوانات الدلتا. لا تعيش هنا فصيلة الهيفيديديات على الإطلاق. ولا أي نوع آخر مفترس وخطر إلى هذا الحد. المياه ذات ملوحة كبيرة وتركيب كيميائي غير نموذجي، خصوصًا عند ارتفاع المد...».

قاطعه جيرالت: «عند ارتفاع المد، حينما تمر موجة المد من خلال قنوات نوفيجراد، لا يكون الماء موجودًا في الدلتا إطلاقًا، بالمعنى الدقيق للكلمة. وما هو موجود سائل مكوّن من الفضلات ورغوة الصابون والزيت والجرذان النافقة».

أبدى المعلم المُجاز أساه: «يا للأسف، يا للأسف. التدهور البيئي... لن تصدقوا، لكن أكثر من ألفي نوع من الأسماك التي عاشت في هذا النهر قبل خمسين عامًا فقط، لم يبقَ منها إلا ما لا يزيد على تسعمائة. هذا محزن حقًا». اتكأ كلاهما على حاجز القارب، ونظرا في صمت إلى عمق الماء الأخضر العكر. قد بدأ المد، فرائحة الماء أخذت تشتد نتانة. ظهرت أول الجرذان النافقة.

قطع لينوس بيت الصمت: «انقرض القرش الأبيض الزعنفي تمامًا. واختفى الكيفال والأفعوان ذو الرؤوس والقيثاري والفيون المخطط والبنطوس والقوبيون طويل الشارب والمسفن الملكي...».

نفخ العالم شفتيه.

صرح: «ينبغي للافتراضات أن تستند إلى أسس علمية متينة، وليس إلى الأقاويل والإشاعات. قلتُ لكم إن الهيفيدرا التي تصرون على تسميتها بالسُرمان لا توجد في مياه الدلتا. لقد أُبيدَتْ منذ أكثر من نصف قرن، وأقول على الهامش، إن ذلك كان نتيجة لأفعال أشخاص مثلكم، مستعدين لقتل أي شيء يبدو غير جميل على الفور، دون طول تفكير، دون استقصاءات، دون مراقبة، دون أخذ الحاضنة البيئية في الحسبان».

راودت جيرالت خلال لحظة رغبة في أن يقول بصراحة أين يكون السُرمان وحاضنته، لكنه تراجع عما فكر فيه.

قال بهدوء: «حضرة السيد المُجاز. كانت من بين الذين سحبوا من سطح السفينة فتاة شابة حامل. أرادتُ تبريد قدميها المتورمتين في الماء. من الناحية النظرية، كان يمكن لطفلها أن يصبح يومًا ما رئيسًا لجامعتكم. ماذا تقولون في هذه المقاربة للبيئة؟».

- هذه مقاربة غير علمية وعاطفية وذاتية. الطبيعة تحكم نفسها بقوانينها الخاصة، ومع أن هذه القوانين قاسية ولا ترحم أحدًا، فلا فائدة تُرتجى من تصحيحها. إنها معركة وجود! (انحنى المعلم المُجاز فوق حاجز القارب وبصق في الماء) وإن إبادة الأجناس، حتى تلك المفترسة منها، لا يمكن تسويغه بأي شيء. ماذا ستقولون في هذا؟

- سأقول إن الانحناء إلى هذا الحد خطر. فقد يكون سرمان في الجوار. هل تريدون أن تختبروا بأنفسكم كيف يحارب السُرمان من أجل البقاء؟ خَلَى لينوس بيتَ الحاجزَ وقفز فجأة. شحب قليلًا، لكنه استعاد رباطة جأشه على الفور ونفخ شفتيه مجددًا.

- لعلمكم تعلمون الكثير عن تلك السُرمانات المذهلة، يا سيد ويتشر؟
- أقل مما تعلمون، ولا شك. لذلك ربما سنستفيد من هذه الفرصة؟ نوروني بعض الشيء، أيها المُجاز، امنحونا بعض المعرفة عن الحيوانات المفترسة المائية. سأسمعكم بكل سرور، وستصبح الرحلة أقل طولًا.

- تسخرون مني؟

- أبدًا، ولا في أي حال. أود حقًا سدَّ الثغرات في تعليمي.

- هممم... إذا كان ذلك حقيقياً... فلم لا. استمعوا إذن. فصيلة الهيفيديديات تنتمي إلى رتبة أمفيبودا، أي مزدوجات الأرجل، وتضم أربعة أنواع معروفة علمياً. يعيش اثنان منهما حصرياً في المياه الاستوائية. أما في مناخنا فيصاف، نادرًا جدًا حاليًا، وجود هيفيدرا لونجيكاور وأيضًا هيفيدرا مارجيناتا التي تبلغ قياسات أكبر قليلًا. إن المياه الراكدة، أو الجارية ببطء، هي الموئل الحيوي للنوعين. وهما من الأنواع المفترسة، التي تفضل التغذية بالمخلوقات من ذوات الدم الحار... هل لديكم ما تضيفونه؟

- الآن، لا. أستمع إليكم بفارغ الصبر.

- حسنًا، هممم... يمكن أيضًا العثور في الكتب على إشارات عن النوع الفرعي هيفيدرا الزائفة الذي يعيش في مياه المستنقعات في أنجوين. بيد أن العالم بومبلر من ألدربيرج قد أثبت منذ وقت قريب أنه نوع منفصل كليًا عن فصيلة المورديديات، أي العضاضات. يتغذى بالأسماك والبرمائيات الصغيرة حصراً. سُمي إختيوفوراكس بومبليري.

ابتسم الويتشر: «إنه وحش محظوظ. هذه هي المرة الثالثة التي يُعطى فيها اسمًا».

- كيف ذلك؟

- المخلوق الذي تحدث عنه هو وحش الماء جيريتفا، وفي لغة القدماء يُسمى سينيريا. وإذا أكد العالم بومبلر أنه يتغذى بالأسماك حصراً، فإنني أستنتج أنه لم يستحم قط في البحيرة التي تعيش فيها وحوش الماء. ولكن بومبلر محق في أمر واحد: إن للسينيريا قواسم مشتركة مع السُرمان، كقواسم المشتركة مع الثعلب. كلانا يحب أكل فراخ البط. أبدى المعلم المُجاز امتعاضه: «أي سينيريا؟ سينيريا مخلوق من الأساطير! في الحقيقة فإن جهلكم يُخيّب أُملي. إنني متفاجئ حقاً...».

قاطعه جيرالت: «أعلم. أنا أخسر كثيرًا عندما يتعرّفني أحدهم على نحو أقرب. ومع ذلك، سأسمح لنفسني ببضعة تصحيحات تالية لنظريتك، يا سيد بيت. وبعد، فإن السُرمانات عاشت دائماً في الدلتا ولا تزال تعيش. أجل، لقد تراءى في وقت ما أنها انقرضت. فهي كانت تتغذى بالفُقمات الصغيرة...».

صَحَّحَ المعلم المُجَاز: «بخنازير البحر النهرية القزمة. لا تكونوا من الجهلاء. لا تخلط بين الفُقمة و...».

- ... كانت تتغذى بخنازير البحر، وخنازير البحر أَهْلِكَتْ لشبهها بالفقمات. كان يُؤخذ منها فرو الفُقمة والدُّهن. وفي وقت لاحق، حُفرت القنوات عند منبع النهر، وبُنِيَتِ السدود والحواجز. ضعف التيار، واكتسح الطمي الدلتا فاكْتَسَتْ بالنبات. أما السُّرمان فأصابته طفرة. وتكَيَّفَ.

- هاه؟

- أعاد البشر بناء سلسلته الغذائية. واستقدموا المخلوقات ذوات الدم الحار لتحلَّ محلَّ خنازير البحر. بداية من نقل النعاج والماشية والخنازير خلال الدلتا. وبلّغ البصر، تعلّمتِ السُّرمانات أن كل قارب أو بارجة أو طوف أو فلوكة، تجري عابرة الدلتا، تعدُّ طبقًا كبيرًا من الطعام.

- والطفرة؟ لقد قلّتم شيئًا عن الطفرة!

أشار جيرالت إلى الماء الأخضر: «هذا الروث السائل يناسب، كما يبدو، السُّرمان. ويقوي النمو. وعلى ما يبدو فإن هذا اللعين يمكن أن يكون كبيرًا جدًّا إلى درجة أنه يستطيع دونما جهد أن يسحب بقرة من الطوف. إن سَحَبَ إنسان من سطح السفينة، هو أمر، بالنسبة إليه، أشبه ما يكون بالتسلية. وخصوصًا من أسطح هذه البوارج المفتوحة، التي تستخدمها الشركة لنقل الركاب. وأنتم ترون كيف يقبع هذا الشيء عميقًا في الماء».

تراجع المُجَاز سريعًا عن جانب القارب أبعد ما يمكن، وبقدْر ما سمحتْ به العربات والأمتعة.

لهث محدقًا إلى الضباب بين جزر الأجمات: «سمعتُ بقبقة! يا سيد وينتشر! سمعتُ...».

- بهدوء. إضافة إلى البقبقة، يمكن سماع صرير المجاديف في مساندها. إنهم رجال المكوس من الشاطئ الريداني. سترون، بعد قليل سيكونون هنا وسيُحدِثون اضطرابًا لا تستطيع ثلاثة أو حتى أربعة سرامين إحداثه.

جرى بَقَّة جانبًا. شتم شتمًا مُقَدِّعًا لأن الصبي المعتمر قبعة ذات ريشة تعثر بين قدميه. عاين الركاب والتجَّار ممتلكاتهم، وكانوا متوترين بشدة، وقد جهدوا في إخفاء المواد المهربة.

بعد لحظة وجيزة، ارتطمت سفينة كبيرة بجانب القارب، ووثبَ إلى سطحه أربعة أفراد سريعي الحركة، غاضبين وصاخبين صخبًا شديدًا. أحاطوا بالربان على شكل دائرة، وصرخوا منذرين بالشر، وحاولوا جاهدين إسباغ مظهر الأهمية على شخصياتهم ووظائفهم، ومن ثم انقضوا على أمتعة الركاب وممتلكاتهم بحماسة.

اشتكى بقَّة وهو يقترب من الويتشر والمعلم المجاز: «يفتشون وقبل أن نرسوا! هذه فوضى، أليس كذلك؟ إننا لم نطأ الأرض الريدانية بعد. ريدانيا تقع على الضفة اليمنى، على بعد نصف ميل من هنا!».

نفى المُجاز: «لا. الحدود بين ريدانيا وتيميريا تمتدُّ على طول منتصف تيار بونتار».

- وكيف، اللعنة على العواهر، يُقاس هنا التيار؟ هنا دلتا! أجمات وتفرعات جانبية وجزر تُغيّر مواقعها باستمرار، الممر المائي يختلف كل يوم عما قبله! يا للعقاب الإلهي! هيه! يا عجي! اتركْ هذا الخُطَّاف وإلا جعلتُ مؤخرتك مزرقَّة من الضرب! سيدتي الكريمة! فلتعتنوا بالطفل! يا للعقاب الإلهي!

- إيفريت! اتركْه وإلا اتسخت!

صاح رجال المكوس: «ماذا يوجد في هذا الصندوق؟ هيه، فكَّ لي هذه الصُرَّة! لمن هذه العربة؟ لديك عملة؟ عن العملة أسأل؟ نقود تيميرية أو نيلفجاردية؟».

علّق لينوس بيتْ على الفوضى، متظاهراً بالرضا: «هذا ما تبدو عليه حرب المكوس. فرض فيزيمير إدخالَ قانون التخزين على نوفيجراد. ردُّ فولتيست من تيميريا بقانون تخزين ثأري لا يرحم في فيزيميا وجورس فالين. وبه أصاب التجار الريدانيين بالضرر الشديد، لذا فقد زاد فيزيمير بحدة رسوم المكوس على المنتجات التيميرية. كي يحمي الاقتصاد الريداني. فقد غصَّت تيميريا بالسلع الرخيصة الآتية من المعامل النيلفجاردية. لذلك فإن جُباة المكوس هائجون بهذه الطريقة. ولو دخلتِ السلع النيلفجاردية خلال الحدود بكميات زائدة، فقد ينهار اقتصاد ريدانيا. يكاد ينعدم وجود المعامل في ريدانيا، ولن يتمكن الصناعيون من تحمل المنافسة».

ابتسم جيرالت: «باختصار. إن نيلفجارد تكسب ببطء، بالسلع والذهب، ما لم تكسبه بالسلاح. ألا تحمي تيمريا نفسها؟ لم يفرض فولتيست حصارًا على الحدود الجنوبية؟».

- كيف؟ البضائع تمرُّ خلال ماهاكام، خلال بروجي، خلال فيردن، خلال مواني سیدارس. بالنسبة إلى التجار، لا شيء مهم سوى الربح حصراً، لا السياسة. لو أغلق الملك فولتيست الحدود، لرفعَت النقابات التَّجارية صوتها بصراخ رهيب...

زمر الماكس، مقترباً منهم وعيناه محمرتان وغير حليق الوجه: «لديكم عملة؟ أي شيء لدفع المكوس؟».

- أنا رجل علم.

- ولتكونوا أميراً حتى! إنني أسأل ماذا تجلبون معكم؟

قال قائد المجموعة، وهو جابي مكوس طويل القامة، عريض المنكبين، وله شارب أسود طويل: «اتركهم، يا بوراتك. ألا تعرف الويتشر؟ مرحباً، يا جيرالت. هل هذا من معارفك؟ عالم؟ إذن، إلى أوكسينفورت، حضرة السيد؟ ودون أمتعة؟».

- فعلاً. إلى أوكسينفورت. ودون أمتعة.

أخرج جابي المكوس منديلًا كبيراً من كفه ومسح جبينه وشاربه ورقبته. سأل: «وكيف كان اليوم يا جيرالت؟ لم يظهر الوحش؟».

- لا. وأنت يا أولسن، لعلك رأيت شيئاً؟

- ليس لديّ الوقت للنظر حولي. أنا أعمل.

صرَّح إيفريت، وقد تسلَّل دون حس: «أبي فارس عند الملك فولتيست! ولديه شارب أكبر!».

قال له أولسن ومن ثم تنهد بمشقة: «اغربُ أيها الغرُّ. هل لديك القليل من الفودكا، يا جيرالت؟».

- لا.

فاجأ رجل العلم المنتمي إلى الأكاديمية الجميع، وهو يخرج من حقيبته قربة مسطحة: «أما أنا، فلديّ».

تفاخر بَقَّةً، وانحنى كأنه قد بزغ من تحت الأرض: «وأنا لديّ المقبلات. سمك بربوط مدخن!».

- وأبي...

- اغرب يا عجيّ.

جلسوا على لفائف الحبال في ظل إحدى العربات الواقفة في منتصف القارب، يتناوبون على كَرْع ما في القرية ويلتهمون البربوط. اضطرّ أولسن إلى تركهم لحظاتٍ، فقد نشبتُ مشاجرة. طالب تاجر قزم من ماهاكام بخفض قيمة المكوس، محاولاً إقناع المُكَّاس بأن الفراء المستورد لم يكن فراء ثعالب فضية، بل فراء قِطط عظيمة على نحو استثنائي. أما والدة إيفريت الفضولي والمتطفل فلم تكن تُريد بتاتاً أن تخضع للتفتيش، وهي تستند استناداً لا يتزعزع إلى منزلة زوجها وامتيازاته كنبيل.

تحركت السفينة ببطء خلال البرزخ الواسع بين الجزر النهرية المغطاة بالشجيرات، ساحبة لفائفَ زنايق الماء المنجرفة والنيونوفر والأعشاب البركية على طول جانب القارب. طُنَّ ذباب الخيل بين القصب طنيناً مخيفاً، وصفرت السلاحف. نظرتُ طيور البلشون إلى عمق الماء، وقد وقفت على ساق واحدة، بهدوء مطمئن، وكانت تعلم ألا فائدة من الهياج؛ فالسمكة عاجلاً أم آجلاً ستأتي سابحة وحدها.

نطق بَقَّةً لاعقاً جلد البربوط: «وماذا، يا سيد جيرالت؟ رحلة بحرية أخرى هادئة؟ أتعلمون ماذا سأقول لكم؟ هذا الوحش ليس غيباً. هو يعلم أنكم كمنتم له. كان عندنا في القرية، انتبهوا، نهر تعيش فيه قضاة، وإنها تسلت إلى الفناء وخنقت الدجاجات. وكانت مأكرة جداً لدرجة أنها لم تكن تأتي قطُّ إذا ما كان أبي أو كنت أنا وإخوتي في المنزل. كانت تتسلل فقط عندما يبقى جدي بمفرده وحيداً. وجدنا، انتبهوا، كان فهمه قد تضاعل بعض الشيء، ورجلاه أصابهما الشلل. كأنَّ القضاة، لا أمَّ لها، كانت تعلم ذلك. حسناً، أبونا ذات مرة كان...».

زعم تاجر قزم من وسط السفينة، ملوحاً بقطعة من جلد الثعلب: «عشرة في المائة حسب القيمة! هذا ما ينبغي دفعه ولن أدفع نحاسية واحدة أكثر!». زأر أولسن بغضب: «إذن سأصادر منكم كل شيء! وسأبلغ حرس نوفيجراد بذلك، وفي هذا الوقت سيُزجُّ بكم في السجن ومعكم عُملتكم هذه!

بوراتك، حصّل الرسوم حتى آخر قرش! هيه، هل أبقيتم شيئاً لي؟ ألم تتركوا القربة حتى الثمالة؟».

فسّح جيرالت له مكاناً على الحبال: «اجلس يا أولسن. عملك مشحون بالاضطراب، كما أرى».

تنهّد الماكس، ثم ارتشف رشفة من القربة ومسح شاربه: «أواه، لقد ضاق صدري من ذلك. سأترك كل هذا وألقي به إلى الجحيم، وأعود إلى أيديرن. فأنا فينجريري قُح، انجرتُ وراء أختي وصهري إلى ريدانيا، ولكنني الآن أعود بسرعة، أتعلم يا جيرالت، إنني أعتزم الالتحاق بالجيش. فعلى ما يبدو، قد أعلن الملك ديماوند التجنيد في الجيوش الخاصة. نصف عام من التدريب في المخيم، ثم يأتي الراتب، وهو أكثر بثلاث مرات مما يحصلون عليه هنا، حتى لو احتُسِبَت الرُشَى. هذه البرابيط مملحة كثيراً».

أكد بقّة: «قد سمعتُ بهذا الجيش الخاص. إنه يعدُّ للسناجيب، لأن الجيش الظنامي⁽¹⁾ لا يستطيع التعامل مع وحدات المغاوير الإلفية. إنهم يفضلون، كما سمعتُ، استجراز أنصاف الإلفيين إلى هناك. لكنّ هذا المعسكر، الذي يعلمون فيه فنون القتال، يشبه الجحيم حقاً. يخرجون من هناك نصفين، نصفهم من أجل الأجر، والنصف الآخر إلى مدافن رماد الموتى، محمولين في النعوش».

قال الماكس: «هذا ما يجب؛ جنود الجيش الخاص، أيها الربّان، ليسوا مجرد أي شيء. إنهم ليسوا كحَمَلَة التروس البائسين، الذين لا يفعلون شيئاً إلا إذا أريتهم بأي طرف من الرمح يضربون. يجب أن يكون الجيش الخاص قادراً على القتال إلى حد الإبهار!».

- هكذا هو المحارب الشرس، يا أولسن؟ والسناجيب ألا تخافهم؟ ألا تخاف أن يحشوا مؤخرتك بالسهام؟

- أوه واه! أنا أعرف أيضاً كيف يشد القوس. قد قاتلتُ ضدَّ نيلفجارد، فماذا يهمني أمر الإلفيين؟

ارتجف بقّة: «يقولون إن أحداً لو وقع حياً في أيديهم، هؤلاء السكويائتيليين... لتمنى أن أمه لم تلده. فكانوا سيعذبونه بقسوة».

(1) يقصد: النظامي.

- إيه، لو تغلق فمك، أيها الربان. إنك تثرثر مثل امرأة. الحرب هي الحرب. مرة، أنت تخبط العدو على مؤخرته، ومرة أخرى هو يخبطك. قومنا أيضاً لا يداعبون الإلفيين المقبوض عليهم، لا تخف.

ألقي لينوس بيت رأس البربوط وعمودَه الفقري إلى خارج القارب: «أساليب الإرهاب. العنف يُولّد العنف. لقد نما الحقد في القلوب وسَمّ الدماء المتآخية...».

تجهم أولسن: «ماذا؟ فلتتكلم بلسان بشري!».

- لقد حلّت الأوقات العصبية.

وافق بَقَّة: «نعم، الأمر كذلك. دون شك، سوف تقع حرب عظيمة. الغربان تطير في السماء بكثافة كل يوم، وصار واضحاً أنها تستشم رائحة الجيف. وقد تنبأت العرافة إتلينا بنهاية العالم. سيحلّ الضوء الأبيض، وبعد ذلك البرد الأبيض. أو العكس، لقد نسيْتُ كيف كان الأمر. ويقول البشر إن علامات كانت تُرى أيضاً في السماء...».

- أنت أيها الربان، انظر إلى الممر المائي بدلاً من النظر إلى السماء، وإلا جنحتُ سفينتك في المياه الضحلة. هاه، لقد أصبحنا في مجال أوكسينفورت. انظروا فقط، صار من الممكن رؤية البرميل!

تضائل الضباب على نحو ملحوظ حتى إنهم تمكنوا من رؤية الأجسام والمروج الرطبة على الضفة اليمنى، وجزء من القنطرة المائية المرتفعة فوقهم عالياً.

تفاخر المعلم المجاز، وقد تخلّى عن دوره في الشرب: «هذه، يا سادتي، محطة تجريبية لمعالجة المياه العادمة. إنه نجاح علمي عظيم، إنجاز عظيم للأكاديمية. لقد أصلحنا القنطرة المائية الإلفية القديمة والقنوات وخزان الترسيب، وقد شرعنا بتحييد المياه العادمة في الجامعة بأكملها وفي البلدة والقرى والمزارع المحيطة بها. هذا الذي تسمونه برميلاً هو بالضبط خزان الترسيب ذاته. نجاح علمي هائل...».

حدّره أولسن، مختبئاً خلف حافة جانب القارب: «اخفضوا رؤوسكم، نكسوا رؤوسكم. في السنة الفائتة، عندما انفجر ذا الشيء، تطاير البراز حتى وصل إلى أجمة الغرائيق».

جرى القارب بين الجزر، واختفى برج الخزان القصير المفلطح والقنطرة المائية في الضباب. تنفس الجميع الصُعداء.

سأل أولسن: «إنك لا تسير مباشرة بفرع أوكسنفورت النهرى، يا بقّة؟»
- سأبحر أولاً إلى خور الشُّرد. من أجل بائعي السمك والتجار من الجانب التيميري.

حكّ الماكس رقبتة: «هممم... إلى خور... حسناً، اسمع يا جيرالت، بالمناسبة أليست لديك خلافات، أو ما شابه، مع التيميريين؟»

- وماذا؟ هل ألحّ أحد في السؤال عني؟

- لقد حزرت. كما ترى، فأني أتذكر طلبك بتوخي الحذر إزاء أولئك الذين تثير فضولهم. إذن، فتخيل أن الحرس التيميري سأل عنك. أبلغني بذلك المُكَّاس المحليون، الذين تجمعني بهم صداقة. أشم هنا رائحة كريهة، يا جيرالت.

فزح لينوس بيت، وهو ينظر بوجل إلى القنطرة المائية والنجاح الهائل للعلم: «رائحة الماء؟»

أشار بقّة إلى إيفريت، الذي كان لا يزال يجول في الجوار: «رائحة هذا العجي؟»

عبس الماكس: «أنا لا أقصد هذا. اسمع يا جيرالت، قال المُكَّاس التيميريون إن هؤلاء الحرس طرحوا أسئلة غريبة. إنهم يعلمون أنك تبحر على متن قوارب ملاطبوس وجروك. سألو... هل تسافر وحدك؟ أم إنك تنقل معك... اللعنة على الشيطان، لا تضحك رجاء! كانوا يقصدون فتاة قاصراً، شوهدت على ما يبدو برفقتك».

ضحك بقّة ضحكة تشبه النقيق. نظر لينوس بيت إلى الويتشر نظرة مشبّعة بالنفور، نظرة تماثل تلك التي ينبغي أن يُحدق بها إلى الرجال ذوي الشعر الأبيض، الذين يثيرون اهتمام القانون تحت بند ميولهم نحو الفتيات القُصّر.

تنحج أولسن: «لهذا السبب أيضاً رأى المُكَّاس التيميريون أن الأمر على الأغلب هو حفلة خاصة. حسابات شخصية يجزّ شخص ما الحرس إليها. كما لو... حسناً، أهل الفتاة القاصر أو خطيبها. لذلك طرح المُكَّاس أسئلتهم

بحذر، ليعلموا من يقف وراء ذلك. وعَلِمُوا. هو من النبلاء إذن، ويبدو أنه يجيد الحديث كمستشار، وهو ليس بالفقير ولا بالبخل، ويطلب أن يُدعى بـ... رينس، أو شيء من هذا القبيل. له بقعة حمراء على خده الأيسر، كأنها أثر حرق. هل تعرف مثل هذا الشخص؟».

وقف جيرالت.

قال: «يا بقعة. سأنزل من سطح القارب في خور الشرذ».

- كيف ذلك؟ وماذا عن الوحش؟

- هذه مشكلتكم.

- قاطعه أولسن: «أما بخصوص المشكلة، ألا فانظرُ إلى جانب القارب الأيمن، يا جيرالت. هذا هو موضوع حديثنا».

من خلف الجزيرة، من الضباب الآخذ بالارتفاع بسرعة، بزغ زورق رفرفت راية سوداء على ساريته بتكاسل، تغطيها زنابق فضية. طاقمه مكوّن من عدة رجال يعتمرون قبعات الحرس التيميري الحادّة.

تناول جيرالت حقيبتة بسرعة وأخرج الرسالتين: تلك التي من سيرري، والتي من ينيفر. مزقهما بسرعة إلى قطع صغيرة وألقى بهما إلى النهر. راقبه الماكسُ بصمت.

- ماذا تفعل، هل يمكنني أن أعلم ذلك؟

- لا يمكنك. بقّة، اعتنِ بفرسي.

قطّب أولسن: «أنت تريد... أنت تعتزم...».

- ما اعتزم فعله شيء خاص بي. لا تورط نفسك فيه، وإلا سيقع حادث. إنهم يبجلون تحت العلم التيميري.

حرك الماكس سيفه الأبتري إلى مكان على الحزام يسهل الوصول إليه أكثر، ومسح بكمه القلادة المطلية بالمينا المزجّج، وعليها علامة العقاب في حقل أحمر: «سأنكح علمهم. عندما أكون أنا على متن القارب وأفتش، فإن ريدانيا هنا. لن أسمح...».

قاطعه الويتشر وهو يمسك بكمه: «أولسن. لا تتدخل، أرجوك. هذا المحروق وجهه ليس على متن الطراد. ويجب أن أعلم من هو وماذا يريد. يجب أن أراه».

- أسمح أن يأخذوك إلى المقطرة⁽¹⁾؟ لا تكن أبلة! إذا كان الأمر تصفية حسابات شخصية، وانتقامًا بتكليف خاص، فوراء الجزيرة، ستقذف حالًا إلى أعماق اللجة خارج القارب والمرساة على عنقك. وسترى، لكن ما ستراه ليس سوى جراد البحر في القاع!

- إنهم الحرس التيميري، وليسوا قطاع طرق.

- نعم؟ لكن انظر فقط إلى وجوههم! على أي حال، سأعرف بعد قليل من يكونون حقًا. سترى.

واقترب الطراد بسرعة حتى بلغ جانب القارب. ألقى أحد الحراس حبلًا، فيما ثبت الآخر خطافًا بحاجز القارب.

سدّ بقعة الطريق في وجه الأشخاص الثلاثة الذين وثبوا إلى متن القارب: «أنا الربان! هذه سفينة لشركة ملاطيس وجروك! ماذا هنا...».

دفعه أحد الأفراد بفضاظة بكتفه الغليظة كفرع سندية، وكان ممتلئ الجسم وأصلع.

أرعد وهو يقيس الربان بنظره: «المدعو جيرالد، الذي يُسمى جيرالد من ريفيا! هل يوجد مثل هذا الشخص على القارب؟».

- لا يوجد.

خطا الويتشر فوق الصُمر والحزم واقترب: «هذا أنا. أنا جيرالت، أُسمّى بجيرالت. ما الأمر؟».

- باسم القانون أنتم رهن الاعتقال (أجال الأصلع نظره في حشد المسافرين). أين الفتاة؟

- أنا وحدي.

- تكذب!

ظهر أولسن من خلف الويتشر، ووضع يده على كتفه: «لحظة، لحظة. بهدوء، دون صراخ. لقد تأخرتم أيها التيميريون. هو رهن الاعتقال فعلاً، وباسم القانون أيضًا. لقد قبضتُ عليه. بسبب التهريب. فحسب الأوامر، سأخذه إلى المحرس في أوكسينفورت».

(1) المقطرة: آلة استُخدمت لتنفيذ العقوبة البدنية والإذلال العام والتعذيب. تتكون من لوحات خشبية كبيرة مع فتحات، تقوم عن طريق تقييد قدم واحدة.

قطَّب الأصل: «وكيف هذا؟ والفتاة؟».

- لا فتاة هنا الآن ولم تكن من قبل.

نظر الحراس إلى بعضهم في صمت مريب. ابتسم أولسن ابتسامة عريضة، وبرم شاربه الأسود.

شخر: «هل تعلمون ما سنفعل؟ أبحروا معنا إلى أوكسينفورت، أيها التيميريون. نحن وأنتم أناس بسطاء، ما أدرانا بشؤون القانون؟ أمر محرس أوكسينفورت إنسان ليس غيبًا، وذو خبرة، وهو من سيحكم بيننا. إنكم تعرفون أمرنا، أليس كذلك؟ فهو يعرف جيدًا قائدكم من الخور. ستطرحون عليه قضيتكم... ستظهرون له الأمر والختم... وأنتم لديكم الأمر والأختام كما يلزم، هاه؟».

ظل الأصل صامتًا، وهو ينظر إلى الماكس بكآبة.

صرخ فجأة: «ليس لديّ الوقت أو الرغبة في الذهاب إلى أوكسينفورت! سأخذ هذا التافه إلى شاطئنا، وكفى! استران، فيتيك! هيا، عاينا لي القارب! أوجد الفتاة في لمح البصر!».

لم يهتم أولسن بالصراخ، ونبر كلماته متلفظًا ببطء وصرامة: «لحظة، مهلاً. أنتم على الجانب الريداني من الدلتا، أيها التيميريون. أليس لديكم ما تقدمونه لرسوم المكوس؟ أو أي بضائع محزورة⁽¹⁾؟ سنتحقق من ذلك بعد قليل. سنفتش. وإذا وجدنا شيئًا، فسيتعين عليكم الذهاب إلى أوكسينفورت هنيهة من الوقت. ونحن إذا أردنا شيئًا، وجدناه دائمًا. يا شباب! هلموا إلي!».

صاح إيفريت فجأة، وقد بزغ قرب الأصل كأنه انشق من العدم: «أبي فارس! ولديه سكين أكبر!».

أمسك به الأصل من ياقته القندسية بسرعة البرق، والتقطه من موضعه على سطح السفينة، مُسقطًا قبعته ذات الريشة. وضع مديّة على حلق الصبي مطوقًا بذراعه خصره.

زأر: «إلى الوراء! إلى الوراء، وإلا جززت رقبة العجبي!».

ولولت النبيلة: «إيفريبيبيبييت!».

(1) يقصد: المحظورة.

قال الويتشر ببطء: «أساليب مثيرة للاهتمام يستخدمها الحرس التيميري. حقًا إنها مثيرة لدرجة أن المرء لا يريد التصديق بأنهم حرس حقًا».

صرخ الأصلع، وهو يهز إيفريت، الذي كان يصأى كخنوص: «أغلق فمك! استران، فيتيك، خُذاه! مقيدًا وإلى الطرّاد! وأنتم، إلى الوراء! أسألكم: أين الفتاة؟ أعطوني إياها، وإلا ذبحتُ العجّي!».

نبر أولسن كلماته معطياً مُكّاسه إشارة، وقد استلّ سيفه: «هيا اذبحه. أهو ابني، أم ماذا؟ وحين تذبحه سنتحدث».

ألقي جيرالت سيفه على سطح السفينة، وأوقف المّكّاس وبحارة بقّة بإشارة منه: «لا تتدخل! أنا بين أيديكم، حضرة الحارس المزعوم. دع الطفل». تراجع الأصلع نحو جانب القارب دون أن يُطلق إيفريت، وأمسك بالحبال: «إلى الطرّاد. فيتيك، اربطه! وأنتم جميعًا إلى الوراء! إذا ما تحرك أحدكم، فإن الجرو سينفق!».

شخر أولسن: «هل جننتَ، يا جيرالت؟».

- لا تتدخل!

- إيفيريبيبييت!!!

تأرجح الطراد التيميري فجأة، وانقذف بعيدًا عن القارب. انفجرت المياه مصحوبة ببقبة عالية، وانطلقت منها يدان طويلتان خضراوان خشنتان، تغطيهما أشواك مثل أرجل السرعوف. أمسكتِ اليدانِ بالحارس ومعه خُطاف القارب، وفي غمضة عين سحبته تحت الماء. عوى الأصلع بتوحش، ترك إيفريت، وتشبث بالحبال المتدلية من جانب الطراد. غطس إيفريت في الماء الذي سرعان ما احمرّ. بدأ الجميع -أولئك الذين على القارب وهؤلاء الذين على الطرّاد- بالصراخ كمن مسّه الجن.

حرّر جيرالت نفسه من الحارسين اللذين حاولا ربطه. لكّم أحدهما على ذقنه وقذف به إلى خارج القارب. لوّح الثاني بخطاف حديدي نحوه، لكنه لان وتضعضع في قبضة أولسن، مع سيف الماكس الأبتري الذي انغرس حتى مقبضه تحت ضلوعه.

نقل الويتشر الحاجرَ القصيرَ من مكانه. قبل أن تنسد المياه التي تكاثفت فيها الأعشاب البحرية فوق رأسه، سمع أيضًا صراخ لينوس بيت، المحاضر في التاريخ الطبيعي بأكاديمية أوكسينفورت.

- ما هذا؟ أى نوع هذا؟ لا وجود لمثل هذه الحيوانات!

برز بجوار الطرّاد التيميري، متجنبًا بأعجوبة طعنة بالمنخس الذي أراد أحد رجال الأصلع أن يجرّه به. لم يسعف الوقت الحارس ليضرب من جديد، لطم الماء وفي حلقه سهم. ارتدّ جيرالت بساقيه عن جانب القارب، ممسكًا بالمنخس الملقى، وغاص في الدوّامة المتصاعدة، وطعن بقوة اندفاعه شيئًا ما، أملًا ألا يكون ذلك الشيء إيفريت.

سمع صراخ المُجاز: «هذا مستحيل! لا يمكن أن يكون مثل هذا الحيوان موجودًا! أو على الأقل لا ينبغي له أن يكون موجودًا!».

وأنا أتفق تمامًا مع هذه المقولة الأخيرة، ففكر الويتشر، وهو ينقر بالمنخس على درع السُرمان الصلبة المغطاة بالزوائد الغضروفية. تهززت جثة الحارس التيميري ببلادة بين فكي الوحش المنجليين، وقد تلطخت بالدم. لوَّح السُرمان بذيله المسطَّح بحدة، وغطس نحو القاع، محدثًا سُحبًا من الطمي.

سمع صرخة رقيقة. تشبث إيفريت المتخبط في الماء مثل كُليب صغير، بساقي الأصلع الذي جهد محاولاً تسلُّق الطرَّاد على الحبال المتدلية من الجانب. ارتختِ الحبال، واختفى الحارس والصبي كلاهما تحت سطح الماء تصحبهما بقبقة. اندفع جيرالت نحوهما وغطس. وحقيقة أنه أصاب بأصابعه ياقة الصبي القندسية على الفور تقريباً، لم تكن إلا مصادفة فحسب. أخرج إيفريت من شرك الأعشاب البحرية وسبح على ظهره، رافعا ساقيه، وبلغ القارب.

سمع زمجرةً وصراخًا يحجب كل منهما الآخر بالتبادل: «هنا، يا سيد جيرات! هنا! أعطني إياه! الحبل! امسك الحبل! حااااااألأ!!! الحبل! جيراااااالت! بالخطاف، بالخطاف! طفلييييييبي!».

شدَّ أحدهم الصبي من قبضته وجرحه إلى أعلى. وفي اللحظة نفسها أمسك به شخص من الخلف، وضربه على قذاله وغطاه بنفسه ودفعه تحت الماء. أطلق جيرالت المنخس، واستدار ثم أمسك بالمهاجم من حزامه. حاول

الإمساك به من شعره بيده الأخرى، لكنَّ لم ذلك لم يسفر عن شيء. لقد كان الرجل الأصلع.

طفا كلاهما فوق الماء لحظة واحدة فقط. كان الطراد التيميري قد ابتعد عن القارب، جيرالت والأصلع، مشتبكان بالقبضات، كانا في وسط الماء. أمسك الأصلع به من حلقة، فأدخل الويتشر إبهامه في عينه. صرخ الحارس ثم تركه وسبح مبتعدًا. لكنَّ جيرالت لم يتمكن من السباحة بعيدًا، فقد أمسك شيء بساقه وسحبه إلى الأسفل في العمق. تناثر بجانبه، على السطح، كالفلين جسم مقسوم نصفين. لقد عرف ما الذي أمسك به، أما ما أفاد به لينوس بيت، وهو يصرخ من على سطح القارب، فكان معدوم الفائدة.

- إنه من مفصليات الأرجل! من رتبة مزدوجات الأرجل! شعبة عظيما
الفك!

خبط جيرالت بيديه على الماء بحَنَق، محاولًا سحب ساقه من ملاقط
السُّرمان التي ما فتئت تشده نحو الفكين اللذين كانا يطبقان وينفتحان
بانتظام. كان المعلم المُجَارُ محقًا مرة أخرى. لم يكن الفكان صغيرين.
زأر أولسن: «التقطِ الحبل! الحبل هيا التقطه!».

فوق أذن الويتشر، صفَّر المنخس الذي رُمِيَ فانغرس مصحوبًا بدوي
في درع الوحش المغطاة بالطحالب. التقط جيرالت طرفه، وضغطه، ثم
دفعه بنفسه بقوة، نفخ ساقه الحرة وركل السُّرمان بعزم وزخم. تحرر من
اليدين الشائكتين، تاركًا بينهما إحدى نعليه والكثير من سرواله، وغير قليل
من الجلد. وأزَّت مناخسُ أخرى، وجِرابٌ مسنن في الهواء، لكنَّ معظمها أخطأ
هدفه. ضم السُّرمان يديه، ولَوَّح بذيله وغطس برشاقة في العمق الأخضر.

التقط جيرالت الحبل الذي سقط على وجهه مباشرة. خطاف القارب،
الذي جرح جنبه جرحًا مؤلمًا، شده من حزامه. شعر بشيء يسحبه، فصعد
إلى أعلى، تدرج فوق الحاجز وقد تلعفَّته أيادٍ كثيرة، وسقط على ألواح
سطح السفينة يقطر ماءً ووحلًا وعشبًا ودما. وتجمع بجواره الرِّكَّاب وطاقم
القارب والمكَّاس. وكان القزم ذو الفراء الثعلبي وأولسن يطلقان السهام
من قوسيهما، منحنيين خلف الحافة من جانب القارب. وكان إيفريت المبتلُّ
بالماء، والأخضر بسبب الطحالب، يصكُّ أسنانه وهو في حِضْن أمه، ويبكي
ويشرح للجميع أنه لم يرد ذلك.

- سيد جيرالت! (صرخ بقعة فوق أذنه) لعلكم أحياء؟

بصق الويتشر أعشابًا بحرية: «تبًا لدم الكلاب... لقد كبرتُ كثيرًا على مثل هذا كله... كبرتُ كثيرًا...».

بجانبه، أرخى القزم وترَ قوسه، وزأر أولسن بفرح.

- مباشرة في بطنه الكبير! ها ها ها! رمية رائعة، يا حضرة الفرّاء! هيه

بوراتك، أعدّ إليه المال! قد استحقّق بهذه الرمية أن يعفى من المكوس!

قال الويتشر بصوت مخنوق، محاولًا النهوض عبثًا: «توقفوا... لا تقتلوا الجميع، تبًا! يجب أن يكون لديّ أحدهم حيًّا».

أكد الماكس: «لقد أبقينا واحدًا منهم. ذاك الأصلع الذي كان يستفزني. رمينا البقية بالسهام. أما الأصلع، ها هو يسبح هناك. سأصطاده حاليًا. هاتوا الخطاطيف!».

صرخ لينوس بيت، وهو يقفز عند جانب القارب: «اكتشاف! اكتشاف عظيم! نوع جديد تمامًا غير معروف للعلم! فريد من نوعه دون منازع! آخ، كم أنا ممتن لكم، يا سيد ويتشر! من الآن فصاعدًا، سيُدْرَج هذا النوع في الكتب باسم... باسم جيرالتيا ماكسيليو سا بيتي!».

قال جيرالت متنهّدًا: «حضرة المُجاز. إذا كنتَ تريد حقًّا أن تظهر لي الامتنان... فليكن اسم هذا الشيء اللعين إيفيريتيا».

وافق العالم: «هذا رائع أيضًا. أوه، يا له من اكتشاف! يا له من عيّنة فريدة وبديعة! ربما هو الوحيد الذي يعيش في الدلتا...».

قال بقعة فجأة بتجهم: «لا. ليس الوحيد. انظروا!».

ارتجف بساط النينوفر الملاصق للجزيرة المجاورة، وتمايل فجأة. رأوا موجة، وبعد ذلك كتلة كبيرة ممدودة، تشبه جذعًا خمجًا، تتحرك بسرعة بأرجلها العدة وتصلّك فكيها. تلقّت الأصلع، وعوى عواءً مروّعًا وسبح محرّكًا الماء بيديه وقدميه.

دوّن بيت بسرعة، وقد تأثر إلى أقصى حد: «يا لها من عينة، يا لها من عينة. أرجل رأسية لاقطة، أربعة أزواج من الأرجل الفكية... مروحة ذيلية قوية... ملاقط حادة...».

تَلَفَّت الأُصْلَعُ مجدِّداً، وعوى عواءً أكثرَ ترويعاً. أما إيفيريتيا ماكسيلوسا بيتي فمدَّ أرجله الرأسيّة اللاقطة ولوّح بمروحته الذيلية بقوة كبرى. خبط الأُصْلَعُ محرّكاً الماء في محاولة مستميتة ويائسة للهرب.

قال أولسن، ولكنه لم يخلعُ قبعته: «ليكنِ الماء خفيفاً عليه».

كزَّ إيفريت أسنانه: «أبي يجيد السباحة أسرع من هذا السيد!».

هدر الويتشر: «خذوا الطفل من هنا».

فتح الوحش ملاقطه وطقطق بفكيه. شحب لينوس بيت واستدار.

صرخ الأُصْلَعُ صرخة قصيرة، انكتم واختفى تحت سطح الماء. وخفق الماء بحمرة داكنة.

جلس جيرالت على سطح القارب بمشقة: «تبّاً للوباء. لقد كبرتُ كثيراً على هذا... كبرتُ إلى أقصى حد...».



دون إطالة في الكلام؛ لقد عشق ياسكير بلدة أوكسينفورت بوضوح.

كانت مِنطَقَة الجامعة محاطةً بسور دائري، وحول السور كان طوق آخر؛ طوق البلدة الكبير والصاحب واللاهث والمزدحم والضاج بالأصوات. بلدة أوكسينفورت الخشبية الملونة ذات الأزقة الضيقة والأسقف الحادة. بلدة أوكسينفورت التي كانت تعيش بفضل الأكاديمية والطلاب والمحاضرين والعلماء والباحثين وضيوفهم، والتي كانت تعيش من العلم والمعرفة، وكل ما يصاحب عملية اكتساب المعرفة. فقد ولدت التطبيق العملي والتجارة والربح من النُفَایات وسقط النظريات في بلدة أوكسينفورت.

سار الشاعر ببطء ممتطياً حصانه في زقاق موحل ومزدحم، ماراً بورش ومشاعلاً ودكاكين ومتاجر وحوانیت، صنّع وبيع فيها، بفضل الأكاديمية، عشرات الآلاف من المنتجات والأشياء الرائعة، غير المتوفرة في أنحاء أخرى من العالم، التي عُدَّ إنتاجها في أنحاء العالم الأخرى مستحيلًا، أو لا جدوى منه. مر بمطاعم وحانات، وأكشاك، ومناضد، وأكواخ صغيرة من خشب، وسفود شواء متنقلة تنبعث منها رائحة لذيذة لأطعمة فاخرة غير معروفة في أنحاء العالم الأخرى، محضّرة بطرق غير معروفة في أماكن أخرى، مع إضافات وتوابل غير معروفة أو مستخدمة في أماكن أخرى. كانت هذه أوكسينفورت،

بلدة العجائب زاهية الألوان، والمبهجة والعاجّة بالحركة، والعاطرة التي تمكن أهلها الفطنون والمبادرون من تغيير النظرية الجافة التي لا طائلَ منها، والمستقاة شيئاً فشيئاً من الجامعة، إلى واقع ملموس. كانت أيضاً مدينة ترفيه ومهرجان أبديّ وعيد دائم وحفلاتٍ صاخبة لا تتوقف. كانت الأزقة، ليلاً ونهاراً، تضحُّ بالموسيقى والغناء وقرقعة الكؤوس والأكواب، ومن المعلوم ألا شيء يزيد من شدة الرغبة، كما تفعل عملية استيعاب المعرفة. مع أن قرار رئيس الجامعة كان يحظر الشرب والسُّكر، قبل حلول الظلام، على الطلبة والدارسين لنيل درجة الإجازة. كان الشرب والسُّكر في أوكسينفورت يحدث على مدار الساعة، ليلَ نهار، فمن المعروف أنه إذا كان ثمة شيء قد يزيد الرغبة على نحو أشد مما تفعله عملية استيعاب المعرفة، فهو الحظر الكامل أو الجزئي لبيع الكحول.

سأساً ياسكير لحصانه الخصيّ الأسود، وتابع سيره مخترقاً الحشد المتجول في الأزقة. كان الباعة وأصحاب الدكاكين والمحتالون المتجولون يعلنون بصوت صاحب السلع والخدمات، وبذلك يزدون من الفوضى التي تغمر المكان من كل الجهات.

- حبار! حبار مشوي!

- مرهم للبثور! فقط عندي أنا! مرهم موثوق وخيالي!

- قطط، مَصيدة، قطط سحرية! فقط استمعوا، أيها الناس الطيبون، كيف تموء!

- تائم! إكسير! مُنقيات الحُب، كاشم رومي⁽¹⁾، ومنشطات جنسية مضمونة! من قبصة واحدة، حتى الميت سيكتسب الهمة! من يشتري، مَنْ؟

- أقلع الأسنان دون ألم تقريباً! بثمان رخيص، رخيص!

أثار ذلك اهتمام ياسكير، وهو ينهش حباراً مغروساً على عود، وكان صلباً كمقدمة النعل: «ما الشيء الرخيص؟».

- فضيتان مقابل ساعة من الزمن!

(1) نبات يُعَدُّ، حسب المعتقدات الشعبية، منشطاً جنسياً.

ارتجف الشاعر، ووكز حصانه الخصي بعقبه. تَلَفَّتْ خلسة. توقف عند محل الحلاقة شخصان سارا في إثره من مبنى البلدية، وتظاهرا بالاهتمام بأسعار خِدْمَات الحلاقة، المكتوبة بالطبشور على لوح خشبي. لم ينخدع ياسكير. كان يعلم ما الذي يثير اهتمامهم في الحقيقة!

واصل سيره. تجاوز مبنى الماخور الكبير «تحت برعم الورد»، حيث تُقَدَّم، كما كان يعلم، خِدْمَات راقية، غير معروفة، أو غير منتشرة في أنحاء العالم الأخرى. كان تعقله يتصارع أحياناً مع رغبته لكي يدخل ويقضي هناك ساعة. لقد انتصر العقل. تنهد ياسكير واتجه صوب الجامعة، محاولاً ألا ينظر نحو الخِمَارَات التي انبعثت منها أصوات التسالي البهيجة.

أجل، ودون إطالة في الكلام؛ لقد عشق الشاعر بلدة أوكسينفورت.

تَلَفَّتْ من جديد. لم يشأ كلا الشخصين الاستفادة من خِدْمَات الحلاق، مع أنه تحتم عليهما فعل ذلك. وقفا الآن بجوار دكان للآلات الموسيقية، متظاهرين بأنهما مهتمان بآلات الأكرينا⁽¹⁾ الفخارية. بدا البائع أنه يبذل قُصَارَى جهده، وكان يمتدح البضائع، معوّلاً على أن يكسب بعض المال. كان ياسكير يعلم ألا شيء يمكن أن يعوّل عليه.

وجّه حصانه نحو باب الفلاسفة، البوابة الرئيسة للأكاديمية. سوّى بسرعة الإجراءات الشكلية المتمثلة بكتابة اسمه في سجل الأضياف، وتسليم الخصي إلى الإصطبل.

استقبله عالم آخر خلف باب الفلاسفة. كانت مِنطَقَة الجامعة منفصلة عن عمران المدينة العادي، ولم تكن، كما كانت البلدة، ساحة لقتال ضارٍ من أجل كل شبر من مساحتها؛ كل شيء هنا يكاد يكون كما تركه الإلفيون. الطرق العريضة المغطاة بالحصى الملون بين القصور الصغيرة الأنيقة، التي تسر الأعين، والأسوجة المخرمة، والجدران، والأسوجة النباتية، والقنوات، والجسور، والأحواض والحدائق الخضراء لم تكن محجوبة، إلا في أماكن قليلة، بصرح كبير غير مكسو، أكمل بناؤه في وقت متأخر، في حِقْبة ما بعد الإلفيين. ساد الهدوء والنظافة والجلال في كل مكان؛ وقد حُظِر هنا أي شكل من أشكال التجارة والخِدْمَات المدفوعة، فضلاً عن الترفيه أو اللذّات الجسدية.

(1) الأكرينا: آلة موسيقية من آلات النفخ.

كان الطلبة يتمشون في دروب الحديقة، غارقين في الكتب والرُّقاع. وآخرون كانوا يتحادثون عن المحاضرات التي قُدمت لهم، يجلسون على الأرائك ومصاطب الأعشاب وأحواض الزهور، ويتناقشون أو يلعبون خفية لعبة الفرد والزوج، أو «التيس»، أو «الكومة»، أو غيرها من الألعاب التي تتطلب الذكاء. وكان الأساتذة أيضًا يتمشون هنا بجلال واعتبار، غارقين في محادثات ومناقشات. وكان المُجازون الأصغر سنًا يحومون وأعينهم مثبتة على أليات الطالبات. أكد ياسكير بسعادة أن الأكاديمية لم يتغير فيها شيء منذ أيامه الخوالي.

هبَّت ريح من الدلتا، حاملةً رائحة البحر الخفيفة ونتاجة كبريتيد الهيدروجين الأقوى قليلًا، من اتجاه مبنى قسم الكيمياء البديع، المطل على القناة من علٍ. بين شجيرات الحديقة المحاذية لمهاجع الطلبة، غردت على نحو متقطع طيور الخضيرى الصفرة الرمادية، وجلس إنسان غاب على شجرة حور، لعله كان هاربًا من حديقة الحيوان في قسم التاريخ الطبيعي.

سار الشاعر بسرعة دون إضاعة الوقت، خلال متاهة من الأزقة والأسوجة النباتية. كان يعرف المنطقة الجامعية كما يعرف ظهر يده، ولا عجب في ذلك؛ فقد درس هنا أربع سنوات، ومن ثمَّ حاضَرَ خلال عام في قسم الزجل والشعر. عُرض عليه منصب محاضر عندما اجتاز امتحاناته النهائية بنتائج ممتازة، وقد أذهل أساتذته الذين كَوَّن لديهم، خلال مدة دراسته، سمعةً بأنه كَسِل ولاهٍ ومخبول. في وقت لاحق، وبعد أن مرت بضعة أعوام من التجوال في جميع أنحاء البلاد مع عوده، وبلغت شهرته كمنشد أماكن بعيدة ومناطق واسعة، بدأت الأكاديمية تلحُّ في السعي لطلب زيارته ومحاضراته كضيف. نادرًا ما كان ياسكير يلبي الطلبات، لأن شغفه بالتسكع كان يتعارض على نحو راسخ مع استهواء الراحة والرفاهية والدخل الثابت. وطبعًا، أيضًا مع المودة لبلدة أوكسينفورت.

تلقَّت حوله. الشخصان اللذان لم يبتاعا آلات أكرينا ولا مزامير ولا غُزلات⁽¹⁾، تبعاه تاركين مسافة بينهما وبينه، وكانا يراقبان بانتباه رؤوس الأشجار وواجهات المباني.

(1) الغُزلة: آلة موسيقية مقوسة أحادية الوتر.

غير الشاعر اتجاه سيره، وهو يصفر دون اهتمام بشيء، واتجه نحو القصر الصغير الذي يضم قسم الطب والأعشاب الطبية. عَجَّ الزقاق المؤدي إلى القسم بالطالبات المرتديات أثوابًا مميزة ذات لون أخضر زاهٍ. أجال ياسكير النظر بعناية، باحثًا عن وجوه مألوفة.

- شاني!

طالبة طب شابة ذات شعر أحمر داكن، مقصوص أسفل أذنيها تمامًا، رفعت رأسها عن أطلس التشريح، ونهضت من الأريكة.

ابتسمت مغمضة عينيها العسليتين بمرح: «ياسكير! لم أرك منذ دهور! تعال، أقدمك لصديقاتي. إنهنَّ يعشقن قصائدك...».

تمتم الشاعر: «لاحقًا. شاني، انظري هناك خلصة. ترين هذين الاثنين؟».

- جاسوسان.

جعدت طالبة الطب أنفها الأفطس ونفخت، لم تكن هذه أول مرة تثير فيها انبهار ياسكير بالسهولة التي كان يتعرّف الطلبة من خلالها رجال الاستخبارات والجواسيس والعملاء. صار البغض الذي يكنه الطلبة للأجهزة السرية مضربَ المثل، مع أنه ليس عقلاً كفايةً. كان لأرض الجامعة حصانة محلية ومقدسة، والطلاب والمحاضرون لا يمكن المساس بهم؛ ومع أن الأجهزة تحاول الحصول على معلومات عنهم، لم تجرؤ على مضايقة الأكاديميين وفرض ما تريد عليهم.

قال ياسكير، متظاهرًا بأنه يحتضن طالبة الطب ويغازلها: «لقد سارا خلفي من ساحة السوق. أيمكنك أن تفعلي شيئًا من أجلي، يا شاني؟».

نترت الفتاة عنقها الرشيق مثل غزالة واجفة: «هذا يعتمد. إذا كنت قد تورطت مجددًا في حماقة ما...».

طمأنها بسرعة: «لا، لا. أريد فقط أن أنقل خبرًا، ولا أستطيع وحدي أن أفعل هذا في وجود هذا البراز الذي التصق بعقبني حذائي».

- أنادي الأولاد؟ يكفي أن أصرخ، فستخلص من الجاسوسين في الحال.

- اهدئي. أتريدين أن تندلع أعمالُ شغب؟ لم يكْدُ يمر إلا القليل على انتهاء النزاع حول جيتو المقاعد الدراسية⁽¹⁾ لمن هم من غير البشر، وها أنتِ قد سارعتِ إلى بدء نزاع جديد؟ وأنا، فضلًا عن ذلك، أشمئزُّ من العنف. سأندبر أمري مع الجاسوسين. أما أنتِ، فإن كان في وسعك...

قَرَّبَ شفثيه من شعر الفتاة وهمس خلال لحظة. اتسعتُ عينا شاني.

- ويتشر؟ ويتشر حقيقي؟

- اخفضي صوتك، بحق الآلهة. هلا فعلتِ ذلك، يا شاني؟

ابتسمتُ طالبة الطب باشتهاء: «طبعًا. ولو كان بدافع الفضول فقط لأرى ذاك الشهير من قرب...».

- قد رجوتكِ أن تخفضي صوتكِ. فقط تذكري، ولا كلمة واحدة لأي شخص كان.

ابتسمتُ شاني على نحو أجمل: «سرُّ طبيب».

أما ياسكير، فمن جديد انتابته الرغبة في أن ينظم أخيرًا أغنية بالادا عن صبايا من أمثالها؛ لسن جميلات كثيرًا، لكنهنَّ رائعات، مثل هؤلاء اللاتي يراودنه في الحلم طوال الليالي، بينما أولئك ذوات الجمال التقليدي ينساهنَّ المرء بعد خمس دقائق .

- أشكرك يا شاني.

- هذا أمر هين، يا ياسكير. أراك قريبًا. كن بخير.

بعد أن قبَّل كل منهما خد الآخر كما ينبغي، تحرك الشاعر وطالبة الطب بسرعة في اتجاهين متعاكسين؛ هي تجاه القسم، وهو صوب حديقة المفكرين.

اجتاز المبنى العصري الكئيب لقسم التقنيات، المعروف بين الطلبة باسم «ديوس إكس ماشينا»، واستدار إلى جسر جيلدنسترن. لم يذهب بعيدًا. بعد منعطف الزقاق، بجوار حوض الزهور الذي عليه تمثال نصفي من البرونز لأول رئيس للأكاديمية نيقوديموس دي بوت، كان الشخصان ينتظران. وعلى عادة كل جواسيس العالم، تجنبنا النظر إلى العينين، ومثل كل جواسيس

(1) جيتو المقاعد الدراسية: نوع من التمييز ضد الطلبة اليهود في الجامعات البولندية في فترة سابقة، إذ كانوا يُجبرون على الجلوس في زاوية منعزلة من قاعات الدراسة.

العالم كان وجههما عاديين وباهتين، حاولا جاهدين أن يسبغا عليهما تعابير حكيمة، وبدوا جراء ذلك أشبه بقردَيْنِ مختلَيْنِ عقليًّا.

قال أحد الجاسوسين: «لكم تحيات من ديكسترا. لنذهب».

أجاب الشاعر الغنائي بوقاحة: «ومني تحيات بالمثل. اذهبا».

نظر الجاسوسان أحدهما إلى الآخر، ثم دون أن يتحركا من مكانهما، غرسا عينيَّهما في الكلمة البذيئة التي شخبطها أحد ما بالفحم على قاعدة التمثال النصفي لرئيس الجامعة. تنهَّد ياسكير.

قال وهو يعدِّل العود على كتفه: «هكذا ظننتُ. إذن سأضطَّر اضطرارًا لا رجعة فيه إلى أن أذهب إلى مكان ما مع السيدين الفاضلين؟ ليس من حل آخر أمامي. هيا بنا إذن. أنتما في الأمام، وأنا في الخلف. في هذه الحالة بالذات، لنُدعِ العمرَ يتخلَّى لجمال الجسم عن شرف المقام الأول في أولية الترتيب».



لم يبدُ ديكسترا، وهو رئيس الاستخبارات السرية عند الملك فيزيمير ريدانسكي، جاسوسًا. لقد انحرف بعيدًا عن الصورة النمطية على نحو خاص، الصورة التي وفَّقها ينبغي أن يكون الجاسوس دائمًا قصيرًا ونحيفًا وعلى هيئة فأر، يلمع بعينين صغيرتين ثاقبتين تحت قبعة سوداء. ديكسترا، كما علم ياسكير، لم يعتَمِر قبعة قط، وكان ينزع بصرامة إلى تفضيل الألوان الزاهية للباسه. كان طوله يقارب سبع أقدام، ووزنه على الأرجح ليس أقل بكثير من قنطارين. وعندما كان يشبك ساعديه على صدره -وكان يفعل ذلك بتحبيب- يبدو الأمر كأنَّ حوتَيْنِ من حيتان العنبر ارتميا على حوت واحد. أما بخصوص ملامح الوجه ولون الشعر والبشرة، فكان يشبه خنزيرًا منظرًا حديثًا. عرف ياسكير عددًا قليلًا جدًّا من الأشخاص الذين كان يمكن أن يكون مظهرهم الخارجي مضللًا أيضًا مثل مظهر ديكسترا. فهذا العملاق المخنزر، الذي يعطي انطباعًا بأنه أبله ونعسان وبليد أبدأ، كان لديه عقل حيوي على نحو غير مسبوق. وسمعة طيبة. ثمة مقولة شائعة في بلاط الملك فيزيمير، مفادها أن ديكسترا إذا قال إن الوقت ظُهر، وكانت الظلمات الدامسة مخيمة على كل الجهات، فيتعيَّن على المرء البدء في القلق على مصير الشمس.

لكنَّ الشاعر كانت لديه في الوقت الحالي أسباب أخرى للقلق.

قال ديكسترا مغالبًا النعاس، وهو يصاب حوتي العنبر على الحوت: «ياسكير، أيها الغبي المقيّد. أيها الأحمق الراسخ. هل عليك دائمًا إفساد كل شيء حالما تتناوله؟ ألا يمكنك أن تفعل شيئًا كما ينبغي فعله، ولو مرة واحدة وحيدة في حياتك؟ إني أعلم أنك لا تستطيع التفكير بمفردك. أعلم أنك على وشك الأربعين من عمرك، وتبدو في الثلاثين تقريبًا، وتخيّل أنك تجاوزت العشرين بقليل، لكنك تتصرف كأنّ عمرك أقل من عشر سنوات. وكوني مدرّكًا ما ورد أعلاه، اعتدّت أن أعطيك إشارات دقيقة. أقول لك ما يتعين عليك فعله، ومتى سيكون عليك أن تفعل شيئًا، وبأي وسيلة. ويتولد لديّ انطباع بانتظام أنني أتحدث إلى الحائط».

أجاب الشاعر متظاهرًا بالزهو: «أما أنا فيتكوّن لديّ انطباع بانتظام أنك تتكلم لتمرّن شفّيتك ولسانك. لذا فادخل في صلب الموضوع، واحذف من حديثك الأشكال البلاغية والخطابة الجانحة. ما الذي تريده أنت هذه المرة؟». كانوا جالسين إلى منضدة كبيرة من خشب البلوط، بين أرفف مثقلة بالكتب وغاصة بلفائف من الرقوق، في الطابق الأعلى من مبنى رئاسة الجامعة، في غرف مستأجرة أطلق عليها ديكسترا مازحًا اسم قسم التاريخ الأحدث، أما ياسكير فسامها قسم التجسس المقارن والتخريب التطبيقي. كانوا أربعة، من ضمنهم الشاعر؛ وباستثناء ديكسترا، شارك شخصان آخران في المحادثة. كان أحدهما، كما جرت العادة، أوري رثوفين، كاتب رئيس الجواسيس الريداني، الطاعن في السن والمزكوم أبدًا. الثاني لم يكن شخصًا عاديًا.

أجاب ديكسترا ببرود: «تعلّم جيدًا ما أعنيه. لكن، لما كان التظاهر بأنك أبله يسليك، كما هو واضح، فلن أفسد عليك تسليتك وسأشرحه بكلمات مفهومة. وربما أنت يا فيليبيا تودين الإفادة من هذا الامتياز؟».

رمق ياسكير الشخص الرابع المشارك في اللقاء، والذي ظل صامتًا حتى الآن. لا بدّ أن فيليبيا إلهارت وصلت إلى أوكسينفورت منذ وقت قريب، أو أنها كانت تعتزم المغادرة بعد قليل، لأنها لم تلبس ثوبًا، ولم تكن عليها جواهرها المفضلة من العقيق الأسود، ولا مساحيق تجميل صارخة. ارتدت سترة رجالية قصيرة وطماقًا وحذاءً عاليًا؛ وهو الزي الذي سماه الشاعر بـ«الميداني». كان شعر الساحرة الداكن، الذي عادة ما يبدو سبطًا ومضطربًا في فوضى خلاصة، ممشطًا إلى الخلف ومربوطًا بشريط في مؤخرة العنق.

قالت وهي ترفع حاجبيها بانتظام: «هذا مضيعة للوقت. ياسكير مُحقٌّ. يمكننا أن ندع الخطابة والتحدلق البلاغي الاستعراضى الذى لا يفضى إلى شيء، فيما القضية التى يتعين علينا تسويتها هينة وتافهة».

ابتسم ديكسترا: «أوه، أجل. تافهة. لقد هرب أحد عملاء نيلفجارد الخطيرين هروبًا تافهًا، وقد حذره وأخافه بطريقة تافهة حمق السيدين ياسكير وجيرالت، وكان من الممكن أن يُزجَّ به زجًا تافهًا فى أعماق زنزانة فى تريتوجور. رأيتُ بشرًا قُيِّدوا إلى المقصلة من أجل تفاهات أصغر شأنًا. لماذا لم تخبرني بكمينكم يا ياسكير؟ ألم أكلفك بأن تعلمني بكل نوايا الويتشر؟». كذب ياسكير بقناعة: «لم أعلم شيئًا عن خطط جيرالت. وإنى قلتُ لك إنه قصد تيميريا وسودن للبحث عن رينس هذا. وأخبرتكَ أيضًا أنه قد عاد. لقد كنتُ على يقين من أنه تخلص عن الأمر. لقد تبخر رينس فى الهواء حرفيًا، ولم يجدِ الويتشر له أقل أثر، وإن تذكر، فقد قلتُ لك عن ذلك أيضًا...».

قال الجاسوس ببرود: «لقد كذبت». لقد وجد الويتشر آثار رينس. على هيئة جثث. وقرر عندئذٍ تغيير أساليبه. فبدلاً من مطاردة رينس، قرَّر الانتظار حتى يجده رينس. انضمَّ إلى قوارب شركة ملاطىوس وجروكُ بصفة مُرافق للحماية. لقد فعل ذلك عمداً. كان يعلم أن الشركة ستذيع الخبر على نطاق واسع، وحينئذٍ سيعلم رينس بذلك ويقرر فعل شيء ما. وقرر السيد رينس ذلك. السيد رينس الغريب الأطوار والمراوغ. السيد رينس الوقح، الواثق من نفسه، الذى لا يكلف نفسه عناء استخدام الأسماء المستعارة أو الأسماء المزيفة. السيد رينس، الذى تفوح منه، من مسافة ميل، رائحة الدخان المنبعث من مدخنة نيلفجارد. والساحر المارق. أليس كذلك، يا فيليبيا؟».

لم تؤكد الساحرة ولم تنف. ظلت صامته، ناضرة إلى ياسكير نظرة ثابتة. خفض الشاعر عينيه وتنحنح متردداً. لم يكن يحب مثل هذه النظرات.

قسَّم ياسكير النساء الجذابات، ومن ضمنهنَّ الساحرات، إلى لطيفات جداً، ولطيفات، وغير لطيفات، وغير لطيفات جداً. اللطيفات جداً كن يستجبن استجابة سارة حين يعرض عليهنَّ الذَّهاب معهن إلى السرير، واللطيفات يستجبن بضحك مرح. وكان رد فعل غير اللطيفات يجري بطريقة يصعب التنبؤ بها. أما فى خانة غير اللطيفات جداً، فقد وضع التروبادور أولئك

اللاتي، حال التفكير في عرض الأمر عليهنَّ، كَنَّ يُثَرْنَ في ظهره نزلة برد غريبة، وارتجافاً في ركبتيه.

مع أن فيليباً إلهارت كانت جذابة جداً، كانت بكل تأكيد غير لطيفة إلى أقصى حد.

عدا ذلك، كانت فيليباً إلهارت شخصية مهمة في مجلس السحرة، وساحرة موثوقاً بها في بلاط الملك فيزيمير. كانت ساحرة بارعة جداً. وشاع أنها كانت من بين القلائل اللاتي امتلكن فنَّ تعدد الأشكال. كانت تبدو في الثلاثين من العمر. ومن المحتمل أن عمرها لا يقل عن الثلاثمائة.

أدار ديكسترا المطحنة بإبهاميه، وقد شبك راحتيه السمينتين على بطنه. ظلَّت فيليباً صامتة. سعل أوري رثوفين واستنشق بأنفه، وراح يدور باضطراب، معدلاً رداءه الصوفي الواسع دون انقطاع. كان هذا الرداء الصوفي يشبه رداء الأستاذ الأكاديمي، لكنَّ لم يبدو عليه أنه تسلَّمه من مجلس شيوخ الجامعة. بل بدا أنه عثر عليه في مكب النفايات.

شخر الجاسوس فجأة: «مع ذلك، صاحبك الويتشر قد قلل من قدرات السيد رينس. فنصب كميناً، لكنه أظهر افتقاراً تاماً للتعقل، وافترض أن رينس سيأتيه شخصياً. كان من المفترض أن يشعر رينس بالأمان، وفَقَّ خطة الويتشر. لم يتمكن رينس من شم رائحة الكمين في أي مكان، ولم يتمكن من أن يلح في أي مكان مرؤوسي السيد ديكسترا المتربصين به. فبناءً على توصية الويتشر، لم ينبس السيد ياسكير بكلمة للسيد ديكسترا عن الفخ المخطط له. ووفقَ التوصيات التي تلقاها السيد ياسكير، وَجَبَ عليه تنفيذها. وكانت لدى السيد ياسكير أوامر واضحة، لا لبس فيها، في هذا الشأن، رأى أن من الأنسب تجاهلها».

انتفخت أوداج الشاعر: «أنا لستُ من مرؤوسيك. وليس عليَّ أن أتبع توصياتك وأوامرك. أساعدك أحياناً، لكنني أفعل ذلك بمحض إرادتي، من منطلق الواجب الوطني، حتى لا أبقى متقاعساً أمام التغيرات القادمة...».

قاطعه ديكسترا ببرود: «أنت تتجسس لمصلحة كل مَنْ يدفع لك. تبلغ وشاياتك كل مَنْ لديهم مماسك ضدك. ولديَّ بضعة مماسك معتبرة ضدك، يا ياسكير. لذا لا تقاوم».

- لن أخاف الابتزاز!

رفعت فيليبيا إيلهارت كفها: «يا سادة، أرجو أن تلتزموا الجدية أكثر، إن جاز لي الرجاء. دعونا لا نخرج عن الموضوع».

استرخى الجاسوس على كرسیه: «عين الصواب. اسمع أيها الشاعر. ما حدث لن يُغيّره أحد. لقد حُذّر رينس ولا يمكن خداعه مرة أخرى. لكن، لا يمكنني السماح بحدوث شيء مماثل في المستقبل. لذا أريد رؤية الويتشر. قُده إليّ. وتوقف عن اللف والدوران بأنحاء المدينة ومحاولة تشتيت عملائي. اذهب مباشرة إلى جيرالت وقُده إلى هنا، إلى القسم. يجب أن أتحدث إليه. شخصياً ودون شهود. دون ضجيج أو صخب، قد يحدث لو قبضتُ على الويتشر. قُده إليّ يا ياسكير. هذا كل ما أطلبه منك حالياً».

كذب الشاعر بهدوء: «جيرالت قد غادر».

رمق ديكسترا الساحرة. تحفّز ياسكير في انتظار النبض الذي سيسبر دماغه، لكنه لم يحس بشيء. نظرت إليه فيليبيا مضيقّة عينيه، لكن شيئاً لم يحدث ليشير إلى أنها حاولت التحقق بالسحر من صدق كلامه.

تنهد ديكسترا، متظاهراً بأنه يصدق: «سأنتظر عودته. الأمر الذي أريده فيه مهم، لذا سأجري تغييرات على جدول أعمالي، وسأنتظر الويتشر. وعندما يعود قُده إليّ. وإن حدث هذا على نحو أعجل، كان الأمر أفضل. أفضل لكثير من الأشخاص».

تجهّم ياسكير: «قد تنشأ صعاب في إقناع جيرالت بالمجيء إلى هنا. تخيل، هو ينفر من الجواسيس نفوراً لا يمكن تفسيره. مع أنه يعطي انطباعاتاً يفهم أن هذه الوظيفة عمل مثل أي عمل آخر، يشعر بالاشمئزاز من أولئك الذين يعملون بها. اعتاد القول إن الدوافع الوطنية شأن آخر، لكن الذين يلتحقون بمهنة التجسس ليسوا إلا أوغاداً ساقطين وأخيراً...».

لوّح ديكسترا بيده دونما اهتمام: «كفى، كفى... من دون تفاهات من فضلك، التفاهات تبعث في نفسي الملل. إنها شديدة السذاجة».

زمجر التروبادور: «وأنا أعتقد ذلك أيضاً. لكن الويتشر شخص طيّب السّريّة وبسيط ونزيه في أحكامه، وأين نحن منه، نحن الدنيويين. إنه ببساطة يحتقر الجواسيس، ولن يرغب في الحديث إليك بأي ثمن كان، ولن

يكون ممكنًا بتاتًا أن يبدي الرغبة لمساعدة الأجهزة السرية. وليس لديك مُسْتَمْسَك ضده».

تكلم الجاسوس: «أنت مخطئ. لديّ. وليس مُسْتَمْسَكًا واحدًا فقط. لكنّ يكفيني في الوقت الحالي ذاك الشجار على متن القارب قرب خور الشرد. أتعلم من هم الذين دخلوا إلى القارب؟ هؤلاء لم يكونوا رجال رينس».

قال الشاعر تلقائيًا: «لا شيء جديد بالنسبة إليّ. أنا على يقين أنهم كانوا بضعة من السّفلة، الذين لا ينعدم وجودهم في الحرس التيميري. لقد أكثر رينس من السؤال عن الويتشر، ومن المحتمل أنه كان يعد الآخرين بمبالغ جيدة مقابل الحصول على أخبار عنه. كان واضحًا أن الويتشر يهمله كثيرًا. لذا حاول بضعة من الماكرين القبض على جيرالت، والزج به في حفرة ما، ومن ثمّ بيعه لرينس، ممّلين عليه شروطهم فيساومونه بأكبر قدر ممكن. لأنهم لن يحصلوا مقابل المعلومات وحدها إلا على القليل، أو حتى على لا شيء».

- أقدم التهنة على هذه القدرة على التخمين. طبعًا، أقدمها للويتشر وليس لك، فأنت لم تكن لتدرك ذلك قط. لكنّ الفضيحة أشدّ تشعبًا مما يبدو لك. حسنًا، إن رفاقي، وهم رجال من الأجهزة السرية للملك فولتيس، مهتمون أيضًا، كما يبدو واضحًا، بالسيد رينس. لقد أدركوا خطة هؤلاء الماكرين، كما أسميتهم أنت. إنهم هم الذين دخلوا إلى القارب، وأرادوا القبض على الويتشر. ربما كطعم لرينس، وربما لغرض آخر. لقد قتل الويتشر العملاء التيميريين قرب خور الشرد، يا ياسكير. رئيسهم غاضب جدًّا، جدًّا. تقول إن جيرالت قد غادر؟ أمل أن وجهته لم تكن تيميريا. فقد لا يعود من هناك.

- وهذا هو مُسْتَمْسَك ضده؟

- أجل، بالتأكيد. هذا هو بالضبط. يمكنني تخفيف حدة الأمر مع التيميريين. لكنّ ليس مجانًا. ياسكير، إلى أين غادر الويتشر؟

كذب التروبادور دون ترو: «إلى نوفيجراد. مضى للبحث عن رينس هناك».

ابتسم الجاسوس، متظاهرًا بأنه لم يلاحظ الكذبة: «خطأ، خطأ. لكنّ رأييت، إنه أمر مؤسف لأنه لم يتغلب على اشمئزازه ليتواصل معي. لكنّ وفرت عليه المشقة. رينس ليس في نوفيجراد. وغير ذلك، فالعملاء التيميريون كثيرون جدًّا هناك. من المرجح أنهم ينتظرون الويتشر. لقد توصلوا إلى ما

كنت أعلمه منذ مدة طويلة. وهو بالتحديد أن الويتشر جيرالت من ريفيا، عندما يُسأل بطريقة مناسبة، يمكن أن يجيب عن الكثير من الأسئلة. الأسئلة التي تبدأ بطرحها الأجهزة السرية لجميع الممالك الأربع. الترتيب بسيط: يأتي الويتشر إلى القسم ويجيبني عن هذه الأسئلة. وسيحصل على الهدوء. سأسكتُ التيميريين وأضمن له الأمان».

- أي أسئلة تقصد؟ ربما أستطيعُ الرد عليها؟

- لا تضحكني يا ياسكير.

نطقتُ فيليبيا إيلهارت فجأة: «ومع ذلك، ربما كان في وسعه الرد عليها؟ ربما يجعلنا لا نهدر وقتنا؟ لا تنسَ، يا ديكسترا، أن شاعرنا غارق في هذه الفضيحة حتى أذنيه، وهو هنا بين يدينا، وليس الويتشر عندنا إلى الآن. أين الطفلة التي شوهد معها جيرالت في كايدفين؟ الفتاة الصغيرة ذات الشعر الرمادي والعينين الخضراوين؟ تلك التي سألك عنها رينس في تيميريا وقتئذٍ، حين أمسك بك وعذبك؟ ماذا يا ياسكير؟ ماذا تعلم عن هذه البنت؟ أين أخفاها الويتشر؟ إلى أين ذهب ينيفر بعد أن تلقت رسالة جيرالت؟ أين تختبئ تريس ميريجولد، وما الأسباب التي تدفعها إلى الاختباء؟».

لم يتحرك ديكسترا، لكنَّ ياسكير أدرك من نظرة سريعة إلى الساحرة أن الجاسوس قد تفاجأ. من الواضح أن الأسئلة التي طرحتها فيليبيا كانت قد طُرحت في وقت أبكر كثيرًا. وعلى الشخص الخطأ. أحدثتِ الأسئلة انطباعًا أنها كانت متسعة ورعناء. وتمثلتِ المشكلة في أن فيليبيا إيلهارت يمكن اتهامها بكل شيء، عدا التسرع والرعونة.

قال ببطء: «أشعر بالأسف، لكنني لا أعرف الإجابة عن أي من هذه الأسئلة. كنت سأساعدكم لو استطعتُ. لكنني لا أستطيع».

نظرتُ فيليبيا مباشرة إلى عينيه.

قالت غير راضية: «ياسكير. إذا كنتَ تعلم مكان هذه البُنيَّة، فأخبرنا. أضمن لك أن قصدنا من وراء ذلك، أنا وديكسترا، سلامتها ولا شيء آخر. سلامتها المعرضة للخطر».

كذب الشاعر: «لا أشك في أن هذا هو قصدكم. لكنني في الحقيقة لا أعرف ما الذي تحدثون عنه. لم أرَ في حياتي قطُّ طفلة تهتمون بها إلى هذا الحد. أما جيرالت...».

قاطعهُ ديكسترا: «جيرالت لم يمنحك الثقة، ولم ينبس بكلمة واحدة لك، مع أنني لا أشك في أنك أمطرتَه بالأسئلة. لماذا يا ترى، ما رأيك يا ياسكير؟ هل أدرك هذا الساذج البسيط، الذي يشمئز من الجواسيس، من تكون أنت في الحقيقة؟ دعيه وشأنه يا فيليبيا، هذا مضيعة للوقت. إنه لا يعرف شيئاً سوى البراز، فلا تنخدعي بتعابير وجهه المتذاكية وبسماته الغامضة. يمكنه مساعدتنا بطريقة واحدة فقط. حين يخرج الويتشر من مخبئه، سيتواصل معه وليس مع أي شخص آخر. تصوري، إنه يعدُّه صديقاً».

رفع ياسكير رأسه ببطء.

أكد: «نعم. إنه هكذا يعدُّني. وتصور، يا ديكسترا، أن الأمر ليس دون سبب. فاعلم ذلك وعِهِ في نهاية المطاف، واستخلص النتائج. هل استخلصتها؟ حسناً، صار الآن بإمكانك أن تجرب الابتزاز».

ابتسم الجاسوس: «حسناً، حسناً. يا لك من حساس إزاء هذه النقطة. لكن من دون تعبير، أيها الشاعر. لقد مازحتك. ابتزاز بيننا نحن الزملاء؟ هذا كلام لا يمكن أن يكون له محل بيننا. وأنا، صدقني، لا أتمنى الضرر لصاحبك الويتشر، ولا أفكر في إيذائه. ومن يدري، قد يمكنني حتى الاتفاق معه من أجل المنفعة المتبادلة؟ لكن لا بد لي من مقابله لتحقيق ذلك. حينما يظهر، قُده إليّ. أرجو منك ذلك، يا ياسكير، رجاءً حاراً. أرجو رجاءً حاراً. هل فهمت مدى حرارة هذا الرجاء؟».

نفخ التروبادور.

- فهمت مدى حرارته.

- أودُّ تصديق أن ما تقوله حقيقة. حسناً، اذهب الآن. أوري، أوصل السيد التروبادور إلى المخرج.

نهض ياسكير: «أودعكم. أتمنى لك التوفيق في عملك وحياتك الشخصية. احترامي لك، فيليبيا. آها، ديكسترا! العميلان اللذان يتبعانني. أزلهما».

كذب الجاسوس: «طبعاً. سأزيلهما. ألا تصدقني؟».

لم يصدق الشاعر: «وكيف لا. أصدقك».



قضى ياسكير يومه في مِنطَقَة الأكاديمية حتى المساء. كان يتلفت حوله طوال الوقت بحذر، لكنه لم يلاحظ الجاسوسين اللذين كانا يلاحقانه. وهذا الأمر تحديداً أكثر ما أقلقه.

في قسم الزجل استمع لمحاضرة عن الشعر الاتباعي. بعدئذٍ، نام في أثناء درس عن الشعر الحديث نوماً لذيذاً. أيقظه المجاوزون الذين كان يعرفهم، وذهب معهم إلى قسم الفلسفة للمشاركة في نقاش عاصف طويل في موضوع «جوهر الحياة وأصلها». وقبل أن يحل الظلام، كان نصف المتناقشين ثملين حتى النخاع، ومن تبقى منهم استعدّوا للعراك وهم يتصارخون، محدثين جلبة يصعب وصفها. هذا كله كان في مصلحة الشاعر.

تسلل إلى العلية دون أن يلاحظه أحد، وخرج من فتحة التهوية، نزل على الميزاب على سطح المكتبة، قفز إلى سطح المشرحة فكاد يكسر ساقيه. من هناك وصل إلى الحديقة المحاذية للسور. وجد بين شجيرات عنب الثعلب الكثيفة حفرة، هو نفسه وسَّعها عندما كان لا يزال طالباً. خلف الحفرة مباشرة كانت بلدة أوكسينفورت.

انغمس في الحشد، ثم تسلل بسرعة خلال الأزقة الجانبية، لفَّ ودار كأنه أرنب يطارده كلب صيد. عندما وصل إلى مكان تجمع العربات، انتظر مختبئاً في الظل نصف ساعة تامة. وإذ لم يلاحظ شيئاً مريباً، تسلَّق السلم إلى السقف القشّي، ووثب إلى سطح منزل أحد الذين يعرفهم، وهو صانع الجعة، فولفجانج أماديوش لحية العنزة. وأخيراً، وكان متشبّثاً بالأجر المغطى بالطحلب، وصل بمشقة إلى شباك العلية الصحيحة. كان مصباح الزيت مشتعلًا في الغرفة خلف النويضة. طرق ياسكير الإطار الرصاصي وهو واقف على الميزاب وقفّة مترددة. لم تكن النافذة مغلقة، وانفجرت بلكرة خفيفة.

- جيرالت! هيه، جيرالت!

- ياسكير؟ انتظر... لا تدخل، أرجوك...

دفع الشاعر النافذة: «كيف، تقول لا تدخل؟ ماذا تعني، لا تدخل؟ لست وحدك، أم ماذا؟ أم لعلك في وضعية نكاح تحديداً؟».

غير مترقب الإجابة، ودون أن ينتظرها، صعد إلى حافة النافذة بصعوبة، مسقطاً التفاح والبصل الموضوعين عليها. شهق وسكت على الفور: «جيرالت...».

ثم شتم بصوت منخفض، ناظرًا إلى زي طالبة الطب الأخضر الزاهي، الملقى على الأرض. فتح فمه جراء الذهول وشم مرة أخرى. كان يمكنه أن يتوقع كل شيء. إلا هذا.

أدار رأسه متلفتًا: «شاني... يا للهول...».

جلس الويتشر على السرير، أما شاني فغطت نفسها، وشدت الملاء حتى أنفها الأفطس: «دون أي تعليق، من فضلك».

مد جيرالت يده إلى سرواله: «حسنًا، فلتدخل. ما دمتَ تتسلل من خلال النافذة، فلا بد أن يكون الأمر مهمًا. لأنه إذا لم يكن كذلك، فسألقي بك منها حالًا».

نزل ياسكير من حافة النافذة، مسقطًا بقية البصلات. جلس بعد أن جرجر الكرسي الخشبي إليه بساقه. رفع الويتشر ملابس شاني وملابسه من الأرضية. كانت تعابير وجهه غير مريحة. ولبس بصمت. وكانت طالبة الطب تصارع قميصها، مختبئة خلف ظهره. راقبها الشاعر دون استحياء، باحثًا في ذهنه عن تشبيهات وقوافٍ للون بشرتها الضارب إلى الذهبي في ضوء المصباح الزيتي، ولشكل نهدتها الصغيرين.

ربط الويتشر أباذيم حذائه: «ما الأمر يا ياسكير؟ احكِ».

أجاب بجفاف: «احزم أمتعتك. يجب أن تغادر عاجلاً».

- عاجلاً، إلى أي حد؟

- عاجلاً فوق العادة.

تنحى جيرالت: «شاني... أخبرتني شاني عن الجاسوسين اللذين كانا يتبعان أثرك. جعلتهما يفقدان أثرك، حسب ما فهمتُ؟

- أنت لا تفهم شيئاً.

- رينس؟

- أسوأ منه.

- في هذه الحال، أنا حقًا لا أفهم... لحظة. الريدانيون؟ تريتوجور؟ ديكسترا؟

- لقد حزرت.

- هذا ليس سبباً...

قاطعته ياسكير: «هذا هو السبب. هم لا يقصدون رينس، يا جيرالت. الموضوع يتعلق بالبنت الصغيرة وبينيفر. ديكسترا يريد أن يعرف أين هما. سيجبرك أن تبوح له بذلك. هل تفهم الآن؟».

- الآن نعم. فلنفرّ إذن. وسنضطر إلى استخدام النافذة؟

- قطعاً. شاني؟ هل سيكون في وسعك فعل ذلك؟

شدت طالبة الطب رداءها على جسدها.

- هذه ليست النافذة الأولى في حياتي.

- كنت على يقين من ذلك.

نظر إليها الشاعر ملياً بانتباه، آملاً أن يرى حمرة وجه تليق بالقافية والاستعارة. لقد أخطأ في حساباته. كان المرح في العينين العسليتين والابتسامة الوقحة كل ما رآه فيها.

حطت بومة كبيرة رمادية على حافة النافذة من غير حس. صرخت شاني بصوت منخفض. مدّ جيرالت يده إلى سيفه.

قال ياسكير: «لا تتحامقي يا فيليبيا».

اختفت البومة، وظهرت مكانها فيليبيا إيلهارت، جاثية بخشونة. ودخلت الساحرة على الفور إلى الغرفة، وهي تسوي شعرها وملابسها.

قالت ببرود: «مساء الخير. قدّمني يا ياسكير».

- جيرالت من ريفيا. شاني من قسم الطب. وهذه البومة التي طارت متتبعاً أثري بمكر شديد، ليست بومةً بتاتاً. إنها فيليبيا إيلهارت من مجلس السحرة، هي حالياً في خدمة الملك فيزيمير، زينة البلاط في تريتوجور. من المؤسف أن ليس لدينا سوى كرسي واحد هنا.

جلست الساحرة على الكرسي الذي أخلاه التروبادور، ووجهت إلى الحاضرين نظرة طويلة، وأبقت نظرها لحظة أطول قليلاً على شاني: «يكفي تماماً».

احمرّ وجه طالبة الطب فجأة، وهذا ما أدهش ياسكير.

بدأت فيليبيا بعد لحظة قصيرة: «في الأساس، ما جئت من أجله يخصّ جيرالت من ريفيا حصراً. بيد أنني أدرك أن مطالبة أي شخص بالخروج من هنا ستكون تصرفاً غير مهذب، وبعد...».

قالت شاني مترددة: «يمكنني الخروج».

تمتم جيرالت: «لا يمكنك ذلك. لا أحد يمكنه ذلك حتى يتضح الأمر. أليس كذلك، يا سيدة إلهارت؟».

ابتسمت الساحرة: «بالنسبة إليك، أنا فيليبيا. فلنلقِ لزوميات الأعراف جانبًا. وليس لزامًا على أحد أن يخرج من هنا، وأنا لا تزعجني صحبة أحد. وفي أحسن الأحوال، تفاجئني، لكن لا بأس، الحياة سلسلة من المفاجآت لا تنقطع... كما تقول واحدة ممن أعرفهن... كما تقول زميلتنا المشتركة، يا جيرالت. هل تدرسين الطب يا شاني؟ أي سنة؟».

نبرت الفتاة: «الثالثة».

لم تنظرُ فيليبيا إلهارت إليها، بل إلى الويتشر: «آه! سبعة عشر عامًا، يا له من عمر جميل. كانت ينبغي ستعطي الكثير لتعود إلى مثل هذا العمر من جديد. ما رأيك يا جيرالت؟ على أي حال، سأسألها عن ذلك عندما تتاح الفرصة المناسبة».

ابتسم الويتشر ابتسامة شنيعة.

- ليس لديّ شك في أنك ستسألينها. ليس لديّ شك في أنك ستُثَرِّين السؤال بتعليق. ليس لديّ شك في أن ذلك سيسليك تسليّة رائعة. والآن ادخلي في لب الموضوع، من فضلك.

هزّت الساحرة رأسها، وأصبحت أكثر جدية: «عين الصواب. وقد حان الوقت تمامًا. وليس لديك الكثير من الوقت. لعل ياسكير قد أسعفه الوقت لإخبارك أن ديكسترا انتابته فجأة الرغبة لمقابلتك ومحادثتك، بغرض تحديد مكان إقامة فتاة معينة. لدى ديكسترا أوامر بهذا الشأن من الملك فيزيمير، لذا أظن أنه سيلحُ كثيرًا لكي تبوح له بذاك المكان».

- واضح. أشكر على التحذير. شيء واحد فقط يثير استغرابي قليلًا. تقولين إن ديكسترا تلقى أوامر من الملك. وأنت لم تتلقِ أيًا منها؟ وأنت التي تشغلين مكانة بارزة في مجلس فيزيمير.

لم تهتمّ الساحرة بتهكمه: «أجل. أشغلها. وأتعامل بجدية مع واجباتي التي تتمثل في تحذير الملك من ارتكاب الأخطاء. في بعض الأحيان، كما في هذه الحالة بالذات، غير مسموح لي أن أقول للملك مباشرة أنه يرتكب خطأ،

وأن أنصحه ألا يتخذ إجراءً متسرعاً. ببساطة، عليّ ألا أمكّنه من ارتكاب خطأ. تفهمني؟».

أكد الويتشر بإيماءة من رأسه أنه فهم. تفكر ياسكير إذا كان قد فهم حقاً. فهو يعلم أن فيليبيا كذبتْ دونما استحياء.

قال جيرالت ببطء، مُثبِتاً أنه يفهم أحسن فهم: «وإذن، إنني أرى أن مجلس السحرة مهتم أيضاً بالبنت التي تحت وصايتي. إن السحرة يرغبون في معرفة مكان البنت التي أنا وصي عليها. ويريدون الإمساك بها قبل أن يفعل ذلك فيزيمير أو أي شخص آخر. لماذا يا فيليبيا؟ ما الشيء المهم في هذه البنت التي في عهدتي، وبمّ هي تثير هذا الاهتمام الكبير؟».

ضاقَتْ عينا الساحرة.

صرّفت أسنانها: «لا تعلم؟ قليل جداً ما تعلمه عمّن في عهدتك؟ لا أريد إخراج استنتاجات متسريعة، لكنّ يبدو أن مثل هذا الجهل يشير إلى أن مؤهلاتك كوصي معدومة. حقاً، أستغرب أنك قررتَ أخذ الوصاية، وأنت غير مدرك وغير مطلع إلى هذا الحد. وأكثر من ذلك، قد قررتَ أن تحرم من حق الرعاية الآخرين، أولئك الذين لديهم المؤهلات والحق على حد سواء. ومع هذا كله تسأل لماذا؟ جيرالت، حذارٍ من أن تهلكك غطرستك. حذارٍ. واحرس هذه الطفلة، اللعنة! احرس الفتاة كما حدقة عينك! وإذا لم يكن في مقدورك فعل ذلك وحدك، فاطلبه من الآخرين!».

ظنّ ياسكير خلال لحظة أن الويتشر سيذكر الدور الذي أدّته ينيفر. لم يخاطر بأي شيء، وكان سيدحض حجج فيليبيا. لكنّ جيرالت ظل صامتاً. وقد خمنَ الشاعر الأسباب. كانت فيليبيا تعلم كل شيء. فيليبيا حدّرتَه. وقد فهم الويتشر التحذير.

ركّز على مراقبة أعينهما ووجهيهما، متسائلاً أكان ثمة شيء يربط بين هذين الاثنين في الماضي. كان ياسكير يعلم أن المبارزات المماثلة التي تثبت الانبهارَ المتبادلَ بالكلمات وأنصاف الكلمات، التي يديرها الويتشر مع الساحرات، في الغالب تنتهي في السرير. لكنّ هذه المراقبة لم تسفر، كالعادة، عن شيء. ولمعرفة أكان شيء ما يربط الويتشر بشخص ما، توجد طريقة واحدة فقط؛ لا بدّ من الدخول من خلال النافذة في اللحظة المناسبة.

استأنفتِ الساحرة بعد لحظات: «الرعاية تعني تحمل المسؤولية على سلامة كائن غير قادر على ضمان سلامته بنفسه. إذا عرّضتَ تلك التي تحت رعايتك للخطر... إذا ما مسّها سوء، فستقع المسؤولية عليك يا جيرالت. عليك فقط».

- أعلم ذلك.

- أخشى أنك لا تزال لا تعلم إلا أقل القليل.

- فإذا نؤريني. ما الذي يجعل كثيرًا من الأشخاص فجأة يريدون تحريري من عبء المسؤولية، ويريدون تولي مسؤولياتي ورعاية الطفلة التي أربيها؟ ماذا يريد مجلس السحرة من سيرتي؟

ماذا يريد منها ديكسترا والملك فيزيمير، ماذا يريد منها التيميريون؟ ماذا يريد منها المدعو رينس، الذي قتل في سودن وتيميريا ثلاثة أشخاص كانوا على تواصل معي ومع البنت قبل عامين؟ الذي كاد يقتل ياسكير محاولاً الحصول منه على معلومات عنها؟ من هو رينس هذا، يا فيليبيا؟

قالت الساحرة: «لا أعرف. لا أعرف من هو رينس هذا. ولكنني مثلك، أرغب بشدة في معرفة ذلك».

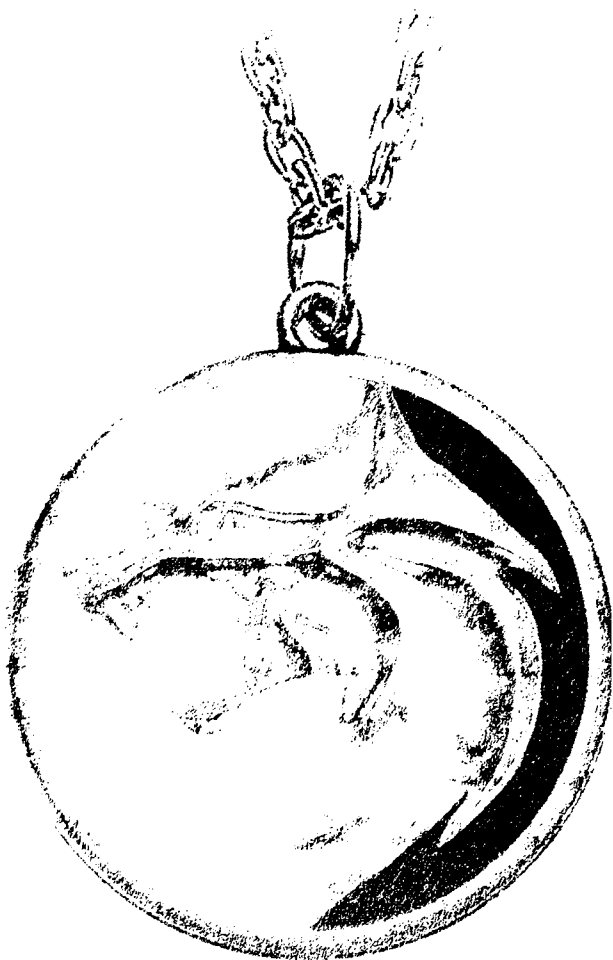
تكلّمتُ شاني على نحو غير متوقع: «هل لرينس هذا ندبة بسبب حرق من الدرجة الثالثة على وجهه؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنا أعرف من هو. وأعلم أين هو».

وسط الصمت الذي ساد، نقرتُ قطرات المطر الأولى الميزابَ وراء النافذة.

القتل هو دائماً قتل، مهما كانت الدوافع والظروف. لذا، فأولئك الذين يقتلون، أو يُهَيَّئون القتل، هم جُناة ومجرمون، مهما كانوا: ملوكاً أم أمراء أم رؤساء دواوين أم قضاة. لا يحقُّ لأي من الذين يخططون ويرتكبون أعمال العنف أن يعدُّوا أنفسهم أفضل من أي مجرم. فأعمال العنف كلها، بطبيعتها، تفضي حتماً إلى الجريمة.

نيقوديموس دي بوت،

تأملات في الحياة والسعادة والفلاح



الفصل السادس

قال ملك ريدانيا، فيزيمير، وهو يُمرّر أصابعه المزيّنة بالخواتم بين شعر صدغه: دعونا لا نرتكب خطأ. لا يمكننا تحمل الخطأ أو الغلط.

ظل المجتمعون صامتين. جلس ديمافيند، حاكم إيدرِن، مرتميًا على كرسيه، محدقًا إلى قدح الجعة الموضوع على بطنه. أظهر فولتيسْت، سيد تيميريا وبونتار وماهاكام وسودن، والذي كان إلى وقت قريب راعي بروجي الأكبر، أظهر للجميع جانبًا من وجهه النبيل موجهاً رأسه نحو النافذة. جلس إلى الجانب المقابل من المنضدة، هينسلت، ملك كايدفين، وهو يجيل النظر إلى المشاركين في الاجتماع بعينيه الصغيرتين الثاقبتين، واللامعتين في وجهه الملتحى كقاطع طريق. كانت ميفي، ملكة ليريا، شاردة الفكر تلعب بياقوتات قلادتها الضخام، ومن حين إلى آخر كانت تعوج شفتيها الجميلتين الممثلتين بتكشيرة غامضة.

كرّر فيزيمير: «دعونا لا نرتكب خطأ. لأن الخطأ قد يكلفنا الكثير. دعونا نفيد من تجارب الآخرين. عندما هبط أسلافنا على الشطوط قبل خمسمائة عام، أخفى الإلفيون أيضًا رؤوسهم في الرمل. لقد انتزعنا البلادَ منهم قطعة قطعة، فانسحبوا وكانوا لا يزالون يرون أن هذه الحدود أصبحت الأخيرة، وأننا لن نذهب أبعد من ذلك. فلنكن أكثر حكمة! والآن جاء دورنا. إننا الآن الإلفيون. إن نيلفجارد تقف عند نهر ياروجا، وأنا هنا أسمع: 'دعها تقف'. إنني أسمع: 'لن يذهبوا أبعدَ من ذلك'. لكنهم سيذهبون أبعدَ، سترون وتقننوعن. أكرر، دعونا لا نرتكب الخطأ الذي ارتكبه الإلفيون!».

نقرت قطرات المطر زجاج النوافذ من جديد، وعوت الريح عواءً مخيفاً. رفعت الملكة ميفي رأسها. خُيِّلَ إليها أنها سمعت نعيق الغربان والزيغان. لكن ذلك لم يكن سوى الريح. الريح والمطر.

قال هينسلت من كايدفين: «لا تقارناً بالإلفيين. أنت بهذه المقارنة تصمنا بالعار. لم يُحسن الإلفيون القتالَ، هربوا من أمام أسلافنا واختبأوا في الجبال والغابات. لم يمنح الإلفيون أسلافنا سودن. ونحن أربنا النيلفجارديين ما يعني التعرض لنا. لا نخوفنا بنيلفجار، يا فيزيمير، لا تنتشر الدعاية. أنت تقول إن نيلفجار تقف عند نهر ياروجا؟ وأنا أقول إن نيلفجار تَقعد خلف النهر كمثل الفأر تحت المكنسة. لأننا قرب سودن سحقنا عمودهم الفقري! كسرناهم عسكرياً، ولكننا قبل أي شيء آخر كسرناهم معنوياً. لا أدري أكان حقيقة أن إمهير فار إمريس وقف حينئذٍ ضد العدوان إلى درجة أن الهجوم على سينترا كان من عمل بعض الفصائل المعادية له. وأفترض أنه لو تمكن من هزيمتنا لصفق بيديه ووزع الامتيازات والهبات. لكن بعد سودن، اتضح فجأة أنه كان ضده، وكان تعسف رؤساء الدواوين الملكية المذنب في كل شيء. وتطايرت الرؤوس. وتدفقت من المقاصل الدماء. هذه معلومات مؤكدة وليست إشاعات. ثماني عمليات إعدام احتفالية، والكثير من المواعظ الأكثر تواضعاً. بضع حالات وفاة تبدو طبيعية ولكنها مُلغزة، والكثير من حالات الموت المفاجئة. أقول لكم إن إمهير جُنَّ جنونه، وعملياً قضى على طاقمه القيادي. فمن سيقود جيوشهم الآن؟ قادة السرايا؟».

قال ديمافيند من إيديرن ببرود: «لا، ليس قادة المائة. سيفعل ذلك الشباب والضباط البارعون، الذين انتظروا مثل هذه الفرصة طويلاً، وهم من يدرهم إمهير منذ زمن بعيد. أولئك الذين لم يسمح لهم رؤساء الدواوين القدامى بالقيادة، ولم يتيحوا لهم الترقية. القادة الشباب البارعون الذين أخذ يذيع صيتهم. أولئك الذين سحقوا الانتفاضات في ميتينا ونازاير، الذين هزموا المتمردين في إبينج في وقت قصير. القادة الذين يُقدِّرون دور المناورات التطويقية، وغارات وحدات الفرسان البعيدة، ومسيرات المشاة الخاطفة، والإنزالات البحرية. مطبِّقين أساليب الضربات المدمرة في اتجاهات مختارة، مستخدمين التقنيات الحديثة، بدلاً من السحر غير المضمون، عند محاصرة القلاع. من غير المسموح ألا يحظوا بالتقدير. إنهم يتوقون إلى عبور ياروجا وإثبات أنهم تعلموا شيئاً من أخطاء رؤساء الدواوين القدامى».

هزَّ هينسلت كتفيه: «إذا كانوا قد تعلموا شيئاً فلن يعبروا ياروجا. لا يزال مصب النهر الواقع على حدود سينترا وفيردن خاضعاً لسيطرة إرفيل وقلاعه الثلاث: ناسترُج وروُج وبودُرج. ولا يمكن الاستيلاء على هذه القلاع انطلاقاً من المسير، ولن تساعد على ذلك أي تَقْنِيَّة حديثة. جناحنا يحميه أيضاً أسطول إيثاين من سيدارس، وبفضله نسيطر على الساحل. وأيضاً بفضل القراصنة من اسكيليج. كما تتذكرون، فإن اليارل كراش أن كرايت لم يوقّع هدنة مع نيلفجار، بل ضايقهم بانتظام، وهاجم وحرق المستوطنات الساحلية والحصون في الأرياف. أطلق عليه النيلفجارديون لقب تيرث يس موير، أي خنزير البحر. إنهم يخوِّفون الأطفال به!».

ابتسم فيزيمير غير راضٍ: «تخويف الأطفال النيلفجارديين لن يضمن أمننا».

وافق هينسلت: «لا. سيضمنه شيء آخر. ولما كان إمهير فار إمريس، لا يسيطر على مصب النهر والساحل، وجناحه مكشوف، فلن يتمكن من توفير الإمدادات للقوات التي يرغب في نقلها إلى الضفة اليمنى لنهر ياروجا. فأني مسير خاطف، وأي غارة لوحداث الفرسان؟ هذا لا يستحق إلا السخرية. في غضون ثلاثة أيام بعد مشقة التغلب على النهر، سيعلق الجيش في مكانه. نصفه سيحاصر القلعة، والنصف الباقي سيتشتت من أجل النهب والبحث عن العلف والقوت. وحين يبدأ فرسانهم الشهيرون بأكل معظم خيولهم، سنصنع لهم سوند ثانية. اللعنة على الشيطان! إنني أتمنى أن يعبروا النهر! لكن لا تخافوا، لن يعبروه».

قالت ميفي من ليريا فجأة: «فلنفترض أنهم لن يعبروا ياروجا. لنفترض أن نيلفجار ببساطة سوف تنتظر. إذن، دعونا نفكر لمصلحة من هذا، لمصلحتنا أم لمصلحتهم؟ من يمكن أن يسمح لنفسه بالانتظار مكتوف اليدين، ومن لا يمكنه؟».

النقط فيزيمير الكلام: «بالضبط! إن ميفي، كعادتها، لا تقول الكثير، لكنها تصيب لبَّ الموضوع. إمهير لديه الوقت أيها السادة، ونحن لا نملكه. ألا ترون ما يحدث؟ قبل ثلاث سنوات، نقلتُ نيلفجار حصاةً إلى سفح الجبل وراحتُ تنتظر الجُراف بهدوء. ببساطة تنتظر، فيما استمرتِ الحصى الجديدة بالانهيال من المنحدر. لأن هذه الحصاة الأولى بدتُ لبعض الأشخاص صخرةً يستحيل تحريكها. ولما كان تبين أن مجرد لكزها يكفيها لتطير، فقد

وَجَدَ آخَرُونَ رَأَوْا فِي الْجُرَافِ ضَالَتَهُمْ. مِنَ الْجِبَالِ الزَّرْقِ الْبِنْفَسْجِيَّةِ إِلَى بَرِيمِرْفُورِدَ، خَلَالَ غَابَاتٍ وَحَدَّةِ الْمَغَاوِيرِ الْإِلْفِيَّةِ، لَمْ يَعِدِ الْأَمْرَ قِتَالَ عَصَابَاتٍ صَغِيرَةٍ، بَلْ حَرْبٍ. فَقَطَّ انْظُرُوا كَيْفَ يَسِيرُ الْإِلْفِيُّونَ الْأَحْرَارُ إِلَى الْمَعْرَكَةِ مَعَ دُولٍ بِلَاثَانٍ. الْأَقْزَامُ فِي مَاهَاكَامٍ يَنْتَفِضُونَ، وَحُورِيَّاتِ الْغَابِ فِي بَرُوكْلُونٍ أَصْبَحْنَ أَكْثَرَ جَرَاءَةً. هَذِهِ حَرْبٌ، حَرْبٌ عَلَى نَطَاقٍ وَاسِعٍ. حَرْبٌ دَاخِلِيَّةٌ. أَهْلِيَّةٌ. حَرْبِنَا. وَنِيلِفْجَارْدُ تَنْتَظِرُ... فَلِمَصْلَحَةٍ مِنْ يَعْْمَلُ الْوَقْتُ، مَا رَأَيْكُمْ؟ فِي وَحْدَاتٍ مَغَاوِيرِ السَّكُويَاتِيْلِ يِقَاتِلُ الْإِلْفِيُّونَ فِي الثَّلَاثِينَ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ أَعْمَارِهِمْ. لَكِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَعْيشُ ثَلَاثِمِائَةَ عَامٍ! لَدَيْهِمُ الْوَقْتُ الْكَافِي، وَنَحْنُ لَا نَمْلِكُهُ».

اعْتَرَفَ هَيْنَسَلْتُ: «السَّكُويَاتِيْلِيُّونَ أَصْبَحُوا شَوْكَةً حَقِيقِيَّةً فِي الْمُؤَخَّرَةِ. إِنَّهُمْ يَشْلُونُ تِجَارَتِي وَحَرَكَةَ النِّقْلِ، وَيَرْهَبُونَ الْمَزَارِعِينَ... يَجِبُ أَنْ يَنْتَهِيَ هَذَا كُلُّهُ!».

تَدَخَّلَ فُولْتِيَسْتُ مِنْ تِيمِيرِيَا: «إِذَا أَرَادَ غَيْرُ الْبَشَرِ الْحَرْبَ، فَسَوْفَ يَحْصِلُونَ عَلَيْهَا. كُنْتُ دَائِمًا مِنْ دَعَاةِ الْمَصَالِحَةِ وَالْعَيْشِ الْمَشْتَرَكِ، لَكِنْهُمْ إِذَا كَانُوا يُفَضِّلُونَ اخْتِبَارَ الْقُوَى، فَلْنَخْتَبِرْ مِنْ هُوَ الْأَقْوَى. أَنَا مُسْتَعِدٌّ. إِنَّهُمْ فِي تِيمِيرِيَا وَسُودَنَ يَتَعَهَّدُونَ بِإِنْهَاءِ السَّنَاجِيبِ فِي غَضُونِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ. لَقَدْ فَاضَتْ هَذِهِ الْأَرْضُ مَرَّةً بِدِمَاءِ الْإِلْفِيِّينَ الَّتِي سَفَكَهَا أَجْدَادُ أَجْدَادِنَا. أَعِدُّ ذَلِكَ مَأْسَاءً، لَكِنِّي لَا أَرَى مَخْرَجًا، فَالْمَأْسَاءُ سَتَتَكَرَّرُ. لَا بَدَّ مِنْ إِخْضَاعِ الْإِلْفِيِّينَ».

أَوَّمَا دِيمَافِينْدُ بِرَأْسِهِ: «سَيَتَحَرَّكُ جَيْشُكَ لِمَهَاجِمَةِ الْإِلْفِيِّينَ، إِذَا أُعْطِيَتْهُمْ الْأَمْرُ. لَكِنْ هَلْ سَيَهْجُمُ عَلَى الْبَشَرِ؟ وَعَلَى الْفَلَاحِينَ الَّذِينَ يُجَنِّدُ مِنْهُمْ الْمَشَاةَ؟ وَعَلَى وَرَشِ النِّقَابَاتِ؟ وَعَلَى الْمَدَنِ الْحَرَّةِ؟ وَصِفْ فِيزِيمِيرَ فِي مَعْرَضِ حَدِيثِهِ عَنِ السَّكُويَاتِيْلِيِّينَ حِصَاةً وَاحِدَةً فَقَطَّ مِنَ الْجُرَافِ. نَعَمْ، نَعَمْ، أَيُّهَا السَّادَةُ، لَا تَحْدَقُوا إِلَيَّ بِأَعْيُنٍ جَاחِظَةٍ! لَقَدْ بَدَأَ يَدُورُ حَدِيثُ فِي الْقُرَى وَالْبُلْدَاتِ عَنْ أَنَّ حَيَاةَ الْفَلَاحِينَ وَالْمَزَارِعِينَ وَالْحَرْفِيِّينَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي غَزَتْهَا نِيلِفْجَارْدُ أَصْبَحَتْ أَيْسَرَ وَأَكْثَرَ حَرِيَّةً وَأَثْرَى، وَأَنَّ الْجَمْعِيَّاتِ التِّجَارِيَّةِ تَتَمَتَّعُ بِامْتِيَازَاتٍ أَكْبَرَ... تُغْرِقُنَا الْبُضَائِعُ مِنْ مَعَامِلِ نِيلِفْجَارْدِ. وَتَزِيحُ عَمَلَتَهُمْ فِي بَرُوجِي وَفِيرْدَنَ الْعَمَلَةَ الْمَحَلِّيَّةِ. إِذَا جَلَسْنَا مَكْتُوفِي الْأَيْدِي، فَسَنَهْلِكُ مِتْنَاحِرِينَ وَمِتُورَطِينَ فِي الصَّرَاعَاتِ، وَمُنْخَرَطِينَ فِي قَمْعِ التَّمَرْدِ وَأَعْمَالِ الشَّغْبِ، وَسَنَدْمُنُ بِبِطَاءٍ عَلَى الْقُوَّةِ الْاِقْتِسَادِيَّةِ النِيلِفْجَارْدِيَّةِ. سَنَمُوتُ، سَنَخْتَنُقُ فِي مَعْزَلِنَا الْخَانِقِ، فَإِنَّكُمْ سَتَفْهَمُونَ هَذَا أَيْضًا بِأَنَّ نِيلِفْجَارْدَ تَسُدُّ طَرِيقَنَا إِلَى الْجَنُوبِ، وَعَلَيْنَا نَحْنُ أَنْ نَتَطَوَّرَ، وَعَلَيْنَا أَنْ نَكُونَ تَوْسَعِيِّينَ، وَإِلَّا فَلَنْ يَكُونَ لِأَحْفَادِنَا مَكَانٌ هُنَا!».

ظل المجتمعون صامتين. استنشق فيزييمير ريدانسكي بعمق، ثم تناول إحدى الكؤوس المصفوفة على الخوان، وشرب طويلاً. امتدَّ الصمت، ونقر المطر النوافذ، عوت الريح العاصفة وطرقت مصاريع الشبابيك.

أخيراً قال هينسلت: «كل الاضطرابات التي ذكرتُ هي من عمل نيلفجار. إن مبعوثي إمهير السريين هم مَنْ يُحَرِّضُونَ على غير البشر وينشرون الدعاية ويدعون إلى أعمال الشغب. إنهم يُغْدِقُونَ الذهب وَيَعِدُونَ النقايات والجمعيات التَّجَارِيَّةَ بالامتيازات، ويتعهدون للبارونات والأمراء بمناصب عُليا في المقاطعات التي سينشِئونها محلَّ ممالكنا. لا أدري ما الوضع عندكم، لكنه في كايديفين ينمُّ عن تزايد مضاعف غير متوقع لعدد الكهنة والوعاظ والعرفان، وغيرهم من الزهاد التافهين الذين يُعلنون نهاية العالم...».

أكد فولتيس: «الشيء نفسه عندي. فتبَّأ، مرَّت سنوات كثيرة والهدوء مستتب. منذ أن أرى جَدِّي الكهنة أين يكون مكانهم، مقلصاً صفوفهم إلى حد كبير، أخذ من تبقى منهم يزاولون أشغلاً مفيدة. فدرسوا الكتب وألقموا الأطفال المعرفة، وعالجوا المرضى، واعتنوا بالمُعوزين والمعوقين والمشردين. ولم يتدخلوا في السياسة. وفجأة الآن ثارت حماستهم، وصاروا يصرخون في المعابد، مطلقين التُّرَّهَات أمام الغوغاء، والغوغاء تستمع وتعلم أخيراً لم تسوء أحوالها إلى هذا الحد. أتسامح مع ذلك لأنني أقل اندفاعاً من جَدِّي وأقل حساسية إزاء هيئتي الملكية وكرامتي. وفي المحصلة، أي كرامة هذه، وأي هيبة يمكنهما أن تكونا، إذا ما كان في وسع زعقة من أحد المتعصبين المجانين أن تنال منهما. لكنَّ صبري ينفد. في الآونة الأخيرة، صار موضوع المواعظ الرئيس عن المنقذ الذي سيأتي من الجنوب. من الجنوب، انتبهتم؟ من وراء ياروجا!».

تمتم ديمافيند: «اللهب الأبيض. سيحلُّ البرد الأبيض، وبعده الضوء الأبيض. وبعديّ، سيولد العالم من جديد بفضل اللهب الأبيض والمملكة البيضاء... قد سمعتُ ذلك أيضاً. هذا تحريف لنبوءة إثلين أيب أيفينين، التنبؤات الإلفية. أمرتُ بالقبض على أحد الكهنة الذي صرخ بهذا في ساحة السوق في فينجربيرج، فسأله الجلال بأدب خلال هنيهة طويلة، كم أخذ المتنبئ من إمهير مقابل ذلك ذهباً... لكنَّ الواعظ هذر هراءً عن اللهب الأبيض والمملكة البيضاء فحسب... حتى النهاية».

عبس فيزيمير: «احذر يا ديمافيند. لا تُصنع شهداء، فهذا ما يبتغيه إمهير بالضبط. اقبض على عملاء نيلفجارد، لكن إياك أن تمس الكهنة، فالعواقب قد لا تكون في الحسبان. فلا يزال لهم نفوذ واحترام وسط الشعب. لدينا ما يكفي من المتاعب مع السناجيب، فلن نخاطر بخلق أعمال شغب في المدن أو بإشعال حروب مع الفلاحين».

شخر فولتيست: «إلى الجحيم! دعونا لا نفعل هذا، دعونا لا نخاطر بهذا، وذاك ممنوع علينا فعله... هل اجتمعنا للحديث عما لا يمكننا فعله؟ هل جرجرتنا إلى هنا، إلى هاجي، يا ديمافيند، لكي نبكي ونتشكى من ضعفنا وعجزنا؟ فلنبداً العمل، بعد هذا كله! يجب أن نفعل شيئاً ما! يجب أن نوقف ما يحدث!».

استقام فيزيمير: «منذ البداية وأنا أقترح هذا. أقترح بالضبط القيام بعمل ما».

- أي عمل؟

- ماذا نستطيع أن نفعل؟

خيم الصمت من جديد. عصفت الريح، وطرقت مصاريع النوافذ جدار القلعة.

نطقت ميفي فجأة: «لماذا تنظرون جميعكم إليّ؟».

همهم هينسلت بصوت خرج من عمق قدحه: «نحن مبهورون بجمالك».

وافق فيزيمير: «وهذا أيضاً. جميعنا يعلم، يا ميفي، أنك تستطيعين إيجاد طريقة للخروج من أي موقف. لديك حدس أنثوي، أنت امرأة حكيمة...».

- توقف عن المبالغة في مدحي.

شبكت ملكة ليريا يديها في حجرها وأمعنت في النظر إلى نسيج النجود المعتمة، المزينة بمناظر من الصيد. فيها كلاب الصيد، الواثبة ممطوطة الجسد، رفعت خطومها نحو جنبي أحادي قرن أبيض هارب. فكرت ميفي: لم أر في حياتي قط أحادي قرن حياً. لم أره قط. ولعلني لن أراه أبداً.

قالت بعد لحظة، وهي تزيج بصرها عن نسيج النجود: «وضعنا الحالي يذكرني بأُمسيات الشتاء الطويلة جداً في قلعة ريفيا. في ذلك الوقت، دائماً ما كان شيء ما ينذر بالحدوث. كان زوجي يتفكر في كيفية الوصول إلى نبيلة

أخرى من الحاشية هنا. كان رئيس الديوان يقلب الأمور من أجل الشروع في حرب هنا يصبح فيها مشهورًا. تخيل الساحر نفسه أنه هو الملك. لم يرغب الخدم في الخدمة، وكان المهرج حزينًا وكامدًا ومملًا إلى حد فظيع، وكانت الكلاب تعوي بكآبة، والقطط تنام غير مكترثة بالفئران التي كانت تدب على المنضدة. كان الجميع ينتظر شيئًا ما. كان الجميع ينظرون إلى نظرة ارتياب شريرة. وأنا... أنا عندئذ... أريتهم. أريتهم جميعًا ما أستطيع، لدرجة أن الجدران اهتزت ودببة المنطقة استيقظت في مأويها. وطارَت الأفكار الحمقاء من الرؤوس في لمح البصر. وفجأة عرف الجميع من يحكم هنا».

لم يتكلم أحد. عوت الريح على نحو أشد. صرخ الحراس الذين على الأسوار بعضهم على بعض عرضًا. تحولت ضربات القطرات على الزجاج في أطر النوافذ، المصنوعة من الرصاص، إلى تهتهة مجنونة.

تابعت ميفي ببطء، وهي تعبت بقلادتها: «نيلفجارد تنظر وتنتظر. نيلفجارد تراقب. شيء ما ينذر بالحدوث، أفكار حمقاء تولد في رؤوس كثيرة. فلنر الجميع إذن، ما نستطيع. لنرهم من هو الملك حقًا هنا. ولنهرز أسوار القلعة المغمورة في ركود الشتاء!».

قال هينسلت بسرعة: «اخنقوا السناجيب. شنؤا عملية عسكرية مشتركة عظيمة. هيئوا لغير البشريين حمام دم. واجعلوا بونتار وجفينليخ وبوينا تسيل فيها دماء الإلفيين من المنابع إلى المصاب!».

أضاف ديمافيند مقطبًا جبينه: «اسحقوا الإلفيين الأحرار من دُول بلاتان بحملة عقابية. بإرسال قوات التدخل إلى ماهاكام. واسمحوا أخيرًا لإرفيل من فيردن بالوصول إلى حوريات الغاب في بروكلون. نعم، حمام دم! وأولئك الذين يبقون أحياء فإلى المحميات!».

التقط فيزيمير الكلام: «حرشوا كراش أن كرايت على الساحل النيلفجاردي. ادعموه بأسطول إيثاين من سيدارس، وليهيئوا حريقًا هائلًا من ياروجا إلى إبينج! استعراض القوة...».

أدار فولتيسر رأسه: «هذا قليل. كل هذا قليل جدًا. يجب... أعلم ما يجب فعله».

- إذن، تكلم!

- سينترا.

- استعيدوا سينترا من النيلفجارديين. فلنعبُر نهر ياروجا، ولنضربُ أولاً. الآن، إذ لا يتوقعون ذلك. لنعيدهم إلى ما بعد مارنادال.

- بأي طريقة؟ قد قلنا تَوًّا إن ياروجا يستعصي على الجيوش عبوره...
- هذا لنيلفجارد. لكننا نحن نسيطر على النهر. مصبُ النهر في قبضتنا، وطرق الإمداد، وجناحنا تحميه اسكيليج وسيدارس وقلعة فيردن. إن إلقاء أربعين أو خمسين ألف شخص خلال النهر يعدُّ جهدًا كبيرًا لنيلفجارد. يمكننا المضيُّ إلى الضفة اليسرى بعدد أكبر بكثير. لا تفغرُ فمك، يا فيزيمير. أردتَ شيئاً يقطع الانتظار؟ شيئاً باهراً؟ شيئاً يجعلنا ملوكًا حقيقيين من جديد؟ هذا الشيء سيكون سينترا. سينترا ستُوطدنا، لأن سينترا رمز. تذكروا سودن! لولا مذبحة المدينة واستشهاد كالانثي، لما كان مثل هذا النصر وقتئذٍ. كانت القوات متساوية، ولم يعوّل أحد على أننا سوف نحطمها على هذا النحو. لكنَّ جيوشنا انقضتْ على حلوقهم كالذئاب، كالكلاب المسعورة، للانتقام للبوّة سينترا. وثمة من لم يطفئ غضبه الدم المسفوك على أرض سودن. تذكروا كراش آن كرايت، خنزير البحر!

أوماً ديمافيند برأسه: «هذا صحيح. أقسم كراش أن ينتقم من نيلفجارد انتقاماً دموياً. من أجل إيست تويرسيتش، الذي قُتل في مارنادال. ومن أجل كالانثي. لو هاجمنا الضفة اليسرى، فسيدعنا كراش بكامل قوة اسكيليج. وحق الآلهة، هذه فرصة للنجاح! أنا أؤيد فولتيست! دعونا لا ننتظر، لنضرب أولاً، ولنحرر سينترا، ولنطرُد أولاد العواهر إلى ما بعد شُعب أميلو!».

شخر هينسلت: «تمهلوا. لا تتعجلوا هكذا لشد الأسد من شاربه، فلاسد لم ينفقُ بعد. هذا أولاً. ثانيًا، إذا كنا أول من يضرب، فسنضع أنفسنا في موقع المعتدين. سوف نخرق الهدنة التي مهرناها نحن أنفسنا بأخامنا. لن يدعنا نيدامير وعصبته، ولن يدعنا إستِراد ثيسين. لا أعلم كيف سيتصرف إيثاين من سيدارس. نقاباتنا وتجارنا والنبلاء... وقبلهم جميعاً السحرة، يعارضون هذه الحرب العدوانية. ولا تنسوا الساحرات!».

صرح فيزيمير: «السحرة لن يدعموا الهجوم على الضفة اليسرى. الهدنة كانت من عمل فيلجيفورتن من روجيفين. ومن المعلوم أن الهدنة كانت في

خططه ستتحوّل تدريجياً إلى سلام دائم. لن يدعم فيلجيفورتز الحرب. وسيفعلُ مجلس التشريف، يمكنكم تصديقي، كلّ ما يريد فيلجيفورتز. بعد سون صار الشخص الأول في مجلس التشريف، وليقلّ السحرة الآخرون ما يشاؤون، فمن له الصوت الحاسم هناك هو فيلجيفورتز».

امتعض فولتيس: «فيلجيفورتز، فيلجيفورتز. لقد كبر عندنا هذا الساحر أكثر مما ينبغي. صار يثير حَنَقِي أخذَ خطط فيلجيفورتز ومجلس التشريف بعين الاعتبار، وأنا في المحصلة لا أعرفها ولا أفهمها. لكن أيها السادة، توجد طريقة لمعالجة الأمر. وماذا لو شئت نيلفجارد عدواناً؟ على سبيل المثال في دُول أنجرا؟ على أيديرن وليريا؟ يمكننا تسوية هذا الأمر بطريقة ما... تدبير حادث ما... استفزاز ما صغير... واقعة حدودية هم المذنبون فيها؟ لنفترض أن هجوماً وقع على حصن حدودي؟ طبعاً، سنكون مستعدين، وسنرد رداً حاسماً وبكل قوة، مع القبول التام من الجميع، حتى من فيلجيفورتز والبقية الكاملة من مجلس السحرة. وعندئذٍ، حين يبعد إمهير فار إمريس نظره عن سون وما وراء النهر، سيطالب أهل سينترا ببلدهم. ومنهم المهاجرون واللاجئون الذين ينظمون أنفسهم في بروجي تحت قيادة فيسجيرد. وهم يُعدّون ما يقارب الثمانية آلاف رجل يحملون السلاح. هل يمكن أن يوجد رأس حربة أفضل منهم؟ إنهم يعيشون أمل استعادة بلدهم الذي اضطروا إلى الفرار منه. إنهم يتحرّقون شوقاً إلى القتال. ومستعدون للهجوم على الضفة اليسرى. ولا ينتظرون سوى كلمة السر».

أكدت ميفي: «كلمة السر والوعد بدعهم. لأن إمهير سيكون قادراً على التمكن من الثمانية آلاف رجل بقوة الحاميات الحدودية، فلن يضطرّ حتى إلى استقدام التعزيزات. يعلم فيسجيرد ذلك جيداً، فلن يتحرك إلى أن يتقين من أن جيوشك، يا فولتيس، ستنزل خلفه على الضفة اليسرى مدعومة بالفيالق الريدانية. ولكن فيسجيرد، في المقام الأول، ينتظر شُبلة سينترا. فعلى ما يبدو أن حفيدة الملكة نجت من المذبحة. فقد زُعم أن أحد الأشخاص رآها بين الهاربين، لكنّ الطفلة اختفت في وقت لاحق في ظروف غامضة. المهاجرون يبحثون عنها بإصرار... لأنهم يحتاجون من أجل استعادة عرش سينترا إلى شخص يجري في عروقه الدم الملكي. دم كالانثي».

قال فولتيس ببرود: «هراء. لقد مرّ أكثر من عامين. إذا لم يُعثر على الطفلة حتى يومنا هذا، فهذا يعني أنها ماتت. يمكننا نسيان هذه الأسطورة.

كالانثي لم تعد موجودة، ولا توجد أي شبلّة، ولا وجود لدم ملكي يستحق العرش. سينترا... لن تكون أبداً بعد الآن كما كانت عليه في حياة اللبوة. وبطبيعة الحال، لا ينبغي أن يقال هذا لمهاجري فيسيجر».

- إذن، سترسل الفدائيين السينتريين إلى الموت؟ (ضيّقت ميفي عينيها). إلى الخطوط الأمامية؟ دون إخبارهم أن سينترا لا يمكن أن تولد من جديد إلا كدولة خاضعة لسلطتك؟ أتقترح علينا جميعاً أن نهاجم سينترا... من أجلك؟ لقد أخضعتّ سودن وبروجي، وتشحد أسنانك من أجل فيردن... وقد شملت رائحة سينترا، أليس كذلك؟».

شخر هينسلت. «اعترف يا فولتيس. هل ميفي محقّة؟ ألهذا السبب تُحرضنا على هذا القتال؟».

قطب حاكم تيميريا وجهه النبيل، وامتنع بغضب: «دعوني وشأني. لا تجعلوا مني فاتحاً يحلم بإمبراطورية. ماذا تقصدون؟ سودن وبروجي؟ إيكهارد من سودن كان أخصاً غير شقيق لوالدتي. تستغربون أن بعد وفاته حملت الولايات الحرة التاج إليّ، أنا قريبه؟ الدم ليس ماءً! أما فينزلاف من بروجي فقدّم لي فروض الطاعة، لكنّ دون إكراه! فعل ذلك لحماية البلاد! لأنه في اليوم الصافي يرى الرماح النيلفجاردية تلمع على الضفة اليسرى لنهر ياروجا!».

قالت ملكة ليريا غير راضية: «نحن نتحدث عن الضفة اليسرى تحديداً. عن الشاطئ الذي علينا مهاجمته. والضفة اليسرى هي سينترا. المدمّرة، المحترقة، الخربة، الهالكة، المحتلة... لكنها لا تزال سينترا. لن يجلب السينتريون التاج لك، يا فولتيس، ولن يقدّموا فروض الطاعة. لن توافق سينترا على أن تكون دولة خاضعة. الدم ليس ماءً!».

قال ديمافيند من أيديرن: «سينترا، إذا... عندما نحررها، فينبغي أن تصبح تحت الوصاية المشتركة بيننا. سينترا هي مصبُّ ياروجا، ونقطة استراتيجية مهمة جدّاً، لا يمكننا أن نسمح لأنفسنا بفقدان السيطرة عليها».

اعترض فيزيمير: «يجب أن تكون بلداً حرّاً».

- حرّاً ومستقلاً وقوياً. بلداً سيكون بوابة حديدية، السور الثاني للشمال، وليس شريطاً لأرض محروقة، عليه ستمكن وحدات الخيالة النيلفجاردية من اكتساب الزخم!».

- هل يمكن إعمار سينترا هكذا من جديد؟ دون كالانثي؟

نفختُ ميفي شفتيها: «لا تهيج نفسك يا فولتيسست. قد أخبرتك، لن يقبل السينتريون الوصاية أو الدماء الغريبة من أجل العرش أبدًا. إذا حاولت أن تفرض نفسك عليهم كبيرًا، فسينقلب الوضع. سينظم فيسيجراد الوحدات مجددًا للقتال، لكن هذه المرة تحت جناحي إمهير. وذات يوم، ستنقض علينا كطليعة للهجوم النيلفجاردي. كرأس الحربة، كما عبّرت عن ذلك مجازيًا قبل قليل».

نفخ فيزيمير: «فولتيسست يعلم ذلك. ولهذا السبب يبحث جاهدًا عن الشبلة، حفيدة كالانثي. ألا تفهمون؟ الدم ليس ماءً، التاج من خلال الزواج. يكفي أن يجد الفتاة ويجبرها على الزواج به...».

تحشرج ملك تيميريا: «هل جُننت؟ الشبلة ماتت! أنا لا أبحث عن تلك البنية إطلاقًا، لكنني لو... فإن فكرة إجبارها على فعل أي شيء لم تخطر ببالي حتى...».

قاطعته ميفي مبتسمة ابتسامة رقيقة: «لن تُضطرَّ إلى إجبارها. أنت لا تزال رجلًا وسيماً كاملاً مكملاً، يا قريبي. وفي عروق الشبلة يجري دم كالانثي. دم حار جدًا. عرفتُ كالي عندما كانت شابة. كانت إذ رأته رجلًا راحت تحرك ساقيها بالتناوب، لدرجة أنه لو وُضعت تحتها حطبة لاشتعلتا نارا لاهبة. وكانت ابنتها، بافيتا، والدة الشبلة، صورة طبق الأصل من أمها. ولعل الشبلة أيضًا كانت مرآة لأمها. قليلًا من بذل الجهد يا فولتيسست، ولن تقاوم الفتاة طويلاً. هذا ما تُعوّل عليه، اعترف؟».

قهقه ديمافيند: «من المؤكد أنه يُعوّل على هذا. يا لها من خُطِيطَة مأكرة رتبها ملكنا! سنهجم على الضفة اليسرى، لكن قبل أن نتفكر في ذلك، سوف يجد زعيمنا فولتيسست البنت ويكسب قلبها، وسيكون لديه زوجة في أول صباحها، يُجلسها على عرش سينترا، وسوف يبكي أبناء الشعب هناك من شدة الفرح، وسيُبللون سراويلهم من زخم السعادة. فسيكون لهم ملكتهم، دمها ولحمها من دم كالانثي ولحمها. سيكون لهم ملكة... لكن معًا مع الملك. الملك فولتيسست».

صرخ فولتيسست، وقد أخذ وجهه يحمرُّ ويشحب بالتناوب: «يا له من هراء تهذون به! ما الذي أصاب رؤوسكم؟ لا توجد ذرة معنى في ما تلهجون به!».

قال فيزيمير بجفاف: «فيه من المعاني الكثير. لأنني أعلم أن ثمة مَنْ يبحث بإصرار عن هذه الطفلة. من، يا فولتيست؟».

- الأمر واضح جدًّا! فيسيجرد والسينثريون!

- لا، ليس هؤلاء. أو على الأقل ليس هم فقط. ثمة آخرون. هم مَنْ الجثث تُعلم طريقهم. من لا يكفُّون عن الابتزاز والرشوة وأعمال التعذيب... إننا وقد صرنا عند هذا الموضع من الحديث، هل حضرة المدعو رينس هو في خدمة أحدكم؟ ها، أرى من خلال وجوهكم، إما أنه ليس كذلك، وإما أنكم لا تعترفون بذلك، والنتيجة واحدة في كلتا الحالتين. أكرر: إنهم يبحثون، يبحثون عن حفيدة كالانثي، يبحثون بطريقة مثيرة للتساؤلات. أسألكم، من يبحث عنها؟

خبط فولتيست المنضدة بقبضته: «إلى الشيطان! ليس أنا! لم يدُر في خلدي قط أن أتزوج طفلة من أجل عرش أو ما شابه! أصلًا أنا...».

ابتسمت ميفي مجدًّا: «أصلًا أنت منذ أربع سنوات تعيش في السر مع زوجة البارون، لا فاليت. تحبان بعضكما مثل حمامتين، وتنتظران حتى يأخذ الموت البارون المسنَّ في نهاية المطاف. لمَ تنظر إليَّ هكذا؟ كلنا يعلم ذلك. مقابل ماذا، في رأيك، ندفع للجواسيس؟ لكن، يا قريبي، فإن عددًا من الملوك، وليس ملكًا واحدًا، سيكونون على استعداد للتضحية بسعادتهم الشخصية من أجل عرش سينترا...».

حكَّ هينسلت ذقنه محدِّثًا حفيظًا: «لحظة. ليس ملكًا واحدًا، تقولون. دعوا إذن، فولتيست وشأنه هنيهة. ثمة آخرون. ذات مرة، أرادت كالانثي أن تُزوَّج حفيدتها بابن إرفيل من فيردن. أيضًا قد تُستَمُّ منه رائحة سينترا. وليس منه وحده فقط...».

تمتم فيزيمير: «هممم... هذا صحيح. لإرفيل ثلاثة أبناء... وماذا نقول عن الحاضرين هنا، الذين لديهم أيضًا أحفاد ذكور؟ هاه؟ ميفي؟ ألا تكذِّبين علينا أنتِ؟».

ابتسمت ملكة ليريا ابتسامة أكثر رقة: «يمكنكم استبعادني. صحيح أن اثنين من ذريتي... ثمرتي النسيان اللذيذ... يجولان حول العالم، هذا إذا لم يُشنقا بعد. أشك أن أحدهما أراد فجأة أن يصبح ملكًا. لا لم يكن لديهما

الاستعداد ولا الميل إلى ذلك. كلاهما كانا أكثر حمقًا من والدهما، طيّب الخالق ثراه. كل مَنْ عرف زوجي الراحل، علم ماذا يعني هذا».

وافق ملك ريدانيا: «هذا حقيقة. كنت أعرفه. هل ابناه حقًا أكثر حمقًا؟ اللعنة، لقد ظننتُ ألا أحدَ يمكن أن يكون أكثر حمقًا منه... معذرة يا ميفي...».

- هذا ليس بالشيء المهم، يا فيزيمير.

- ومن لديه أبناء أيضًا؟

- أنت، يا هينسلت.

- ابني متزوج!

- ولأي شيء السُّم؟ وكما قال أحدكم قولًا حكيماً هنا، من أجل عرش سينترا، يمكن أن يضحى أكثر من فرد بسعادته الشخصية، وسيكون الأمر رابحاً!

- لا أقبل مثل هذا الغمز واللمز! وابتعدوا عني! الآخرون أيضًا لديهم أبناء! نيدامير من هنجفورس لديه اثنان. وهو نفسه أرمل. ليس مسناً. ولا تنسوا أيضًا إستراد ثيسين من كوفير.

أدار فيزيمير رأسه: «سأستبعدهم. تُخطِّط رابطة هنجفورس وكوفير لإقامة روابط أُسرية بينهما. إنهم غير مهتمين بسينترا والجنوب. هممم... لكنَّ إرفيل من فيردن... إنه قريب من هناك».

لاحظ ديمافيند فجأة: «يوجد شخص قريب من هناك بالقدر نفسه».

- مَنْ؟

- إمهير فار إمريس. إنه ليس متزوجاً. وهو أصغر منك، يا فولتيست.

قطَّب ملك ريدانيا جبينه: «تبّاً لدم الكلاب. لو كان هذا حقيقة... لفعل بنا إمهير الأفاعيل! هذا واضح، سيتتبع شعب سينترا ونبلاؤها دَمَ كالانثي دائماً. أتخيلون ماذا كان سيحدث لو أن إمهير قبض على الشبلة؟ اللعنة، هذا ما ينقصنا الآن! ملكة سينترا وإمبراطورة نيلفجاردا!».

شخر هينسلت: «إمبراطورة! أنت تبالغ حقاً، يا فيزيمير. ما حاجة إمهير إلى فتاة صغيرة، ما حاجته إلى الزواج، بحق الشيطان؟ من أجل عرش سينترا؟ قد صارت سينترا ملكاً لإمهير! لقد غزا البلد وجعل منه مقاطعة

نيلفجاردية! يجلس على العرش بكامل ردفه، وما زالت لديه مساحة كافية ليهتز يميناً ويساراً!..

لاحظ فولتيست: «أولاً إمهير يحكم سينترا بالقانون، أو بالأحرى بانعدام القانون الذي يمثله كونه معتدياً. لو كانت الفتاة لديه وتزوجها، لأمكنه أن يحكم قانونياً. أتفهم؟ لن تعود نيلفجارد، المرتبطة بدم كالانثي من خلال الزواج، نيلفجارد الغازية التي يكشر الشمال بأكمله عن أنيابه لمهاجمتها. إنها نيلفجارد، الجارة التي يجب ألا يُستهان بها. فكيف تريد أن تدفع بنيلفجارد إلى ما بعد مارنادال، إلى ما وراء شعب أميلو؟ من خلال مهاجمة المملكة التي تجلس قانونياً على عرشها الشبلة، حفيدة لبوة سينترا؟ تبّاً للوباء! لا أعلم من يبحث عن هذه الطفلة. أنا لم أبحث عنها. لكنني أصرح لكم أنني سأبدأ الآن. لا أزال أعتقد أن البنية ليست حية، لكن لا يمكننا أن نخاطر. تبين أنها شخصية مهمة جداً. إن بقيت حية، فيجب أن نجدها!».

عبس هينسلت: «هل سنقرر على الفور لمن نسلّمها عندما نجدها؟ لا ينبغي لمثل هذه الأمور أن تترك للمصادفة. نعم، يمكننا أن نسلّمها لفدائيي فيسيجرد المقاتلين كراية مثبتة على عود طويل، وليحملوها أمام المقدمة عند مهاجمة ذلك الشاطئ. لكن إذا كانت سينترا المستعادة ستخدمنا جميعاً... أظنكم تعلمون ما أقصده؟ إذا هاجمنا نيلفجارد واسترجعنا سينترا، أمكننا أن نُجلس الشبلة على العرش. لكن الشبلة لا يمكن أن يكون لها سوى زوج واحد. زوج سيعتني بمصالحنا في مصب نهر ياروجا. من من الحاضرين يريد التطوع؟».

تهكمت ميفي: «أنا لا. أتخلى عن الامتياز».

قال ديمافيند بجدية: «وأنا لن أستبعد الغائبين. لا إرفيل ولا نيدامير ولا الثيسينديين. إن فيسيجرد ذاك، وخذوا بعين الاعتبار هذا، قد يفاجئكم ويستفيد على نحو غير متوقع من الراية المثبتة على العود الطويل. هل سمعتم بالزواج المرغنطي⁽¹⁾؟ إن فيسيجرد كبير السن وقبيح الشكل كروث البقر، لكن الشبلة التي أُشربت مغلي الإبسنت والدميانة، قد تقع في حبه

(1) الزواج المرغنطي: زواج بين الناس من رتبتين اجتماعيتين غير متكافئتين، وهذا ما يمنع مرور ألقاب الزوج وامتيازاته إلى الزوجة وأي أبناء يولدون من هذا الزواج.

على غير ما يُتَوَقَّع! هل الملك فيسيجرد، أيها السادة، سيكون له مكان في خططنا؟».

تمتم فولتيست: «لا. ليس له مكان في خططي».

تردد فيزيمير: «هممم... وأيضًا في خططي. فيسيجرد أداة، وليس شريكًا، وهذا الدور، لا غيره، هو الذي سيؤديه في خططنا للهجوم على نيلفجار. فضلًا عن ذلك، إذا كان الشخص الذي يبحث عن الشبلة بمثل هذا الإصرار هو إمهير فار إمريس، فلا يمكننا المخاطرة».

أكد فولتيست: «لا يمكننا ذلك إطلاقًا. لا يمكن للشبلة أن تقع في يدي إمهير. لا يمكن أن تقع في يدي أحد... في اليدين الخطأ... حية».

عبست ميفي: «قتل الأطفال؟ ليس حلًا حسنًا، أيها السادة الملوك. لا يصح. وربما يكون قاسيًا دون داع. لنجد الفتاة أولًا، لأنها ليست عندنا حتى الآن. وعندما نجدها، أعطوني إياها. سأحتفظ بها عامين في إحدى القلاع في الجبال، وسأزوجها أحد فرساني. حين ترونها من جديد، سيكون لديها طفلان، وبطن، أوه، هكذا».

أوما فيزيمير برأسه: «يعني، إن كان حسابي صحيحًا، سيكون أماننا ثلاثة على الأقل من المرشحين اللاحقين المحتملين والمدعين؟ لا، يا ميفي. ذلك حقًا ليس رائعًا، لكنَّ الشبلة، إذا كانت قد بقيت حية، فيجب أن تموت الآن. من أجل المصلحة الوطنية. أيها السادة؟».

طرق المطرُ النوافذَ. عصفتِ الرياحُ الهوجاءُ بين أبراج قلعة هاجي. سكت الملوكُ.



كرَّرَ رئيس الديوان: «فيزيمير، وفولتيست، وديمافيند، وهينسلت، وميفي. التقوا في اجتماع سري في قلعة هاجي قرب نهر بونتار. وتشاوروا سرًا».

تحدَّثَ رجل نحيف، أسود الشعر، دون أن يستدير، وكان يرتدي قفطانًا من جلد الموط، عليه علامات من ضغطات الدرع وبقع من الصدأ: «يا لها من رمزية. إن فيرفوريل قد هزم، قبل أقل من أربعين عامًا، جيوش ميديل في هاجي بالتحديد، ثم قوَّى سلطته في وادي بونتار، وأرسى الحدود الحالية بين أيديرن وتيميريا. واليوم، تفضَّلوا انظروا، إن ديمافيند، ابن فيرفوريل،

يدعو فولتيس، ابن ميديل، إلى هاجي، ويكمل ذلك باستقدام فيزيمير من تريتوجور إلى هناك، وهينسلت من أرد كارايغ، والأرملة المرحمة ميفي من ليريا. يجتمعون ويتشاورون سرًا. هل يمكنك أن تخمن عمًا تشاوروا، يا كويهورن؟».

قال رئيس الديوان بإيجاز: «أخمن».

ولم يقل كلمةً أخرى. كان يعلم أن الرجل الذي أدار ظهره، لا يطيق إظهار الفصاحة والتعليق على الحقائق البديهية في حضوره.

استدار الرجل الذي يرتدي قفطان الموط، ووضع يديه خلف ظهره، وسار ببطء من النافذة إلى المنضدة، ثم عاد إلى مكانه: «لم يدعوا إثاين من سيدارس ولا إرفيل من فيردن. ولم يدعوا إستراد ثيسين ولا نيدامير. هذا يعني أنهم إما واثقون جدًا وإما غير واثقين جدًا. لم يدعوا أحدًا من مجلس السحرة. إنه أمر مثير. وذو دلالات. يا كويهورن، ابذل جهدك كي يعلم السحرة بشأن هذا الاجتماع. فليعلموا أن ملوكهم لا يعاملونهم بالتساوي. يبدو لي أن السحرة من المجلس كانت لديهم شكوك حول هذا الأمر. فبيّنه لهم».

- أمركم مطاع.

- هل من أخبار من رينس؟

- لا أخبار.

توقف الرجل عند النافذة، ووقف هناك هنيهة طويلة، محدقًا إلى التلال التي بلّها المطر. انتظر كويهورن، وهو يطبق ويفتح راحة يده على مقبض سيفه بقلق. كان يخشى أن يُضطرَّ إلى الاستماع لحديث ذاتي طويل. كان رئيس الديوان يعلم أن الرجل الذي يقف بجانب النافذة سيعدُّ مثل هذا الحديث الذاتي محادثة، والتحدث بمنزلة شرف ودليل ثقة. كان يعلم ذلك، لكنه لا يزال يكره الاستماع إلى الأحاديث الذاتية.

- كيف وجدتَ هذا البلد، أيها الوالي؟ هل أفلحت في حب مقاطعتك الجديدة؟

ارتعش متفاجئًا. لم يتوقع هذا السؤال. لكنه لم يفكر طويلًا في الإجابة. فإن عدم الصدق والتردد يمكنهما أن يكلفاه الكثير.

- لا يا صاحب الجلالة. لم أحبها. هذا البلد غاية... الكآبة.

أجاب الرجل دون أن يستدير: «كان مختلفًا في زمن ما. وسيكون مختلفًا في يوم ما. سترى. سترى سينترا رائعة ومبهجة مرة أخرى، يا كويهورن. أعدك. لكن، لا تحزن، لن أبقى هنا مدةً طويلةً. وسيتولى شخص آخر ولاية المقاطعة. سأحتاج إليك في دول أنجرا. ستنتقل على الفور بعد سحق التمرد. سأحتاج في دول أنجرا إلى شخص يتحمل المسؤولية. شخص لا يمكن استفزازه. الأرملة المرحمة من ليريا أو ديمافيند... وسيرغبان في استفزازنا. ستفرض على الضباط الشباب الانضباط. ستبرّد الرؤوس الحامية. ستسمحون لأنفسكم بالاستفزاز حين أعطي الأمر. ليس قبله».

- نعم سيدي!

انبعثت قعقة الأسلحة والمهاميز من ممرات الغرف، وتعلت أصوات مرتفعة. طُرق الباب. استدار الرجل المرتدي قفطانً الموظ منكشفًا عن النافذة، وأومأ برأسه موافقًا. انحنى رئيس الديوان قليلًا وخرج.

عاد الرجل إلى المنضدة، جلس وحنى رأسه فوق الخرائط. نظر إليها مليًا، وأخيرًا أسند جبهته إلى كفيه المشبكتين. برقت ألماسة ضخمة في خاتمه وسط ضوء الشموع بألف شرارة.

انبعث صرير خفيف من الباب: «صاحب الجلالة؟».

لم يغير الرجل وضعيته. لكن رئيس الديوان لاحظ أن يديه قد ارتجفتا. عرف ذلك إثر بريق الألماسة. وأغلق الباب خلفه بحذر وهدهوء.

- ثمة أخبار، يا كويهورن؟ ربما من رينس؟

- لا، يا صاحب الجلالة. لكنها أخبار جيدة. لقد قُمع التمرد في المقاطعة. وسحقنا المتمردين. لم يتمكن من الفرار إلى فيردن سوى عدد قليل. وقد قبضنا على القائد، الدوق فيندهالم من أترى.

قال الرجل بعد لحظة، دون أن يرفع رأسه المسنود إلى يديه حتى الآن: «حسنًا. فيندهالم من أترى... مُروا بقطع رأسه. لا... لا تقطعه. اعدمه بطريقة مختلفة. بارعة وطويلة وقاسية. وعلنا طبعًا. ضروري أن يكون مثالًا للرعب. شيء من شأنه أن يخيف الآخرين. لكن من فضلك، يا كويهورن، وفّر عليّ التفاصيل. ليس عليك أن تكون دقيقًا في استخدام الأوصاف الخلابة في تقاريرك. لا أجد متعة في ذلك».

أوماً رئيس الديوان برأسه وابتلع ريقه. هو أيضًا لا يجد متعة في ذلك. لا متعة على الإطلاق. واعتزَمَ تكليف إعداد عملية الإعدام وتنفيذها إلى المختصين. ولم تكن لديه أي نية لسؤال المتخصصين عن التفاصيل. بل وأكثر من ذلك ألا يكون حاضرًا وقتئذٍ.

رفع الرجل رأسه، وتناول الرسالة من على المنضدة، ثم كسر الأختام: «ستكون حاضرًا عند تنفيذ الإعدام. رسميًا. بصفتك والي مقاطعة سينترا. ستحل محلي. أنا لا أعتزم النظر إلى ذلك. هذا أمر، يا كويهورن».

- نعم سيدي!

لم يحاول رئيس الديوان حتى إخفاء حرجه واستيائه. لا شيء يمكن إخفاؤه عن الرجل الذي أعطى الأمر. ونادرًا ما تمكن أحد من فعل ذلك.

ألقي الرجل نظرةً على الرسالة المفتوحة، وألقى بها بعد لحظة قصيرة في نار الموقد.

- كويهورن.

- نعم، يا صاحب الجلالة؟

- لن أنتظر تقريرَ رينس. اجعلِ السحرة على أهبة الاستعداد، وليهيئوا الاتصالات الآلية مع نقطة الاتصال في ريدانيا. ولينقلوا أمري الشفهي الذي يجب توجيهه على الفور إلى رينس. محتوى الأمر كما يلي: يتعيَّن على رينس أن يتوقف عن التلطف، وأن يكفَّ عن اللعب مع الويتشر. لأن ذلك قد ينتهي بطريقة سيئة. يُمنع اللعب مع الويتشر. أنا أعرفه، يا كويهورن. إنه أدهى من أن يقود رينس إلى الأثر. أكرر، على رينس أن يُنظَّم عملية اغتيال، وتحبيد الويتشر من اللعبة على الفور. قتلًا والاختفاء بعد ذلك، والتربص، وانتظار الأوامر. وإذا عثر على أثر للساحرة في وقت أبكر، فيتعيَّن عليه أن يتركها وشأنها. لا يمكن أن تسقط شعرة من رأس ينيفر. هل حفظت هذا، يا كويهورن؟

- نعم سيدي.

- يجب أن تكون الاتصالات الآلية مشفَّرة، ومحمية بقوة فلا تُفكَّ بالسحر. أُنذِر السحرة بهذا. إذا لم يُحسنوا الفعل، وإذا علم أشخاص غير مصرح لهم بفحوى هذا الأمر، فسأحملهم المسؤولية.

تنحني رئيس الديوان واستقام: «نعم سيدي!».

- هل من شيء آخر، يا كويهورن؟

- جراف... صار هنا، يا صاحب الجلالة. لقد وصل كما يقتضي الأمر.

ابتسم الرجل: «صار هنا؟ تسرع يستحق الإعجاب. أمل ألا يكون قد أنكح حصانه الأدهم، الذي كان الجميع يحسدونه عليه بشدة. دعه يدخل».

- هل يجب أن أكون حاضرًا في أثناء المحادثة، يا صاحب الجلالة؟

- أجل طبعًا، يا والي سينترا.

دخل الفارس، الذي استدعي من بين الممرات إلى الحجرة، يخطو خطوًا نشطًا وقويًا وصاحبًا، ومقرقعا بدرعه السوداء. توقف، وانتصب باعتزاز، وألقى عن كتفه معطفه الأسود المبلل والمتسخ بالوحل، ووضع كفه على مقبض سيفه الضخم. أسند إلى وركه خوذة سوداء مزينة بجناحي طائر جارج. نظر كويهورن إلى وجه الفارس. وجد فيه اعتزازًا عسكريًا صلبًا وكبرياء. لم يجد شيئًا كان يجب أن يرى على وجه رجل قضى السنتين الأخيرتين في قلعة، في مكان لا يمكنه الخروج منه إلا إلى المقصلة، كما كان كل شيء يشير إلى ذلك. ابتسم رئيس الديوان ابتسامة تكاد تكون مخفية. كان يعلم أن ازدياء الموت، والشجاعة الجنونية عند الفتیان سببهما التهور ولا شيء غيره. كان يعلم ذلك تمامًا. هو نفسه كان ذات يوم مثل هذا الفتى.

أسند الرجل، وهو جالس خلف المنضدة، ذقنه إلى كفيه المشبكتين، ونظر إلى الفارس بانتباه. شد الفتى جسده مثل وتر.

قال له الرجل من خلف المنضدة: «كي يكون كل شيء واضحًا، اعلم أن الخطأ الذي ارتكبه في هذه المدينة منذ عامين لم يُغتفر لك بأي حال. ستحصل على فرصة أخرى. ستتلقى أمرًا آخر. وسيعتمد قراري بشأن مصيرك المقبل على كيفية تنفيذك إياه».

لم يرتعش وجه الفارس الشاب، ولم تهتز ريشة واحدة من الجناحين اللذين يزينان الخوذة المسنودة إلى وركه.

تابع الرجل: «أنا لا أخدع أحدًا أبدًا، ولا أعطي أحدًا آملًا كاذبة. فاعلم أن لديك بعض الأمل لإنقاذ رقبتك من فأس الجلال، إذا لم ترتكب خطأ هذه المرة،

طبعًا. فرصك في الحصول على عفو كامل ضئيلة. ولمسامحتك ونسيان الأمر... فإنَّ الفرص معدومة».

وفي هذه المرة لم يرتعش الفارس الشاب ذو الدرع السوداء، لكنَّ كويهورن لمح بريقًا في عينيه. فكر: إنه لا يصدق. لا يصدق ويوهم نفسه. إنه يرتكب خطأً عظيمًا.

استأنف الرجل من خلف المنضدة: «أمر بالانتباه التام. وأنت أيضًا، يا كويهورن. لأنَّ الأوامر التي سأصدرها بعد قليل ستنتطبق عليك أيضًا. بعد قليل. فلا بدَّ لي من التفكير في فحواها ووقعها».

رئيس الديوان مينو كويهورن، والي مقاطعة سينترا، والقائد العام للجيش المستقبلي جيش دول أنجرا، نتر رأسه واستقام ويده على مقبض سيفه. واتخذ الوضعية نفسها الفارس المرتدي درعًا سوداء، ومعه خوذة مزينة بجناحي طائر جارج. وانتظر كلاهما. بصمت، وبصبر. تمامًا كما ينبغي للمرء أن ينتظر الأوامر، التي يفكر في فحواها ووقعها إمبراطور نيلفجارد، إمهير فار إمريس، ديثفين أدان إن كارن أيب مورفود، اللهب الأبيض الراقص على جثوة الأعداء.



استيقظت سيري.

كانت مستلقية، أو بالأحرى نصف جالسة، ورأسها مستند عاليًا إلى عدة وسائد. كانت الكِمَّادات التي على جبينها قد صارت دافئة ورطبة قليلًا فحسب. رمتها؛ لم تكن قادرة على تحمل ثقلها غير المريح والحرقان في جلدها. كانت تتنفس بصعوبة. حلقتها جاف وأنفها جله مسدود بدم متخثر. لكنَّ الإكسير والتعاويد عملت عملها، فالألم الذي شوَّش بصرها، وسحق جمجمتها قبل بضع ساعات انكفأ واختفى، ولم يتبقَّ منه سوى خفقان خفيف وضغط في صدغيها.

لمست أنفها بظاهر يدها، بحذر. ولم تعد تنزف. مكتبة سر من قرأ فكرت: يا له من حلم غريب حلمته. إنه أول حلم منذ أيام وأيام. أول حلم لم أشعر بالخوف فيه. أول حلم لم يخصني. كنت... مراقبة. رأيت كلَّ شيء كما لو كان من فوق، من الأعلى... كما لو كنت طيرًا... طيرًا ليليًا...

حلماً رأيتُ فيه جيرالت.

كان ليل في ذاك الحلم. ومطر غُضُن وجه القناة، أحدث صخباً على ألواح البسوف وأسطح السقائف القشبية، ولمع على ألواح الجسور الخشبية على متن القوارب وسفن النقل... وجيرالت كان هناك. ليس وحده، كان معه رجل يعتمر قبعة مضحكة عليها ريشة، تميل إلى الأسفل جراء الرطوبة، وفتاة نحيفة مرتدية معطفاً أخضر ذا قلنسوة... سار الثلاثة ببطء وحذر على الجسر المبلل... وأنا رأيتهم من الأعلى. كما لو كنتُ طيراً، طيراً ليلياً...

توقف جيرالت. سأل وكان لا يزال بعيداً. لا، قالت الفتاة النحيلة وهي تنفض الماء عن معطفها الأخضر. لقد أوشكنا بلوغ المكان المنشود... هيه، ياسكير، لا تتخلفُ عنا، فتضيع في هذه الأزقة... وأين فيليبيا، بحق الجحيم؟ لقد رأيتها قبل قليل، كانت تطير على طول القناة... يا لرداءة الجو... لنذهب. قودينا، يا شاني. بالمناسبة، والكلام بيننا، من أين تعرفين هذا المداوي؟ ما الذي يربطك به؟

بين الحين والآخر، أبيع له الأدوية المنهوبة من المشغل في الجامعة. لم تحمليقن هكذا؟ إن زوج والدتي يدفع رسومَ دراسيةٍ بمشقة... ويحدث أحياناً أنني أحتاج إلى قرش واحد... والمداوي الذي تكون لديه أدوية حقيقية يشفي الناس... أو على الأقل لا يسلمهم... حسناً، هيا بنا.

فكرتُ سيرري: حلم غريب. من المؤسف أنني استيقظت. وددتُ أن أرى ما سيحدث... وددتُ أن أعلم ماذا يفعلون هناك... إلى أين هم ذاهبون...

انبعثتُ أصوات من الغرفة المجاورة، أصواتٌ أيقظتها. تكلمتُ الأم نينيكى بسرعة، وكان واضحاً أنها مهتاجة ومتوترة وغاضبة. قالت: لقد خيبتُ ثقتي. لم يكن من اللازم أن أسمح بهذا. كان يمكنني التخمين أن نفورك منها سيؤدي إلى التعاسة. لم يكن من اللازم أن أسمح لك... إنني أعرفكِ. أنتِ معدومة الرحمة، قاسية، ومما يزيد الأمر سوءاً، أنك أيضاً غير مسؤولة وغير حذرة. تعذبين هذه الطفلة دونما شفقة، وتجبرينها على بذل جهود ليس في وسعها أن تتحملها. لا قلب لك.

حقاً لا قلب لك، يا نينيفر.

أرهفتُ سيرري أذنيها، متوخيةً سماعَ إجابة الساحرة، صوتها البارد والصلب والرنان. متوخيةً سماعَ ما سيكون رد فعلها، وكيف ستسخر من

كبيرة الكاهنات، وكيف ستستهزئ برعايتها المفرطة. وكيف ستقول ما تقول عادة؛ أن تكوني ساحرة ليس بالأمر التافه، وليس عملاً للأنسات الناعمات كالخزف، والرقائق كالزجاج الشفاف. لكنَّ ينيفر أجابت بصوت خفيض. خفيض جدًا لدرجة أن البُنيَّة لم تكن قادرة على الفهم فحسب، بل حتى على التمييز بين الكلمات بحد ذاتها.

سأغفو. فكرتُ وهي تلمس بحذر ولطف أنفها، الذي كان لا يزال شديد الحساسية ومؤلمًا ومسدودًا بالدم المتخثر. سأعود إلى حلمي. سأرى ما يفعلُه جيرالت هناك في الليل، تحت المطر، عند القناة...

أمسكتُ ينيفر بيدها. سارتا كلتاهما في ممر طويل مظلم، بين أعمدة حجرية، أو ربما أصنام، ولم تتمكنْ سيرى من تمييز الأشكال في الظلام الدامس. ولكنَّ شخصًا ما كان وسط الظلام، شخصًا ما اختبأ هناك، وكان يراقبهما وهما سائرتان. سمعت همسات خافتة كحفيف الريح.

أمسكتُ ينيفر بيدها، سارت بسرعة وثقة، مفعمة بالعزيمة لدرجة أن سيرى كادت لا تلحق بها. انفتحت الأبواب أمامهما. متتابعةً. واحدًا تلو الآخر. أبواب كثيرة لا حصر لها، لها مصاريع عملاقة وثقيلة، انفتحت أمامهما دون صرير.

جنَّ الظلام. رأتُ سيرى أمامها بابًا آخر. لم تبطُ ينيفر مشيها، لكنَّ سيرى علمت فجأة أن الباب لا يفتح من تلقاء نفسه. وفجأة انتابها يقين مخيف بأن فتح هذا الباب ممنوع. وممنوع عليها أن تمرَّ منه. وأن شيئًا ما ينتظرها خلف هذا الباب...

توقفتُ وحاولتُ الإفلات، لكنَّ يد ينيفر كانت قوية وعنيدة، وكانت تجرُّها إلى الأمام بإصرار. وأدركتُ سيرى أخيرًا أنها خينت وخُدعتُ وبيعَتْ. وأنها كانت دائمًا، ومنذ اللقاء الأول، منذ البداية، منذ اليوم الأول، مجرد دمية، مجرد قرقوز على عود. سحبَت نفسها بقوة أكبر وأفلتت من القبضة الضاغطة. ماج الظلام مثل الدخان، وتلاشتِ الهمسات في العتمة فجأة. خطتِ الساحرة خطوة إلى الأمام وتوقفتُ، ثم استدارتُ ونظرتُ إليها.

إذا كنتِ خائفة، فارجعي.

ممنوع فتح هذا الباب. أنتِ تعلمين ذلك.

أعلم.

ومع ذلك تقوديني إلى هناك.

إذا كنتِ خائفة، فارجعي. لا يزال الوقت كافيًا للرجوع. لم يفتِ الأوان بعد.
وأنتِ؟

بالنسبة إليّ قد فات.

التفتت سيرى خلفها. رغم الظلام المخيم على المكان، رأيت الباب الذي
قد تجاوزتاه من مدى طويل وبعيد. ومن هناك، من بعيد، من وسط العتمة،
سمعت...

قرقعة حدوات خيل. صرير درع سوداء. ورفرفة جناحي طير جارح.
وصوت. صوت خافت، يخرق الجمجمة...

لقد أخطأت. خلطت بين السماء والنجوم المنعكسة على صفحة البركة
ليلاً.

استيقظت. فجأة، خطفت رأسها إلى الأعلى، مسقطاً الضمادة الحديثة،
لأنها رطبة وباردة. كانت تتصب عرقاً، وراح الألم البليد يطن ويخفق في
صدغيها من جديد. كانت ينيفر جالسة بجانبها على السرير. تدير رأسها
جانباً كي لا تتمكن سيرى من رؤية وجهها. فلم تر سوى عاصفة من الشعر
الأسود.

همست سيرى: «حلمتُ حلمًا... في هذا الحلم...».

قالت الساحرة بصوت غريب ليس كصوتها: «أعلم. لهذا أنا هنا. أنا
بجوارك».

خلف النافذة، وسط الظلام، نقر المطر أوراق الشجر.



شجر ياسكير وهو ينفض الماء من حافة قبعته المبتلة بالمطر: «تباً لدم
الكلاب. إنه حصن حقيقي، وليس منزلاً. ممّ يخاف هذا المداوي ليحصن نفسه
إلى هذه الدرجة؟».

تمايلت القوارب وسفن النقل الراسية على الرصيف بتكاسل على مياه
الأمطار المتموجة، وتصادمت بطرقات خافتة، وصرّت صريراً وقعقت
بالسلاسل.

أوضحتُ شاني: «إنها مِنطَقَة الميناء. لا يَعدُم هنا وجود قطاع الطرق والحِثالة محليين ووافدين. يذهب كثير من الناس إلى مِهرمان ويَجلبون له المال... الجميع يعلمون هذا. كما يعلمون أيضًا أنه يعيش وحده. لذا فإنّه وفّر الأمانَ لنفسه. أُستغربون فعله؟».

نظر جيرالت إلى المنزل المبني على أعمدة مَثبتة في قاع القناة، على عمق ما يقرب خمس قامات من الرصيف البحري: «مُطلِّقًا. إني أَقلِّبُ الأمور للاهتداء إلى طريقة للوصول إلى الجزيرة، إلى هذا الكوخ العائم على الماء. ربما سيتعين علينا أن نستعير أحد هذه القوارب خلسة».

قالت طالبة الطب: «لا حاجة إلى ذلك. ثمة جُسير متحرك هناك».

- وكيف ستَقنعين المداوي بأن يُنزل الجُسير؟ وما عدا ذلك، لا يزال باب هناك، ولم نأخذ المدق معنا....».

- دعوا الأمر لي.

حطتُ بومة رمادية كبيرة على مُتكَأ حاجز الجسر دون ضجيج، رُفِرتُ بجناحيها، وانتفشَتُ وتحولتُ إلى فيليبا إيلهارت التي بدت منتفشة ومبتلةً أيضًا.

تمتمتِ الساحرة بغضب: «ماذا أفعل أنا هنا؟ ماذا أفعل هنا معكم، اللعنة؟ أنوس على عمود مبلل... وعلى حافة الخيانة العظمى. إذا اكتشف ديكسترا أنني ساعدتكم... وإضافة إلى ذلك هذا الرذاذ! أكره الطيران عندما تمطر. هل هذا هنا؟ أهذا منزل مِهرمان؟».

أكد جيرالت: «نعم. اسمعي، يا شاني. سنحاول....».

تراصوا بإحكام وبدأوا يتهايمسون مختبئين وسط العَتَمَة تحت إفريز سطح السقيفة المشغول من القصب. من الحانة الواقعة على جانب القناة المقابل، سقط على الماء شعاع من الضوء. سُمِعَ غناء وضحك وصراخ. جرجر ثلاثة من عمال النقل النهري أنفسهم على رصيف المرفأ. كان اثنان منهم يتشاجران ويشد ويدفع أحدهما الآخر، ويتقاذفان الشتائم ذاتها مرارًا وتكرارًا إلى حد الملل. وراح ثالثهما يبول في القناة وقد اتكأ على وتد، مصفّرًا وهو يفعل ذلك بطريقة مصطنعة.

طنطن، نطقتُ صاجة حديدية مربوطة بحزام إلى عمود بجانب الجُسير.

طنطن.

فتح المداوي ميهرمان الشبَّاك وتطلَّع. ولم يكن من المصباح الذي في يده إلا أن خطف بصره، فوضعه جانبًا.

زأر مهتاجًا: «أي شيطان هذا يطنطن هناك في الليل؟ دُقَّ على رأسك الفارغ، أيها المتغوط، أيها القضيب المعوجُّ، حينما تنتابك شهوة الدق! هيا انقلعوا من هنا، أيها المدمنون على الخمرة، الآن فورًا! عندي هنا القوس مهياة! هل يريد أحدكم في مؤخرته سهمًا بطول ست بوصات؟».

- سيد ميهرمان! هذا أنا، شاني!

انحنى المداوي إلى الأمام أكثر: «هاه؟ الآنسة شاني؟ الآن، في الليل؟ كيف ذلك؟».

- أنزلوا الجسر، يا سيد ميهرمان! أحضرتُ لكم ما طلبتم!

- الآن تحديدًا، في العَتَمَة؟ ألم يكن بإمكانكم في النهار، يا آنسة؟

لاح على الجُسير طيف نحيف يرتدي معطفًا أخضر: «الأعين كثيرة جدًّا في النهار. إذا افتضح ما أحمله إليكم، فسوف يطردونني من الأكاديمية. أنزلوا الجسر، لن أقف تحت المطر، لقد ابتلَّ حذائي الجلدي!».

لاحظ المداوي متشككًا: «لست وحدك، يا آنسة. عادة تأتين وحدك. من معك هناك؟».

- صديق، إنه مثلي طالب. هل كان عليَّ أن أسير إلى منطقتك المحرمة وحدي في الليل؟ فهل عليَّ أن أفرَّط بشرفي، أم ماذا؟ وأخيرًا دعوني أدخل بحق الشيطان!

حرَّر ميهرمان قفل الملفاف الرافع، وهو يتمتم بصوت خافت، فانخفض الجسر محدثًا صريرًا، واصطدم بالأواح الجُسير البحري. خطا المداوي متقدمًا إلى الباب، ثم زحزح الرُتج والمزاليج. وتطلع بحذر دون أن يُنحِّي القوس المشدودة.

لم يلحظ القبضة السوداء التي انطلقت نحو صدغه، وكانت داخل قفاز مغطى بأزرار فضية. ومع أن الليل كان دامسًا، والقمر محاقًا، والسماء غائمة، رأى فجأة عشرة آلاف نجم ساطع يخطفون الأبصار.

مرّر توبلنك ميشليت مرة أخرى بالمجلخ على حد سيفه، محدثًا انطباعًا بأن العمل الذي يؤديه يأخذه كليًا.

وضع المجلخ جانبًا، ومسح النصل بقطعة من جلد أرنب مشحمة، وتفحص الشفرة بعدم رضا: «وإذن، علينا أن نقتل إنسانًا واحدًا من أجلكم. إنسانًا عاديًا يجول في شوارع أوكسينفورت بمفرده، ليس له حراس ولا مرافقة ولا حماية شخصية. ولا حتى خدم من الغلمان. للحصول عليه، لن يتعين علينا اقتحام أي قلعة أو مقر بلدية أو أي منزل محصن أو حامية... أليس كذلك، يا حضرة السيد رينس؟ هل فهمتكم على نحو صحيح؟».

الرجل المشوه الوجه بندبة سببها حرق، وافق بإيماءة من رأسه، وضيّق قليلًا عينيه الداكنتين الرطبتين الناضحتين بتعابير غير سارة.

تابع توبلنك: «فضلًا عن ذلك، لن نُضطرّ بعد قتل هذا الشخص إلى الاختفاء في مكان ما، خلال النصف المقبل من العام، فلن يطاردنا أحد أو يتعقبنا. لن يحرش أحد السّفلة ولا صائدي الجوائز علينا. لن نخضع لا للثأر الدموي ولا للانتقام. وبمعنى آخر، يا سيد رينس، هل علينا أن نقتل من أجلكم شخصًا تافهًا عاديًا اعتياديًا ولا أهمية له؟».

لم يجب الرجل ذو الندبة. نظر توبلنك إلى إخوته الجالسين على الأريكة بسكون وجمود. وظل ريزي وفلافويس ولودوفيكو كعادتهم صامتين. كانوا هم الذين يقتلون ضمن الفريق الذي شكّلوه، فيما اختصّ توبلنك بالكلام. فوحده توبلنك من التحق بمدرسة المعبد. كان مثل إخوته يقتل بمهارة، لكنه إضافة إلى ذلك كان يجيد القراءة والكتابة. والكلام.

- وإنكم من أجل قتل مثل هذا التافه العادي لا تستأجرون، يا سيد رينس، أيًا كان من سفاحي الميناء، بل تستأجروننا نحن، الإخوة ميشليت؟ مقابل مائة كرونة نوفيجرادية؟

قال الرجل ذو الندبة بامتعاض: «هذا هو سعركم المعتاد، أليس كذلك؟».

أنكر توبلنك ببرود: «هذا ليس صحيحًا. فنحن لسنا لقتل التافهين العاديين. وإن حدث ذلك... يا سيد رينس، فإن التافه الذي تريد أن ترونه جثة هامدة سيكلفكم مائتي كرونة. مائتي كرونة لامعة غير مغشوشة، مضروبة بعلامة دار سك العملة النوفيجرادية. تعلمون لماذا؟ لأن هذه القضية فيها مستمسك، أيها السيد الفاضل. ليس عليكم أن تخبرونا أي مستمسك

هو وسيسير الأمر. لكنكم ستدفعون ثمنه. قلت مائتين. إذا وافقتم على هذا السعر، فيمكنكم عدُّ عدوكم ميتًا. وإن لم تبتغوا الموافقة، فابحثوا عن شخص آخر لأداء هذا العمل».

خيم الصمت في القبو الذي فاحت منه رائحة عفونة ونبیذ محمّض. انطلق صرصور على الأرضية، حائًا أرجله بحركة سريعة. داسه فلافیوس میشلیت بحركة سريعة من ساقه، محدثًا فرقة دون أن یُغیّر وضعيته إلا قليلًا، ودون أن یُغیّر تعابیر وجهه بتاتا.

قال رینس: «اتفقنا. ستحصلون على مائتين. لنذهب».

توبلانتک میشلیت، القاتل المحترف منذ أن كان في الرابعة عشرة من عمره، لم یفصح ذهوله من وقع ما سمع حتى لو برقة جفن. لم ی توقع أنه سیتمكن من أن یساوم على أكثر من مائة وعشرين، أو على مائة وخمسين كحد أقصى. فجأة یقن من أنه قلل كثيرًا من أهمية المستمسك الخفي في هذا العمل.



استعاد المداوي میهرمان وعیه وهو على أرضية غرفته. كان مستلقيا على ظهره، مقيدًا مثل خروف. أحسّ بألم فظيع في مؤخرة رأسه، فتذكر أنه عندما ترنح هاويًا صدم برأسه إطار الباب. وأوجعه أيضًا صدغه الذي تلقى ضربة. لم یستطع التحرك، فقد كان حذاء عالٍ مشبوك بأبازیم یضغط صدره بشدة ودون رحمة. نظر المداوي إلى الأعلى، مضيقًا عينیه ومقربًا وجهه. كان الحذاء لرجل طويل القامة ذي شعر أبيض كالחليب. لم یر میهرمان وجهه، فقد كان مخفيًا في الظلام، الذي لم یضئه الفانوس الموضوع على المنضدة. تأوه: «أبقوني حيًا... أبقوني، أقسم بالآلهة... سأعطیکم المال... أعطیکم كل شيء... سأریکم أين هو مخبأ...».

- أين رینس، یا میهرمان؟

ارتجف المداوي بأكمله، سامعًا ذاك الصوت. لم یکن من الخوافین، وما كانت تخيفه إلا أشياء قليلة. لكن صوت الرجل ذي الشعر الأبيض كان یضم كل الأشياء التي تخيفه. وبضعة أشياء أخرى تضاف إليها.

وبجهد خارق لقدرات البشر، سیطر على الخوف الذي كان یزحف في أحشائه مثل دودة مقززة.

تظاهر بالدهشة: «هاه؟ ماذا؟ من؟ ماذا تقولون؟».

انحنى الرجل إلى الأمام فرأى ميهрман وجهه. رأى عينيه. وعلى إثر هذا المشهد انزاحت معدته حتى بلغت المستقيم.

- لا تراوغ يا ميهрман، لا تلعبُ بذيك (نطق منبعثاً من الظل صوت شاني، طالبة الطب في الجامعة، المعروف). عندما كنتُ في منزلك قبل ثلاثة أيام، جلس حضرته هنا، على هذا الكرسي الخشبي، خلف هذه المنضدة، مرتدياً معطفاً مبطناً بفرو فأر المسك. شرب الخمر، وأنت لا تستضيف أحداً أبداً إلا أفضل ما لديك من أصدقاء. لقد تودّد إليّ، وحاول بوقاحة استمالتني للرقص على إيقاع «الأجراس الثلاثة». حتى إنني اضطررتُ إلى ضربه على يديه لأنه أخذ يلمسني، أتذكر؟ وأنت قلت: «دعوها، يا سيد رينس، لا تخيفوها مني، لا بدّ لي من العيش مع الأكاديميين على نحو جيد، وإدامة الشغل». وقهقهتهما كلاهما، أنت وسيدك رينس بوجهه المحروق. لذا لا تتظاهر بالغباء الآن، فلم تلقَ من هم أغبى منك. تكلم، ما دام يُطلَب منك بتأدب.

فكر المداوي: آخ، أيتها الطالبة المتذاكية. أيتها السافلة الخائنة، أيتها العاهرة ذات الشعر الأحمر، سأجِدك قريباً، وسأرد لك الصاع صاعين... فقط لو أخرج من هذا الأمر...

راح يئنُّ وهو يتلوّى، محاولاً عبثاً تحرير نفسه من تحت عقب الحذاء الذي كان يسحق عظم قصه: «أيُّ رينس هذا؟ وكيف لي أن أعرف من هو وأين هو؟ يفد إلى هنا أشخاص مختلفون، أشكالاً ألواناً، وماذا أنا...».

انحنى ذو الشعر الأبيض أكثر، واستلَّ ببطء خنجره من الجزء العلوي من نعله الأخرى، وزاد من قوة ضغط نعله الأولى على صدر المداوي.

قال بصوت خافت: «ميهрман. إن شئتُ فصدق، وإن لم تشأ فلا تصدق. لكنْ إذا لم تخبرني بمكان رينس حالاً... إذا لم تبخ لي على الفور كيف تتواصل معه... فسوف أقدمك قطعة قطعة طعاماً لأسماك الأنقليس في القناة. وسأبدأ بالأذنين».

شيء ما في صوت ذي الشعر الأبيض جعل المداوي يُصدق كل كلمة على الفور. نظر إلى نصل الخنجر فعرف أنه أحدُ من السكاكين التي كان هو نفسه يقطع بها القروح والدمامل. أخذ يرتعد لدرجة أن الحذاء الموضوع على

صدره راح يهتز قافزًا بتوتر. لكنه ظل صامتًا. كان عليه أن يبقى صامتًا. في الوقت الراهن. لأن رينس لو عاد وسأله لماذا فضح أمره، لتعيّن على ميهрман أن يكون قادرًا على توضيح السبب. فكَرَّ: أذنٌ واحدة، أذنٌ واحدة يجب أن أتحمّلها. ثم أقول...

فجأة انبثق من وسط الغلس صوت أنثوي مرتفع ناعم: «لَمْ إضاعة الوقت والتلوث بالدم؟ لَمْ المخاطرة بأنه سيراوغ ويكذب؟ دعوني أعنتي به بطريقتي الخاصة. سيتكلم بسرعة كبيرة لدرجة أنه سيعض لسانه. أمسكوه».

زَعَقَ المداوي وراح يتفلت، لكنّ ذا الشعر الأبيض ضغطه على الأرضية بركبته، وأمسكه من شعره وأمال رأسه. جثا شخص ما بجانبه. أحسّ برائحة عطر وريش طيور مبتل، وأحسّ بلمسة أصابع على صدغه. أراد الصراخ، لكنّ الرعب خنق حنجرتة، ولم يتمكن إلا من النعيق.

بجوار أذنه، خرخر الصوت المرتفع الناعم على طريقة القطط: «هل تريد الصراخ من الآن؟ لا يزال الوقت باكراً جدًّا يا ميهрман، باكراً جدًّا. لم أبدأ بعد. ولكنني سأبدأ بعد قليل. إن كان التطور قد أحدث أيّ أخاديد في دماغك، فسوف أحفرها أعماق قليلًا. وعندئذٍ ستري ما يمكن أن يكون الصراخ».



قال فيلجفورتز بعد الاستماع للتقرير: «وإذن، بدأ ملوكنا يفكرون على نحو مستقل. بدأوا التخطيط على نحو مستقل، وتطوّروا بسرعة مدهشة من التفكير على المستوى التكتيكي إلى المستوى الاستراتيجي؟ أمر مثير. الشيء الوحيد الذي كانوا يجيدونه في سودن، حتى وقت قريب، هو العدو على الخيل بصراخ وحشي وبسيف مرفوع على مقدمة الراية، دون الالتفات إلى الراية أكانت قد بقيت في الخلف أم إنها راحت تعدو في اتجاه مختلف تمامًا. واليوم، تفضلوا، إنهم في قلعة هاجي يقررون مصاير العالم. أمر مثير. ولأكون صريحًا في القول، فقد توقعتُ ذلك».

وافقه أرتود تيرانوفا: «نعلم ذلك. وننذكره، لقد حدّرتنا منه. ولهذا السبب نعلمك بذلك».

- شكرًا على التذكّر.

ابتسم الساحر، وباتت تيسايا دي فريس فجأة واثقة من أنه كان على علم منذ مدة طويلة بالحقائق التي أبلغ بها قبل قليل. لم تنطق بكلمة واحدة. سوَّت الكُفَّتَيْن المخرمتين وهي جالسة مشدودة الجسد على كرسي ذي ذراعين، فالكُفَّة اليسرى كانت مختلفة قليلاً عن اليمنى. أحست بنظرة تيرانوفا الممتعة ونظرة فيلجفورتز المسرورة. كانت تعلم أن تحذلقها الأسطوري يُوتّر الجميع أو يسليهم. لكنها لم تعرّ ذلك اهتماماً على الإطلاق.

- ما رأي مجلس التشريف بهذا كله؟

- أجاب تيرانوفا: «أولاً، نودُّ أن نسمع رأيك، يا فيلجفورتز».

ابتسم الساحر: «أولاً، لنأكل شيئاً ونشرب. لدينا ما يكفي من الوقت، فاسمحوا لي أن أظهر نفسي كوني مضيئاً. أرى أن البرد قد تمكن منكم وأن الرحلة قد أنعبتكم. وإذا جاز لي السؤال، كم مرة بدّلتم البوابات في تنقلكم الآن؟».

هزت تيسايا دي فريس كتفيها: «ثلاث مرات».

مدّد أرتود جسده: «كانت رحلتي أقرب. اكتفيتُ بمرتين. لكنهما كانتا عسيرتين، أعترف بذلك».

- في كل مكان الجو قميء هكذا؟

- في كل مكان.

- إذن فلنقوْ أنفسنا بالطعام والنبذ الأحمر المعتقد من سیدارس. ليديا، هل يمكنني أن أطلب منك شيئاً؟

طلعتُ ليديا فان بريدفورت، مساعدة فيلجفورتز وأمينة سره الشخصية، من خلف الستار مثل شبح رشيق الحركة، وابتسمتُ بعينيها لتيسايا دي فريس. أجابتها تيسايا، ضابطة تعابير وجهها، بابتسامة لطيفة وانحناء من رأسها. انتصب أرتود تيرانوفا وانحنى باحترام. هو أيضاً كان يتحكم بتعابير وجهه تماماً. كان يعرف ليديا.

أحضرتُ خادمتان كانتا تذرعان المكان وتحفّان بتنورتيهما أدوات المائدة والأوعية والصحون إلى المنضدة بسرعة. أشعلتُ ليديا فان بريدفورت الشموع في الشمعدانات، مستحضرةً بالسحر وبرفق شرارة صغيرة بين الإبهام والسبابة. رأْتُ تيسايا أثر طلاء زيتي على راحة يدها. وسجّلت في

ذاكرتها ملاحظة لتطلب في وقت لاحق، بعد العشاء، من الساحرة الشابة أن تريحها عملها الفني الجديد. كانت ليديا رسامة موهوبة.

تعشوا في صمت. لم يخلُ أرتود تيرانوفا على نفسه، فقد وصل إلى الصحن دون حرج، ولعله كان في مرات كثيرة نوعًا ما، ودون تشجيع من المضيف، يقرقع بالغطاء الفضي لدورق النبيذ الأحمر. أكلت تيسايا دي فريس ببطء، ولم يكن اهتمامها الأكبر منصبًا على الطعام، بل على ترتيب تشكيلة منتظمة للصحون وأدوات المائدة والمناديل، التي كانت في رأيها غير متساوية وتعكر صفو شغفها بالنظام وحسها الجمالي. شربت باعتدال. وأكل فيلجفورتز وشرب على نحو أكثر اعتدالًا. وليديا، طبعًا، لم تشرب أو تأكل بتاتا.

تمايلت لهيئات الشموع بخطوط نار حُمر مصفرة طويلة. قرقرت قطرات المطر على زجاج النوافذ المعشق.

قال تيرانوفا أخيرًا، وهو يحرك الشوكة في الطبق بحثًا عن قطعة دسمة مناسبة من لحم الطرائد: «حسنًا يا فيلجفورتز. ما موقفك من أفعال ملوكنا؟ أرسلنا هين جديميث وفرانسييسكا إلى هنا لأنهما يريدان معرفة رأيك. وهو أيضًا يثير اهتمامنا أنا وتيسايا. وإن مجلس التشريف يريد اتخاذ موقف يتوافق عليه بشأن هذه القضية. وإذا أزعج أوان الفعل، أردنا العمل أيضًا في توافق تام. فبماذا تنصح إذن؟».

شكر فيلجفورتز ليديا بإيماءة منه، وقد أرادت أن تزيد طبقه بالقنبيط الأسود: «يطربني كثيرًا أن رأيي في هذا الشأن سيكون حاسمًا بالنسبة إلى مجلس التشريف».

صبَّ أرتود لنفسه مجددًا مزيدًا من النبيذ: «لم يقل أحد ذلك. مهما كانت الحال، فسننخذ القرار على نحو جماعي عندما يجتمع مجلس التشريف. لكن فلتكن الفرصة متاحة لكل شخص للتحدث قبل ذلك كي يكون لدينا إطلاع على الآراء. وبعد، إننا نستمع لك».

إذا انتهينا من العشاء، فسنذهب إلى المشغل. اقترحت ليديا بطريقة التخاطر، مبتسمة بعينيها. نظر تيرانوفا إلى ابتسامتها وشرب بسرعة ما كان في قدحه. حتى الثمالة.

مسح فيلجفورتز أصابعه بمنديل: «فكرة جيدة. سيكون الأمر هناك أريح لنا، ولديّ هناك أيضًا حماية أقوى أمام التنصت السحري. هيا نذهب. يمكنك أن تأخذ دورق الشراب، يا أرتود».

- لن أفوت الفرصة. إنه من موسم عامي المفضل.

- وصلوا إلى المشغل. لم يكن في وسع تيسايا أن تكبح نفسها عن إلقاء نظرة على أوعية التقطير الرافعة والبوتقات وأنايب الاختبار وقطع البلور، وعلى الأدوات السحرية التي لا تُعدُّ أو تحصى. كانت جميعها مغطاة بتعويذة تمويهية، لكنّ تيسايا دي فريس كانت المعلمة الكبرى؛ فلا وجود لأي حجاب لا تستطيع اختراقه. وقد أثار فضولها قليلًا ما كان يفعل الساحر في الآونة الأخيرة. أدركت بلمح البصر مكونات المُعدّات التي استخدمت قبل وقت قصير. لقد استُعملت من أجل الكشف عن أماكن وجود الأشخاص المفقودين، ومن أجل الرؤية النفسية بطريقة «البلور والمعدن والحجر». كان الساحر يبحث عن شخص ما أو يحل إحدى المشكلات النظرية المنطقية الرمزية. كان فيلجفورتز من روجيفين معروفًا بشغفه بحل مثل هذه المشكلات.

جلسوا على كراسي مشغولة من خشب الأبنوس. نظرت ليديا إلى فيلجفورتز، والتقطت العلامة التي أعطتها العين، وخرجت على الفور. تنهدت تيسايا تنهيدة لا تُدرَك.

علم الجميع أن ليديا فان بريدفورت تحب فيلجفورتز من روجيفين، وأنها تحبه منذ سنين طويلة حبًا صامتًا وشرسًا وعنيديًا. طبعًا، كان الساحر يعلم ذلك أيضًا، لكنه تظاهر بأنه لا يعلم. وقد سهّلت ليديا عليه الأمر لأنها لم تبخ له قط بشعورها، ولم تخط خطوة واحدة قط أو تُشر إشارة واحدة، ولم تعط علامة واحدة للتفكير، وحتى لو استطاعت أن تتكلم، لما نبست بكلمة واحدة. كانت شديدة الكبرياء إزاء ذلك. ثم إن فيلجفورتز لم يفعل شيئًا لأنه لم يشعر بالحب تجاه ليديا. كان بإمكانه طبعًا أن يجعلها ببساطة عشيقة له، وبهذا يربطها به بقوة أكبر، ومن يدري، فقد يتمكن حتى من إسعادها. وثمة من نصحه بذلك. لكنّ فيلجفورتز لم يفعل هذا. كان شديد الكبرياء ومبدئيًا جدًا إزاء ذلك. وظلّ الوضع ميؤوسًا منه، لكنه بقي مستقرًا، وهذا ما أرضاها كليهما بطريقة بيّنة.

قطع الساحر الشاب الصمت: «وإذن، إن مجلس التشريف يُمعن التفكير في ما يجب اتخاذه بخصوص مبادرات ملوكنا وخططهم؟ وهذا غير ضروري إطلاقاً. وببساطة ينبغي تجاهل هذه الخطط».

جمد أرتود تيرانوفا والقدر في يده اليسرى، ودورق الشراب في اليمنى: «ماذا؟ هل فهمتُ ذلك على نحو صحيح؟ هل علينا أن نكون ساكنين؟ أعلينا أن نسمح...».

قاطعه فيلجفورتز: «قد سمحنا فعلاً. لأن أحداً لم يطلب منا الإذن. ولن يطلب. وأكرر، ينبغي لنا أن نتظاهر بأننا لا نعلم شيئاً. هذا هو السلوك المتعقّل الوحيد».

- ما ابتدعوه يهدد بالحرب على نطاق واسع.

- ما ابتدعوه معروف لدينا بفضل معلومات سرية وغير كاملة، تأتي من مصدر غامض وغير موثوق إلى حد كبير. غير موثوق إلى درجة أن كلمة «التضليل» تتبادر إلى الذهن بالحاح. وحتى إذا كان هذا حقيقياً، فإن نواياهم لا تزال في طور التخطيط وستبقى في هذا الطور طويلاً. وإذا تخطوا هذا الطور... حسناً، عندئذٍ سنتكيف مع الوضع.

عبس تيرانوفا: «أردتُ أن تقول إننا سنرقد على وقع ما يعزفون لنا؟». نظر فيلجفورتز إليه وقد ومضت عيناه: «نعم، يا أرتود. سترقص كما سيعزفون لك. أو ستخرج من القاعة. فمنصة الأوركسترا مرتفعة جداً فلا يمكنك بلوغها وإبلاغ الموسيقيين ليعزفوا لحناً مختلفاً. فَعِ هذا أخيراً. إذا كنت تعتقد أن الحل الآخر ممكن، فإنك تخطئ. أنت تخلط بين السماء والنجوم المنعكسة بضوءها على صفحة البركة ليلاً».

فكرتُ تيسايا دي فريس: سيفعل مجلس التشريف ما يأمر به، مخفياً الأمر تحت غطاء النصيحة. كلنا بيادق على رقعة الشطرنج خاصته. لقد صعد، ونما، وكسفنا بسطوعه، وأخضعنا له. نحن بيادق في لعبته. في لعبة لا نعرف قواعدها.

من جديد، توضع الكفة اليسرى على هيئة تختلف عن وضعية الكفة اليمنى. عدلتها الساحرة بعناية.

قالت ببطء: «خطط الملوك أصبحت الآن في طور التنفيذ. بدأ الهجوم على سكويائتيل في كايدفين وفي أيديرن. تسيل دماء الشباب الإلفي. وتشن

حملات اضطهاد ومذابح ضد غير البشر. ويدور الحديث عن هجوم على الإلفيين الأحرار من دُول بلاثانا والجبال الزرق. إنها مقتلة جماعية. هل علينا أن نبلغ الجيديمديثيين وإنيد فيندابير أنك تسدي النصح بمراقبة خاملة؟ بالتظاهر بأننا لا نرى شيئاً؟».

أدار فيلجفورتز رأسه نحوها. فكرت تيسايا: الآن ستغير أساليبك. أنت لاعب، لقد ميّزت بسمك ما العظام التي تتدحرج على المنضدة. ستُغيّر أساليبك. ستضرب على وتر آخر.

لم يُنزل فيلجفورتز نظره عنها.

قال بإيجاز: «أنت محقة. أنت محقة، يا تيسايا. إن الحرب مع نيلفجاردي شيء، لكن الشيء الآخر الذي لا يجوز هو التفرج على المذبحة التي ارتكبت بحق غير البشريين، دون أي فعل. أقترح عقد اجتماع، اجتماع عام، للجميع، ومن ضمنهم أبطال الدرجة الثالثة، وكذلك أولئك الذين يجلسون في المجالس الملكية بعد سودن. في المؤتمر، سنقنعهم بالتعقل ونوجّه لتهدة الملوك».

قال تيرانوفا: «أنا أؤيد هذا المشروع. فلندعُ إلى عقد الاجتماع، ولنذكرهم بمن يدينون بالولاء في المقام الأول. خذوا بعين الاعتبار أن بعض أعضاء مجلسنا حالياً يستشيرهم الملوك. والملوك يخدمهم كاردوين، فيليبيا إيلهارت، فيركارت، رادكليف، ينيفر...».

ارتجف فيلجفورتز عند سماع هذا الاسم الأخير. ارتجف في داخله، طبعاً. لكن تيسايا دي فريس كانت معلمة عظيمة. أحسّت تيسايا بفكرة، ونبض يقفز من الورشة والمُعَدَّات السحرية إلى الكتابين الملقين على المنضدة. كان الكتابان كلاهما غير مرئيين يحجبهما السحر. ركزت الساحرة تفكيرها واخترقت الحجاب.

إين إثلينسبيث، نبوءة إثلين أيجلي أيب أفينين، النبوءة الإلفية. نبوءة نهاية الحضارة، نبوءة الفناء والدمار وعودة الهمجية، التي ستحل مع كتل الجليد التي تتحرك من حدود التربة الصقيعية الأبدية. والكتاب الثاني... قديم جداً... مهترئ... إين هين إيشاير... الدماء الأقدم... دماء الإلفيين؟

- تيسايا؟ ما رأيك بهذا؟

عدلتِ الساحرة خاتمتها الذي انقلب إلى الاتجاه الخاطئ في إصبعها: «أؤيده. أؤيد مشروع فيلجفورتز. فلندعُ إلى عقد الاجتماع. في أسرع وقت ممكن».

فكرت: معدن، حجر، بلور. أتبحث عن ينيفر؟ لماذا؟ وما علاقة ينيفر بنبوءة إيثلينا؟ وبدماء الإلفيين الأقدم؟ ماذا تُضمِر في نفسك، يا فيلجفورتز؟ أعتذرُ، قالت ليديا فان بريدفورت بطريقة التخاطر، وهي تدخل دونما حس. نهض الساحر.

قال: «اعذروني، فالأمر عاجل. لقد انتظرت هذه الرسالة منذ البارحة. لن يستغرق الأمر إلا لحظة».

تثاءب أرتود، وكبح تجشؤه، ثم مد يده إلى دورق الشراب. تيسايا نظرت إلى ليديا. وليديا ابتسمت. بعينها. فلم يكن في وسعها غير ذلك. لم يكن النصف السفلي من وجه ليديا فان بريدفورت إلا وهماً.

قبل أربعة أعوام، شاركت ليديا، بتكليف من معلمها فيلجفورتز، في أبحاث حول خصائص قطعة أثرية عُثر عليها في أثناء التنقيب في مقبرة من العصور القديمة. تبين أن القطعة الأثرية مثقلة بلعنة قوية. ولم تُفعل إلا مرة واحدة. من بين خمسة سحرة شاركوا في التجربة، لقي ثلاثة حتفهم على الفور. وفقد الرابع عينيه ويديه وأصيب بالجنون. وخرجت ليديا من ذلك بحروق، وبفك سفلي مهشم، وتشوه في حنجرتها وحلقها، قاومت حتى الآن محاولات إعادة التكوين بفعالية. لذا، لُجئ إلى الوهم القوي حتى لا يُغمر على الناس لدى رؤيتهم وجه ليديا. كان وهماً قوياً مفروضاً ببراعة، يصعب حتى على المصطفين اختراقه.

وضع فيلجفورتز الرسالة جانباً: «هممم... شكراً، ليديا».

ابتسمت ليديا. قالت: إن المبعوث ينتظر الرد.

- لن يكون ردٌ.

- مفهوم. لقد أوصيتُ بإعداد الغرف للأضياف.

- شكراً. تيسايا، أرتود، أعتذر عن لحظة التأخير هذه. لنستمر. عند أي

شيء توقفنا؟

فكرت تيسايا دي فريس: عند لا شيء. لكنني أستمع لك بانتباه. لأنك ستتطرق في آخر المطاف إلى الأمور التي تهلك حقاً.

بدأ فيلجفورتز ببطء: «آه. لقد تذكرت الآن ما أردتُ التحدث عنه. أقصد التحدث عن أعضاء المجلس الأقل خبرة. فيركارت وينيفر. فيركارت، على حد علمي، مرتبط بفولتيتست من تيميريا، ويجلس في المجلس الملكي مع تريس ميريجولد. وبمن ترتبط ينيفر؟ قلت، يا أرتود، إنها من أولئك الذين يخدمون الملوك».

قالت تيسايا بهدوء: «لقد بالغ أرتود، ينيفر تسكن في فينجربرغ، لذا فإن ديمافيند يلجأ إليها أحياناً طلباً للمساعدة، لكنهما لا يتعاونان على نحو دائم. وبكل تأكيد، لا يمكن القول إنها تخدم ديمافيند».

- ماذا عن بصرها؟ أمل أن يكون كل شيء على ما يرام؟

- أجل. كل شيء على ما يرام.

- هذا جيد. جيد جداً. لقد قلقْتُ... كما تعلمون، أردتُ الاتصال بها، لكن اتضح أنها غادرت. لم يعلم أحد إلى أين.

فكرت تيسايا دي فريس: حجر، معدن، بلّور. كل ما ترتديه ينيفر نشط، ولا يُكتشف بالرؤية النفسية. لن تجدها بهذه الطريقة، يا عزيزي. إذا لم ترغب ينيفر في أن يعلم أحد مكانها، فلن يعلمه أحد.

قالت بهدوء، وهي تعدل كُفَّتي كُمِّيها: «اكتب لها، وأوصل الرسالة بالطريقة العادية. ستصل دون شك. أما ينيفر أينما كانت، فستردُّ. إنها دائماً ترد».

تدخل أرتود: «كثيراً ما تختفي ينيفر، أحياناً شهوراً كاملة. وعلى الأغلب تكون الأسباب تافهة...».

نظرتُ تيسايا إليه، ضاغطةً شففتيها. صمتَ الساحر. ابتسم فيلجفورتز ابتسامة خفيفة.

قال: «بالضبط. هذا بالضبط ما فكرتُ فيه. كانت في وقت من الأوقات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ب... أحد الويتشرين. جيرالت، إن لم أكن مخطئاً. يبدو أن ذلك لم يكن مجرد نزوة عابرة. فقد بدا أن ينيفر كانت ملتزمة ذلك التزاماً شديداً...».

استقامت تيسايا دي فريس، وضغطت بيديها متكأً الكرسي.

- لماذا تسأل عن ذلك؟ هذه أمور شخصية. لا شأن لنا بها.

نظر فيلجفورتز إلى الرسالة الملقة على المكتب: «طبعًا. لا شأن لنا بها. لكن ما يدفعني إلى ذلك ليس الفضول المريض، بل القلق بشأن الحالة العاطفية لعضو في المجلس. أتساءل عن رد فعل ينيفر على خبر وفاة هذا... جيرالت. أظن أنها ستتمكن من طي هذه الصفحة، والتصالح مع الذات، دون الوقوع في الاكتئاب أو الحداد المفرط؟».

قالت تيسايا ببرود: «ستتمكن من ذلك، دون شك. خصوصًا وأن مثل هذه الأخبار تصل إليها من حين إلى آخر. ويتبين باستمرار أنها شائعات».

أكد تيرانوفا: «وهو كذلك. جيرالت هذا نفسه، وأيًا كان اسمه، يعرف كيف يتدبر أموره. وما الغرابة في ذلك؟ إنه متحول، وآلة إجرام، مبرمج للقتل، وعدم السماح لأن يُقتل. أما ينيفر، فدعونا لا نبالغ في عواطفها المزعومة. إننا نعرفها. هي لا تخضع للعواطف. لقد لعبت بالويتشر، هذا كل شيء. فتتها الموت الذي يلهو به هذا الشخص المتفرد باستمرار. وحين يخيب عبثه في نهاية المطاف، تنتهي القضية».

قالت تيسايا دي فريس بجفاف: «الويتشر، إلى الآن، حي».

ابتسم فيلجفورتز، وألقى نظرة من جديد على الرسالة الملقة أمامه.

تكلم: «حقًا؟ لا أظن ذلك».



ارتجف جيرالت قليلًا، وابتلع ريقه. لقد مرّت الصدمة الأولى بعد شرب الإكسير، وبدأت مرحلة الفعل، التي يشير إليها دوار خفيف ولكنه مزعج، مصاحب لتكثيف بصره مع الظلام.

حدث التكثيف بسرعة. أصبحت ظلمة الليل أقل قتامة، واكتسب كل شيء حوله ظلالاً رمادية، ظلالاً ضبابية وغير واضحة في البداية، وصارت تدريجيًا أشد تباينًا ووضوحًا وحدّة. في الزقاق المفضي إلى رصيف القناة، قبل لحظة

معتمة مثل جوف برميل من القطران، صار ممكناً أن يرى جيرالت الجردان تتجول في مزارب الشارع، وتتشمم البرك والشقوق في الجدران.

أصبح سمعه أيضاً أكثر حساسية تحت تأثير الشراب المغلي الويتشري. بدأت الحياة تدب في متاهة الأزقة الميتة، التي لم يكن يسمع فيها، حتى قبل لحظة، سوى جلجلة المطر في المزاريب، وراحت تنبض بالأصوات. سمع صخب ققط متحاربة، ونباح كلاب من خلف القناة، وضحكاً وصياحاً من حانات أوكسينفورت وخاناتها، وصراخاً وغناءً في حانة عمال النقل النهري، وتغريداً بعيداً وخافتاً من ناي يعزف لحناً جذلاً. انبعثت الحياة في المنازل المظلمة المنومة؛ بدأ جيرالت يميز شخير الناس النائمين، وخبط الثيران في حظائرهما، وشخير الخيول في إسطبلاتها. ترددت في أحد المنازل، وبعمق الزقاق، تأوهات مكتومة ومتشنجة لامرأة تمارس الجنس.

تصاعدت الأصوات وتقفوت. وصار يميز الكلمات الفاحشة لأغاني اللهو، وعرف اسم عشيق المرأة المتأوهة. من فوق القناة، من دار ميهرمان المبنية على ركائز من خشب، انبعثت غمغة متقطعة وغير متسقة بصوت المداوي، الذي أدخلته معاملة فيليبيا إيلهارت في حالة عته تام، ولعله دائم.

اقترب الفجر. توقف المطر أخيراً، واشتدت الرياح التي شرّدت الغيوم. صحت السماء في الشرق على نحو ملحوظ.

اضطربت الجردان في الزقاق فجأة، واندفعت في اتجاهات مختلفة، واختبأت وسط الصناديق والقمامة.

سمع الويتشر خطي. أربعة أشخاص أو خمسة، لم يستطع حتى لحظته هذه تحديد عددهم بدقة. نظر إلى الأعلى، لكنه لم ير فيليبيا.

غير أسلوبه على الفور. إذا كان رينس في المجموعة المقتربة، فلن تتاح له سوى فرصة ضئيلة للإمساك به. وكان عليه أولاً أن يبدأ القتال مع الموكب المرافق، وهذا ما لم يردّه. أولاً، لأنه تحت تأثير الأكسير، فلا بد أن يموت هؤلاء الرجال. ثانياً، لأن رينس سيكون لديه الوقت كي يهرب.

اقتربت الخطوات. خرج جيرالت من الظل.

من الزقاق ظهر رينس. عرف جيرالتُ الساحرَ على الفور وغريزيًا، مع أنه لم يره من قبل قطُّ. لقد حجب الندبة التي سببها الحرق، وهي هدية من ينيفر، بظل ألقتَه قُبعةً رداؤه.

كان بمفرده. لم يظهرِ الموكب المرافق، وبقي في الزقاق مخفيًا. فهم جيرالت السبب على الفور. كان رينس يعلم من ينتظره عند منزل المداوي. توقع كمينًا، لكنه جاء. أدرك الويتشر السبب. حتى قبل أن يسمع صليل السيوف الخافت التي استلَّتْ من أغمادها. فكر: حسنًا. إذا كنتم تريدون ذلك، حسنًا فليكن.

قال رينس بصوت خافت: «اصطياذك أمر ممتع. لا حاجة إلى البحث عنك. فأنت تظهر وحدك، في المكان الذي يراد أخذك منه».

أجاب الويتشر بهدوء: «يمكن قول الشيء نفسه عنك. ظهرتَ هنا. أردتَ أن تكون هنا، وها أنت أتيتَ».

- كان عليك أن تخنق ميهرمان بشدة ليخبرك بالتميمة، ليُظهر لك مكانَ إخفائها. وكيفية تفعيلها ليعث رسالة. لكنَّ ميهرمان لم يكن يعلم حقيقة أن هذه التميمة تُخَطَّر وتحدَّر في آن معًا، ولم يكن بإمكانه القول، حتى لو شُويَ على الجمر الأحمر. قد وزعتُ العديد من هذه التماائم. كنت أعلم أنك، عاجلاً أم آجلاً، ستصادف إحداها.

ظهر أربعة رجال من ناصية الزقاق. تحركوا ببطء ورشاقة ودون ضجيج. كانوا لا يزالون في مجال الظلام، ممسكين سيوفهم المسلوكة بطريقة لا تفضح بريق النصال. بطبيعة الحال، رآهم الويتشر بوضوح. لكنه لم يُظهر ذلك. فكَرَّ: حسنًا، أيها القتلة. إذا كنتم تريدون ذلك، فسوف تنالونه.

تابع رينس دون أن يبرح مكانه: «انتظرتُ وأثمر الانتظار. أعترم تحرير الأرض من وطأتك، أخيرًا أيها المتحول البغيض».

- أأنت تعتزم؟ إنك تبالغ في تقدير قيمتك. لست سوى أداة. سَفَّاح يستأجره الآخرون لقضاء الأمور القذرة. فمن استأجرك، أيها الخادم الذليل؟

- تريد أن تعرف الكثير، أيها الطافر. أتسميني خادمًا ذليلاً؟ أتعلم ما تكون أنت؟ كومة روث على الطريق يتعين إزالتها، فثمة شخص لا يريد أن يتسخ حذاؤه بها. لا، لن أبوح لك من يكون هذا الشخص، مع أنني أستطيع ذلك. وبدلاً من ذلك سأقول لك شيئاً آخر، حتى يكون لديك شيء تفكر فيه في طريقك إلى الجحيم. أنا أعلم الآن أين اللقيط الذي حميته كثيراً. وأعلم أين ساحرتك، ينيفر. إنها لا تهتم بموكلّي، لكنني ناقم شخصياً على هذه العاهرة. حالما أنتهي منك، سأمضي إليها. سأجعلها تندم على حيلها باستخدام النار. أي نعم، ستندم على ذلك. مدةً طويلةً جداً.

ابتسم الويتشر ابتسامة قميئة، وقد أخذ يشعر ببهجة القتال التي يسببها الإكسير الذي يتفاعل مع الأدرينالين: «لم يكن من داعٍ إلى أن تقول ذلك. فحتى اللحظة التي لم تقل فيها ذلك، كان لديك فرصة لتنجو. الآن لم يعد لديك أي فرصة».

أنذره الاهتزاز القوي للميدالية الويتشرية بحدوث هجوم مباغت. قفز مرتدًا، واستلّ سيفه في لمح البصر، وبشفرة سيفه المغطاة بحروف رونية، صدّ وشتت موجة مفاجئة، أطلقت تجاهه، من الطاقة السحرية التي تشل الحركة. تراجع رينس، ورفع يده ليعطي إشارة، لكنه جَبُنَ في اللحظة الأخيرة. لم يحاول إلقاء تعويذة ثانية، وهُرِعَ فارًا إلى عمق الزقاق. لم يتمكن الويتشر من اللحاق به؛ فقد انقضّ عليه أولئك الأربعة الذين ظنوا أن الظل يغطيهم. لمعت السيوف.

كانوا محترفين. الأربعة كلهم. محترفين ذوي خبرة ومهارة ومتماسكين. انهالوا عليه زوجين زوجين، اثنان من اليسار واثنان من اليمين. زوجين زوجين، يختبئ أحدهم دائماً خلف الآخر. اختار الويتشر هذين اللذين هاجما من اليسار. وإلى جانب النشوة التي سببها الإكسير انصبَّ الغضب العارم.

هاجم السفّاح الأول من الجانب الأيمن بحركة مخادعة، ليقفز مرتدًا وليعطي ذلك الذي خلفه فرصة ليطعن طعنة غادرة. دار جيرالت دورة على أصابع قدميه، تفاداهما وهوى على الثاني من الخلف، بطرف حد سيفه، على

طول قذاله وعنقه وظهره. كان حانقاً فضرب بقوة. تناثر الدم نافورةً على الحائط.

ذاك الأول تراجع بلمح البصر، مفسحاً المجال للزوجين التاليين. تفرق هذان الاثنان في الهجوم، وضرباً بسيفهما من اتجاهين، بطريقة لا يمكن فيها إلا التصدي لضربة واحدة؛ ولا بدّ للثانية من أن تصيب الهدف. لكنّ جيرالت لم يتصدّ، ودخل بينهما وهو يدور على أصابع قدميه. ولكي لا يصطدما، كان على كل منهما أن يخرق الإيقاع المتناغم، والخطوات المدربة. تمكن أحدهما من الدوران في حركة مخادعة، خفيفة كخطو القط، وقفز مرتدّاً برشاقة. لم يسعف الوقت المهاجم الثاني. فقد توازنه ووقف شاخصاً بظهره. وعلى أسفل ظهره هوى الويتشر بزخم، وهو يلتف في دوران عكسي. كان حانقاً. أحس بنصل السيف الويتشري المشحوذ يقصم عموده الفقري. تردّد صدى زعيق مرعب في الأزقة، وانقضّ عليه الاثنان الباقيان في الحال، وانهارا عليه بالضربات التي صدها بمشقة بالغة. شرع يدور على أصابع قدميه، وأفلت من تحت الشفرتين الملتمعتين. وبدلاً من أن يستند إلى الجدار ويدافع، انطلق مهاجماً.

لم يتوقعا منه ذلك، ولم يسعفهما الوقت للقفز جانباً والتفرّق. هجم أحدهما هجوماً معاكساً، لكنّ الويتشر تفاداه ببراعة، ودار كالدوّامة، وضرب بسيفه إلى الخلف في حركة عشوائية، مستهدفاً حركة الهواء. كان حانقاً. سدّد إلى الأسفل نحو البطن. وأصاب هدفه. سمع صرخة مختنقة، لكنّ لم يكن لديه وقت أن يدقق النظر. كان السفاح الأخير قد اقترب منه، ووجّه له ضربة سريعة وبغيضة من جهة اليسار بوضعية الرُّبُع⁽¹⁾. صدها الويتشر في اللحظة الأخيرة، بثبات ودون أن يدور بوضعية الربع من جهة اليمين، انتفض السفاح كالنابض، مستغلاً الزخم الذي تلقاه من صد الضربة وهوى بسيفه بقوة وبمساحة متسعة، وهو يدور نصف دورة. كانت الضربة غاية في القوة، وقد شرع الويتشر في الدوران، أما شفرة المجرم، وهي أثقل من نصل

(1) وضعية الربع: وضعية في المبارزة يضع المبارز خلالها يده اليمنى على ساعده الأيسر لحماية الجزء الأيمن العلوي من جسده. نقلتها إلى العربية بمصطلح «وضعية الربع»، مستلهماً معناها من لغة النص الأصلي.

الويتشر بكثير، فمزقت الهواء، واضطّر السفاح إلى أن يلحق بضربته. فجعله الاندفاع يدور. حرر الويتشر نفسه من الدوران النصفي بجانبه تمامًا، قريبًا منه جدًا. رأى وجهه المعوجَّ وعينه المذعورتين. كان حائقًا. ضرب ضربة قصيرة ولكنها قوية. ولا تخطئ. على عينيه مباشرة.

سمع صرخة شاني المخيفة، وهي تحاول التخلص من ساعدي ياسكير على الجسر المؤدي إلى منزل المداوي.

بعد أن ألقى رينس معطفه تراجع إلى عمق الزقاق، رافعًا ومادًا أمامه يديه، اللتين بدأ يتسرب منهما ضوء سحري. أمسك جيرالت سيفه بقوة بكفيه كليهما، وانطلق راكضًا نحوه دون تفكير. انهارت أعصاب الساحر. وبدأ بالهروب دون أن يكمل تعويذته، صارخًا بكلمات غير مفهومة. لكنَّ جيرالت فهمها. عرف أن رينس يستدعي المساعدة. ويتوسل النجدة.

ووصلت النجدة. أضاء الزقاق بضوء ساطع، وتوهَّج شكل بيضاوي ناري للانتقال الآني على حائط المنزل المتصدع والمبَّع بالرشح المائي. اندفع رينس نحوه. وثب جيرالت. كان حائقًا جدًا.



تأوّه توبلانك ميشليت وتلوى، ضاغطًا بطنه المطعون بكلتا يديه. أحسَّ بالدم يخرج منه ويسيل من بين أصابعه سريعًا. بدا فلافْيوس ملقى بالقرب منه، وكان قبل لحظات يرتعش، لكنه الآن قد همد. ضغط توبلانك جفنيه ثم فتح عينيه. لكنَّ البومة الجاثمة بجانب فلافْيوس لم تكنْ هلوسةً، لأنها لم تختفِ. تأوّه من جديد وأدار رأسه.

زعقت فتاة على نحو مروع، ومن صوتها اعتقد أنها فتية جدًا.

- دعني! يوجد جرحى هناك! عليَّ أن... أنا طالبة طب، يا ياسكير! دعني، هل تسمع؟

أجاب هذا الذي يُسمَّى ياسكير، بصوت أجش: «لن تستطيعي مساعدتهم. ليس بعد السيف الويتشري... لا تحاولي حتى الاقتراب من ذاك المكان. لا تنظري... أتوسل إليك، شاني، لا تنظري».

أحس توبلارك أن شخصًا ما يركع بجانبه. شَمَّ رائحة عطر وریش مبتل. سمع صوتًا خافتًا ووديعًا ومطمئنًا، استطاع تبيُّن الكلمات بمشقة، إذ عاقه صراخ البنت الشابة ونحيبها. هذه... طالبة الطب. ولكن، إذا كانت طالبة الطب قد تزق، فمن الذي ركع بجانبه؟ تأوُّه توبلارك.

- ...ستكون الأمور على ما يرام. كل شيء سيكون على ما يرام.

غمغم بصعوبة: «يا... بن... العاهرة... رينس... قال لنا... إنه مجرد تافه... وهذا... كان ويتشرًا... آه... خدي... عة... النجدة... أمعائي...».

- اهدأ، اهدأ، يا بني. اطمئن. الوضع الآن جيد. قد ذهب الألم. ذهب الألم، أليس كذلك؟ قل لي، من أتى بكم إلى هنا؟ من الذي أوصلكم إلى رينس؟ من الذي أوصلكم به؟ من ورطكم في هذا؟ أخبرني بذلك، أرجوك يا بني. عندئذٍ، ستكون الأمور على ما يرام. وسترى أن الأمور ستكون على ما يرام. أخبرني أرجوك.

أحس توبلارك بدم في فمه. لكنه لم تكن لديه قوة لبصقه. فتح فمه، وكانت وجنته مضغوطة على الأرض الرطبة، فسال الدم من تلقاء نفسه. لم يعد يحسُّ بأي شيء.

كرر الصوت الوديع: «أخبرني. أخبرني يا بني».

أغمض توبلارك ميشليت، القاتل المحترف منذ أن كان في الرابعة عشرة من عمره، أغمض عينيه وابتسم ابتسامة دامية. وهمس بما يعلمه.

وعندما فتح عينيه، رأى خنجرًا بنصل رفيع ومقبض ذهبي صغير.

قال الصوت الوديع، وقد لامس حد الخنجر صدغه: «لا تخف. لن تشعر بالألم».

وفعلًا، لم يشعر بالألم.



أمسك بالساحر في اللحظة الأخيرة، قبيل الانتقال الآني مباشرة. وقد ألقى سيفه قبل ذلك، وكانت يداه متحررتين، وأصابه التي كانت ممدودة خلال القفزة تشبثتُ بطرف معطفه. فقد رينس توازنه، وثنى جسده الشدُّ وأجبره على التقهقر. انتفض بشدة، وبحركة مفاجئة مزَّق معطفه من مشبك إلى مشبك، وحرر نفسه. بعد فوات الأوان.

أداره جيرالت بضربة من قبضته اليمنى على كتفه، وضربه بيسراه على الفور على رقبته تحت الأذن. ترنح رينس، لكنه لم يسقط. انقضَّ الويتشر عليه في قفزة خفيفة، ولكمه بقوة تحت ضلوعه. تأوَّه الساحر وتهاوى على قبضته، أمسكه جيرالت من طية معطفه، ودار به ثم طرحه أرضاً. مدَّ رينس يده، وهو مضغوط على ركبته، وفتح فمه ليلقي تعويذة. شدَّ جيرالت قبضته وخبطه من الأعلى. مباشرة على فمه. انفلقت شفتاه كحبتَي كشمش.

خرخر: «هدية ينيفر قد وصلت إليك. الآن ستتلقى هديتي».

ضربه مرة أخرى. اهتزَّ رأس الساحر مرتجاً، وتناثر الدم على جبهته وخديه. استغرب جيرالت قليلاً؛ لأنه لم يشعر بألم، مع أنه دون شك قد أصيب في النِّزال. فقد كان هذا دمه. لم يهتم، ولم يكن لديه وقت للبحث عن الجرح والانشغال به. بسط قبضته وخبط رينس مرة أخرى. كان حانقاً.

- من أرسلك؟ من استأجرك؟

بصق رينس عليه دماً. خبطه الويتشر مرة أخرى.

- من؟

توهَّج الشكل البيضاوي الخاص بالانتقال الآني توهجاً أشد، وأغرق الضوء المشع المنبعث منه الزقاق بأكمله. أحسَّ الويتشر بالقوة النابضة المنبثقة من الشكل البيضاوي، أحس بها حتى قبل أن تبدأ ميداليته في الاهتزاز بعنف منذرة.

أحس رينس أيضاً بالطاقة المتدفقة من بوابة الانتقال الآني، أحسَّ بالمساعدة المقتربة. صرخ وتلوى مثل سمكة عملاقة. ضغط جيرالت بركبتيه صدرَ رينس، ورفع يده، مطبقاً أصابعه بعلامة آراد، وصوَّبها نحو البوابة المشتعلة. وهذا كان خطأ.

لم يخرج أحد من البوابة. وحدها القوة شعَّت منه، وهذه القوة أخذها رينس. نمت أشواك فولاذية طولها ست بوصات من أصابع الساحر المشدودة. انغرسَتْ في صدر جيرالت وكتفه، مصدره طقطقة مسموعة. انفجرت الطاقة من الأشواك. انقذف الويتشر إلى الخلف بقفزة متوترة. كانت الصدمة شديدة لدرجة أنه أحس بأسنانه التي اصطكت، وسمعها وهي تتكسر وتنسحق من الألم. سنَّان على الأقل.

حاول رينس النهوض، لكنه خرَّ في الحال راكعًا من جديد، وتقدم على ركبتيه نحو بوابة الانتقال الآني. سحب جيرالت خنجرًا من رقبة حذائه، ملتقطًا أنفاسه بمشقة. تلفت الساحر، ورفع نفسه، فتمايل. تمايل الويتشر أيضًا، لكنَّ على نحو أسرع. تلفت رينس من جديد، وصرخ. ضغط جيرالت الخنجر في كفه. كان حانقًا. حانقًا جدًّا.

أمسك به شيء من الخلف، ثبَّته وشلَّ حركته. اهتزت الميدالية حول رقبته بشدة، وخفق الألم في ذراعه المجروحة بتشنج.

على نحو عشر خطوات خلفه وقفت فيليبيا إيلهارت. خرج من كفيها المرفوعتين ضوء باهت: خطان، شعاعان. كلاهما لامسا ظهره، وهما يضغطان على ذراعيه بكماشات ضوئية. شد نفسه، لكنَّ دون جدوى. لم يستطع التحرك من مكانه. لم يرَ سوى رينس يخطو مترنحا ليصل إلى بوابة الانتقال الآني الواضحة بتوهج حليبي. دخل رينس ببطء، دون أن يستعجل، في ضوء بوابة الانتقال الآني، وغطس فيه مثل غواص، وتلاشى، ثم اختفى. بعد مرور ثانية، انطفأ الشكل البيضاوي، مغرقًا الزقاق خلال لحظة في سواد لا يمكن اختراقه، كثيف ومخلمي.



في مكان ما وسط الأزقة، زمجرت القطط المتقاتلة. نظر جيرالت إلى نصل سيفه، وقد رفعه سائرًا نحو الساحرة.

- لماذا، يا فيليبيا؟ لماذا فعلتِ هذا؟

تراجعت الساحرة خطوة. كانت لا تزال تحمل في كفها الخنجر، الذي كان قبل لحظة مغروسًا في جمجمة توبلانتك ميشليت.

- لمَ تسأل؟ إنك تعلم.

أكد: «أجل. الآن علمت».

- أنت مجروح، يا جيرالت. لا تحس بالألم لأنك مخدر بالإكسير الويتشري، ولكن انظر كيف تنزف دمًا. هل هدأت بما يكفي لأتمكن من الاقتراب والعناية بك دون خوف؟ بحق الشيطان، لا تنظر هكذا! ولا تدنُ مني. خطوة أخرى وسأضطرُّ... لا تدنُ! أرجوك! لا أريد أن أؤذيكَ، لكنَّ إذا دنوت...

صرخ ياسكير، وكان لا يزال ممسكًا بشاني الباكية: «فيليبا! هل فقدت عقلك؟».

قال الويتشر بمشقة: «لا. إنها سليمة العقل والحواس. وهي تعرف تمامًا ما تفعله. كانت طوال الوقت تعرف ما تفعله. لقد استغلطنا. خانتنا. خدعتنا...».

كررت فيليبيا إيلهارت: «اهدأ. لن تفهم ذلك، ولا حاجة إلى أن تفهم. كان عليّ أن أفعل ما فعلتُ. ولا تسمّني خائنة. فأنا فعلت هذا بالتحديد حتى لا أخون قضية أكبر مما يمكنك أن تتخيلها. قضية عظيمة ومهمة، مهمة لدرجة أننا يجب أن نضحي دون تفكير بالقضايا الصغيرة من أجلها، إذا واجهنا مثل هذا الاختيار. جيرالت، بحق الشيطان، نحن نتحدث هنا، وأنت تقف في بركة من الدماء. اهدأ ودعنا، أنا وشاني، نعتني بك».

صرخ ياسكير: «إنها على حق! أنت جريح، يا للجحيم! يجب تضميد جراحك والخروج من هنا! يمكنكما أن تتشاجرا لاحقًا!».

خطا الويتشر إلى الأمام مترنحًا، دون أن يعير التروبادور انتباهًا: «أنت وقضيتك العظيمة... قضيتك العظيمة، يا فيليبيا، وخيارك هما ذاك الجريح المطعون بخنجر بدم بارد، الذي قال ما تريدين معرفته، وما كان ممنوعًا عليّ معرفته. قضيتك العظيمة هي رينس، الذي سمحت له بالهرب، حتى لا يكشف في حال ما عن اسم مفوضه. حتى يتمكن من الاستمرار في القتل. قضيتك العظيمة هي تلك الجثث التي ما كان يجب أن تكون. أعتذر، لقد أخطأت في التعبير. إنها ليست جثثًا. بل قضايا صغيرة!».

- كنت أعلم أنك لن تفهم ذلك.

- لن أفهم، أجل. أبدًا. لكنني أعلم ما الأمر. قضاياكم العظيمة، حروبكم، كفاحكم لإنقاذ العالم... هدفكم الذي يُسوِّغ الوسيلة... أصغي جيدًا، يا فيليبيا. هل تسمعين هذه الأصوات، هذه الصرخات؟ هذه القططة تقاتل من أجل قضية عظيمة. من أجل سيطرة لا يمكن تقاسمها على كومة من القمامة. هذه ليست تفاهات، فهناك دماء تسيل وخُصل شعر تتطاير. هناك حرب مستمرة. لكنّ الحربيين كليهما، حرب القطط وحربك، تهمانني بقدر قليل، أقل من أن يُذكر.

تكلّمت الساحرة بصوت خافت: «هذا ما يتهيأ لك فحسب. كل هذا سيبدأ بجذب اهتمامك، وفي وقت أبكر مما تظن. أنت تواجه الضرورة والاختيار. لقد

تورطت في القدر، يا عزيزي، أكثر مما ظننت. لقد اعتقدت أنك تأخذ تحت رعايتك طفلة، بنتاً صغيرة. لقد أخطأت. تبئيت لهيباً يمكن أن يشتعل العالم من جرائه في أي لحظة. عالمنا. عالمك، عالمي، عالم الآخرين. وسيتعين عليك الاختيار. مثلي تمامًا. مثل تريس ميريجولد. مثلما كان على ينيفر أن تختار. فينيفر قد اختارت فعلاً. إن قدرك في يديها، أيها الويتشر. أنت نفسك سلمته لهاتين اليدين».

ترنح الويتشر. صرخت شاني، وأفلتت من ياسكير. أوقفها جيرالت بإيماءة، واستقام، ثم نظر مباشرة إلى عيني فيليبيا إيلهارت الداكنتين. قال بمشقة: «قدري. اختياري... سأقول لك، يا فيليبيا، ماذا اخترت. لن أسمح لكم بإقحام سيرري في مكايديكم القذرة. أحذرك. أي شخص سيتجرأ على إيذاء سيرري، سينتهي أمره مثل هؤلاء الأربعة المطروحين هنا. لن أقسم أو أتعهد. ليس لدي ما أقسم به. أنا فقط أحذرك. وجهت التهمة إليّ بأنني وصي سيئ، بأنني لا أستطيع حماية هذه الطفلة. سأحميها. بما أستطيع. سوف أقتل. سأقتل بلا رحمة...».

قالت الساحرة مبتسمة: «أصدقك. أصدق أنك ستفعل. لكن ليس اليوم، يا جيرالت. ليس الآن. لأنك ستفقد الوعي بفقدان دمك. شاني، أنت مستعدة؟».

مكتبة

t.me/soramnqraa

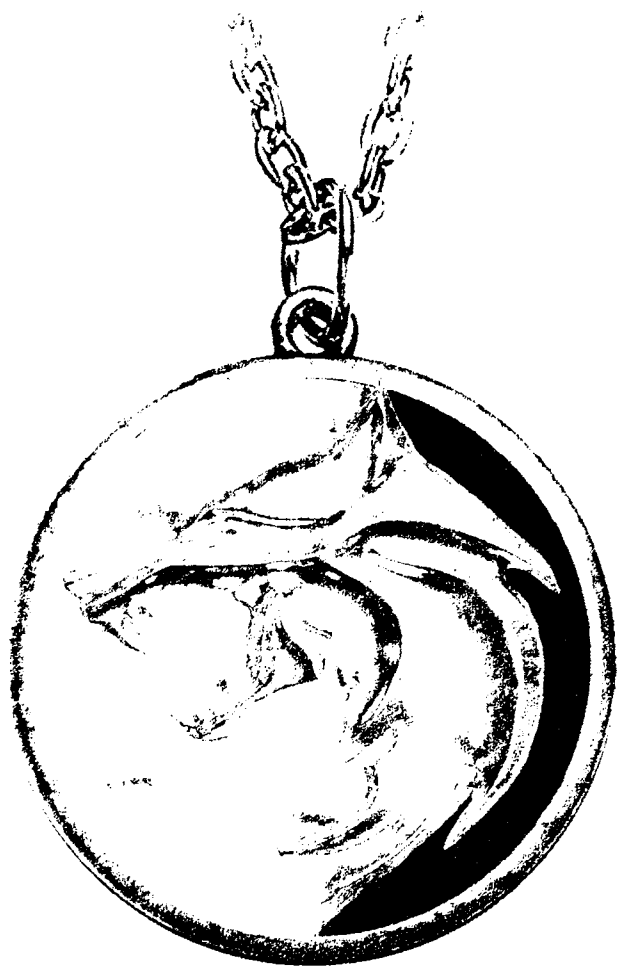
لا يولد أحد ساحرًا. لا نزال لا نعلم إلا أقل القليل عن علم الوراثة وآليات العملية الوراثية. لا نخصص ما يكفي من الوقت والوسائل للبحث. نجري على نحو متواصل، ويا للأسف، محاولات لنقل القدرات الوراثية السحرية بطريقة طبيعية، إن جاز التعبير. ونتائج هذه التجارب الزائفة كثيرًا جدًا ما تُرى في مزاريب المدن وعند أسوار المعابد. كثيرًا جدًا ما نرى ونصادف المغفّلات، والمصابات بالفصام الجامودي، والمتنبّئين الذين يسيل من أفواههم اللعاب ويطحرون نجاساتهم في سراويلهم، والعزّافات، وقارئي النبوءات القرويين، وأصحاب المعجزات، والمعتوهين ذوي العقول التالفة من جراء **القوة** الموروثة الخارجة عن السيطرة.

ويمكن أن يكون لهؤلاء المغفلين والمعتوهات أيضًا ذرية، ويمكنهم نقل القدرات إليها والاستمرار في الانحطاط. هل في وسع المرء، أيا كان، أن يتنبأ ويحدد كيف ستبدو الحلقة الأخيرة في مثل هذه السلسلة؟

يفقد معظمنا، نحن السحرة، القدرة على الإنجاب نتيجة للتغيرات الجسدية واضطرابات وظائف الغدة النخامية. وبعضنا -وفي الغالب من الإناث- يتكئفن مع السحر ويبقن محافظات على سلامة عمل الغدد التناسلية. يمكنهنّ الحمل والولادة، ويتجرأن على عدّ ذلك سعادة وبركة. وأنا أكرر: لا أحد يولد ساحرًا. ولا ينبغي لأحد أن يولد ساحرًا! وكوني مدركة أهمية ما أكتبه، أجيّب عن السؤال المطروح في اجتماع سيدارس. أجيّب بكل حزم: على كل واحدة منا أن تقرر ما تريد أن تكون: ساحرة أم أمّا.

أطالب بتعقيم كل المتدربات. دون استثناء.

تيسايا دي فريس، المصدر المسموم



الفصل السابع

تكلمت إيولا الثانية فجأة، وهي تسند سلة الحبوب إلى وركها: سأقول لكم شيئاً. ستندلع الحرب. هكذا قال الحاكم الأميري الذي جاء لأخذ الجُبِن.

أزاحت سيرى شعرها عن جبينها: «حرب؟ مع من؟ مع نيلفجارد؟».

اعترفت المتدربة: «لم أسمع جيداً. لكنَّ الحاكم قال إن أميرنا تلقى أوامر من الملك فولتيسست ذاته. إنه يرسل بلاغات، وقد غصَّت كل الطرق بحشود الجيش. يا لطيف! ماذا سيحدث؟».

قالت يورنيد: «إذا كانت حرباً، فهي بكل تأكيد مع نيلفجارد. ومع مَنْ غيرهم؟ من جديد! أيتها الآلهة، هذا فظيع!».

نثرت سيرى الحبوب للدجاج البلدي وللدجاج الغيني المتجمع حولها بازدحام في حشد صاخب: «ألا تبالغين بشأن هذه الحرب، يا إيولا؟ ربما ما هي إلا مطاردة لسكويائتيل من جديد؟».

صرحت إيولا الثانية: «سألت الأم نينيكي الحاكم عن هذا الشيء نفسه. وقال الحاكم لا، هذه المرة لا يتعلق الأمر بالسناجيب. وعلى ما يبدو فإن القلاع والقصور تلقت أوامر بتخزين المؤن تحسباً لوقوع حصار. إن الإلفيين يهاجمون في الغابات، ولا يحاصرون القلاع! سأل الحاكم أكان بإمكان المعبد أن يقدم المزيد من الأجبان والأشياء الأخرى. لتموين القلعة. وطالب بريش الإوز. وقال: ثمة حاجة إلى الكثير من ريش الإوز. وإلى السهام. للرماية من الأقواس، هل تفهمون؟ أيتها الآلهة! سيكون أماننا الكثير من العمل! سترون! سنغرق بالعمل حتى آذاننا!».

قالت يورنيد بسخرية: «ليس كلنا. بعضنا لن يُوسَّخوا أيديهم. وآخرون يعملون مرتين في الأسبوع فقط. ليس لديهم وقت للعمل، فهم، على ما يفترض، يتعلمون الحيل السحرية. لكنهم في الحقيقة، قد يكونون قاعدين، يهشون الذباب أو يركضون في الحديقة ويقصفون الأعواد الجافة بالعصا. تعلمين عنم أحدث، يا سيري، أليس كذلك؟».

ضحكت إيولا الثانية ضحكة خافتة: «لعل سيري ستنتقل إلى هذه الحرب. يقال إنها ابنة فارس! محاربة عظيمة بسيف رهيب! وأخيرًا ستكون قادرة على قطع الرؤوس بدلًا من نبات القراص!».

جعدت يورنيد أنفها: «لا، إنها ساحرة قادرة! ستحول جميع الأعداء إلى فئران حقل. سيري! أرينا بعض السحر الرهيب. اجعلي نفسك غير مرئية أو اجعلي الجَزَر ينمو في وقت أبكر. أو افعلي شيئًا يجعل الدجاج يُطعم نفسه بنفسه. هيا، لا تجعلينا ننتظر أكثر! ألقى بعض التعويذات!».

قالت سيري بغضب: «السحر ليس للعرض. السحر ليس حيلًا من السوق الموسمية».

ضحكت المتدربة: «طبعًا، طبعًا. ليس للعرض. أليس كذلك، يا إيولا؟ تمامًا كأنني كنت أسمع تلك الغولة ينفرا!».

قيمت إيولا الأمر، وهي تنشق بأنفها على نحو استعراضي: «صارت سيري تشبهها أكثر فأكثر. حتى إنها تفوح منها رائحة مشابهة. ها، إنها دون شك رائحة عطر سحري، مصنوع من عشبة اليبروح أو من العنبر. أستخدمين عطورًا سحرية يا سيري؟».

- لا! أستخدم الصابون! هذا الشيء الذي نادرًا ما تستخدمونه!

عبست يورنيد: «أوه. يا لها من لاذعة، يا لها من خبيثة! كيف تنفخ خديها بتكبر!».

نفشت إيولا الثانية نفسها: «لم تكن هكذا من قبل. قد أصبحت على هذا النحو منذ أن بدأت ترافق تلك الساحرة. تنام معها، تأكل معها، لا تبتعد خطوة واحدة عن المدعوة ينفير. كادت تكف عن حضور الدروس في المعبد مطلقًا، ولم يعد لديها ولو لحظة من الوقت من أجلنا!».

- وعلينا أن نؤدي العمل كله نيابة عنها! في المطبخ وفي الحديقة! انظري، يا إيولا، كيف تبدو يداها! مثل أميرة!

صاحت سيرى: «هكذا هي الحال دائماً! بعض الناس لديهم بعض العقل، لذا، لهم الكتب! وبعضهم الآخر لا شيء في عقولهم، لذا، لهم المكانس!».

- وأنتِ تطيرين على مكنسة فحسب، أجل؟ ساحرة لا نفع منها!

- أنتِ حمقاء!

- أنتِ الحمقاء!

- بالضبط، لا!

- بالضبط، أجل! تعالي، يا إيولا، لا توليها انتباهاً. الساحرات لسن رفيقات لنا.

صرختُ سيرى وضغطتُ سلة الحبوب على الأرض: «بالأكيد لسن رفيقاتٍ لكما! الدجاجات هنَّ رفيقاتٌ لكُما!».

انصرفَتِ المتدربتان، رافعتين أنفيهما، محاطتين بسرب من طيور تنقُ.

أطلقتُ سيرى شتيمَةً بصوت عالٍ، مكررةً مقولة فيسمير المفضلة، التي لم يكن معناها واضحاً تماماً لها. ثم أضافت بضع كلمات أخرى كانت سمعتها من ياربن زيجرين، كان معناها لغزاً متكاملاً بالنسبة إليها. أبعدتُ، بركلة منها، الدجاجات الحاضنة التي تدافعت نحو الحبوب المتناثرة. رفعتُ السلة، وقلبتها بين يديها، ثم دارتُ في حركة ويتشرية على أصابع قدميها، وألقيتها مثل قرص فوق أسطح القصب لأخمام الدجاج. انقلبتُ على عقبيها، وانطلقت راکضة خلال حديقة المعبد.

ركضتُ بخفة، متحكمةً في نَفْسها بمهارة. عند كل شجرتين تتجاوزهما، كانت تؤدي قفزة نصف دائرية رشيقة، متظاهرة بتأدية طعنة بسيف وهمي، بعد ذلك بقليل تنفذ مناورة متقنة ومراوغة. وثبتُ فوق السياج ببراعة، وهبطتُ بثقة ولين على ساقبي المثنيتين.

صرختُ، وهي ترفع رأسها نحو النافذة الصغيرة في جدار البرج الحجري: «جار! جار، هل أنت هناك؟ هيه! هذه أنا!».

أطل الصبي: «سيرى؟ ماذا تفعلين هنا؟».

- هل يمكنني الدخول إليك؟

- الآن؟ هممم... حسناً، تفضلي... تفضلي، تعالي.

ركضت صاعدة الدرج مثل عاصفة، مفاجئة المتدرب الشاب وكان ظهره موجهاً إليها، وهو يرتب ملابسه على عجل، ويغطي ببعض المخطوطات مخطوطات أخرى ملقاة على المنضدة. خلل جار شعره بأصابعه، وتنحج وانحنى بتناقل. وضعت سيري إبهامها خلف حزامها، وهزت غرة شعرها الرمادية الزاهية.

هتفت: «ما هذه الحرب التي يتحدث عنها الجميع؟ أريد أن أعرف!».

- تفضلي، اجلسي.

أجالت النظر في الغرفة. كانت هناك أربع مناضد كبيرة مثقلة بالكتب واللفافات. لم يكن سوى كرسي واحد. وكان أيضاً مثقلاً.

تمتم جار: «حرب؟ نعم، سمعتُ هذه الشائعات... هل هذا يثير اهتمامك؟ أنت، الفتاة... لا، لا تجلسي على المنضدة، لو سمحت، لم أتمكن من ترتيب هذه الوثائق إلا بشق الأنفس... اجلسي على الكرسي. لحظة، انتظري، سأزيج الكتب... هل تعلم السيدة ينيفر أنك هنا؟».

- لا.

- حسناً... والأم نينيكي؟

عبست سيري. كانت تعلم ما الأمر. رُبِّي جار ذو الستة عشر عامًا في كنف كبيرة الكاهنات، وقد أعدته ليكون كاهنًا ومؤرخًا إخباريًا. كان يعيش في إيلاندر، يعمل كاتبًا في محكمة المدينة، لكنه كان يقضي وقتًا أكثر في صومعة مليتيلي مما يقضيه في البلدة، أيامًا كاملة، وأحيانًا ليليًا كاملة، يدرس الأعمال الإبداعية من مكتبة المعبد وينسخها ويزخرفها. لم تسمع سيري ذلك من لسان نينيكي، لكن كان معلومًا أن كبيرة الكاهنات لا ترغب مطلقًا في أن يحوم جار حول المتدربات الشابات، وبالعكس. بيد أن المتدربات كنَّ يختلسن النظر إلى الصبي بحدة ويثرثرن بحرية، ويناقشن الاحتمالات المختلفة التي أتاحتها الحضور المتكرر لشيء يرتدي سروالًا في أرض المعبد. كانت سيري تشعر بدهشة بالغة الشدة، لأن جار شكّل النقيض لكل ما ينبغي للرجل الجذاب أن يمثل. في سينترا، كان الرجل الجذاب، كما تذكر، يبلغ برأسه السقف، ومنكباه بعرض الباب من الإطار إلى الإطار، وكان يكيل الشتائم ببذاءة مثل أي قزم، ويجأر كجاموس، ورائحة الخيل والعرق والজেة تفوح منه على مسافة ثلاثين خطوة، بصرف النظر عن أوقات اليوم أو

الليل. فالرجال الذين لم يكونوا ملائمين لهذا الوصف، لم يرههم معشر النساء في بلاط الملكة كالانثي جديرين بالتنهيدات والثرثرات. كانت سيرى تُمعن في نظرها أيضًا إلى رجال آخرين؛ إلى كهنة الدرويد الأذكاء والوديعين من أنجرين، وإلى المستوطنين الأشداء والأباة من سودن، وإلى الويتشربين من كاير مورهين. لقد كان جار مختلفًا. نحيفًا كالعود، غير رشيق، يرتدي ملابس واسعة جدًا تفوح منها رائحة الحبر والغبار، شعره دهني أبدًا، وعلى ذقنه، بدلًا من اللحية، سبع شعيرات طويلة أو ثمان، نبت ما يقارب نصفها من شامة كبيرة. لم تفهم سيرى حقًا سبب انجذابها الشديد إلى قلعة جار. كانت تحب التحدث إليه، فالصبي يعرف الكثير، ويمكن تعلم الكثير منه. لكن في الآونة الأخيرة، عندما تطلع إليها، كان نظره غريبًا ومشوشًا وديقًا.

نفد صبرها: «حسنًا، وأخيرًا ستخبرني أم لا؟».

- لا شيء يمكن الحديث عنه. لن تقع أي حرب. هذه كلها شائعات. نفخت بنفور: «أها. إذن، الأمير يرسل الأخبار من أجل المزاح فحسب؟ الجيش يسير على الطرق من كثرة الملل؟ لا تراوغ، يا جار. أنت تزور البلدة والقلعة، وبالتأكيد تعلم شيئًا!».

- لماذا لا تسألين السيدة ينيفر عن ذلك؟

تكلمت سيرى بغضب، لكنها سرعان ما عادت إلى تعقلها، وابتسمت بلطف ورفقت برموشها: «السيدة ينيفر في ذهنها أمور أهم. أوه، يا جار، قل لي، أرجوك! أنت ذكي جدًا! يمكنك التكم كلامًا رائعًا يتسم بسعة الاطلاع، يمكنني الاستماع لك ساعات! أرجوك، يا جار!».

احمرَّ وجه الصبي، وغبش بصره وأصبح ضبابيًا. تنهدت سيرى خلسة.

خبط جار خطواته في مكانه، وحرَّك يديه مترددًا، وكان واضحًا أنه لا يدري ما يفعل بهما: «هممم... ماذا يمكنني أن أقول لك؟ نعم، إن الناس في المدينة يثرثرون، والحوادث في دول أنجرا هيَّجتهم... لكنَّ الحرب لن تقع. يقينًا. يمكنك أن تصدقيني».

نفخت بنفور: «بالتأكيد، يمكنني ذلك. لكنني أفضل معرفة علام تعتمد ثققت هذه. إنك على حد علمي، لا تشارك في جلسات مجلس الأمير. وإن كنت قد عُيِّنت محافظًا أمس، فأخبرنا وافخر بذلك. وسأتقدم إليك بالتهاني».

احمرّ جار: «أنا أدّرس الأطروحات التاريخية، ويمكن أن يتعلم المرء منها أكثر مما لو كان يشارك في جلسات المجلس. قرأتُ تاريخ الحروب، الذي كتبه رئيس الديوان بيلي جرام، والاستراتيجية تأليف الدوق دي رويتر، وتفوّق الجنود غير النظاميين الريدانيين تأليف برونيبور... وأما في ما يخص الوضع السياسي الحالي، فإن ما أعرفه فهو على قدر يمكّنني من استخلاص الاستنتاجات من خلال القياس. هل تعلمين ما هو القياس؟».

كذبتُ سيرري، وهي تزيل قشة عشبية من مشبك حذائها: «طبعًا».

- إذا وضعنا تاريخ الحروب القديمة (يحدق الصبي إلى السقف) في إطار الجغرافيا السياسية الحالية، فمن السهل أن نصدر حكمًا بأن الحوادث الحدودية الصغيرة، كتلك التي وقعت في دول أنجرا، كانت عرضية ولا معنى لها. وكونك متدربة على السحر، هل تعرفين الجغرافيا السياسية الحالية؟

لم تجبُ سيرري، وبعثرتُ في أثناء شرودها الذهني الرقوق الملقاة على المنضدة، وقلّبت عدة صفحات من سفر كبير مغلف بالجلد.

قلق جار: «اتركيه، لا تلمسيه. هذا عمل فائق القيمة وفريد من نوعه».

- لن أكله.

- يداك متسختان.

- أنظف من يديك. اسمع، هل لديك أي خرائط هنا؟

قال الصبي بسرعة: «لديّ، ولكنها مخبأة في الصندوق».

بيد أنه عندما رأى كشرة سيرري، تنهّد وأزاح لفّات الرقوق عن الصندوق، ورفع الغطاء، ثم جثا وبدأ يفتش في محتوياته. واصلت سيرري تصفّح الكتاب، وهي تتقلّب في كرسيها وتؤرجح ساقيها. انزلقت فجأة من بين الصفحات صفحة منفردة، عليها صورة امرأة عارية تمامًا، شعرها ملتف ضفائر حلزونية الشكل، وكانت مرتمية في حُسن رجل ملتج وعارٍ تمامًا. أدارت الصبية الرزمة مرات طويلة، وقد أخرجت لسانها من فمها، ولم تكن قادرة على معرفة أين أعلاها، وأين أسفلها. وأخيرًا لاحظت أهم تفصيل في الصورة وانفجرت ضاحكة. احمرّ جار بشدة، وقد اقترب ولفافة كبيرة تحت ذراعه، وأخذ الرزمة من يدها دون أن ينبس بكلمة، وأخفاها تحت الأوراق الملقاة على المنضدة.

قالت ساخرة: «إنه عمل فائق القيمة وفريد من نوعه. أهذا هو القياس الذي تدرسه؟ هل ثمة المزيد من الصور المشابهة هناك؟ من المثير للاهتمام أن الكتاب يحمل عنوان: العلاج والاستشفاء. أودُّ أن أعرف ما الأمراض التي تُعالج بهذه الطريقة؟».

تساءل الصبي، وهو يتنحّج من شدة الحرج: «هل يمكنكِ قراءة الأحرف الرونية الأولى؟ أنا لم أعلم...».

رفعت أنفها: «ثمة الكثير الذي ما زلت لا تعلمه. ماذا تظن نفسك؟ أنا لست إحدى المتدربات في أمور فحص الدجاج. أنا... ساحرة. هيا، أرني بعد هذا كله تلك الخريطة!».

ركع كلاهما على الأرضية، مثبتّين بأيديهما وركبهما الورقة الصلبة، التي حاولت بعناد أن تلتف من جديد في لفافة. أخيرًا، ثبّتت سيري أحد أطرافها بساق كرسي، وضغطت جار الطرف الآخر بكتاب ثقيل، عنوانه: حياة الملك العظيم رادوفيد وأفعاله.

- هممم... هذه الخريطة غير واضحة تمامًا! لا أستطيع إطلاقًا أن أعرف... أين نحن؟ أين إلاندر؟

أشار بإصبعه: «هنا. هنا تيميريا، هذه المنطقة. هنا فيزيما، عاصمة ملكنا فولتيس. هنا، في وادي بونتار تقع إمارة إلاندر. وهنا... نعم، هنا معبدنا».

- وما هذه البحيرة؟ ليس عندنا هنا أي بحيرات.

- إنها ليست بحيرة. إنها بقعة حبر...

- أها. وهنا... هنا سينترا. صحيح؟

- صحيح. جنوب ما وراء النهر وسودن. من هنا، هنا، يجري نهر ياروجا، الذي يصبُّ في البحر في سينترا. هذا البلد، لا أدري أكنتِ تعلمين، أن النيلفجارديين يسيطرون عليه حاليًا...

قاطعته قابضة كفها: «أعلم. جيدًا جدًا. وأين نيلفجاردي هذه كلها؟ لا أرى هنا مثل هذه البلاد. ألا تتسع لها خريطةك هذه، أم ماذا؟ أعطني واحدة كبرى».

خدش جارُ البثرة الظاهرة على ذقنه: «هممم. ليس لديّ مثل هذه الخرائط... لكنني أعلم أن نيلفجاردي تقع في مكان ما أبعد، باتجاه الجنوب... ها، شيء من هذا القبيل. ربما».

دُهِسَتْ سيري وهي تنظر إلى مكان على الأرضية كان يشير إليه: «أبعدة إلى هذا الحد؟ وأتوا من هناك حقًا؟ وفي طريقهم استولوا على تلك البلدان الأخرى؟».

- نعم، هذا صحيح. لقد احتلُّوا ميتينا، ومايخت، ونازاير، وإبينج، وكل الممالك جنوب جبال أميل. هذه الممالك، وكذلك سينترا وسودن العليا، يسميها النيلفجارديون الآن مقاطعات. لكنهم أخفقوا في الاستيلاء على سودن السفلى، وفيردن، وبروجي. هنا، فوق ياروجا، أوقفتم جيوش الممالك الأربع وهزمتهم في المعركة ...

- أعلم، لقد درست التاريخ. (صفقتُ سيري الخريطة بكفها المفتوحة). هيا، جار، تحدث عن الحرب. نحن منكبَّان على الجغرافيا السياسية. استخلص استنتاجاتك من خلال القياس ومن خلال أي طريقة تريدها. كلي أذن مصغية.

تنحنح الصبي، واحمرَّ وجهه، ثم راح يشرح، مشيرًا بطرف ريشة الإوز إلى المناطق المناسبة من الخريطة.

- في الوقت الراهن، كما ترين، فإن نهر ياروجا يشكل الحدود بيننا وبين الجنوب الذي تسيطر عليه نيلفجار. إنه عقبة لا يمكن التغلب عليها عمليًا. لا يتجمد أبدًا، إلا ما ندر، وفي موسم الأمطار يمكن أن يحمل الكثير من المياه، حتى يبلغ عرض قاع مجراه ما يقارب ميلًا واحدًا. يجري في جزء طويل منه، ها هنا، بين ضفتين شديديتي الانحدار، لا يمكن الوصول إليهما، وسط صخور ماهاكام ...

- ديار الأقزام والجنوم؟

- نعم. ولذلك لا يمكن عبور ياروجا إلا من هنا، في المجرى الأسفل، في سودن، وهنا، في المجرى الأوسط، في وادي دول أنجرا ...

- وفي هذا المكان تحديدًا كان الحادث ...

- انتظري. إنني أشرح لك تحديدًا أن نهر ياروجا لا يمكن لأي جيش في الوقت الحالي أن يكون قادرًا على عبوره. كلا الواديين السالكين، اللذين كانت تسير فيهما الجيوش منذ قرون، محصنان ومحميان بقوة شديدة، سواء من جانبنا أو من جهة نيلفجار. انظر إلى الخريطة. شاهد كم عدد الحصون هنا. لاحظ، هنا فيردن، هنا بروجي، وهنا جزر اسكيليج ...

- وهذه، ما تكون؟ هذه البقعة البيضاء الكبيرة؟

اقتربَ جار أكثر، شعرتُ بدفع ركبته.

قال: «غابة بروكلون. هذه مِنطَقة محظورة. مملكة حوريات الغاب. بروكلون يحميها أيضًا جناح جيشنا. وحوريات الغاب لا يسمحن لأحد أن يمر من هناك. ولا للنيلفجارديين أيضًا...».

انحنُتُ سيري فوق الخريطة: «هممم... هنا إيديرن... ومدينة فينجربرج... جار! توقف على الفور!».

أبعد الصبي فمه عن شعرها فجأة، وقد احمر مثل زهرة عود الصليب.

- لا أريدك أن تفعل بي هكذا!

- سيري، أنا...

قالت ببرود وكرامة، مقلدة نبرة ينيفر تمامًا: «لقد أتيتُ إليك في مسألة جادة، كساحرة تأتي إلى عالم. فتصرف كما ينبغي!».

احمرَّ وجه «العالم» أشد مما كان، وعلَّته ملامح شديدة الحمق لدرجة أن «الساحرة» كبحت ضحكها بشق الأنفس، وهي تنحني فوق الخريطة من جديد.

تابعت: «من كل هذه الجغرافيا خاصتك لم ينتج شيء حتى الآن. تحدثني عن نهر ياروجا، وأساسًا فإن النيلفجارديين قد عبروا إلى الشاطئ الآخر ذات مرة. وما الذي سيمنعهم الآن؟».

تنحنج جار، وهو يمسح العرق الذي ظهر فجأة على جبهته: «حينئذٍ، لم تقفْ ضدهم سوى بروجي وسودن وتيميريا. نحن الآن متحدون بحلف. تمامًا كما كان في معركة سودن. أربع ممالك. تيميريا، ريدانيا، إيديرن وكايدفين...».

قالت سيري باعتزاز: «كايدفين. نعم، أعلم ما أساس هذا الحلف. يقدم الملك هينسلت من كايدفين مساعدة خاصة سرية للملك ديمافيند من إيديرن. تنقل هذه المساعدة في براميل. وعندما يشتبه الملك ديمافيند بوجود شخص خائن، يضع حجارة في البراميل. ينصب فخًا...».

توقفتُ، وقد تذكرتُ أن جيرالت منعها من التكلم عن الأحداث في كايدفين. نظر جارُ إليها بريبة.

- حقًا؟ وكيف أمكنك معرفة هذا كله؟

تهكمت: «قرأتُ عن ذلك في كتاب ألفه رئيس الديوان بيليكان. وفي أنواع أخرى من القياس. حدّثني عما حدث في دول أنجرا هذه، أو أيّا كان اسمها. وأرني أوّلاً، أين هي».

- هنا. دول أنجرا هي وادٍ عريض، طريق تبدأ من الجنوب وتفضي إلى مملكتي ليريا وريفيا، وإلى إيديرن، ومن ثمّ إلى دول بلاتانا وكايدفين... ومن خلال وادي بونتار إلينا، إلى تيميريا.

- وماذا حدث هناك؟

- وقع قتال. على ما يبدو. لا أعلم الكثير عن هذا الموضوع. لكن هكذا قيل في القلعة.

قطبتُ سيري وجهها: «إذا كان قد حدث قتال، فهذه حرب فعلاً! فماذا إذن تحكي لي أنت هنا؟».

شرح جار، لكنّ الصبية رأّت أنه أصبح أقل ثقة بنفسه: «هذه ليست أول مرة يحدث فيها قتال. في أحياء كثيرة جدّاً تحصل حوادث على الحدود. لكنها ليست ذات أهمية».

- ولمّ تزعم أنها ليست ذات أهمية؟

- يوجد توازن قوى. لا يمكننا أن نفعل شيئاً، لا نحن، ولا النيلفجارديون. ولا يمكن لأي من الجانبين أن يعطي الخضمّ ذريعة للحرب...

- يعطي ماذا؟

- سبباً للحرب. هل تفهمين؟ لذا، فالحوادث المسلحة في دول أنجرا هي بالتأكيد أمور عرضية، على الأرجح هجمات قطاع طرق أو مناوشات مع المهربين... ولا يمكن في أي حال أن تكون عمليات لجيوش نظامية، لا لقواتنا ولا للقوات النيلفجاردية... لأن هذا الأمر سيكون ذريعة للحرب...

- أها. اسمع، يا جار، وقل لي...

توقفت. رفعت رأسها فجأة، ولمست بسرعة صدغيها بأصابعها، وقطبتُ وجهها.

قالت: «يجب أن أذهب. السيدة ينيفر تستدعيني».

- شعر الصبي بفضول: «هل يمكنك سماعها؟ من بعد؟ كيف...».

كررت، وهي تنهض وتنفض الغبار عن ركبتيها: «يجب أن أذهب. اسمع، يا جار. سأسافر مع السيدة ينيفر لمتابعة قضايا مهمة جدًا. لا أعلم متى سنعود. أخطرك أن الأمر يتعلق بقضايا سرية، تخص الساحرات حصراً، لذا لا تطرح أي أسئلة».

نهض جار أيضًا. عدل لباسه، لكنه لا يزال لا يعلم ماذا يفعل بيديه. تلاشى نظره بطريقة قبيحة.

- سيرى...

- ماذا؟

- أنا... أنا...

قالت فاقدة صبرها، وهي تحقق إليه بعينيها الزمرديتين الكبيرتين: «لا أعرف ماذا تقصد. من الواضح أنك لا تعرف ذلك أيضًا. أنا ذاهبة. وداعاً، يا جار».

- إلى اللقاء... يا سيرى. طريق السلامة. سوف... سوف أفكر فيك...
تنهدت سيرى.



- أنا هنا، يا سيدة ينيفر!

اقتحمت الغرفة كمقذوف منجنيق، وارتطم الباب بالحائط بعد أن انفتح إثر صدمه. شكّل الكرسي الواقف في طريقها تهديدًا لكسر ساقيها، لكنّ سيرى قفزت من فوقه بخفة، وأدت حركة نصف دائرية بارعة على أصابع قدميها، ونفذت طعنة وهمية بالسيف، وضحكت بفرح من الحيلة الناجحة. ومع أنها كانت تركض بسرعة، لم تلهث بل تنفست تنفسًا منتظمًا وهادئًا. لقد أتقنت التحكم في التنفس إلى حد الكمال.

كررت: «أنا هنا».

- أخيرًا. اخلي ملابسك وازهبي إلى الطشت. بسرعة. لم تلتفت الساحرة، ولم تبعد عن المنضدة، وشاهدت انعكاس صورة سيرى في المرأة. بحركات بطيئة، مشطت خصلات شعرها السود الرطبة، منتصبّة تحت ضغط المشط، لتلتف بعد لحظات من جديد في تموجات لامعة.

فكّ الصبية مشابك حذائها بلمح البصر، وخلعته، ثم جرّدت نفسها من ملابسها، ونزلت في الطشت محدثة بقبقة في الماء. أمسكت بقطعة صابون، وراحت تفرك ساعديها بعزم.

جلست ينيفر ساكنة، وهي تنظر من خلال النافذة، وكانت تعبث بمشطها. وكانت سيرى تنفخ بشفتيها وتقرقر وتبصق، فقد دخلت رغبة الصابون إلى فمها. هزت رأسها وهي تفكر في أكانت توجد تعويذة تجعل الاغتسال ممكناً دون ماء أو صابون أو إضاعة للوقت.

وضعت الساحرة المشط جانبا، لكنها استمرت في النظر بشرود من خلال النافذة، إلى أسراب الغربان والزيغان التي كانت تطير شرقاً في خضم نعيق مربع. كانت عدة رسائل ملقاة على المنضدة، بجانب المرأة ومجموعة بديعة من زجاجات مستحضرات التجميل. علمت سيرى أن ينيفر كانت تنتظر هذه الرسائل منذ مدة طويلة، وأن مغادرتها المعبد تعتمد على تسلمها. وبصرف النظر عما قالته الصبية لجار، لم يكن لديها أي فكرة إلى أين ستذهبان ولماذا. وفي هذه الرسائل...

ضمت أصابع يدها اليمنى على هيئة إشارة، وهي تغمس يسراها في الماء، وركزت تفكيرها على صيغة التعويذة، وثبتت نظرها على الرسائل وأرسلت حافزاً.

قالت ينيفر دون أن تستدير: «إياك أن تتجرئي وتفعلني هذا».

تنحنحت: «ظننت... ظننت أن إحداها من جيرالت...».

دارت الساحرة على كرسيها، وجلست قبالتها: «لو كان الأمر كذلك، لأعطيتك إياها. إلى متى سيطول هذا الاغتسال؟».

- لقد انتهيت منه.

- قفي لو سمحت.

امتثلت سيرى. ابتسمت ينيفر ابتسامة خفيفة.

قالت: «نعم. لقد تجاوزت مرحلة الطفولة. لقد امتلأ جسدك حيث يجب أن يكون مكتملاً. أطلق يديك. لا يهمني مرفقاك. هيا، هيا، لا تحمري. ودون حياء مصطنع. إن جسدك هو الشيء الأكثر طبيعية تحت الشمس. إن بلوغك أمر طبيعي أيضاً. لو أن أمور مصيرك سارت على نحو مختلف... لولا الحرب،

لكنّ منذ زمن بعيد زوجة أحد الأمراء، أو أولياء العهد. أنتِ تدركين ذلك، أليس كذلك؟ لقد تحدثنا عن أمور الجنس كثيرًا بما يكفي وعلى نحو دقيق لتعرفي أنكِ صرت امرأة الآن. من الناحية الفسيولوجية، طبعًا. لعلكِ لم تنسي ما تحدثنا عنه؟».

- لا، لم أنس.

- آمل ألا تظهر لديك مشكلات أيضًا في ذاكرتكِ في أثناء زيارتكِ لجار؟ خففتُ سيرى عينيها، لكن لحظة واحدة فقط. لم تبتسمَ ينيفر. قالت ببرود: «نشفي نفسك وتعالى إلى هنا، إلَيَّ. لا ترشقي الماء حولك، من فضلك».

جلستُ سيرى على كرسي صغير، وجسدها ملفوف بمنشفة، عند ركبتى الساحرة. وكانت ينيفر تمشط لها شعرها، وتقصُ بالمقص، بين لحظة وأخرى، الخصلات غير الطيعة.

سألت الصبيةُ بتلكؤ: «هل أنتِ غاضبة مني؟ لأنني... كنت في القلعة؟».

- لا. لكنّ نينيكي لا تحب ذلك. أنت تعلمين هذا.

- لكنني لم... لا يهمني جار هذا بتاتًا. (احمرَّ وجه سيرى قليلًا). أنا فقط...

تمتت الساحرة: «بالضبط. أنتِ فقط. لا تتصرفي كطفلة، لأنكِ ما عدتِ كذلك، أدرككِ. عندما يراكِ هذا الصبي يسيل لعابه ويبدأ بالتلعثم. ألا ترين ذلك؟».

- هذا ليس ذنبى! ماذا عليّ أن أفعل؟

توقفت ينيفر عن تمشيط شعر الصبية، وعاينتها بنظرة بنفسجية عميقة.

- لا تلعبى به. لأن ذلك تصرف حقير.

- أنا لا أَلعبُ به بتاتًا! أنا فقط أتحدث معه!

أطبقتُ الساحرة المقص، وهي تقص خصلة أخرى يستحيل ترتيبها بأي شكل كان: «أودُّ أن أصدق أنكِ تتذكرين في أثناء هذه المحادثات ما طلبتُ منك».

- أتذكر، أتذكر!

- إنه فتى ذكي وسريع البديهة. إن أول كلمة أو ثاني كلمة تخرج دون حذر، يمكنها أن تقوده إلى الخيط الحقيقي، إلى الأمور التي لا ينبغي أن يعرفها. ولا ينبغي لأحد أن يعرفها. لا يمكن لأحد على الإطلاق أن يعرف من أنت.

كررتُ سيرى: «أذكرُ. لم أنبسُ بكلمة لأحد، يمكنك أن تكوني على يقين. قولِي لي، هل هذا هو سبب مغادرتنا المفاجئة؟ هل تخشين أن أحدًا ما قد تمكن من معرفة أنني هنا؟ ألهذا السبب؟».

- لا. بل لأسباب أخرى.

- هل السبب... أن الحرب يمكن أن تندلع؟ الجميع يتحدث عن حرب جديدة! الجميع يتحدث عن ذلك، يا سيدة ينيفر.

أكدتِ الساحرة ببرود وهي تطبق المقص فوق أذن سيرى: «نعم. هذا موضوع من مجموعة ما يسمى بالأمور التي لا تنقطع. قيل عن الحروب، ويقال عنها، وسوف يقال. وليس من دون سبب؛ فالحروب كانت وستكون. اخفضي رأسك».

- قال جار... إن الحرب مع نيلفجار্দ لن تقع. تحدث عن أشكال من القياس... وأراني خريطة. أنا نفسي صرت لا أعلم ماذا أقول في هذا الأمر. لا أعلم ما القياس، لعله شيء غاية في الذكاء... إن جار يقرأ كتبًا علمية مختلفة ويتذاكى، لكنني أعتقد...

- ما تعتقدين يثير اهتمامي، يا سيرى.

- في سينترا... حينئذ... يا سيدة ينيفر، كانت جدتي أذكى من جار. والملك إيست كان ذكيًا أيضًا، لقد جاب البحار، ورأى كل شيء، رأى حتى كركدن البحر وثعبان البحر، وأراهن أنه شاهد أكثر من نوع واحد من القياس. وماذا بعد ذلك؟ فجأة جاءوا هم، النيلفجارديون...

رفعت سيرى رأسها، احتبس صوتها في حنجرتها. احتضنتها ينيفر وعانقتها بشدة.

قالت بصوت خافت: «من سوء الحظ. من سوء الحظ، أنتِ على حق، يا دميمة. لو كانتِ القدرة على الإفادة من التجارب واستخلاص النتائج هما من يقرران، لكنا قد نسينا منذ زمن طويل ما الحرب. لكن أولئك الذين يسعون إلى الحرب لم يُوقفهم ولن تُوقفهم لا الخبرة ولا القياس».

- إذن... إذن، هذه حقيقة... ستقع الحرب. لهذا السبب علينا المغادرة؟
- دعينا من الحديث عن ذلك. دعينا منه حتى لا يأخذنا القلق سابقًا.
تنشقتُ سيرى بأنفها.

همست: «لقد شهدتُ الحربَ من قبل. لا أريد أن أشهدها مرة أخرى. أبدًا.
لا أريد أن أكون وحدي من جديد. لا أريد أن أخاف. لا أريد أن أفقد كل شيء
مجددًا، كما كان حينئذٍ. لا أريد أن أفقد جيرالت... ولا أفقدكِ، سيدة ينيفر. لا
أريد أن أفقدكِ. أريد أن أكون معكِ. ومعه. دائمًا».

ارتجف صوت الساحرة قليلًا: «ستكونين. وسأكون معكِ، يا سيرى. دائمًا.
أعدكِ بذلك».

تنشقتُ سيرى بأنفها مجددًا. سعلتُ ينيفر سعالًا خافتًا، ووضعتُ المقص
والمشط جانبًا، نهضتُ ودنتُ من النافذة. كانت الغربان لا تزال تنعق، محلقة
تجاه الجبال.

تكلمتُ الساحرة فجأة بصوتها الرنان المعتاد والمشوب بالسخرية قليلًا:
«عندما وصلتُ إلى هنا. عندما التقينا أول مرة... لم تحبيني».

ظلتُ سيرى صامتةً. فكرتُ: أول لقاء جمعنا. أتذكر. كنتُ مع الفتيات
الأخريات في المغارة، وكانت كورتوسا⁽¹⁾ تُرينا النباتات والأعشاب. عندئذٍ
دخلتُ إيولا الأولى، وهمستُ شيئًا في أذن كورتوسا. عبستُ الكاهنة على
مضض. ودنتُ إيولا الأولى مني بتعابير غريبة على وجهها. قالت: اجمعي
أغراضكِ، يا سيرى، اذهبي بسرعة إلى قاعة الطعام. الأم نينيكي تنادي. لقد
وصل شخص ما.

نظرات غريبة ذات معنى، احتياج في الأعين. وهمس. ينيفر. الساحرة
ينيفر. أسرعى، يا سيرى، عَجَلِي. الأم نينيكي تنتظر. وهي أيضًا تنتظر.
عرفتُ حينئذٍ على الفور -فكرتُ سيرى- أنها هي. لأنني رأيتها. رأيتها الليلة
السابقة. في حلمي.

هي.

لم أعرفُ حينئذٍ اسمها. في حلمي ظلتُ صامتة. لم تنظرُ إلا إليَّ، خلفها
في الظلام رأيتُ بابًا مغلقًا...

(1) كورتوسا: اسم زهرة من الزهور الربيعية المبكرة، وهو هنا اسم بنت.

تنهدت سيري. استدارتُ ينيفر، وبرقت النجمة السبجية⁽¹⁾ على جديها بألف انعكاس.

اعترفتِ الصبية بجديّة، ناظرة مباشرة إلى عينيّ الساحرة البنفسجيتين: «أنتِ محقة. لم أحبك».



قالت نينيكّي: «سيري. تعالي إلينا هنا. هذه هي السيدة ينيفر من فينجربيرج، علامة في السحر. لا تخافي. السيدة ينيفر تعرف من أنت. يمكنكِ الوثوق بها».

انحذت الفتاة، ضامّة كفيها في حركة تشير إلى احترام بالغ. اقتربتِ الساحرة، تحفّ بثوبها الأسود الطويل، وأمسكتها من أسفل ذقنها، ورفعتُ رأسها بطريقة تعوزها الكياسة، وأدارته إلى اليسار وإلى اليمين. شعرتُ سيري بالغضب والتمرد المتنامي؛ لم تعتدّ أن يعاملها أحد بهذه الطريقة. وفي الوقت نفسه، أحستُ بوخزة غيرة حارقة. كانت ينيفر جميلة جدًّا. ومقارنة بالجمال الرقيق والشاحب، وبالأحرى العادي، للكاهنات والمتدربات اللواتي كانت سيري تشاهدنّ كل يوم، فإن الساحرة شعّت بجمالها الذي تعيه، بل الذي تُجاهر به وتؤكدّه وتُبرزه في كل تفصيل. لمعتُ ضفائر شعرها الفاحمة، منسابة كشلال على كتفيها، وعاكسة الضوء مثل ريش الطاووس، ملتفّة ومتموجة مع كل حركة. شعرتُ سيري بالخلج فجأةً، خجلتُ من مرفقيها المخدوشين، وكفيها المتشققتين، وأظفارها المتكسرة، وشعرها المتراص في خصل رمادية. فجأةً انتابتها رغبة عارمة في أن يكون لديها ما لدى ينيفر: عنق جميل ومكشوف حتى صدرها، وعليه شريط مخملي أسود أنيق ونجمة براقّة بديعة. وحاجبان مهذبان ومزجّجان بالفحم، ورموش طويلة. وشفتان مرفوعتان بكبرياء. وهذان الشيطان المكوران اللذان يرتفعان مع كل نفس، يحشرهما نسيج أسود وشبيكة مخزّمة بيضاء....».

عوجتِ الساحرة شفتيها قليلاً: «إذن، هذه هي المفاجأة الشهيرة. هيا انظري إلى عينيّ، يا بنت».

(1) السبج: حجر كريم أسود، يسمى أيضًا الحجر البركاني الأسود.

ارتجفتُ سيري ودستُ رأسها بين ذراعيها. لا، شيء واحد لم تحسّدُ
ينيفر عليه، ولم ترغبُ في أن يكون لها، وحتى لم تتمنّ رؤيته. هاتان العينان
البنفسجيتان، العميقتان مثل بحيرات لا قاع لها، تلمعان لمعاناً غريباً، باردتان
وشيرتان. رهيبتان.

استدارت الساحرة نحو كبيرة الكاهنات البدينة. برقت النجمةُ على جيدها
بفعل انعكاس الشمس الساقط من خلال نوافذ قاعة الطعام.

قالت: «نعم، نينيكي. لا شك في ذلك. يكفي أن ننظر إلى تلك العينين
الخضراوين لنعرف أن شيئاً ما يوجد فيهما. جبين عالٍ، وقوسان حاجبتان
منتظمتان، اتساع حسن للعينين. طرفان رقيقان للأنف. أصابع طويلة. لون
نادر للشعر. دم الإلفيين واضح، مع أن هذا الدم ليس كثيراً فيها. جدُّ جدها أو
جدة جدتها إلفي أو إلفية. هل أصبتُ؟».

أجابت كبيرة الكاهنات بهدوء: «أنا لا أعرف نسبها. لم يهمني هذا الأمر».
واصلت الساحرة، وهي لا تزال تقيّم سيري بناظريها: «طويلة بالنسبة
إلى عمرها».

كانت الصبية تغلي من الغضب والتوتر، وتحارب الرغبة العارمة كي
تصرخ بتحدٍّ، تصرخ بأقصى ما في رئتيها من قوة، وتدبُّ بقدميها وتهرب
إلى الحديقة، فتقلب في طريقها المزهرية من على المنضدة، وتصفق الباب
فيتساقط الملاطُ من السقف.

لم تُنزل ينيفر عينيها عنها: «مكتملة النمو على نحو جيد. هل أصابها
مرض معدٍ في طفولتها؟ ها، لعلك لم تسألها عن ذلك أيضاً. ألم تمرضُ
عندك؟».

- لا.

- صداع نصفي؟ إغماء؟ استعداد لنزلات البرد؟ آلام الحيض؟

- لا. فقط تلك الأحلام.

أزاحت ينيفر شعرها عن خدها: «أعلم. كتبَ لي عن ذلك. من رسالته تبين
أنها لم تُجرب معها في كاير مورهيين أي... تجارب. أودُّ أن أصدق أن هذا
حقيقة».

- هذا حقيقة. لم يعطوها سوى المنشطات الطبيعية.

رفعت الساحرة صوتها: «المنشطات لا تكون طبيعية أبدًا! أبدًا! المنشطات بالتحديد هي التي كان بإمكانها أن تؤدي إلى تفاقم الأعراض عندها... اللعنة، لم أكن أظن أنه يفتقر إلى المسؤولية إلى هذا الحد!».

نظرت نينيكي إليها ببرود، وفجأة بطريقة غريبة دونما احترام: «اهدئي. قلت إنها كانت وسائل طبيعية وآمنة تمامًا. معذرة، حبيبتي، لكنني في هذا المجال مرجع أكبر منك. أعلم أن من العسير عليكِ تقبل مرجعية شخص ما، لكنني سأكون في هذه الحالة مرغمة على فرضها عليك. ودعينا لا نتحدث عن ذلك».

ضغطت ينيفر شفثتها: «كما تشائين. حسنًا، تعالي يا بنت. ليس لدينا الكثير من الوقت، وإضاعته ستكون خطيئة».

تغلبت سيري على ارتعاش يديها بصعوبة، ابتلعت ريقها، ونظرت إلى نينيكي نظرة متسائلة. كان وجه كبيرة الكاهنات جادًا وكأنه قلق، والابتسامة التي أجابت بها عن السؤال الصامت كانت مصطنعة على نحو قبيح.

قالت: «ستذهبين الآن مع السيدة ينيفر. السيدة ينيفر ستكون الراعية لك مدة من الزمن».

نكست سيري رأسها، كزت أسنانها.

تابعت نينيكي: «إنك دون شك قد دُهِشْتِ من أن علامة السحر ستتولى رعايتكِ فجأة. لكنكِ صبية عاقلة، يا سيري. تخمين ما السبب. لقد ورثت عن أسلافكِ بعض... الخصائص. أنتِ تعرفين عما أتحدث. كنتِ تأتين إليّ حينئذٍ، بعد أحلامكِ تلك، بعد الإنذارات الليلية في المهجع. لم يكن في وسعي مساعدتك. لكن السيدة ينيفر...».

قاطعتها الساحرة: «السيدة ينيفر ستفعل ما يجب فعله. هيا بنا، يا بنت». أومأت نينيكي برأسها، محاولة عبثًا أن تسبغ على ابتسامتها ولو شيئًا من مظهر الحالة الطبيعية: «انذهبي، انذهبي يا طفلتي. تذكرني أن كون وجود شخص مثل السيدة ينيفر راعيةً لك هو شرف عظيم. لا تجلبي العار للمعبد ولنا ولمعلماتكِ. وكوني مطيعة».

قررت سيري: سأهرب هذه الليلة. عائدةً إلى كاير مورهين. سأسرق حصانًا من الإصطبل، ولن يروني بعد ذلك أبدًا. سأهرب!

قالت الساحرة بصوت خفيض: «بالضبط».

رفعت الكاهنة رأسها: «ماذا؟ ماذا قلت؟».

ابتسمت ينيفر: «لا شيء، لا شيء. قد خُيِّلَ إليك أنني قلتُ شيئاً. أو ربما خُيِّلَ إليّ ذلك؟ انظري إلى هذه التي تحت رعايتك، يا نينيكي. إنها غاضبة كقطعة. شرر في عينيها، فقط انظري كيف تنبر. لو كانت تمتلك القدرة على الاستكانة لفعلت. بنت ويتشرية! سيكون من اللازم أخذها من قذالها بشدة، وتقليم أظفارها».

تصلبت ملامح كبيرة الكاهنات بوضوح: «مزيدياً من التفهم. أرجوك، أظهري لها بعض المودة والتفهم. هي ليست كما تظنين».

- ماذا تقصدين بذلك؟

- إنها ليست منافسة لك، يا ينيفر.

كلتاهما، الساحرة والكاهنة، تبادلتا النظرات خلال لحظة، أما سيري فأحست برجفة في الهواء، وقوة غريبة ومخيفة تكثفت بينهما. استمر ذلك قدر جزء من الثانية، ثم اختفت القوة، وانفجرت ينيفر ضاحكة بتلقائية وصوت صاخب.

قالت: «لقد نسيتُ. دائماً تقفين إلى جانبه، أليس كذلك يا نينيكي؟ دائماً تحرصين عليه حرصاً بالغاً. كالأم التي لم ينعم بوجودها قط».

ابتسمت الكاهنة: «وأنت دائماً ضده. كالمعتاد، تغمرينه بعاطفة قوية. وتدافعين عن نفسك بكل قواك حتى لا تسمي هذه العاطفة، في أي حال كان، باسمها الحقيقي».

شعرتُ سيري من جديد بالاهتياج يتصاعد في أسفل بطنها، وبالمعاندة النابضة والتمرد في صدغيها. تذكرت عدد المرات، وكذلك الظروف التي سمعت فيها هذا الاسم. ينيفر. الاسم الذي أثار القلق، الاسم الذي صار رمزاً لسر خطير. خمنتُ ما يكون هذا السر.

تحدثان عني علانية، دون تقييد، فكَرْتُ، وقد شعرتُ أن يديها بدأتا ترتجفان مجدداً من شدة الحَنَق. لا تهتمان بي إطلاقاً. لا توليانني أي انتباه البتة. كأنني كنتُ طفلة. تحدثان عن جيرالت أمامي، في حضوري، وذاك أساساً ممنوع عليهما، فأنا... أنا... من أنا؟

ردت الساحرة: «أما أنتِ، يا نينيكى، فتلهين كعادتكِ بتحليل عواطف الآخرين، والأسوأ من ذلك أنكِ تؤولينها بطريقتكِ الخاصة!».

- وأحشر أنفى في شؤون الآخرين؟

هزت ينيفر صفائر شعرها السود، فلمعت وتلوت كالثعابين: «لم أشأ أن أقول ذلك. شكرًا لأنكِ قلتِ نيابة عني. والآن لنغير الموضوع، من فضلكِ. لأن الموضوع الذي نثيره غاية في الحمق؛ إنه أمر مخز أمام تلميذتنا المتدربة الشابة. أما بخصوص التفهم الذي طلبته مني... فسأكون متفهمًا، لكن إظهار الود من القلب قد يترافق مع صعب؛ الاعتقاد السائد أنني ليس لدي مثل هذا العضو في جسمي، لكننا سنتدبر الأمر بطريقة ما. أليس كذلك، أيتها المفاجأة؟».

ابتسمت لسيري، وسيري اضطرت، رغم غضبها وتهيجها، أن ترد بابتسامة. لأن ابتسامة الساحرة كانت لطيفة وودودًا، ودافئة من القلب على نحو غير متوقع، وجميلة جدًا، جدًّا.



استمعت لخطاب ينيفر، وهي تدير ظهرها على نحو استعراضي، متظاهرة بأنها تولي النحلة الطنانة انتباهها كله، وكانت تطن في إحدى زهرات الخطمية التي تنمو عند جدار المعبد. تذرمت: «لم يسألني أحد عن ذلك».

- عن أي شيء لم يسألك أحد؟

دارت سيري على أصابع قدميها نصف دورة، وخبطت من شدة الحنق الخطمية بقبضتها. طارت النحلة مبتعدة وهي تطن طنينًا هائجًا وينذر بالسوء.

- لم يسألني أحد أكنت أريد أن تعلميني!

ينيفر وضعت قبضتيها على وركيها، والتمعت عيناها.

هست: «يا لها من مصادفة. تخيلي أنني أيضًا لم يسألني أحد أكنت أرغب في تعليمك. الرغبة في نهاية المطاف لا تهم هنا. لا أقبل أيًا كان لأدربه، وأنت، بصرف النظر عن مظهرك، قد يتبين أنك 'أيًا كان'. طلب مني أن أتحقق من

وضعك، لأفحص ما بداخلك وبأي شيء يهددك. وأنا عبّرتُ عن موافقتي، مع أن الأمر لم يخلُ من التحفظات».

- لكنني لم أوافق على ذلك بعد!

رفعتِ الساحرة يدها وحرّكت كفها. أحسّستُ سيرِي بخفقان في صدغيها، وسمعتُ طنينًا في أذنيها، تمامًا كما يحدث عند بلع الريق، لكنّ بقوة أكبر بكثير. شعرتُ بنعاس وضعف يشل حركتها، وتعب يجعل عنقها جامدًا، ويرخي ركبتيها.

أنزلتُ ينيفر كفها، فتوقفتُ في الحال أعراض الاضطراب.

قالت: «استمعي لي بانتباه، أيتها المفاجأة. يمكنني بسهولة أن أسحرك، أنومك مغناطيسيًا أو أدخلك في غشية. يمكنني أن أشلّ حركتك، وأسقيك الإكسير بالقوة، وأعزّيك من ملابسك، وأضعك على المنضدة وأفحصك عدة ساعات، مع أخذ أوقات استراحة لتناول الطعام، وسوف تستلقين وتنظرين إلى السقف، غير قادرة حتى على تحريك مقلتيك. كنتُ سأفعل ذلك بأي عجيّة صغيرة. لكنّ لا أريد أن أفعل ذلك بك، فقد اتضح من النظرة الأولى أنك فتاة ذكية ومعتّدة بنفسك، وذات شخصية قوية. لا أريد أن أعرضك وأعرض نفسي للخجل أمام جيرالت. لأنه هو من طلب مني فحص قدراتك. لأساعدك على التعامل معها بنجاح».

- طلب منك؟ لماذا؟ لم يخبرني بشيء عن ذلك! لم يسألني بتاتًا...

قاطعتها الساحرة: «أنتِ تعودين إلى هذا الأمر بإصرار. لم يسألك أحد عن رأيك، لم يكلف أحد نفسه جهدًا للتحقق مما تريدين ومما لا تريدين. فهل أعطيتِ سببًا كي يُنظر إليك على أنك طفلة عنيدة ومشاكسة لا تستحق طرح مثل هذه الأسئلة؟ لكنني سأخاطر، وسأطرح عليك السؤال الذي لم يطرحه عليك أحد. هل تقبلين الخضوع للاختبارات؟».

- وما ستكون؟ ما هذه الاختبارات؟ ولماذا...

- قد شرحتُ الأمر لك. إذا لم تفهمي، فكما تشائين. لا أنوي تحسين استيعابك أو العمل على تنمية ذكائك. فأنا يمكنني كذلك اختبار الذكية والغبية من البنات على حد سواء.

- لستُ غبية! وقد فهمتُ كل شيء!

- أحسن وأحسن.

- لكنني لا أصلح لأن أكون ساحرة! ليست لدي أي قدرات! لن أصبح ساحرة أبدًا ولا أريد أن أكون ساحرة! أنا مُقدَّرة على جيرا... أنا منذورة لأكون ويتشرية! جئتُ هنا لقضاء مدة قصيرة فقط! وسأعود قريبًا إلى كاير مورهي...
قالت ينيفر ببرود، وهي تضيق عينيها البنفسجيتين قليلًا: «أنتِ تحدقين بثبات إلى تقويرة عنقي. هل ترين شيئًا غير اعتياديّ فيها، أم إن ذلك ليس إلا غيرة عادية؟».

تمتمت سيري: «هذه النجمة... ممّ هي مصنوعة؟ هذه الأحجار الصغيرة تتحرك وتضيء بطريقة غريبة...».

ابتسمت الساحرة: «إنها تنبض. هي ألماسات نشطة، مغروسة في حجر السبع. هل تريدان أن تشاهديها من قرب؟ أن تلمسيها؟».

تراجعت سيري، وهزّت رأسها بغضب، محاولة طرد الرائحة الخفيفة لليلك وغب الثعلب المنبعث من ينيفر: «نعم... لا! لا أريد! ما حاجتي إلى هذا؟ لا يهمني شيء! لا شيء! أنا ويتشرية! ليست لدي أي قدرات سحرية! لا أصلح لأن أكون ساحرة، لعل هذا واضح، لأنني... وعمومًا...».

جلست الساحرة على المقعد الحجري عند الجدار وركّزت تفكيرها على مراقبة أظفارها.

أكملت سيري: «وعومًا، يجب أن أفكر».

- تعالي هنا. اجلسي بجانبني.

أطاعتها.

قالت من دون ثقة: «يجب أن يكون لديّ وقت للتفكير العميق».

أومأت ينيفر برأسها، واستمرت في التحديق إلى أظفارها: «عين الصواب. إنها مسألة جدية. تتطلب التفكير».

ظلتا صامتتين خلال لحظة. ألقت المتدربات، اللاتي كنّ يتمشين في الحديقة، نظرات فضولية عليهما، ورحن يهمسن ويتضاحكن بخبث.

- إذن؟

- ماذا... إذن؟

- هل انتهيت من التفكير؟

هبتُ سيرى واقفةً، ونفختُ، وخبطتُ الأرض بقدميها.

لهتتُ من شدة الاحتياج، وكانت غير قادرة على التقاط أنفاسها: «أنا... أنا... أفسخين مني؟ يلزمني بعض الوقت! يجب أن أفكر! مدة أطول! طوال اليوم... والليل!».

نظرتُ ينيفر إلى عينيها، أما سيرى فانكملت تحت هذه النظرة.

قالت الساحرة ببطء: «يقول المثل إن الليل يأتي بالنصيحة. لكن في حالتك، أيتها المفاجأة، فإن الليل قد لا يجلب سوى كابوس آخر. ستستيقظين مجددًا وسط صراخ وألم، تتصببين عرقًا، ستخافين من جديد مما رأيت، ستخافين ما لن يكون في وسعك تذكره. ولن يأتيك النوم في هذه الليلة. سيحل الرعب. ويبقى حتى الفجر».

ارتجفت الصبية وخفضت رأسها.

تغير صوت ينيفر قليلًا: «يا مفاجأة. ثقي بي».

كانت ذراع الساحرة دافئة، حتى إن مخمل ثوبها الأسود كان يدعو إلى لمسها. ورائحة الليلك وعنب الثعلب تثير الذهول على نحو لذيذ. والعناق يهدئ ويبعث في النفس الطمأنينة والراحة، ويخفف الهيجان، ويخمد الغضب والتمرد.

- ستقبلين الخضوع للاختبارات، يا مفاجأة.

أجابت، مدركة أنها لم تكن مضطرةً إلى الإجابة مطلقًا. لأن ما قيل لم يكن سؤالًا مطلقًا: «سأقبل».



قالت سيرى: «أنا لم أعد أفهم شيئًا البتة. أولًا، تقولين إن لدي قدرات، لأن لدي تلك الأحلام. ولكنك تريدان إجراء اختبارات للتحقق... فما الأمر؟ هل لدي قدرات أم لا؟».

- الاختبارات ستجيب عن هذا السؤال.

عبستُ: «اختبارات، اختبارات. ليست لدي أي قدرات، أقول لك ذلك، لو كانت لدي، لعلمتُ على الأرجح، أليس كذلك؟ حسنًا، لكن... وإذا كانت لدي قدرات، هكذا بمحض المصادفة، فماذا سيحدث عندئذٍ؟».

صرَّحتِ الساحرة بحياد، وهي تفتح النافذة: «ثمة احتمالان. سيكون من اللازم قمع القدرات، أو تعلُّم السيطرة عليها. إذا كنتِ موهوبة وأردتِ ذلك، فسأحاول أن أزودكِ بشيء من المعرفة الابتدائية عن السحر».

- ماذا تعني كلمة «الابتدائية» هذه؟

- الأساسية.

كانتا وحدهما في الحجرة الكبيرة التي خصصتها نينكي للساحرة، بجانب المكتبة، في الجناح الجانبي غير المستخدم من المبنى. كانت سيرى تعلم أن هذه الحجرة تُخصص للضيوف، وأن جيرالت كلما زار المعبد، أقام فيها تحديدًا.

جلست على السرير، ومررت كفها على نسيج البروكار الدمشقي المصنوع منه اللحاف: «هل تريدان تعليمي؟ تريدان أخذي من هنا، أليس كذلك؟ لن أذهب معكِ إلى أي مكان!».

قالت نينفر ببرود، وهي تفك أحزمة عذلي الخُرج: «إذن سأرحل بمفردي. وأؤكد لك، لن أشتاق إليك. إنني قلتُ، لن أعلمكِ إلا حين ترغبين في ذلك. ويمكنني فعل ذلك هنا، في هذا المكان».

- كم من الوقت ستستمرين في تعلي... تدريبي؟

- ما دمتِ تريدين ذلك.

انحنت الساحرة، وفتحت الخزانة، ثم أخرجتُ منها حقيبةً جلديةً قديمةً، وحزامًا، وحذاءين مبطنين بالفراء، وباطية فخارية مغلفة بالخيزران. سمعتها سيرى وهي تشتم بصوت خافت، وتبتسم في آن واحد، ورأتها وهي تعيد ما وجدته إلى الخزانة. خمنتُ من كانت تخص هذه الأشياء، ومن تركها هناك.

سألتُ: «ماذا تعني: ما دمتُ أريد؟ إذا مللتُ أو لم تعجبني هذه الدروس...».

- إذن، فسوف نتوقف عن الدروس. يكفي أن تخبريني بذلك. أو أن تظهره.

- أظهره؟ كيف؟

- لو قررنا البدء في التعليم، سأطالب بالطاعة المطلقة. أكرر: المطلقة. إذا كرهت الدروس بعدئذٍ، فيكفي أن تبدي عدم الطاعة. حينئذٍ ستتوقف الدروس على الفور. هذا واضح؟

أومأت سيري برأسها، ورمقت الساحرة بعينها الخضراء. تابعتُ ينيفر وهي تُفرغِ عدلي الخُرج: «ثانيًا، سأطالب بالصدق المطلق. سيكون غير مسموح لك إخفاء أي شيء عني. أي شيء. لذا إذا أحسستُ بأنك ما عدتِ تتحملين، فيكفي أن تبدئي بالكذب، أو التظاهر، أو التصنع، أو الانطواء على نفسك. إذا سألتكِ عن شيء ولم تجيبي بصدق، فسيكون ذلك أيضًا نهاية فورية للتعليم. هل فهمتيني؟».

غمغمت سيري: «نعم. وهل هذا... الصدق... هل هو متبادل؟ هل سيكون ممكنًا لي... أن أطرح الأسئلة عليك؟».

نظرتُ إليها ينيفر، وقد اعوجَّ فمها على نحو غريب. أجابتُ بعد لحظة: «طبعًا. هذا بديهي ولا يحتمل الشك. وعليه سيعتمد التعليم، والرعاية التي أنوي أن أوليك إياها. الصدق متبادل. يمكنك طرح الأسئلة عليّ. في أي لحظة. وسأجيب عنها. بصراحة».

- عن أي سؤال كان؟

- عن أي سؤال كان.

- منذ هذه اللحظة؟

- نعم، منذ هذه اللحظة.

- ما الذي بينك وبين جيرالت، سيدة ينيفر؟

كادت سيري يغشى عليها، وقد دُعرَتْ من صفاققتها، وجمدتُ من الصمت المفاجئ الذي حلَّ عقب السؤال.

دنتِ الساحرة منها ببطء، وضعتُ يديها على كتفيها، ونظرتُ إلى عينيها من كُتب وبعمق.

أجابتُ بجدية: «الشوق، والأسى، والأمل، والخوف. نعم، يبدو أنني لم أغفل شيئًا. حسنًا، يمكننا الآن البدء في الاختبارات، أيتها الأفعى خضراء العينين. سنتحقق أكنْتِ تصلحين. مع أنني، بعد سؤالك، كنت سأستغرب جدًّا إذا تبين أنك لا تصلحين. هيا بنا، يا دميمة».

امتعضت سيرى.

- لماذا تسميني هكذا؟

ابتسمت ينيفر بطرف فمها.

- لقد وعدتك بقول الصدق.



استقامت سيرى، ودارت متوترةً وفاقدةً الصبر، على الكرسي الصلب الذي يجعل المؤخرة تنزُّ ألمًا بعد بضع ساعات من الجلوس عليه.

زمجرت وهي تحكُّ بالمنضدة أصابعها المتسخة بالفحم: «لن يحصل شيء من هذا! لا شيء... لا شيء أفلح فيه! لا أصلح أن أكون ساحرة! كنتُ أعلم ذلك منذ البداية، لكنك لم تريدي الاستماع لي! لم تعيريني انتباهًا البتة!». رفعت ينيفر حاجبيها.

- لم أريد الاستماع لك، تقولين؟ هذا مثير. عادةً أولي انتباهي كلَّ كلمة تُقال في حضوري، وأدونها في ذاكرتي. والشرط هو أن تكون في الكلمة ولو حتى ذرة معنى.

كزّت سيرى أسنانها: «تسخرين دائمًا. وأنا أردت فقط أن أخبرك... حسنًا، بتلك القدرات. فكما ترين هناك، في كاير مورهي، في الجبال... لم أستطع أداء أي علامة من العلامات الويتشرية. ولا حتى واحدة!». - أعلم ذلك.

- تعلمين؟

- أعلم. لكن هذا لا يعني شيئًا.

- كيف ذلك؟ حسنًا... لكن هذا ليس كل شيء!

- أسمعك بتشوق.

- أنا لا أصلح. ألا تفهمين ذلك؟ أنا... فتية جدًا.

- كنتُ أفتي منك عندما بدأت.

- لكنك على الأرجح لم تكوني...

- ماذا تقصدين، يا بنت؟ توقفي عن التلعثم! أرجوك تفضلي، قل لي ولو جملة واحدة كاملة.

خفضتُ سيري رأسها، واحمرَّت وجهها: «لأن... لأن إيولا، وميرها، وإيوميد، وكاتجي، عندما تناولنا الغداء، سخرنَ مني وقلنَ إن الأسحار لا منفذ لها إليّ، وإنني لن أتمكن من أداء أي سحر لأنني... لأنني... عذراء، هذا يعني...».

قاطعتها الساحرة: «تصوري أنني أعرف ما يعنيه ذلك. ربما تقرئين هذا، من جديد، على أنه سخرية خبيثة مرة أخرى، لكنني أنبتك، بكل أسف، بأنك تهذين بالترُّهات. لنعدَّ إلى الاختبار».

كررتُ سيري مشاكسة: «أنا عذراء! لماذا هذه الاختبارات؟ العذراء لا تستطيع أن تؤدي السحر!».

مالت ينيفر على مسند الكرسي: «لا أرى مخرجًا. لذا فازهبي وافقدي عذريتك، إن كان هذا يزعجك إلى هذا الحد. سأنتظر. لكن استعجلي، إن أمكن».

- هل تسخرين مني؟

ابتسمتِ الساحرة ابتسامةً خفيفةً: «هل لاحظتِ ذلك؟ أهنتك. لقد اجتزت الاختبار الأول في الفطنة. والآن الاختبار الفعلي. اشحذي انتباهك، أرجوك. انظري: في هذه اللوحة أربع شجيرات صنوبر. كل واحدة منها لها عدد مختلف من الأغصان. ارسمي الخامسة، تتناسب مع هذه الأربع، ويجب أن تكون في هذا المكان الفارغ».

أصدرتُ سيري حكمًا، وهي تخرج لسانها وترسم بالفحم شجيرةً مائلةً قليلًا: «شجيرات الصنوبر غبية. ومملة! لا أفهم، ما الرابط بين شجيرات الصنوبر والسحر؟ ها؟ سيدة ينيفر! وعدتِ بالإجابة عن أسئلتي!».

تنهدتِ الساحرة، وهي تأخذ الورقة وتعاين الرسمة بتدقيق: «يا للأسف. يُخيّل إليّ أنني سأندم على هذا الوعد. ما الرابط بين شجيرات الصنوبر والسحر؟ لا شيء. لكنك رسمتها بطريقة صحيحة وفي الوقت المحدد. حقًا، إن أدائك جيد جدًا قياسًا على أنك عذراء».

- تضحكين مني؟

- لا. أنا نادرًا ما أضحك. لا بدّ من أن يكون لديّ سبب مهم حقًا لأضحك. ركزي على الورقة الجديدة، يا مفاجأة. رسمتُ عليها صفوفًا مؤلفة من نجوم ودوائر وصلبان ومثلثات، وفي كل صف عدد مختلف من كل عنصر. فكري وأجيبني: كم نجمة يجب أن تكون في الصف الأخير؟

- النجوم غبية!

- كم، يا بنت؟

- ثلاث!

صمتت ينيفر طويلاً، ناظرةً بشرود إلى شيء محدد، لا يعلمه سواها، كان على باب الخزانة المزيّن بالنقوش. بدأت البسمة الخبيثة المرتسمة على فم سيرى تتلاشى ببطء، حتى اختفت تماماً، دونما أثر.

قالت الساحرة ببطء شديد، دون أن تتوقف عن إبداء إعجابها بالخزانة: «ربما أثار تساؤلك ماذا كان سيحدث إذا قدمت لي إجابةً غبيةً ولا معنى لها. لعلك ظننت أنني لن ألاحظ، لأن إجاباتك لا تهمني بتاتاً؟ لقد خاب ظنك. ربما فكرت أنني سأقبل ببساطة أنك غير ذكية؟ لقد خاب تفكيرك. وإذا مللت أن تكوني تحت الاختبار وأردت من أجل التغيير اختباري... فإنك إذن، على أغلب الظن، قد نجحت في ذلك؟ على أي حال، قد انتهى هذا الاختبار. أعطيني الورقة».

خفضت البنية رأسها: «أعتذر إليك، سيدة ينيفر. طبعاً كان يجب أن تكون هناك... نجمة واحدة. أعتذر بشدة. أرجوك، لا تغضبي مني».

- انظري إليّ، يا سيرى.

رفعت عينيها، متفاجئة. فهذه هي أول مرة تنادى بها الساحرة فيها باسمها. قالت ينيفر: «سيرى. اعلمي أنني، رغم ما يظهر مني، نادراً ما أغضب، كما أنني نادراً ما أضحك. إنك لم تغضبيني. لكنّ باعتذارك، أثبت لي أنني لم أخطئ في أمرك. الآن، خذي الورقة التالية. كما ترين، مرسوم عليها خمسة منازل. ارسمي المنزل السادس...».

- من جديد؟ حقاً، أنا لا أفهم ما الغرض...

- تغير صوت الساحرة على نحو خطر، والتمعت عيناها بجمر بنفسجي: «...المنزل السادس، هنا في هذا المكان الفارغ. لا تجعليني أكرر، أرجوك».



بعد التفاحات، وشجيرات الصنوبر، والنجوم، والأسماك، والمنازل، جاء دور المتاهات، التي كان من اللازم إيجاد مخرج منها بسرعة شديدة، على

الخطوط المتعرجة، وعلى لطفة الحبر التي تشبه الصراصير المهروسة، وعلى الصور الأخرى الغريبة والفسيفساء، التي كانت تجعل العين حولاء، والرأس يدور كدَوَّامة. وبعدئذٍ كانت الكرة اللامعة على الحبل، التي تُوجِب أن يُمعن في النظر إليها طويلاً. وكان النظر الطويل مملاً كغثيان لا ينفك، وسيري اعتادت أن تنام بانتظام في أثناء ذلك. ومن العجيب أن ينيفر لم تكن تبالي بذلك بتاتاً، مع أنها صرخت عليها على نحو مروع قبل بضعة أيام، بسبب محاولتها أن تغفو فوق إحدى لطفات الحبر التي تشبه الصراصير.

منذ انكبابها على الاختبارات، ظهرت الآلام في رقبتها وظهرها، وأخذت الأوجاع تشتد يوماً بعد يوم. اشتاقت إلى الحركة والهواء النقي، وفي إطار واجب الصدق، أخبرت ينيفر بذلك في الحال. تقبلت الساحرة الأمر بسلاسة كبيرة، كأنها كانت تنتظره منذ مدة طويلة.

راحت كلتاها خلال اليومين التاليين، تجريان في الحديقة، تقفزان فوق الخنادق والأسوجة، تحت أنظار الراهبات والمتدربات المستمتعة أو المفعمّة بالشفقة. مارستا التمارين، تدريباً على التوازن ماشيتين على قمة السور المحيط بالبستان والمباني الزراعية. وخلافاً للتدريبات في كاير مورهي، كانت التمرينات مع ينيفر مصحوبة دائماً بالنظرية. فقد علّمت الساحرة سيري التنفس، بالتحكم في حركات الصدر والحجاب الحاجز بضغط قوي لليد. وشرحت لها مبادئ الحركة، وعمل العضلات والعظام، واستعرضت كيفية الراحة والاسترخاء والتخلص من التشنج.

في أثناء إحدى تلك الاستراحات، طرحت سيري المُمدّدة على العشب، والمحدّقة إلى السماء، السؤال الذي شغل بالها.

- سيدة ينيفر؟ متى سننتهي أخيراً من هذه الاختبارات؟

- أهى ترهقك إلى هذا الحد؟

- لا... لكنني أودُّ أن أعرف أكنت أصلح لأن أكون ساحرة.

- أنتِ تصلحين.

- علمتِ ذلك الآن؟

- كنت أعلم ذلك منذ البداية. قليلون جدّاً لديهم القدرة لإدراك نشاط

نجمتي. قليلون جدّاً. أنتِ لاحظتِ ذلك على الفور.

- والاختبارات؟

- انتهت. صرتُ أعلم عنكِ ما أردتُ معرفته.

- لكنَّ بعض المهام... لم أنجحُ فيها كثيرًا. لقد قلتِ أنتِ نفسكِ إن... هل أنتِ متأكدة حقًا؟ ألسنِ تخطئين؟ هل أنتِ واثقة أنني أمتلك القدرة؟

- إني واثقة.

- لكن...

أثارتِ الساحرة انطباعًا أنها مبتهجة، وأنها في الوقت ذاته، أوشكت أن تفقد صبرها: «سيرى. منذ اللحظة التي استلقينا فيها على المرج، وأنا أتحدث معكِ دون أن أستخدم صوتي. وهذا ما يسمى بالتخاطر، تذكرى ذلك. وكما لاحظتِ، على الأرجح، فإنه لا يعوق محادثتنا».



قالت نينفر وهي تحرق إلى السماء فوق التلال، متكئةً بيديها على قربوس السرج: «يُعَدُّ السحر في رأي البعض تجسيدًا للفوضى. هو مفتاح قادر على فتح أبواب محظورة. أبواب يكمن وراءها الكابوس، والرعب، والفضاعة التي لا يمكن تخيلها؛ تتربص خلفها قوى معادية ومدمرة، قوى الشر الخالص، التي يمكنها أن تفني ليس فقط من يفتح لها الباب قليلًا، بل العالم بأسره. ولمَّا كان مثل أولئك الذين يتلاعبون عند تلك الأبواب لا ينعدم وجودهم، فسيأتي يوم يرتكب فيه أحدهم خطأً، وعندئذٍ سيكون فناء العالم محسومًا ومحتومًا. لذلك، فالسحر هو انتقام الفوضى وسلاحها. وما حدث بعد اقتران الأجرام من أن الناس تعلموا استعمال السحر، ليس إلا لعنة للعالم وهلاكه. هلاك للبشرية. وهذه هي الحال، يا سيرى. أولئك الذين يرون السحر فوضى، لا يجانبون الصواب».

سهل فحل الساحرة الأدهم طويلاً، وتحرك ببطء قاطعًا الأرض الحراجية. حنَّت سيرى فرسها على الجري، وسارت على إثرها حتى حاذتها. كان طول الخلع يصل إلى الركابين.

استأنفت نينفر بعد لحظة: «يُعَدُّ السحر في رأي البعض فنًا. فنًا عظيمًا، خبويًا، قادرًا على خلق أشياء رائعة وغير عادية. السحر موهبة تحوزها قلة مختارة. الآخرون، الذين يفتقرون إلى هذه الموهبة، لا يمكنهم إلا أن ينظروا

بإعجاب وحسد إلى نتائج عمل الفنانين، يمكنهم أن يعجبوا بأعمالهم الإبداعية، فيما يشعرون في الوقت نفسه أن العالم سيكون أفقر دون هذه الإبداعات ودون هذه الموهبة. والقول إن بعض المخترارين اكتشفوا الموهبة والسحر في أنفسهم، بعد اقتران الأجرام، وإنهم وجدوا الفن في أنفسهم، ما هو إلا نعمة الجمال. وهكذا هو الأمر. أولئك الذين يرون السحر فنًا، هم أيضًا مُحَقِّقُونَ».

على تلة مستديرة وعارية، بارزة من بين الأراضي الحراجية كظهر حيوان مفترس متربص، ارتمت صخرة عملاقة، مستندة إلى عدة أحجار أخرى أصغر. وجهت الساحرة حصانها نحوها، دون أن تقطع محاضرتها.

- وثمة أيضًا من يرى السحر علمًا. وللتحكم فيه، لا تكفي الموهبة والقدرات التي تأتي بالولادة. ولا مناص من سنوات الدراسة الجادة والعمل الشاق، وضروري أيضًا الثبات والانضباط الداخلي. إن السحر المكتسب بهذه الطريقة معرفة، ودراية تتوسع حدودها باستمرار بوساطة العقول المستنيرة والحية، من خلال التجربة والتجريب والممارسة. إن السحر المكتسب بهذه الطريقة تقدّم. إنه المحراث، والنول، والطاحونة المائية، وفرن الحديد الخالص، والرافعة، والبكرة المركّبة. إنه تقدم، وتطور، وتغيير. إنه حركة متواصلة. نحو الأعلى. نحو الأفضل. نحو النجوم. وكوننا اكتشفنا السحر بعد اقتران الأجرام، فهذا سيتيح لنا ذات يوم بلوغ النجوم. انزلي عن الحصان، يا سيري.

اقتربت ينيفر من الجلمود، ووضعت كفها على سطح الصخرة الخشن، وأزاحت بحذر الغبار والأوراق الجافة عنه.

استأنفت: «أولئك الذين يرون السحر علمًا هم أيضًا مُحَقِّقُونَ. تذكرني ذلك، يا سيري. والآن اقتربي مني هنا».

ابتلعت الفتاة ريقها واقتربت. احتضنتها الساحرة بذراعيها.

كررت: «تذكرني. السحر فوضى وفن وعلم. هو لعنة، وبركة، وتقدم. كل شيء يعتمد على مَنْ يستخدم السحر، وكيف، ولأي غرض. والسحر موجود في كل مكان. في كل مكان حولنا. متاح ببسر. يكفي أن تمدي يدك. انظري. إنني أمدُّ يدي».

اهتزَّ النصب الحجري اهتزازًا محسوسًا. سمعت سيري دويًا بعيدًا مكتومًا، وضجيجًا أجوف منبعثًا من باطن الأرض. تماوج الخلدنج، منبسطا

تحت الريح العاتية التي هبت فجأة على التلة. أظلمت السماء فجأة، وكانت محجوبة بسحب تجري بسرعة هائلة. أحسَّت الصبية بقطرات المطر على وجهها. أغمضت عينيها أمام وهج البرق الذي اشتعل الأفق به فجأة. ارتمت عفوياً في أحضان الساحرة، على شعرها الأسود الذي فاحت منه رائحة اليليك وعنب الثعلب.

- الأرض التي نخطو عليها. النار التي لا تنطفئ في جوفها. والماء الذي نشأت منه كل حياة، الذي تصبح هذه الحياة من دونه مستحيلة. والهواء الذي نتنفس. يكفي أن يمد المرء يده ليتحكم فيها كلها، ليجبرها على الطاعة. السحر في كل مكان. في الهواء، وفي الماء، وفي الأرض، وفي النار. وهو وراء الأبواب التي أغلقها اقتران الأجرام أمامنا. من هناك، من وراء الأبواب المغلقة، يمد السحر يده أحياناً إلينا. إلى داخلنا. تعلمين ذلك، أليس كذلك؟ قد شعرت بلمسة السحر من قبل، بلمسة يد من خلف الأبواب المغلقة. هذه اللمسة ملأت نفسك بالخوف. مثل هذه اللمسة تملأ نفس أي شخص بالخوف. لأن في كل واحد منا تكمن الفوضى والنظام، والخير والشر. لكن يمكن ويجب التحكم في ذلك كله. يجب تعلم ذلك. وستتعلمين ذلك، يا سيري. لهذا السبب أحضرتكِ إلى هنا، إلى هذا الحجر الذي يقف منذ غابر الأزمان على تقاطع الأوردة النابضة بالقوة. هيّا المسية.

كانت الصخرة ترتجف وتهتز، ومعها كانت ترتجف وتهتز كل التلة.

- السحر يمد يده إلى داخلك، يا سيري. إلى داخلك، أيتها الفتاة العجيبة، أيتها المفاجأة، طفلة الدم الأقدم، دم الإلفيين. أيتها الفتاة العجيبة، المتواشجة في الحركة والتغيير، في الفناء والانبعاث. المقدرة والمتجلية قدرًا. السحر يمد يده إلى داخلك من وراء الأبواب المغلقة، إلى داخلك، يا حبة الرمل الصغيرة في تروس ساعة القدر. يمد إلى داخلك مخالب فوضاه، التي لم تتيقن بعد أستكونين أداتها أم حجر عثرة في خططها. ما تظهره لك الفوضى في الأحلام هو هذه الحيرة تحديدًا. الفوضى تخافك. يا طفلة القدر. وتريد أن تجعلكِ أنت من شعيرين بالخوف.

ومض البرق، ودوى الرعد مطولاً. كانت سيري ترتجف من شدة البرد والرعب.

- الفوضى لا يمكنها أن تظهر لك حقيقتها. لذا فإنها تظهر لك المستقبل،
ما سيحدث. تريد أن تجعلك تخافين من الأيام القادمة، كي يبدأ الخوف
مما سيحدث لك وللمقربين منك بالتحكم فيك، كي يسيطر عليك تمامًا.
لذلك ترسل الفوضى الأحلام. ستريني الآن ما تشاهدين في أحلامك.
وسوف تخافين. ثم سوف تنسين وتسيطرين على الخوف. انظري إلى
نجمتي، يا سيري. لا تنزلي نظرك عنها!

ومض البرق. دوى الرعد.

- تكلمي! أمرك بذلك!

الدم. شفتا ينيفر المشقوقتان والممزقتان، تتحركان دون صوت، تنزفان
دمًا. الصخور البيض تبرق في أثناء جري الخيل. يسهل الحصان. قفزة.
هاوية، هوة. صرخة. طيران لا ينتهي. هوة...

في أعماق الهوة دخان. سُلّم يقود إلى الأسفل.

Va'esse deireadh aep eigan ... شيء ما ينتهي... ماذا؟

Elanie blath, Feainnewedd ... طفلة الدم الأقدم؟ يبدو صوت ينيفر
كأنه يأتي من بعيد، مكتومًا، يثير أصداء بين الجدران الحجرية الناضجة
بالرطوبة *...Elaine blath*

- تكلمي!

عينان بنفسجيتان تلتمعان، تتوهجان في وجه هزيل، منكمش، مسودّ من
العذاب، محجوب بعاصفة من الشعر الأسود المتشابك المتسخ. ظلام. رطوبة.
نتانة. برودة مروعة من الجدران الحجرية. برودة الحديد على مفاصل اليدين
وعلى كعبي الساقين...

هاوية. دخان. سُلّم يفضي إلى الأسفل. سُلّم لا بدّ من النزول عليه. لا بدّ
منه، لأن... لأن شيئًا ما ينتهي. لأن تيد ديريد، زمن النهاية، زمن العاصفة
الثلجية، قادم. زمن البرد الأبيض والضوء الأبيض...

يجب أن تموت الشبلة! المصلحة الوطنية!

لنذهب، يقول جيرالت. خلال السلم إلى الأسفل. يجب علينا. لا بدّ من ذلك.
لا توجد طريق أخرى. إلا السلم. إلى الأسفل! شفتاه لا تتحركان. مُزَرَّقَتان.
دماء، في كل مكان دماء... السلم كله غارق في الدماء... حذار أن تنزلقي...

فالويتشر يتعثّر مرة واحدة فقط... بريق نصل. صرخة. موت. إلى الأسفل. خلال السلم إلى الأسفل.

دخان. نار. عدو خيل محموم، خبط حوافر. حريق من جميع الجهات. تمسكي! تمسكي، يا شبلّة من سينترا!

يسهل الحصان الأسود، يقف على قدميه الخلفيتين. تمسكي! يرقص الحصان الأسود. من شق الخوذة المزينة بجناحي طائر جارح، تلمع وتتوهج عينان لا ترحمان.

يسقط سيف عريض، عاكسًا بريق الحريق، مصحوبًا بصفير. مناورة، يا سيري! مراوغة! دوران على أصابع القدمين، صد! مناورة! مناورة! هذا بطيبيبيبيي جدًّا!

الضربة تعمي بوجهها العينين، تهز الجسد كله، الألم يشل الحركة لحظة، يفقد الإحساس، يخدر، وبعد ذلك ينفجر فجأة بقوة وحشية، ينغرس في الخد بأنياب حادة قاسية، يمزق، ينفذ عميقًا، ينتشر متمدّدًا إلى الرقبة، إلى القذال، إلى الصدر، إلى الرئتين...

- سيري!

أحست ببرودة الحجر الثابتة والخشنة والمزعجة على ظهرها ومؤخرة رأسها. لم تتذكر متى جلست. كانت ينيفر راحة بجانبها. فردّت أصابعها بخفة، لكن بحزم، وأزالت راحة يدها عن خدها. كان الخد ينبض ويخفق ألماً. تأوهت سيري: «أمي... أمي... كم هو مؤلم! أميمتي...».

لمست الساحرة وجهها. كانت يدها باردة كالجليد. توقّف الألم في الحال. همست الفتاة، مغمضة عينيها: «لقد رأيتُ... ذاك الذي في الأحلام... الفارس الأسود... جيرالت... وأيضًا... رأيتكِ... رأيتكِ، سيدة ينيفر!».

- أعلم.

- رأيتكِ... رأيتُ كيف...

- ولن تري ذلك أبدًا. لن تري ذلك أبدًا بعد الآن. لن تحلمي بذلك بعد الآن. سأمنحك قوة تطرد عنك تلك الكوابيس. لهذا قدتكِ إلى هنا، يا سيري، لأريك هذه القوة. غدًا سأبدأ في منحكِ إياها.

جاءت أيام العمل الشاقة، أيام الدراسة المكثفة، والشغل المرهق. كانت ينيفر حازمة، متطلبة، وفي الغالب كانت صارمة، وأحياناً مخيفة بسلطتها. لكنها لم تكن مملة بتاتاً. في الماضي، كانت سيرى تبذل جهداً شاقاً في مدرسة المعبد كي تُبقي جفنيها مفتوحين، وقد حدث أنها غفت في أثناء الدروس، وقد نَوَّمتها الصوتُ الرتيبُ والوديعُ، صوت نينيكي أو إيولا الأولى أو كورتوسا أو غيرهن من الكاهنات المعلمات. مع ينيفر، كان ذلك مستحيلاً. وهذا ليس فقط بسبب نبرة صوت الساحرة، أو استخدامها الجمل القصيرة المنبورة بحدة. فالأهم كان محتوى التعليم. تعليم السحر. التعليم الفاتن، والمهيِّج، والأخاذ.

كانت سيرى تقضي معظم يومها مع ينيفر. وتعود إلى المهجع في وقت متأخر من الليل، فترتمي على السرير كجذع شجرة مقطوع، وتغفو في الحال. كانت المتدربات يتبرمن من شخيرها الشديد، فيحاولن إيقاظها. دون جدوى. كانت سيرى تنام نوماً عميقاً.
دون أحلام.

تنهدت ينيفر مستسلمةً، وشتت بكلتا يديها ضفائر شعرها السود، ونكست رأسها: «أيتها الآلهة! إن هذا الأمر بسيط جداً! إذا لم تستطيعي تطويع هذه الحركة، فكيف سيكون الأمر مع تلك الأصعب؟». استدارت سيرى، غمغت، نفخت غاضبة، وفركت يدها المتصلبة. تنهدت الساحرة مجدداً.

- انظري مرة أخرى إلى الرسم، شاهدي كيف يجب أن تكون الأصابع مفرودة. انتبهي إلى الأسهم التوضيحية والحروف الرونية التي تحدد الحركة التي يجب تنفيذها.

- قد نظرتُ إلى هذه الرسم ألفَ مرة! أفهم الحروف الرونية! *Vort, ca'elme. Ys, veloe* من نفسك، ببطء. إلى الأسفل، بسرعة. راحة اليد... هكذا، أجل؟

- والخنصر؟

- لا يمكن أن توضع هكذا، دون ثني البنصر في الوقت ذاته!

- أعطيني يدك.

- أو!!!!

- اخفضي صوتك، سيرى، وإلا جاءتنا نينيكى جرياً إلى هنا مجدداً، معتقدة أنني أسلخ جلدك حيةً أو أنني أقلبك في الزيت. لا تغيّري وضع الأصابع. والآن نفذي الحركة. دورة، دورة بالمعصم! جيد. الآن انفضي يدك، أرخي أصابعك. وكرري. لا، لا! هل تدرين ماذا فعلت؟ لو ألقيت تعويذة حقيقية بهذه الطريقة، لكانت يدك في الجبيرة طوال شهر! هل كفّك من خشب؟

- يدي مدرّبة على السيف! هذا هو السبب!

- هراء. جيرالت يلوح بالسيف طوال حياته، وأصابعه رشيقة و... هممم... وناعمة جداً. هيا، يا دميمة، حاولي مرة أخرى. أترين الآن! يكفي أن تريدي. يكفي أن تسعي. مرة أخرى. جيد. انفضي يدك. ومرة أخرى. جيد. هل تعبتي؟

- قليلاً...

- دعيني أدلك يدك وساعدك. سيرى، لماذا لا تستخدمين المرهم الذي أعطيتك إياه؟ يداك خشنتان كمخلبي غاقة... وما هذا؟ أثر خاتمك، أليس كذلك؟ يخيل إليّ، كما أظن، أنني منعتك من ارتداء الحلّي؟

- لكنني فزتُ بهذا الخاتم من ميرها في لعبة الخدروف! ولم أرتديه سوى نصف يوم...

- نصف يوم أطول من اللازم. لا ترتديه مرة أخرى، من فضلك.

- لا أفهم لماذا لا يُسمح لي...

قاطعتها الساحرة، لكنّ صوتها خلا من الغضب: «ليس لزماً عليك أن تفهمي. أطلب منك ألا ترتدي أي زينة من هذا النوع. وإن شئت، فعلقي زهرة في شعرك. اعقدي إكليلاً. لكنّ دون أي معدن، ولا أي بلور، ولا أي حجر. هذا مهم، يا سيرى. عندما يحين الوقت، سأشرح لك السبب. في الوقت الراهن، ثقي بي، وطبّقي ما أطلبه منك.»

- أنت ترتدين نجمتك، وأقراطك وخواتمك! وأنا أُمْنَع من ذلك؟ هل هذا لأنني... عذراء؟

ابتسمت ينيفر، ومسحت على رأسها: «يا دميمة. هل لديك هوس بهذا الأمر؟ لقد شرحتُ لك من قبل، لا أهمية بتاتاً إذا ما كنت كذلك أم لا. بتاتاً. اغسلي شعرك غداً، لقد حان وقت غسله، كما أرى».

- سيدة ينيفر؟

- نعم.

- هل يمكنني... في إطار ذلك الصدق الذي وعدتني به... هل يمكنني أن أسألك شيئاً؟

- يمكنك. لكن، بحق الآلهة، أسألي عن أي شيء إلا عن العذرية، أرجوك. عضتُ سيرتي على شفيتها وصمتت طويلاً. تنهدت ينيفر: «لا بأس. فليكن. أسألي».

احمرّت سيرتي، ولعقت شفيتها: «كما ترين... الفتيات في المهجع يثرثن دون انقطاع، ويحكين قصصاً مختلفة... عن عيد بيلتين وأشياء مشابهة... ويقلن عني إنني لمّا أشب عن الطوق وإنني طفلة، والوقت قد حان... سيدة ينيفر، ما الحال في الحقيقة؟ كيف لنا نعرف أن الوقت قد حان...».

- ...للذهاب إلى الفراش مع رجل؟

احمرّ وجه سيرتي. صمتت لحظة، ثم رفعت عينيها وأومأت برأسها. قالت ينيفر بتحرر: «من السهل معرفة ذلك. إذا بدأت تفكرين في الأمر، فهذا علامة أن الوقت قد حان».

- لكنني لا أريد ذلك إطلاقاً!

- هذا ليس إلزامياً. إذا كنت لا تريدين ذلك، فلا تفعليه.

عضتُ سيرتي على شفيتها مجدداً: «أها. وهذا... أعني... الرجل... كيف تعرفين أنه هو الرجل المناسب، الذي معه...».

- ...يمكن الذهاب إلى الفراش؟

- مهمم.

عوجتِ الساحرة شفقتها مبتسمة: «إذا كان أمام البنت مجال للاختيار، ولم تكن لديها خبرة كبيرة، ففي المقام الأول، ينبغي لها ألا تُقيّم الرجل، بل الفراش».

أخذتُ عينا سيري الزمرديتان شكلَ صحنين وحجمهما.

- كيف هذا... الفراش؟

- هكذا الضبط. أولئك الذين ليس لديهم أسرةً بتاتاً، تُقَصِّصهم على الفور. ومن بين المتبقين، تُقَصِّص ذوي الأسرة الوسخة وغير المرتبة. وعندما يتبقى فقط أولئك الذين لديهم أسرة نظيفة ومرتبّة، تختارين أكثر من يعجبك منهم. وهذه الطريقة، يا للأسف، ليست مضمونة مائة في المائة. من الممكن أن تخطئي أخطاءً فادحة.

- تمزحين؟

- لا. لا أمزح. سيري، من الغد ستنامين هنا، معي. انقلي أغراضك إلى هذا المكان. كما سمعتِ، فإن المكوث في مهجع المتدربات مضيعة لكثير من الوقت في الثرثرة الفارغة، وينبغي أن يُخصّص للراحة والنوم.



بعد أن أتقنتُ سيري ضبطَ أوضاع الكفين الأساسية والحركات والإيماءات، بدأتُ تتعلم التعاويذ وصيغها. كانت الصيغ أيسر. مكتوبة بلغة القدماء، التي كانت الفتاة تجيد استخدامها على أكمل وجه، فكان حفظها سهلاً في الذاكرة. حتى مع ضرورات تعسر النبر أحياناً عند نطقها، لم تواجهُ سيري أي مشكلة. كانت علامات الرضا باديةً على ينيفر بوضوح، وأصبحت يوماً بعد يوم ألطف وأكثر مودةً. صارتا تثرثران عن أي شيء بوتيرة أخذت تزداد شيئاً فشيئاً، في أوقات الاستراحة من التعليم، وكانتا تتمازحان، حتى إنهما بدأتا تجدان تسلية في الإشارة إلى نينيكي بالغمز واللمز بطريقة ملطفة. وكثيراً ما كانت نينيكي تؤدي «زيارات تفتيشية» للدروس والتدريبات، نافشة ريشها في خيلاء مثل دجاجة حاضنة، ومتحفزة لأخذ سيري تحت جناحي الرعاية، والدفاع عنها وإنقاذها من قسوة الساحرة المتخيلة و«التعذيب اللاإنساني» في أثناء التعليم.

انتقلت سيري إلى حجرة ينيفر، مطيعةً الأمر الصادر. صارتا الآن معًا، ليس في النهار فحسب، بل في الليل أيضًا. كانت الدروس تستمر حتى الليل، في بعض الأحيان؛ فبعض الحركات والصيغ والتعاويد لا يجوز استخدامها في ضوء النهار.

أبدت الساحرة رضاها عن تقدم الصبية، فخففت من وتيرة التعليم. وصار لديهما المزيد من وقت الفراغ. أمضيتا أمسياتهما في قراءة الكتب، سواء كانتا معًا أم كانتا منفردتين. أتمت سيري قراءة حوارات عن طبيعة السحر لستاملفورد، وقوى العناصر لجيامباتيستا، وكذلك السحر الطبيعي لريتشرت ومونك. وتصفحَت أعمالاً أخرى (ولم تفلح في قراءتها كاملة)، مثل العالم الخفي لجان بَكر أو سر الأسرار لأجنيس من جلانفيل. واطلعت على المدونة من من ميرث التي شحب لونها، وهي الموغلة في القدم، واطلعت على أرد أيركان، وحتى على دهو دفيميمرموك الشهيرة والمخيفة، المليئة بالرسوم المطبوعة المثيرة للرعب.

وصلت أيضًا إلى كتب أخرى لا ترتبط بالسحر. وكانت تقرأ من وقت إلى آخر تاريخ العالم ورسالة عن الحياة. لم تترك جانبًا المؤلفات الأخف من مكتبة المعبد. واستوعبت بشوق وانفعال كتاب معابثات للماركي لا كريهام، والسيدة الملكية لآنا تيلير. وقرأت مجموعتين شعريتين للتروبادور الشهير ياسكير، هما: خيبات الحب ووقت القمر. بكت عند قراءة قصائد البالادا الرقيقة التي تفوح منها الأسرار من تأليف إيسي دافين، التي جمعت في ديوان مجلد وجميل، يحمل عنوان اللؤلؤة الزرقاء.

كثيرًا ما أفادت من الامتياز الممنوح لها وطرحَت أسئلة. وحصلت على إجابات. لكنها أخذت تتحول، هي نفسها، في كثير من الأحيان إلى موضوع الأسئلة المطروحة. في البداية، خيَل إليها أن ينيفر لا تهتم بتاتًا لا بمصيرها ولا بطفولتها في سينترا، ولا بأحداث الحرب اللاحقة. لكنَّ الأسئلة أصبحت تزداد دقة. كان على سيري أن تجيب؛ وفعلت ذلك على مضض؛ فكل سؤال من الساحرة كان يفتح أبوابًا في ذاكرتها، عاهدت نفسها ألا تفتحها أبدًا، وأرادت أن تتركها مغلقةً إلى الأبد. منذ أن التقت جيرالت في سودن، رأت أنها بدأت «حياة أخرى»، وأن ما كان في سينترا قد مُجِيَ نهائيًا ولا رجعة في ذلك. لم يسألها الويتشريون في كاير مورهي عن شيء قط، بل إن جيرالت ألزمها، قبل وصولها إلى المعبد، عدم الإفصاح عن هويتها لأي شخص كان.

أما نينيكى، التي كانت تعرف كل شيء طبعًا، فحرصتُ على أن تكون سيرى، بالنسبة إلى الكاهنات والمتدربات الأخريات، بنتًا عادية جدًّا، ابنةً غير شرعية لفارس وامرأة قروية، مجرد طفلة لم يكن لها مكان لا في قصر والدها، ولا في كوخ والدتها. فنصف المتدربات في معبد مليتيلي كنَّ طفلات من هذا الصنف بالضبط.

وينيفر على معرفة بالسر أيضًا. فقد كانت تلك التي «يمكن الوثوق بها». راحت ينيفر تسأل. عن ذلك. عن سينترا.

- كيف خرجتِ من المدينة، يا سيرى؟ كيف تمكنتِ من الإفلات من النيلفجارديين؟

لم تتذكرُ سيرى ذلك. كل شيء يتقطع ويختفي في الظلام والدخان. تذكرتِ الحصار، ووداعها جدتها، الملكة كالانثي، تذكرتِ البارونات والفرسان، الذين أزاخواها بالقوة عن السرير، حيث كانت لبؤة سينترا تستلقي جريحةً تحتضر. تذكرتِ الهروب الجنوني خلال الأزقة المشتعلة، والقتال الدموي والسقوط عن الحصان. تذكرتِ الخيال الأسود ذا الخوذة المزينة بجناحي طير جارح. ولا شيء آخر.

- لا أتذكر. حقًا لا أتذكر، يا سيدة ينيفر.

ينيفر لم تُلح. وطرحَتْ أسئلة أخرى. كانت تفعل ذلك بلينٍ ولباقة، فصارت سيرى شيئًا فشيئًا أكثر طلاقة. وأخيرًا، بدأت تتكلم من تلقاء نفسها. وراحت تتحدث عن أعوام طفولتها في سينترا وفي جزر اسكيليج، غير منتظرة الأسئلة. عن كيفية علمها بقانون المفاجأة، وعن أن حكم القدر جعلها مصيرًا لجيرالت من ريفيا، الويتشر ذي الشعر الأبيض. حكَّت عن الحرب. عن تشردها في غابات ما وراء النهر، وعن إقامتها بين كهنة الدرويد في أنجرين، وعن الوقت الذي قضته في الريف. وكيف وجدها جيرالت وأخذها إلى كاير مورهين، موطن الويتشريين، مفتوحة فصلًا جديدًا في حياتها القصيرة.

في إحدى الأمسيات، وبمبادرة ذاتية، دون أن تُسأل، حدثت الساحرة بسلاسة ومرح وتشويق شديد، عن لقاءها الأول بالويتشر، في غابة بروكلون، بين حوريات الدريادا اللواتي اختطفنها وأردن إبقائها بالقوة، لتحويلها وجعلها واحدة منهن.

قالت ينيفر بعد الاستماع إلى القصة: «ها! كنتُ سأعطي الكثير لأتمكن من رؤية ذلك. أتحدث عن جيرالت. أحاول أن أتخيل تعبير وجهه، في ذلك الوقت في بروكلون، عندما رأى المفاجأة التي أعدها القدر له! فلا بدَّ من أن وجهه اعترته تعابير رائعة، عندما علم من أنت؟».

قهقهته سيري، وفي عينيها الزمرديتين توهجت أضواء شيطانية. زمجرت: «أي، نعم! اعترته تعابير! وأي تعابير! تريدين رؤية ذلك؟ سأريك. انظري إليّ!».

انفجرت ينيفر من شدة الضحك.



فكرتُ سيري، ناظرةً إلى أسراب الطيور السود المتجهة شرقًا: ذلك الضحك.. ذلك الضحك المشترك والصادق، قرَّب بيننا حقًا، بيني وبينها. فهمنا، هي وأنا. فهمنا، أنا وهي، أننا يمكننا أن نضحك معًا، ونحن نتحدث عنه. عن جيرالت. فجأة أصبحنا قريبتين إحدانا من الأخرى، مع أنني كنت أعلم جيدًا أن جيرالت يجمعنا ويفرقنا في الوقت نفسه، وأنه سيكون دائمًا كذلك.

لقد قرَّبنا ذلك الضحك المشترك.

وما حدث بعد يومين. في الغابة، على التلال. كانت تريني آنذاك كيف أجد...



- لا أفهم، لماذا عليَّ البحث عن هذه الـ... من جديد نسيْتُ ماذا تسمى... أفادتها ينيفر بالإجابة، وهي تزيل أشواك الأرقطيون التي انغrust في كُمرها خلال عبورها الأيكة: «الشقوق... سأريك كيف تكتشفينها، لأنها أماكن يمكنكِ استمداد القوة منها».

- لكنني صرْتُ أعلم كيف أستمد القوة! وأنت نفسك قد علمتني أن القوة موجودة في كل مكان. فلماذا إذن نجول بين الشجيرات؟ وإن المعبد مليء بالطاقة!

- نعم، الكثير منها متوفر هناك. ولهذا السبب تحديدًا بُني المعبد هناك، وليس في مكان آخر. ولهذا أيضًا يُخَيَّلُ إليك أن استمداد القوة سهل جدًا في المعبد.

- بدأت رجلاي تؤلمانني! لنجلس هنيهةً، حسنًا؟

- حسنًا، يا دميمة.

- سيدة ينيفر؟

- نعم.

- لماذا نستمد القوة دائمًا من العروق المائية؟ إن الطاقة السحرية موجودة في كل مكان. هي في الأرض، صحيح؟ في الهواء، في النار؟
- صحيح.

- والأرض... أوه، هنا التراب يملأ المكان من كل الجهات. تحت أقدامنا. والهواء في كل مكان! وإذا أردنا النار، فيكفي أن نشعل نارًا و...

- أنتِ لا تزالين ضعيفة جدًا لتستخرجي الطاقة من الأرض. لا تزالين لا تعلمين بما يكفي لتتمكني من استحصال شيء من الهواء. أما النار، فأمنعكِ منعًا باتًا من اللعب بها! وقد قلتُ لك، ممنوع عليك، في أي ظرف كان، أن تلمسي طاقة النار!
- لا تصرخي. أتذكر ذلك.

جلستا صامتتين على جذع شجرة ساقط جاف، تستمعان للريح التي تصفر بين تيجان الأشجار، وإلى نقار الخشب الذي كان ينقر بعناد في مكان قريب. كانت سيرى جائعة، ولعابها يزداد كثافة من العطش. لكنها كانت تعلم أن الشكاوى لن تُجدي نفعًا. قبل شهر، كانت ينيفر تستجيب لمثل هذه الشكاوى بمحاضرة جافة في فن السيطرة على الغرائز البدائية، وبعد ذلك كانت تكتفي بالتخلص منها بصمت مغلّف بالتجاهل. وكذلك كانت الاحتجاجات قليلة المنطق، ولم يكن لها كبير تأثير، ومن ذلك إبداء الامتناع عند مخاطبتها بـ«دميمة».

اقتلعتِ الساحرة آخرَ شوكة أرقطيون من كُمها. فكرتُ سيرى: بعد قليل ستسأل عن شيء ما، أستطيع سماع ما يدور في خلدها. ستسألني من جديد عن شيء لا أتذكره. أو عن شيء لا أريد أن أتذكره. لا، هذا لا معنى له. لن

أجيب. ذلك كان في الماضي، ولا عودة إلى الماضي. هي نفسها قد قالت ذلك ذات مرة...

- حدثيني عن والديك، يا سيري.

- لا أتذكرهما، يا سيدة ينيفر...

- تذكرني. أنا أطلب منك هذا.

قالت بصوت خافت، طائعة الأمر: «أبي، حقًا لا أتذكره... فقط... بمشقة بالغة. أمي... أمي نعم. كان شعرها طويلًا، أي هكذا... وكانت دائمًا حزينة... أتذكر... لا، لا أتذكر شيئًا.

- تذكرني، أرجوك.

- لا أتذكر!

- انظري إلى نجمتي.

كانت النوارس تصرخ وهي تنقضُّ إلى الأسفل بين قوارب الصيادين، حيث كانت تلتقط الفضلات والأسماك الصغيرة التي تُرمى من الصناديق. حرَّكت الريح بدعة أشرعة الفلاّك المنكّسة، وزحف الدخان فوق المرسى، مختنقًا برذاذ المطر. جرَّت قوارب حربية نحو الميناء قادمة من سينترا، ولمعتِ الأسود الذهبية على الرايات الزرق. ركع العم كراش فجأة على ركبة واحدة، وكان يقف بجانبها ووضع على كتفها كفه الكبيرة كمخالب الدب. وكان المحاربون المنتظمون في صفوف عدّة يضربون بسيوفهم على تروسهم بإيقاع منتظم.

على الجُسير البحري، سارت نحوهم الملكة كالانثي. جدتها. تلك التي كانوا يسمونها رسميًا في جزر اسكيليج «أرد رهيّنا»، الملكة العليا. لكن العم كراش آن كرايت، يارل اسكيليج، رُحِب بلبؤة سينترا، وكان لا يزال راکعًا برأسه المحني، مخاطبًا إياها بلقب أقل رسمية، لكنه أكثر تشریفًا، كما يراه سكان الجزر.

- بوركت، يا مودرون.

قالت كالانثي بصوت بارد ومهيب، دون أن تنظر إلى اليارل بتأتًا: «أيتها الأميرة. تعالي إليّ، تعالي إليّ هنا، يا سيري».

كانت كف جدتها قوية وصلبة كيّد رجل، وخواتمها باردة كالجليد.

- أين إيست؟

تلعثم كراش: «الملك... إنه في البحر، يا مودرون. يبحث عن الحطام... والجثث. منذ الأمس...».

صرخت الملكة: «لماذا سمح لهم بذلك؟ كيف كان له أن يتيح لهم ذلك؟ كيف كان لك أن تتيح لهم ذلك، يا كراش؟ أنت يارل اسكيليج! لا يحق لأي فلوكة أن تبحر دون إذنك! لماذا سمحت لهم، يا كراش؟».

خفض العم رأسه ذا الشعر الأحمر أكثر.

قالت كالانثي: «الخيول! لنذهب إلى الحصن. وغداً عند الفجر سأغادر مبحرةً. سأخذ الأميرة إلى سينترا. لن أسمح لها بالعودة هنا أبداً. وأنت... أنت مدين ديناً لعينا، يا كراش. سأطلب منك سداه يوماً ما».

- أعلم، يا مودرون.

- إذا لم أستطع المطالبة به، ستفعل هي ذلك (نظرت كالانثي إلى سيري). ستسد دينك لها، أيها اليارل. أنت تعلم كيف.

نهض كراش آن كرايت، ثم استقام وأصبحت ملامح وجهه الكالحة أصلب. بحركة سريعة، سحب سيفه من غمده، سيفه الفولاذي البسيط المجرد من النقوش، وكشف عن ساعده الأيسر المليء بندوب بيضاء خشنة.

نبرت الملكة: «لا داعي للحركات المسرحية. وقُرْ دمك. قلتُ لك: يوماً ما. تذكر!».

- *Aen me Gla'eddyv, zvaere a'Bloedgeas, Ard Rhena, Lionors aep Xindra!*

رفع يارل جزر اسكيليج، كراش آن كرايت، يديه وهزّ بسيفه. زأر المحاربون بصوت أجشّ وضربوا على تروسهم بأسلحتهم.

- قبلتُ القسم. قُدتا إلى الحصن، أيها اليارل.

تذكرتُ سيري عودة الملك إيست، ووجهه المتحجر والشاحب. وصمتت الملكة. تذكرتُ الوليمة الكثيبة والمروعة، كان ذئاب اسكيليج البحريون المتوحشون الملتحون ينتشون من الشراب ببطء، وسط صمت مرعب. تذكرتُ الهمسات. جياس مويري... جياس مويري!⁽¹⁾

(1) عبارة ليست من اللغة البولندية، ويعني بها الكاتب «لعنة البحر»، تكتب هكذا: *Geas Muire*.

تذكرتُ دَفَقَاتِ الجِعةِ الداكنةِ على الأرضيةِ، والقرونِ المتحطمةِ على الجدرانِ الحجريةِ للقاعةِ في انفجاراتِ الغضبِ اليائسِ والعاجزِ والفاقدِ للمعنى. جياس مويري! بافيتا!

بافيتا، أميرة سينترا، وزوجها الأمير دوني. والدا سيرى. اختفيا. لقيّا حتفهما. قتلتهما جياس مويري! لعنة البحر. ابتلعتهما العاصفة التي لم يتنبأ بها أحد. العاصفة التي ما كان لها أن تحدث...

أدارت سيرى رأسها حتى لا ترى ينيفر الدموع التي ملأت عينيها. لم كل هذا؟ فكّرت. لم هذه الأسئلة، هذه الذكريات؟ لا عودة إلى الماضي. لم يعد لديّ أحد منهم. لا أبي، ولا أمي، ولا جدتي التي كانت أرد رهينا، لبؤة سينترا. العم كراش أن كرايت ربما يكون قد لقي مصرعه أيضًا. لم يعد لديّ أحد، وأنا الآن شخص آخر. لا عودة...

ظَلَّتِ الساحرة صامتة، غارقة في التفكير.

- سألت فجأة: «هل بدأت أحلامك آنذاك؟».

- لا (فكرت سيرى). لا، ليس آنذاك. بل بعد ذلك بمدة.

- متى؟

جَعَدَتِ الصبية أنفها.

- في الصيف... المنصرم... لأن الحرب كانت قائمة في الصيف اللاحق...

- أها. هذا يعني أن الأحلام بدأت بعد أن التقيت جيرالت في بروكلون؟

أومأت برأسها. قررت: لن أجيب عن السؤال التالي. لكن ينيفر لم تطرح سؤالاً. نهضت بسرعة، ورنت إلى الشمس.

- حسنًا، كفى هذا الجلوس، يا دميمة. لقد بدأنا نتأخر. لنواصل البحث.

يدك أمامك مسترخية، لا تشدّي أصابعك. إلى الأمام.

- إلى أين يجب أن أذهب؟ في أي اتجاه؟

- لا فرق.

- هل العروق المائية في كل مكان؟

- تكاد تكون كذلك. ستتعلمين كيفية اكتشافها، والعثور عليها في الأرض،

والتعرّف بمثل هذه النقاط. ما يميزها وجود الأشجار الجافة، والنباتات

القرزمة، والأماكن التي تتجنبها الحيوانات كلها. باستثناء القطط.

- الققط؟

- الققط تحب النوم والاستراحة على الشقوق. تدور حكايات كثيرة عن الحيوانات السحرية، لكنَّ الحقيقة أن الققط هو المخلوق الوحيد، إذا استثنينا التنين، الذي يمكنه امتصاص القوة. لا أحد يعلم لأي غرض يمتصها الققط، وكيف يستخدمها... ماذا حدث؟

- أوووو... هناك، في ذلك الاتجاه! أعتقد أن شيئاً ما هناك! وراء تلك الشجرة!

- سيرى، دعك من التخيلات. يمكن أن يحس الشخص بالشقوق وهو واقف فوقها... هممم... هذا مثير للاهتمام. ويمكنني القول إنه غير عادي. هل تشعرين فعلاً بالتيار؟

- نعم، فعلاً!

- لنذهب إذن. هذا مثير، مثير... هيا، حددي الموقع. أريني أين.

- هنا! في هذا المكان!

- أحسنت. ممتاز. هل تشعرين بتشنجات خفيفة في البنصر؟ هل ترين كيف ينثنى إلى الأسفل؟ تذكرى، هذه هي إشارة.

- هل يمكنني أن أستمدها؟

- انتظري، سأتحقق من ذلك.

- سيدة ينيفر؟ كيف يكون أمر هذا الاستمداد؟ إذا استدررتُ القوة إليّ، فقد تنضب هناك في الأسفل. هل هذا مسموح؟ علمتنا الأم نينيكى أن من غير المسموح أن نأخذ شيئاً هكذا، بدافع النزوة. حتى ثمار الكرز الحامض يجب تركها على الأشجار للطيور، ولتسقط ببساطة وحدها.

احتضنتها ينيفر، وقبلتها بدعة على شعرها عند الصدغ.

غمغمت: «أتمنى لو يسمع الآخرون ما قلته. فيلجفورتز، وفرانسييسكا، وتيرانوفا... أولئك الذين يعتقدون أنهم يمتلكون الحقوق الحصرية للقوة، ويمكنهم استخدامها دون قيود. أتمنى لو يستمعون للدميمة الصغيرة الحكيمة من معبد مليتيلي. لا تخافي، يا سيرى. من الجيد أنك تفكرين في ذلك، لكنَّ صدقيني، القوة كافية. لن تنفد. إنها أشبه ما تكون بأن تقطفي كرزاً واحدة، لا أكثر، من بستان كبير».

- هل يمكنني الآن أن استمدها؟
- انتظري. أوه، إنه عش قوي قوة جهنمية. ينبض بقوة هائلة! احذري، أيتها الدمية. استمدي القوة بحذر، وببطء شديد جدًا، جدًا.
- أنا لا أخاف! بُم بُم! أنا ويتشرية! ها! أحس بها! أحس... أوووووه! سيدة... ي... نننن... يبييفر...
- اللعنة! حذرتكِ! قلتُ لك! رأسكِ إلى الأعلى! إلى الأعلى، قلتُ لك! خذي، ضعي هذا على أنفكِ، وإلا تلوّثِ بالدم! الهدوء، الهدوء، يا صغيرتي، لكن لا تفقدي الوعي. أنا معكِ. أنا معكِ... يا بُنيتي. أمسكي المنديل. سأستحضر الجليد بالسحر بعد لحظات...



حدَثَ شجارٌ كبيرٌ حول موضوع الدم القليل النازف من الأنف. لم تتحدَّثَ ينيفر ونيينكي إحداهما إلى الأخرى طوال أسبوع.

خلال هذا الأسبوع، ارتاحتُ سيرى متكاسلة، وقرأتُ الكُتُبَ، وأخذها الضَّجَرُ، لأنَّ السَّاحِرَةَ أوقفتِ الدروس. لم تَكُنِ الصبية تراها كل نهار، إذ كانت ينيفر تختفي في الفجر وتعود في المساء، تنظرُ إليها نظراتٌ غريبة، وصارت قليلة الكلام على نحو غريب.

بعد أسبوع، ملَّتُ سيرى من هذه الحال. في المساء، عندما عادتِ السَّاحِرَةُ، دنت منها دون أن تنطق بكلمة، وعانقَتْها بقوة.

ظَلَّتْ ينيفر صامتة برهة. لم تَكُنِ مضطرةً إلى الكلام، فأصابعُها التي تمسَّكَتْ بأكتافِ الفتاة، كانت تتحدَّثُ عوضًا عنها.

في اليوم التالي، تصالحتُ كبيرة الكاهنات والسَّاحِرَةَ بعد حوارٍ طويلٍ دام ساعاتٍ عدَّة.

وعندئذٍ، عادَ كلُّ شيءٍ إلى طبيعته، جالبًا الفرح العظيم لسيرى.



- انظري إلى عَيْنَيَّ، يا سيرى. قليل من الضوء. هيَّا الصيغة، من فضلك!
- Aine verseos!
- رائع. انظري إلى يدي. هيَّا الحركة نفسها وتشتيت النور في الهواء.

- رائع. وما الحركة التي يجب فعلها الآن؟ نعم، تلك هي بالضبط. جيد جدًا. قوِي الحركة واستمدي القوة. أكثر، أكثر، لا تتوقفي!
- أووووه...

- ظهرك مستقيم! يداك علي جانبي جسمك! كفاك مُسترخيتان، إياك وأي حركة زائدة بأصابعك، كلُّ حركة قد تُضاعِف التَّأثير، أترِيدِينَ أَنْ يَشْتَعِلَ حريقُ هُنا؟ زيدي القوة، ماذا تنتظرين؟
- أووووه، لا... لا أستطيع...

- استرخي وتوقفي عن الاهتزاز! استمدي القوة! ماذا تفعلين؟ حسنًا، الآن أفضل... لا تُضعِفي إرادتك! تسرعين كثيرًا في تصعيد تنفسك! تُحمِّين نفسك دونَ داعٍ! أَبْطِئي، يا دميمة، واهدئي أكثر. أَعْلَمُ أَنَّ الأمرَ غَيْرُ مُريح. ستعودين.
- أَلَمْ في... بطني... أوه، هُنا...

- أَنْتِ امرأة، هذه رَدَّةُ فعلٍ عادية. ستتقوى مناعتك بمرور الوقت. لكنْ لاكتساب المناعة، عليكِ أَنْ تتدربي دونَ العائق المضاد للألم. هذا ضروري حقًا، يا سيري. لا تخشي شيئًا، أنا أُرعاكِ وأحميك. لا يمكن أن يحدث لك شيء. لكنْ عليكِ أَنْ تتحمَّلي الألم. تنفَّسي بهدوء. رَكِّزي انتباهك. الحركة، من فضلك. ممتاز. وخذي الطَّاقة، استمديها، استخرجيها... جيد، جيد... بقي القليل...
- أوه... أوه... أووووووه!

- أَلَا تَرَيْنَ؟ تستطيعين إذا أردتِ. الآن راقبي راحة يدي. بدقَّة. نفَّذي الحركة نفسها. الأصابع! الأصابع، سيري! انظري إلى كُفي، لا إلى السَّقْف! لا بأس الآن، نَعَمْ، جيد جدًا. ضَمِّيها. الآن العكس، اعكِسي الحركة وأطلقِي القوة على هيئة ضوء أقوى.
- ييببي... ييببيك... إيببي...

- توقفي عن التَّأوُّه! تماَلْكي نفسك! هذا تشنُّج! سيزول حالًا! افردي أصابعكِ أَكْثَر، اهدئي، أخرجي ذلك من داخلكِ! أبطأ من ذلك، اللَّعنة، وإلَّا ستنفجر أوعيتكِ الدَّمَوِيَّةُ مِنْ جديد!

- يبييئئئئئئك!

- هذا أعنف من اللازم، يا دميمة، ولا يزال أعنف من اللازم. أعلمُ أنَّ القوة تشد لتقلت إلى الخارج، لكنْ عليك أن تتعلمي التحكم فيها. ممنوع أن تسمحي بمثل هذه الانفجارات التي حدثت قبل قليل. لولا أنني لم أعزلك، لَسببت فوضى عارمة هنا. هيّا، مرة أخرى. نبدأ من الأول. الحركة والصيغة.

- لا! لا! لَمْ أَعُدْ أَسْتَطِيع!

- تنفّسي ببطء، توقّفي عن الاهتزاز. هذه المرة أصبح الأمر هيسثيريا لا أكثر، لن تخدعيني. تمالكِ نفسك، ركّزي انتباهك، وابدئي.

- لا، أرجوك يا سيدة ينيفر... هذا يؤلمني... لستُ على ما يرام...

- لكن دونَ دموع، يا سيري. لا شيء يمكن أن يكون أقبح من منظر ساجرة باكية. لا شيء يمكنه أن يُثير الشفقة أكثر منه. تذكّري ذلك. لا تنسيه أبداً. مرة أخرى، من البداية. التعويذة والحركة. لا، لا، هذه المرة دون تقليد. ستفعلين ذلك وحدكِ. هيا، اشحذي ذكرك!

- أووووه! *Aine verseos... Aine aen aenye*...

- حركة خاطئة! سريعة أكثر من اللازم!



فَرَّ السّحر في داخلها كنصلٍ سهم من حديد ذي خطاف. جرحها جرحاً عميقاً. أوجعها. أوجعها بذاك النوع العجيب من الألم، الذي يشبه اللذة شبهاً غريباً.



جرتا في الحديقة مجدداً من أجل الاسترخاء. أصرّت ينيفر على أن تسلمها نينيكي سيفَ سيري من مستودع الأمانات، وأتاحت للصبية التدريب على الخطو، وتحاشي الضربات والهجمات، وطبعاً بطريقة لا تتيح للكاهنات والمُتدربّات رؤية ذلك. ولكنّ السحر كان حاضراً في كلِّ مكان. تعلمت سيري كيف يمكنها، بتعويذات بسيطة وبتركيز الإرادة، أن تُرخي العضلات، وتقاوم التشنّجات، وتضبط الأدرنالين، وتتحكم في التيه العظمي والعصب المُبهم،

وكيف تُبْطِئُ أو تُسْرِعُ النَّبْضَ، وكيف تُحَرِّرُ نَفْسَهَا مِنَ الْاِحْتِيَاجِ إِلَى الْأَكْسُجِينِ لحظات قصيرة.

كانت السَّاحرة تعلم الكثير عن سيف الويتشر و«رقصته». كانت تعلم الكثير عن أسرار كاير مورهين، لَا شَكَّ أَنَّهَا زارت الحصن مرات. وعرفت فيسمير وإسكيل. ولم تعرف لامبرت وكوئين.

لقد زارت ينيفر كاير مورهين. خمنتُ سيري الأسباب التي تجعل عَيْنَي السَّاحِرة، عند الحديث عن الحصن، دافئتين وتفقدان التوهج الشرير والعُمق البارد والمحاييد والحكيم. لو كانت تلك الكلمات تناسب شخصية ينيفر، لَسَمَتَهَا سيري حينئذ بالحالمة، الغارقة في الذكريات. خمنت سيري الأسباب.

ثمة موضوع كانت الصبية تتجنبه غريزياً وبحرص. ولكنها تسرعت في إحدى المرات وتحدثت. عن تريس ميريجولد. ينيفر التي تظاهرت بعدم الاهتمام، وعدم الاكتراث، والحياد، وطرحتُ أسئلة متتابعة تافهة ظاهرياً، استخرجتُ منها بقية المعلومات. كانت عيناها صلبتين، وعصيتين على الاختراق.

خمنت سيري الأسباب. وللعجب، لم تُعِدْ تشعر بالانزعاج. لقد هذأها السحر.



- ما تسمى بعلامة آراد، يا سيري، هي تعويذة بسيطة جداً من مجموعة السحر بالتحريك العقلي، تقوم على دفع الطاقة في الاتجاه المطلوب. قوة الدفع تعتمد على تركيز إرادة المستخدم والطاقة المستخرجة. ويمكن أن تكون كبيرة. لقد تبني الويتشريون هذه التعويذة، مستفيدين من حقيقة أنها لا تتطلب معرفة صيغة سحرية محددة؛ ويكفيها التركيز والإشارة الحركية. لهذا سُمُوها علامة. لا أعلم من أين أخذوا التسمية، ربما من لغة القدماء، إذ تعني كلمة «آراد»، كما تعلمين، «الجبل»، أو «العالي» أو «الأعلى». إذا كان الأمر كذلك، فإن التسمية مضللة جداً، فمن الصعب الحديث عن سحر أسهل من التحريك العقلي. نحن، طبعاً، لن نضيع الوقت والطاقة على شيء بدائي مثل هذه العلامة الويتشرية.

سنتدرب على سحر التحريك العقلي الحقيقي. سنتمرن على هذه... أوه، على هذه السلة المرمية تحت شجرة التفاح. ركزي انتباهك.

- جاهزة.

- أنت تسرعين في تركيزك. أذكرك: اضبطي استهلاك الطاقة. لا تستهلكي إلا قدرَ ما أخذتِ. إذا استهلكِ أكثر، ولو قليلاً، فقد فعلت ذلك على حساب جسمك. مثل هذا الجهد يمكن أن يفقدك وعيك، حتى إنه قد يقتلك في الحالة القصوى. أما إذا استهلكِ كل ما أخذتِ، فستفقدين القدرة على التكرار، وسيتعين عليكِ استمداد القوة مرة أخرى، وكما تعلمين، فهذا ليس سهلاً فحسب، بل مؤلم أيضاً.

- أووه، أعلم!

- غير مسموح لك إضعاف تركيزك، والسماح للطاقة بأن تنفلت منك من تلقاء نفسها. اعتادت معلمتي أن تقول إن إطلاق القوة يجب أن يجري، كأنك تطلقين ضربة في قاعة الرقص: برفق، بروية، وتحت السيطرة. وبطريقة لا تجعل الآخرين يدركون أنك أنتِ الفاعل. تفهمين؟

- أفهم!

- استقيمي. توقفي عن الضحك. أذكرك بأن التعويذات أمر جدّي. تُلقى في وضعية بمنتهى الرشاقة، بل والاعتزاز أيضاً. تُنفذ الحركات بسلاسة، لكنّ باعتدال. بكرامة. دون إبداء تعابير سخيفة على الوجه، دون تجهم، دون إخراج اللسان. تتحكمين في قوة الطبيعة، فأظهري للطبيعة الاحترام.

- حسناً، سيده ينيفر.

- انتبهي، هذه المرة لن أحميك. أنتِ ساحرة مستقلة الآن. هذا هو أول ظهور لك، يا دميمة. هل رأيتِ دورق النبيذ ذلك، على الخوان؟ إذا تكلل أول ظهور لك بالنجاح، فمعلمتك ستشربه مساء هذا اليوم.

- وحدكِ؟

- لا يُسمح للتلميذ بشرب النبيذ إلا بعد أن يُجاز كصانع ماهر. عليكِ الانتظار. أنتِ جيدة الفهم، لذا بقي أمامكِ ما يقارب العشر سنوات،

لا أكثر. حسنًا، لنبدأ. ضمي أصابعك. ويدك اليسرى؟ لا تلوحى بها! اتركها مسترخية أو اسندتها إلى وركك. أصابعك! جيد. هيا، أطلقى.
- آآآ...

- لم أطلب منك إصدار أصوات. أطلقى الطاقة. فى صمت.

- هاه، ها! لقد قفزت! قفزت السلة! هل رأيت؟

- لم يكذب يتحرك. سيرى، إن الاقتصاد فى الطاقة لا يعنى الضعف. والتحرك العقلى لا يُستخدم إلا لهدف محدد. حتى الويتشرون يستعملون علامة أراد ل طرح الخضم أرضًا. الطاقة التى أطلقها لن تسقط حتى قبعة الخضم. مرة أخرى، بقوة أكبر. بجرأة!

- ها! لقد طارت! كان الأمر جيدًا؟ أليس كذلك؟ سيدة ينيفر؟

- هممم... سنُهرعين لاحقًا إلى المطبخ وتسرقين بعض الجبن لنبيذنا... كان الأمر جيدًا على وجه التقريب. على وجه التقريب. هيا بقوة أكبر، يا دميمة، لا تخافى. التقطى السلة من الأرض واضربى بها بعزم على حائط ذلك الكوخ، حتى يتطاير الريش. لا تحنى ظهرك! ارفعى رأسك! برشاقة، لكن باعتزاز! بجرأة، بجرأة! أوه، يا للجنة!

- أواه... معذرة، يا سيدة ينيفر... أظن... أننى أطلقت طاقة أكثر قليلًا...

- قليلًا. لا تقلقى. تعالى إليّ هنا. هيا، يا صغيرتى.

- و... والكوخ؟

- يحدث مثل هذا. لا شيء يستدعى القلق. عمومًا، يتعين تقييم أول ظهور لك تقييمًا إيجابيًا. والكوخ؟ لم يكن كوخًا جميلًا إطلاقًا. لا أعتقد أن أحدًا سيفتقده كثيرًا فى خلفية المشهد. مهلاً سيداتى! اهدأن، اهدأن، لماذا كل هذا الاضطراب والضجة، لم يحدث شيء! لا داعى للتوتر، يا نينيكى! لم يحدث شيء، أكرر. يجب ترتيب هذه الألواح الخشبية، ببساطة. سنحتاج إليها وقودًا للتدفئة!



فى أثناء أوقات ما بعد الظهر الدافئة، التى لا تهب فيها الرياح، كان الهواء يتكثف جرّاء عقب الزهور والأعشاب، وينبض بالهدوء، والسكون الذى يقطعه طنين النحل والجعلان الكبيرة. فى مثل هذه الأوقات، فى ما بعد

الظهر، كانت ينيفر تنقل كرسي نينيكي الخيزراني إلى الحديقة، تجلس عليه وتمدُّ ساقها بعيدًا أمامها. أحيانًا كانت تدرس الكتب، وأحيانًا أخرى تقرأ الرسائل التي تتلقاها بوساطة رسل غربيين عجيبين، جُلُّهم من الطيور. وفي بعض الأحيان كانت تجلس محدّقة إلى الأفق فحسب. تتنهي بيد واحدة شعرها الأسود اللامع وهي شاردة الذهن، وتداعب بيدها الأخرى رأس سيري الجالسة على العشب، مستندة إلى فخذ الساحرة الدافئ والصلب.

- سيدة ينيفر؟

- أنا هنا، يا دميمة.

- قل لي، هل يمكن بمساعدة السحر فعل كل شيء؟

- لا.

- لكن يمكن فعل الكثير، أليس كذلك؟

أغلقت الساحرة عينيها لحظة، ولمست جفنيها بأصابعها: «صحيح. كثير جدًا».

- شيء عظيم حقًا... شيء فظيع! فظيع جدًا؟

- أحيانًا أكثر مما نريد.

- هممم... وهل أنا... متى سأكون قادرة أن أفعل شيئًا مثل هذا؟

- لا أدري. ربما لن تقدر أبدًا. وعساك ألا تُضطرّري إلى ذلك أبدًا.

سكون. صمت. حرارة. رائحة زهور وأعشاب.

- سيدة ينيفر؟

- وماذا تريدن مجددًا، يا دميمة؟

- كم كان عمرك عندما أصبحت ساحرة؟

- هممم... عندما اجتزت الامتحانات التمهيدية؟ ثلاثة عشر عامًا.

- ها! هذا مثل عمري الآن! وكم... كم كان عمرك عندما... لا، لن أسأل عن

ذلك...

- ستة عشر عامًا.

احمر وجه سيرى قليلاً، وتظاهرت باهتمام مفاجئ بسحابة ذات شكل غريب، معلقةً عاليًا فوق أبراج المعبد: «أها... وكَم كان عمركِ... عندما تعرّفتِ جيرالت؟».

- أكثر، يا دميّة. أكثر قليلاً.

- لا تزالين تسمينني بالدميّة! تعلمين أنّي أكره ذلك كرهًا شديدًا. لماذا تفعلين ذلك؟

- لأنني خبيثة. الساحرات دائماً ما يكنّ خبيثات.

- وأنا لا أريد... لا أريد أن أكون دميّة. أريد أن أكون جميلة. جميلة حقًا، مثلك تمامًا يا سيّدة ينيفر. هل يمكنني يومًا ما، بفضل السحر، أن أصبح فاتنة مثلك؟

- أنتِ... من حسن الحظ، غير مضطّرة... لا تحتاجين إلى السحر من أجل ذلك. أنتِ لا تعلمين كم أنتِ محظوظة لأنكِ لا تحتاجين إليه.

- لكنني أريد أن أكون جميلة حقًا!

- أنتِ جميلة حقًا. دميّة جميلة حقًا. دميّتي الجميلة...

- أوّه، سيّدة ينيفر!

- سيرى، ستسببين الكدمات على فخذي.

- سيّدة ينيفر؟

- نعم؟

- إلّاّ تنظرين؟

- إلى تلك الشجرة. إنها زيزفونة.

- وما المثير فيها؟

- لا شيء. ببساطة، أمتع ناظرِي بمنظرها. ما يفرحني أنّني... أستطيع رؤيتها.

- لا أفهم.

- هذا جيد.

- سكون. صمت. جو خانق.

- سيّدة ينيفر!

- ماذا تريدین مجدداً؟
- عنكبوت تسیر تجاه ساقك! انظري، يا له من شيء قبيح!
- العنكبوت عنكبوت.
- اقتليها!
- لا أرغب في الانحاء.
- إذن، فاقتليها بتعويذة!
- على أرض معبد مليتيلي؟ كي تطردنا نينيكى، كلتينا، دون رحمة؟ لا، شكرًا. والآن اصمتي. أريد أن أستغرق في التفكير.
- فيمَ تفكرين هكذا؟ هممم. حسنًا، سأصمت الآن.
- لا أستطيع أن أعبر عن سعادتي العظيمة. فقد كنتُ قلقَةً أنك ستطرحين عليّ أحد أسئلتك التي لا تُضاهى.
- ولمَ لا؟ أحب إجاباتك التي لا تُضاهى!
- بدأتِ تصيرين وقحة، يا دميمة.
- أنا ساحرة. الساحرات وقحاتٌ وخبيثاتٌ.
- سكون. صمت. الهواء ساكن. الجو خانق كما قبل العاصفة. والصمت يقطعه هذه المرة نعيق بعيد لغربان وزيان.
- رفعت سيري رأسها: «يزداد عددها أكثر فأكثر. تطير وتطير... كما في الخريف... طيور قبيحة... تقول الكاهنات إن ذلك علامة شؤم... نذير، أو شيء من هذا القبيل. ما هو النذير، يا سيدة ينيفر؟».
- اقرئي دهُو دفيمرمورك. فيه فصل كامل عن هذا الموضوع.
- صمت.
- سيدة ينيفر...
- تبًا. وماذا مجدداً؟
- لماذا جيرالت تأخر هكذا... لماذا لا يأتي؟
- ربما نسيك، يا دميمة. وجد صبية أجمل منك.
- أوه، لا! أعلم أنه لم ينسَ! لا يمكن! أعلم ذلك، أعلم ذلك يقينًا، يا سيدة ينيفر!

- جيد أنكِ تعلمين ذلك. أنتِ دميمة محظوظة.



كررت: «لم أحبك».

ينيفر لم تنظر إليها، كانت لا تزال تدير ظهرها، واقفة عند النافذة، ترنو تجاه التلال التي أخذت تسودُ في الشرق. أظلمت السماء فوق التلال جرّاء أسراب الغربان والزيغان.

فكرت سيري: ستسألني في الحال لماذا لم أحبها. لا، هي أذكى من أن تطرح مثل هذا السؤال. ستلفت الانتباه بجفاف إلى الصيغة النحوية، وستسأل منذ متى بدأتُ باستخدام الزمن الماضي. وسأخبرها بذلك. سأكون أيضًا جافةً مثلها، سأحاكي نبرتها، ولتعلم أنني أستطيع أن أتناظر بالبرود، وانعدام الحنان والحياد، وبأنني أخجل من التعبير عن الشعور والعواطف. سأقول لها كل شيء. أريد ذلك، ويجب أن أخبرها بكل شيء. أريد أن تعلم كل شيء، وقبل أن يغادر معبد مليتيلي. قبل أن يغادر لئلا تلتقي أخيرًا من أتشوق إليه. من أتشوق إليه هي. من على الأرجح يتشوق إلينا كلتيهما. أريد أن أقول لها إن... سأقول لها ذلك. سيكفيني أن تسأل.

استدارت الساحرة عن النافذة وابتسمت. لم تسأل شيئًا.



غادرتا باكراً صبيحةً اليوم التالي. ارتدت كلتاها ملابس سفر رجالية، معطفين وقبعتين، وغطاءي رأس يخفيان شعرهما. كلتاها مسلحتان. لم يودعهما أحد سوى نينيكي. تحدثت إلى ينيفر طويلاً وبهدوء، ثم تصافحتا، الساحرة والكاهنة بشدة، وشدّت كل منهما على يد الأخرى كالرجال. أرادتُ سيري، وهي ممسكة بزمام فرسها البرشاء، أن تودع نينيكي بالطريقة نفسها، لكنها لم تسمح لها بذلك. احتضنتها، وعانقتها، وقبلتها. ودمعت عيناها. وكذلك سيري.

قالت الكاهنة أخيرًا، وهي تمسح عيناها بكم رداها: «حسنًا. اذهبا الآن. لتحرسكما مليتيلي العظيمة في طريقكما، يا حبيبتَي. ولكنَّ الإلهة تتزاحم

على عاتقها الكثير من الأمور، لذا احرصا على حماية نفسيكما أيضًا. اعتني بها، يا ينيفر. احميها كحدقة عينك».

ابتسمت الساحرة قليلاً: «آمل أن أتمكن من حمايتها على نحو أفضل». حلقت في السماء أسراب الزيغان باتجاه وادي بونتار، ناعقة بصخب. لم تنظر نينيكي إليها.

كررت: «انتبها إلى نفسيكما. أوقات عصيبة قادمة. قد يثبت أن إثلين أيب أيفينين كانت تعلم ما تتنبأ به. زمن السيف والفأس قادم. زمن الاحتقار وعاصفة الذئاب. احرصى عليها، يا ينيفر. لا تدعي أحداً يؤذيها».

قالت سيرى، وهي تقفز إلى السرج: «سأعود إلى هنا. يا أمي. سأعود هنا، يقينا! قريباً!».

لم تكن تعلم كم كانت مخطئة.

مكتبة

t.me/soramnqraa



تُرجمت بدعم من برنامج الترجمة البولندي

الويتشر دماء الإلفيين

سيرى، الأميرة التي نجت من مذبحة سينترا التي ارتكبتها الجيش
النيلفجاردى، تتدرب في قلعة الويتشريين، وتتهيا لتكون ويتشرية. لكن
يتضح أن لديها أيضًا موهبة سحرية يتعذر تفسيرها، وتنتابها رؤى
غريبة. يستدعي الويتشريون الساحرة تريس. بيد أن قدراتها لم تكن
كافية لكي تتمكن من تدريب سيرى، لذا تقترح وضعها تحت رعاية
الساحرة ينيفر وإرسالها إلى مدرسة دير للفتيات تديرها الأم نينيكي.

ومن هنا تبدأ مشاعر المحبة تتكون من جيرالت وينيفر إلى سيرى.
فكلاهما غير قادر على إنجاب الأطفال، ويعاملان
سيرى على أنها ابنة لهما. يتضح أيضًا أن سيرى
تتمتع بقدرات سحرية هائلة لا تملك السيطرة
عليها، ولكنها تفوق كل ما سمعوا به من قبل،
لتأتي كطفلة معجزة لتحقيق النبوءة التي انتظرها
جيرالت لتغيير العالم.



غلاف: محمود هشام

مكتبة
t.me/soramnqraa



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb